المجتمع السوري في عصر البرينتسيبات

القرن ١ - ٣م

ترجمة : د . حسان اسحق

مقدمة

بعد معركة اكتيوم التي وقعت في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الاول قبل الميلاد دخلت بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط مرحلة جديدة من تاريخها بعد أن وحدتها روما بحد السيف في دولة واحدة عظمى . وهكذا انتهى عهد الحروب الاهلية الطاحنة التي عانت منها هذه البلدان طويلا . لقد أقام الرومان السلام الذي ينشده الجميع وقمعوا بيد من حديد شعوب المنطقة التي لا تلين ولا تقهر ، وأحلوا الهدوء والنظام . ولكن أحداث الستينات من القرن الاول بعد الميلاد (الصراع على السلطة في روما بعد مقتل نيرون ، انتفاضة تسيفيلين) أثبتت ضعف هذا النظام وعدم قدرته على الثبات . ومع ذلك فقد استطاعت الامبراطورية أن تخرج من الازمة أكثر قوة وثباتا وذلك بسبب توسيع القاعدة الاجتماعية للسلطه الامبراطورية . فاذا كانت السلطة الرومانية سابقا قد تعاملت مع الشعوب الخاضعة لها كمصدر للسلب والنهب واصطياد العبيد فقد أصبحت الآن تسعى إلى كسب ود الفئات العليا من هذه الشعوب وادخالها في عداد أولئك الذين يمارسون السلطة ويتمتعون بثمارها – تلك هي السياسة التي رسمت خطوطها الأولى في عهد آل يوليوس – كلافديوس . كما كان للمساومة التي تم عقدها بين الأباطرة والارستقراطية الرومانية المحافظة أهمية خاصة . حيث كانت أولى نتائج هذه المساومة ازدهار المدن وتنشيط التجارة والأعمال الحرفية وبالتالي تراكم الثروات . ومع ذلك تبدو للوهلة الأولى غريبة وغير متوقعة تلك الأزمة الأجتماعية – الإقتصادية الحادة الطويلة والتي خرجت منها الإمبراطورية الرومانية . وقد تغيرت تغيراً جوهرياً .

ولكي نحدد طابع هذا التحول الجذري وأسبابه ونرسم طرق عبور المجتمع الروماني من البرينتسبات إلى الدومينات ولكي نفهم جوهر هذه العملية وبالتالي حتمية الإنتقال من المجتمع العبودي القديم إلى المجتمع القروسطوي الإقطاعي لابد من دراسة عملية التطور الإجتماعي – الإقتصادي للامبراطورية الرومانية في القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وهذا يفسر الإهتمام الذي تحظى به هذه المسألة وهنا بالذات تكمن أهميتها . لقد أصبحت دراسة هذا الموضوع ذات أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الوصفي الماركسي خاصة بعد أن اتضحت لا علمية المقولة الشهيرة عن ثورة العبيد والتي قيل إنها هي التي أودت بالإمبراطورية الرومانية إلى الهلاك ومعها الحضارة الهلنستية – الرومانية .

يعالج هذا البحث التاريخ الإجتماعي - والإقتصادي لسورية في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث الميلادي ضمناً . ومن المعروف أن هذه البلاد تقع في ملتقى أهم الطرق التجارية والعسكرية في منطقة الشرق الأوسط ، وهي تتمتع بأهمية إقتصادية وعسكرية - سياسية خاصة . فالسيطرة عليها تعني السيطرة على كل منطقة غرب آسيا والساحل الشرقي للبحر المتوسط . وكان للتجار السوريين دور هام في تكوين الوحدة الإقتصادية والثقافية للامبراطورية إلى الحد الذي كان ممكنا آنئذٍ) . ومن جهة أخرى لم يكن من الممكن ألا تؤثر العمليات الجارية في سورية على مجريات الأمور في الإمبراطورية الرومانية كلها .

والمنطقة الجغرافية التي تهمنا في هذه الدراسة تضم مساحة واسعة من الاراضي تمتد من جنوب شرق شبه جزيرة آسيا الصغرى إلى أعالي نهر الإردن ومن الشواطىء الشمالية الشرقية للبحر المتوسط إلى وادي دجلة والفرات . ويسمح لنا المصير التاريخي المشترك أن نضم إليها منطقة شرقي الإردن الذي خضع بدوره للحضارة الهلنستية - أي المنطقة التي تضم تلك المدن اليونانية الضخمة كمدينتي وبصرى وكذلك مملكة النبطية . ومما له دلالة خاصة أن المؤرخين القدماء كانوا قد ضموا هذه المدن إلى المنطقة المسماة سورية معتمدين في ذلك ، بالطبع ، على واقع الأشياء . وفي نفس الوقت فإن فلسطين كانت تختلف في مستوى تطورها ، إلى حد ما ، عن باقي أقاليم الشرق الأوسط ولا يعود السبب الأخير في ذلك إلى أن تنظيمها الإجتماعي - السياسي يعود في أصوله إلى تنظيم العشيرة الدينية - المدنية للقدس وما يتصف به طريق التطور هذا من صراع طبقي حاد يعتبر غريباً عن مجريات الأمور في الشرق الأوسط وقد تجلى هذا الصراع في النضال الحاد الذي خاضه الفلسطينيون (ضد الإمبراطورية الرومانية) ولذلك نرى أنه من المشروع والمفيد أن نفرد بحثاً خاصاً بفلسطين .

من المعروف أن سورية تنقسم جغرافياً إلى ثلاث مناطق : الساحل الفينيقي الخصب والسلسلة الجبلية التي تسير بمحاذاة هذا الشاطىء والتي تبدأ من أعالي طوروس وتبلغ أعلى قمة لها في جبال لبنان حيث يصل ارتفاعها هنا أكثر من ثلاث كيلومترات (يقع بينها سهل البقاع حيث تنبع أهم أنهار البلاد العاصي والليطاني) ، المنطقة السهلية - خصبة في الشمال وتتحول إلى صحراء كلما توغلنا نحو الجنوب . ومثل هذا التقسيم الجغرافي نجده في التاريخ الوصفي القديم . فقد كتب سترابون (p.749)إن سورية تضم كوموجين ومنطقة سلوقية وسورية الوادي وفينيقية . وهو الذي يورد تقسيماً آخر كان شائعاً في الأدبيات الجغرافية السابقة والمعاصرة له : سورية الوادي (بما في ذلك على الأرجح ، منطقة سلوقية وفينيقية .

ويرى أبيان (prooem,2) انطلاقاً من النظرة الشائعة في عصره (القرن الثاني الميلادي) أنه من الممكن تحديد المناطق التالية : الشاطىء الفينيقي ، سورية الوادي ورمال تدمر . ومن الواضح ان الإختلاف بين ما أورده سترابون وبين ما أورده أبيان ليس جوهريا وبشكل عام فإن هذا التقسيم ينطبق مع بعض التعديلات ، على الظروف الطبيعية والوضع السياسي في سورية في الفترة من القرن الأول إلى القرن الثالث للميلاد ضمنا .

لقد كان التركيب الاثني لسكان سورية في هذه المرحلة متنوعاً جداً : الفينيقيون ، وكانوا يستوطنون الساحل ، اليونانيون ، خلفاء المستعمرين الذين أقاموا هنا عدداً من المدن الكبرى والذين سكنوا المدن الرئيسية التي بنيت هنا قبل العصر الهلنيستي ، السوريون - الآراميون - الذين تفاعلوا مع الحضارة الهلنستيه (يعود تاريخ وجودهم هنا إلى نهاية الألف الثانية ق . م . تقريباً) وهم السكان الأصليون للبلاد ، العرب - الرحل وكانوا يقطنون الصحراء وبعض المناطق الجبلية ثم تحولوا بالتدريج إلى حضر واستوطنوا عددا من المدن الكبرى(تدمر ودمشق) ، المحاربون القدماء وخلفاؤهم وكانوا يعيشون في المستعمرات التي بناها أوغسطس - بيروت بعلبك وكذلك في بعض المدن والقرى السورية الأخرى . وفي كثير من المدن السورية كانت تعيش عشائر يهودية . لقد انوجدت هذه البنية الاثنية الواسعة والمتنوعة نتيجة للتأثير الذي مارسته الحضارة الهلنستية والتي بدأ تطورها منذ القرن الثالث وحتى القرن الأول قبل الميلاد ضمناوًكذلك بتأثير انتشار اللغة والثقافة اليونانيتين(في ظل السلطة اليونانية وبدعم من ادارة المناطق وظهور العبادات السينكريتية . وأدى الإستعمار الروماني ونشر الجيوش الرومانية على الأراضي السورية وكذلك نشاط«السفير»الروماني المفوض في حكم سورية وموظفيه إلى تغلغل اللغة اللاتينية في صفوف دوائر معينة من السكان . ومع ذلك فقد استمرت اللغات المحلية وخاصة اللغة الآرامة لغة الأدب والأعمال الإدارية كما وحافظ السكان الأصليون على عاداتهم وتقاليدهم القديمة . بالطبع لم يكن لهذه العوامل مجتمعة إلا أن تؤثر على حياة المجتمع والتي كانت على العموم أكثر تعقيدا من الصورة التي تعطينا اياها المصاذر المتوفرة لدينا .

من الناحية الزمنية تقع المرحلة التي نحن بصدد دراستها في الفترة من القرن الأول إلى القرن الثالث للميلاد ضمناً ، أي تلك الفترة التي اكتمل فيها تطور أشكال ومبادىء تنظيم المجتمع والتي كانت قد وضعت أسسها في المرحلة التي سبقت فتوحات الاسكندر المقدوني

مهيئة بذلك التربة لظهور العلاقات التي يتصف بها عصر الـدومينات . ولم تكن هـذه المرحلة من تاريخ سورية عصر ازدهار فقط ، كما هـو متعارف عليـه في أدبيات الأبحـاث وإنما كـانت أيضاً مرحلة نقلات اجتماعية هامة . ويعتبر تحـديد طـابع هـذه النقلات وتبيـان توجههـا من المهمات الريئيسية لهذا الكتاب .

فدراسة تاريخ سورية في عصر الإستعمار الروماني لا زالت ضعيفة للغـاية . أمـا كتاب ى . بوشير الذي يعالج هذه المرحلة فقط فهو سطحي ووصفي للغاية ، وبالإضافة إلى ذلـك فقد شاخ من حيث حجم المصـادر التي اعتمد عليهـا . والكتاب الأكـثر تفصيلا (هكـذا كان يريده مؤلفه أن يكون) في هذا الموضوع يعودـ - ي دوبياش بقي غير مكتمـل ولم يصدر منـه سوى الجزء الأول وقد حوى عرضاً مفصلاً للاحداث السياسية في فـترة تكون المقـاطعة . والبحث الوحيد المتوفر لدينا والذي يبحث في النظام الإقتصادي لسورية ابان الإستعمار الرومـاني يعود لـ - ف . هايهيلهام.فقد عالـج المؤلف هنا بـدقة متنـاهية العـلاقات الـزراعية وتـطور الحرفـة والتجـارة وساعـدته في ذلـك مجموعـة كبيرة من المصـادر . ولكن اهتـمام المؤلف انصب عـلى الجانب الإقتصادي فقط وأهمل تمام الإهمال الجانب الإجتـماعي والتنظيم السيـاسي للمجتمع بـالإضافـة إلى ذلك فـإن الصورة التي يـرسمها تشكـو من غلبة الجـانب الإحصائي عليهـا : فالمؤلف لا يكلف نفسه أبداً عناء تتبع العلاقة المتبادلة بين العصور السابقة والعصور الـلاحقة في تاريخ سورية . أما . م . ى . روستوفتسيف فقد كتب مقاله عامة عن الوضـع في سوريـة إبان العصر الروماني .

وهنـاك عدد من الأعـمال كان يهـدف فقط إلى اعطاء وصف لبعض المـدن السوريـة في العصر الهلنستي . ويثير اهتمامـاً خاصـاً بينها كتب : انـطاكيـة ، تـدمـر ، جـرش ، ودورا يوربوس (تل الصالحية) وساعدت هذه الكتب على تبيان وفهم عدد من المسائـل التفصيلية في التاريخ الإجتماعي - الإقتصادي والسياسي للمدن المذكورة كما وساعـدت على رسم حـدود دراسة المسائل العامة لتاريخ سورية ابان الإستعمار الروماني .

ومن الطبيعي أن تشغل هذه البلاد حيزاً هاماً في الأبحاث والأعمال التي تدرس التاريخ الإقتصادي لروما والمقاطعات الرومانية - وقد بدأ هذا التقليد في علم التاريخ ت . مـومزين ولكن يبقى كتـاب روستوفتسيف الكتـاب الأكثر أهميـة لهذا النمـوذج من الأبحـاث . حيث عرض هنا تعميم نظري لمجموعة هائلة من المصادر كما وجرى وضع خـلاصة لـدراسة بعض مناطق العالم الروماني ، أي وضع الأساس لمتابعة البحث لاحقـاً . ولكن حتى الآن لم تجر أيـة اعادة نظر في الصورة التي رسمها روستوفتسيف . وهذه الصورة تبدو على الشكل التالي .

كانت المرحلة التي سيطرت فيها روما على سورية مرحلة سلام وأمن وازدهار . ولكنها لم تكن مرحلة التغييرات الراديكالية فقد بقي الشرق السوري كما كان سابقاً . ولم يؤد تجميع السكان في مدن كبرى إلى أحداث أي تقدم ملحوظ مع أنه كان قد ظهر عدد من المدن النصف يونانية كما وتحول قسم من سكان الريف إلى العيش في المدن . ورغبت الجماهير كما كان عليه الأمر سابقاً ، أن تقيم الشعائر الدينية لآلهتها القديمة وفي معابدها نفسها وأن تحرث الأرض وتزرعها وترعى القطيع وتعتني به :

لقد كونت انطاكية وسلوقية وأفاميا واللاذقية القسم الأساسي من شمال سورية . وجرت هنا تدريجياً عملية مركزة الأرض في أيدي أفراد أصبحوا يملكون عقارات ويستغلون الفلاحين من مستأجرين صغاراً واجراء يعيشون في القرى التي تخضع للمدن (السكان المحليون الذين لم يكونوا ليحلموا بأن يصبحوا مواطنين) ويشير روستوفتسيف في معرض وصفه للوضع الذي كان سائداً في كل اصقاع الامبراطورية إلى ظهور شريحة اجتماعية جديدة هي «بورجوازية» المدن (ملاك العقارات والتجار وأصحاب الورش الحرفية) التي بدأت تزيح الأرستقراطية السابقة . ومن الواضح أن روستوفتسيف يرى هذه الظاهرة في سورية أيضاً . وكانت توجد خارج حدود المدن فئة أخرى من الملكية وهي ملكية المعابد وهي أرض شبه مستقلة . وكانت هذه المعابد تتمتع بحصانة خاصة وتملك الأرض وتجمع الضرائب وكان agokhoi يشرفون على الأسواق التي كانت تقيمها المعابد كما كانوا يمثلون المعبد في علاقاته مع السلطات المدينية . ويعتقد روستوفتسيف أن أوضاع المراكز التجارية الكبرى كدمشق وحمص وتدمر كانت قريبة من أوضاع المملكة البسبورية . فقد استطاعت الفئات المسيطرة في هذه المدن أن تتغلغل بسرعة في صفوف ارستقراطية الإمبراطورية الرومانية وتشارك في إدارة دفة الحكم فيها وفي نفس الوقت كانت دمشق وتدمر وحمص والرها idesse مراكز للقياصرة الكهنة . أما في الإردن فقد استمرت الهلنستية تتوطد وتترسخ . واضحت المدن الهلنستية مراكز تجارية متقدمة وغنية كما وبدأ البدو الرحل بالتحول الى الاستقرار والتحضر أما التنظيم السياسي لهذه المدن فقد ارتدى على أقل تعديل ظاهرياً ـ طابعاً اغريقياً .

بعد ذلك يشير روستوفتسيف الى الوساطة التجارية وتجارة القوافل والتي – حسب رأيه حددت الحياة الإقتصادية والثقافية لبترا وجرش وتدمر ودورا ـ يوروبوس . لقد حاول المؤلف في أبحاثه التي قامت على مواد مقتبسة ومواد ارخيولوجية أن يرسم من جديد طابع ما يسمى بمدينة (القوافل) التي تدين بمنشئها إلى تطور التجارة . واستطاع روستوفتسيف بعد

دراسته لوثائق من دورا – يوروبوس أن يكون لنفسه صورة ما عن العلاقات الزراعية ووسائل الإستغلال والنظام الإداري في هذه المدينة .

وأشار المؤلف في معرض وصفه للمجتمع السوري إلى ظواهر هامة في هذا المجتمع : كتمركز ملكية الأرض وانضمام اناس«جدد» إلى الفئة المسيطرة(مع انه من الصعب اعتبار أطروحة روستوفتسيف عن ظهور «بورجوازية» المدينة ثابتة فالأرجح أن الكلام يجري هنا عن بعض العائلات التي اغتنت وانضمت إلى صفوف الأغنياء القدامى) والنمو الملحوظ للتجارة والدور الذي أصبحت تلعبه في حياة المجتمع . ومع ذلك فإن بعض موضوعات روستوفتسيف ليس لها أي وجود في المصادر المتوفرة لدينا (حول دور المعابد والقياصرة ـ الكهنة في دمشق وتدمر) . كما أن مسائل كثيرة وهامة بقيت غامضة تماماً : كالوضع الذي كان قائماً في منطقة البوليس (أي المدينة ـ الدولة ، المترجم) وخاصة في الأراضي التي كانت تابعة للامبراطور والتناسب القائم بين مختلف أشكال الملكية والتملك والوضع القانوني لبعض المدن والفئات السكانية داخل الإمبراطورية (والحقيقة أنه في معرض آخر يتكلم بشكل غير محدد أبداً عن فقدان بعض المدن ـ الدول حريتها السياسية وعن استمرار الحفاظ على الإدارة المحلية وحتى عن سياسة اوغسطس الرامية إلى تحويل ألإمبراطورية إلى مجتمع تسود الإدارة الذاتية كافة مدنه ولكن ملاحظات روستوفتسيف هذه عامة جداً ولا تسمح لنا أن نكوّن أي تصور عن واقع العمليات الجارية في المجتمع وعن ماهية مقدماتها الإجتماعية) والعلاقات العائلية . ولكن بغض النظر عن كل هذه النقاط الغامضة فقد أعطتنا أبحاث روستوفتسيف ، ولأول مرة امكانية تكوين تصور عام عن الأوضاع التي كانت قائمة في هذه المقاطعة كما وتعتبر هذه الأبحاث بداية لدراسة مبرمجة لتاريخها الإجتماعي ـ الإقتصادي .

أما أ . ب . رانوفيتش فيصف المجتمع السوري هذا وصفاً آخر . فهو يشير إلى انعدام التجانس الإقتصادي وإلى التبعثر السياسي لبعض مناطق المقاطعة (الأمر الذي يشير إليه روستوفتسيف أيضاً) مما خلق صعوبات جدية أمام السلطات الرومانية عند إخضاعها لهيمنتها وانضمام بعض الممالك التي لا تزال تحافظ على استقلالها الشكلي (يعتبر رانوفيتش أن كل هؤلاء الملوك لم يكونوا من حيث الجوهر سوى مفوضين من قبل الإمبراطورية الرومانية) إليها . أما أوضاع المدن السورية «الحرة» فلم تكن لتختلف كثيراً عن أوضاع مثيلاتها من بقية المدن التابعة للامبراطورية . وتلك الإمتيازات التي كانت تتمتع بها المدن السورية بدأت فقدها شيئاً فشيئاً ذلك أن السلطات الإمبراطورية أخذت تسعى لاستبدال الحكم الذاتي

بجهاز إداري بيروقراطي وغالباً ما كانت الألقاب الطنانة تخفي وراءها فراغاً واضحاً . أما في الواقع فإن تدمر هي المدينة الوحيدة التي استطاعت أن تحافظ على استقلاليتها فترة زمنية أطول حيث ساعدها في ذلك بعدها الجغرافي وأهميتها التجارية وقربها من المملكة البارفية . لقد سحق الرومان الديمقراطية وحلوا المجالس الشعبية وقدموا كل الدعم للارستقراطية المحلية . أما السوريون المهاجرون فقد أسسوا روابط تجمعهم (بالدرجة الأولى للعبادة) وحافظوا على علاقاتهم مع مدنهم الأم . ويشير رانوفيتش إلى تمركز ملكية الأرض في أيدي كبار الملاك – الامبراطور وأفراد عائلته وعدد آخر من الأشخاص ويشير إلى وجود علاقات الاستئجار والتأجير . ويعتقد رانوفيتش أن أوضاع الـ LAOI السلوقيين لم يطرأ عليها أي تغيّر يذكر ابان العصر الروماني فقد كان صغار الملاّك ملزمين بدفع اتاوة عن قطعة الأرض التي بحوزتهم إلى المالك الأعلى للأرض . كما كان باستطاعة ممتلكي «أراضي القيصر» أن يبيعوا ويشتروا هذه الأرض مع أنها لم تكن ملكاً لهم . ويشير رانوفيتش إلى التطور الملحوظ الذي طرأ على الحرفة والتجارة بما فيها الوساطة التجارية . وأخيراً يشير المؤلف إلى نظام الضرائب والأتاوات الروماني .

وهذا الوصف الثاني للمجتمع السوري القديم هو أيضاً وصف غير مرض وغير مقبول بالرغم من أن المؤلف قد أشار ولو بشكل مشوّه إلى بعض خصائص تطور هذه المقاطعة الرومانية . فعندما أكد أن الإمتيازات التي تتمتع بها بعض المدن قد بدأت تسقط الواحدة تلو الأخرى ليحل الجهاز البيروقراطي محل أجهزة الحكم الذاتي إنما الواقع هنا يتمثل في أن ما يجري هو عملية موضوعية مستقلة عن إرادة هذه القوى السياسية أو تلك ويتلخص محتواها في حلول السلطة الإمبراطورية المطلقة محل كيان البوليس . ولكن رانوفيتش لم يحدد الكيان الحقوقي لمختلف الفئات السكانية في سورية القديمة والتغيرات التي طرأت عليه ولذلك فهو لم يستطع أن يحدد لنا الأسباب الحقيقية للعملية المذكورة . فهو يرى أن هذه الأسباب ذات طابع سياسي أي أنها تتعلق بنوايا بعض الأشخاص والجماعات . وبالإضافة إلى ذلك فإن رانوفيتش يبالغ في وتيرة تسارع هذه العملية : فالمصادر المتوفرة لدينا تؤكد أن الأجهزة الديمقراطية لسلطة الدولة كانت موجودة فعلاً وبكامل فاعليتها في سورية حتى القرن الثالث للميلاد أما هذا اللقب أو ذاك فكان يعطي بعض المدن بعض الامتيازات الملموسة . ولا شك أن رانوفيتش على حق عندما يشير إلى مركزة ملكية الأرض . ولكن الغموض يكتنف هنا الوضع القانوني للملكيات العقارية الكبيرة الموجودة في الأراضي التابعة للامبراطورية وتلك التابعة للبوليس كما ولم يشمل البحث بعض نماذج الملكيات العقارية الأخرى . أما وجود الـ

LAOIفي العصر الروماني فليس له ما يثبته.كما ونعتقد أن موضوعة المؤلف عن وجود ملكية المالك الأعلى(أي أن الملكية العليا للأرض تعود للملك ـ المترجم) للأرض في سورية أبان العصر الروماني وما يرتبط بها ـ من وجهة نظره ـ من تأدية أتاوة الأرض وهو في نفس الوقت يعتقد أن الأشخاص الذين تقع الأرض بحوزتهم مع أنهم لا يملكونها إلا أنهم يستطيعون بيعها وشراءها والتصرف بها حسب ما يرغبون ـ نعتقد أن مثل هذه الموضوعة مرفوضة حتى من الناحية النظرية .

بهذا العرض الموجز نكون قد لخصنا اتجاهات بحثنا وأهدافه . وكما أشرنا سابقاً فإننا سوف نبحث في هذا الكتاب البنية الإجتماعية ـ الإقتصادية والتنظيم السياسي في سورية في عصر خضوعها للإستعمار الروماني (عصر البرينتسبات) . أي أننا سوف نتكلم عن الملكية الخاصة لادوات العمل ووسائل الانتاج والتمايز الاجتماعي الذي خلقه التمايز في الملكية وعن الدور الذي لعبته التجارة والانتاج السلعي (وبالتالي المكانة التي شغلتها ماتسمى «بمدن القوافل») وعن أشكال وأساليب استغلال المنتج المباشر وقانون الأحوال المدنية والفئات السكانية التي يشملها وبالتالي عن المدينة السورية وعلاقاتها مع السلطات العليا . ويهدف الكتاب إلى تحديد الاتجاهات الرئيسية لتطور المجتمع السوري في الفترة التي نحن بصدد دراستها وبالتالي تحديد الدور الذي لعبه الرومان في تاريخ هذه البلاد . أما التاريخ السياسي لسورية في الحقبة المذكورة وخاصة تاريخ الحروب الرومانية ـ البارافانية والرومانية ـ الساسانية فقد تمت معالجته في أبحاث خاصة كما وتم عرضه في الكتب التعليمية لذلك فرجوعنا إليه سوف يقتصر على امكانية افادتنا منه عندما سنحاول اعطاء وصف للحركات الإجتماعية في البلاد .

الفصل الأول

ـ سورية على أعتاب الإستعمار الروماني

على أعتاب الإستعمار الروماني كانت سورية تملك تراثاً هلنسنياً عريقاً في مجال تنظيم الدولة . والحقيقة أنه عندما أصبحت سورية مستعمرة رومانية كانت سلطة السلوقيين عليها قد اضمحلت منذ زمن بعيد . ولكن التصور عن أن الملك من هذه العائلة هو الحاكم الوحيد الذي له «حق» حكم البلاد وقد استمر هذا التصور ، كما سنرى لاحقاً حتى منتصف القرن الأول ق . م وحتى في ظرف سيطر فيه الإنهيار التام كان الرومان ملزمين بأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار .

وقد برزت في اطار الدولة السلوقية في سورية القطاعات التالية ـ أولا المنطقة الحدودية التابعة للبوليس ، أي تلك الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة المدن التابعة بدورها للملك ، ثانياً ـ المنطقة التابعة مباشرة للملك نفسه[1] .

المدينة وحدودها

من المعروف أن العدد الأكبر من المدن السورية كان قد قام منذ زمن موغل في القدم أي قبل الإستعمار المقدوني ـ اليوناني بزمن طويل . والمدن الفينيقية على ساحل المتوسط خير

---

١)لقد كان لأبحاث م . ي . روستوفتسيف التأثير الأقوى على كل الأعمال التي بحثت في تاريخ الحقبة الهلنستية . وقد اعتبر روستوفتسيف أن أهم ما تتصف به الأراضي التابعة للملك هو عدم وجود المدن فيها واستحالة وجود أي شكل من أشكال الملكية هنا باستثناء ملكية الملك وحده أما العاملين في هذه الأرض فكانوا يدفعون Fors وهي عبارة عن ضريبة عينية Gechtedes romichen Kolonetes, وفي أعمال لاحقة يشير روستوفتسيف(M.Rostovtzeff, studden zur. leipzig, 1910 الى فئتين من الأراضي : ١)الأراضي التابعة مباشرة للملك Khsraibailikheاو من المحتمل Khoraوفي هذه الحالة الأخيرة Khoraibasilie . لم يكن سوى جزء منها ملكية شخصية للملك) ، ٢)الأراضي التي كانت ملكاً للمدن والمعابد ، ومن المحتمل ، لبعض القبائل أيضاً . أما الحالات الأخرى ـ حسب رأيه ـ للملكية فقد انطبقت على الأراضي التي كان الملك يقدمها من Khora او من Khoraibasilke . لمختلف المؤسسات والجماعات والأفراد . (M.Rostovtzeff, The social and economichistory ـ. the hellenistic world, oxfrd 1949) والعيب الجوهري الذي يعاني منه تصنيف روستوفتسيف هذا ـ حسب رأينا ـ هو الخلط بين مفهوميّ الملكية والسيادة

شاهد على ذلك وهي ـ أراد(أرواد ـ المترجم) بيبلوس (جبيل) ، بيريت (بيروت) ، صيدون (صيدا) وتير (صور) وكذلك المدن الأخرى التي تقع داخل البلاد كتدمر ودمشق .

كان من نتيجة الإستعمار المقدوني ـ اليوناني لسورية في نهاية القرن الرابع ق . م وعملية الإستيطان المكثفة التي تلتها ان جرى انشاء عدد من المدن اليونانية ليس في سورية وحدها وإنما في الإردن وشرقي الاردن أيضاً . فقد ظهرت هنا بمبادرة واشراف السلطات الهلنستية بوليسات كبرى، كانتيغونية [٢] وانطاكيا [٣] التي بنيت على انقاضها وسلوقية بيريية [٤] وأفاميا [٥] ولاوديكيا [٦] (اللاذقية المترجم) ودورا يوروبوس (تل الصالحية) وبيريا [٧] وبيلا وديون وجرش [٨] وغيرها من مدن تلك الحقبة .

---

٢ ـ لقد شيد انتيغون مدينة انتيغونية على نهر العاصي في عام ٣٠٦ ق . م وجعلها عاصمة دولته فكانت مركزاً سياسياً وعسكرياً هاماً . ويشير مصدرنا (Diod, 20, 47, 5) بشكل خاص الى أن موقعها الاستراتيجي هذا قد لعب دورا حاسما في اختيارها من قبل الساعي لاستلام السلطة . ولكن الفشل العسكري السياسي الذي مني به انتيغون جعل عمر هذه المدينة قصيرا . ونحن لانعرف كل المدن التي انشأها انتيغون . وحسب رأي تشيريكوفيريان بعضها ، كانتيغونية مثلاً ، اعتبر مؤسساً من قبل سلوقس الأول نيكانور في مرحلة معينة من تاريخ حكمه . انظر : V.Tscherikover, Die hellenistischen Stadtegeru ndungen vonalexander dem Grossenbis... وهذا يناقض تاريخ انطاكية التي بنيت ثانية في مكان آخر (diod,20, 47, 6) كما ويناقض تاريخ افاميا نفسه (انظر لاحقاً الملاحظة رقم ٥) . وليس لدينا أي اثبات على أن سلوقس قد اتبع سياسة أخرى حيال المدن التي بناها انتيغون .

٣ ـ في عام ٣٠٠ ق . م بنى سلوقس الأول نيكانور مدينة انطاكية على نهر العاصي (diod, 20, 47, app, Syr) . ويعتقد ج . داوني أن سلوقس كان ينوي أن يجعل سلوقيا بيريية مركزاً له والى هناك نقل من انتيغونية ديوان المال كما تم دفنه فيها أيضاً . (App.Syr,63) . ولكنه على اية حال اختار انطاكية . وفي القرن الأول ق . م . أصبحت انطاكية عاصمة السلوقيين . أما الافتراض بأن الاسكندر قد زار هذا المكان حيث بنيت فيما بعد انطاكية ، وأقام فيه معبد زفس بوتيني كما يقول ج . داوني فالهدف منه تمجيد انطاكية وتقوية مركزها ولكن هذا لايتطابق مع واقع الأشياء . (Liban, or, 2ع,87,250)

٤ ـ بعد القضاء على انتيغونية مباشرة بنى سلوقس مدينة سلوقية بيرية (App.Syr,57) وحسب Diod,20,48 تم نقل قسم من سكان انتيغونية الى هذه الأخيرة .

٥ ـ لقد أسس سلوقس الأول نيكانور مدينة افاميا (App.syr,57.) طريقة تلك العادة التي أطلق بموجبها المستوطنون المقدونيون على افاميا اسما آخر بيلا وهذه الأخيرة هي موطن فيليب والاسكندر — (Sirobo, 752.. ويعطي المؤرخ مالالا (chronoga, p.203) لهذه الواقعة تفسيراً آخر : حيث يقول بأن سلوقس الأول هو الذي أطلق على أفاميا اسم بيلا ذلك أن الآلهة التي كانت تحمي افاميا حملت نفس الاسم حتى أن فيليب نفسه من بيلا المقدونية . وهذا الافتراض الأخير فيه شيء من التناقض : ذلك أنه من الصعب أن نجد حالة تكون فيها الآلهة التي تحمي مدينة ما تحمل اسم مدينة أخرى ونحن نرى أنه من المنطقي أن يتوافق اسم الآلهة مع الاسم الأصلي للمدينة الذي يستخدمه الناس . ومما له دلالة خاصة أن الغلبة في نهاية الأمر كانت لاسم افاميا . ولاشك في أن المصادر الواردة توضح بغير لبث أسباب تغيير اسم المدينة ، والتي لم يكن ممكناً أن تأخذ اسمها الرسمي بشكل نهائي إلّا بعد اعلان سلوقس الأول Oikist لها .

٦ ـ لاوديكيا البحرية أسسها سلوقس الأول (App.,syr.,57) .

٧ ـ بيريية أسسها سلوقس الأول (App.,syr.,57) .

لاشك أن أسباب مثل هذه الحركة الاستيطانية العاصفة ، في بداية العصر الهلنستي واضحة تمام الوضوح . فالأزمة الاجتماعية التي اجتاحت اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد تجلت بأوضح مظاهرها في حرمان المنتجين الأحرار من ملكية الأرض مما حدا باليونانيين أن يتوجهوا نحو الشرق حيث يستطيع الفلاحون (Vol.42,1965) المفلسون وغيرهم أن يحصلوا على الأرض ويحققوا السعادة المنشودة . ومن هنا جاءت الدعوة الى الحرب في الشرق بهدف انتزاع الأرض من مالكيها «البرابرة» - هذه الدعوة التي ترددت في خطب ليسيوس (33,6) ولكنها كانت قوية وواضحة أكثر في خطب سقراط . ومن هنا ذلك الفيض من المستوطنين الذين تدفقوا على ما بين النهرين وسورية ومصر وهذا بدوره شكل القاعدة المادية التي قامت عليها الدولة الهلنستية .

وهذا ما كان له أهميته بالنسبة لملوك الدولة الهلنستية أيضاً . فقد أخذت البوليسات على عاتقها مهمة جمع الضرائب داخل حدود المنطقة التابعة لها دون تدخل السلطة المركزية في هذا الأمر الذي كانت له أهمية خاصة بالنسبة للسلطة الملكية [٩] . ولكن لم يكن لهذه الأهمية المكانة الأولى بين الأولويات . فعندما كان الملك يؤسس هذه المدينة أو تلك كان من الطبيعي

---

٨ - لقد أصبح من المتعارف عليه أن ينسب تأسيس ديون وبيلا وجرش الى الاسكندر . والواقع أن هناك اشارة الى ذلك في تراث ستيفان البيزنطي . أما فيما يتعلق بجرش فهناك اشارة مماثلة في تعليقات يامفليخ على مؤلفات نيكوماخ من جرش . وجاء في خرافة احدى القطع النقدية من جرش وهي مؤرخة في عصر كومادا (H.Syri antiqites syriennes,87,Alexndere le grand,fondateurde gerasa,— syria,vd.42,196) فكتب تحت صورة الملك المقدوني : «(الاسـ)كندر) المقـ)دوني) ، مؤ)سس) جرش ») . وهكذا فقد سقطت المحاولات الرامية إلى نسب تأسيس جرش إلى بيرديك أو إلى انتيغون أو إلى أحد ملوك السلوقيين وفي نفس الوقت يضحد ما جاء في النقش G,137 والذي ينص على أن افيريلي بن افيتا أقام تمثالا لبيرديك . ويعتقد بعضهم أنه كان يوجد في جرش تقليد يعتبر بيرديك بموجبه مؤسس المدينة (A.H.M.cities jones) ولكن لاوجود لمثل هذه الاشارات في النص . وهكذا نجد أننا مرغمون على الاعتراف بأن دوافع اقامة التمثال المذكور غير واضحة . لقد حفظت لنا العادات القديمة اشارات طريفة حول ما تعنيه كلمة «جرش» . يامفليخ يعتبر اسم المدينة جاء اشتقاقا من كلمة Gerntes («العجائز») التي أطلقت على مستوطني المدينة من قدماء المحاربين في جيش الاسكندر ، Etymologicum magnum يعطي لهذه الكلمة تفسيراً آخر . حيث يقول بأن الاسكندر قضى على كل شباب المدينة عندما فتحها وابقى على العجائز فقط وقد قام هؤلاء باعادة بناء المدينة . وعلى كل حال فإن ما نراه أمامنا ليس أكثر من اثيمولوجيا (علم منشأ الكلمات - اشتقاقها - المترجم) شعبية . ولكن هذا الاشتقاق الأخير لمعنى كلمة «جرش» مرفوض ذلك أن المكان الذي توضعت فيه المدينة لايقع على طريق جيوش الاسكندر المقدوني وفي هذا المجال يعتبر الاشتقاق الأول أقرب إلى التصديق ولكن لايمكن اعتباره مثبت تاريخيا . وبعد أن جرى ضم شرقي الأردن إلى الدولة السلوقية أطلق على جرش اسم آخر هو انطاكية وكان ذلك على عهد خريسوروس ، وعلى الأرجح أنه انطوخ الثالث (Kraeling (ed),gerasap.30) ونجد هذه لتسمية الأخيرة في الكتابات التي وصلتنا من العصر الروماني . (g,30,56—57,58,69,143—145,153,192,251)

٩ - قارن م .م . وباكونوف ، تاريخ ايران القديم . موسكو عام ١٩٦١ .

أن تدخل المدينة المذكورة تحت حمايته وبالتالي كانت تشكل سنداً كبيراً له في صراعه مع خصومه السياسيين . وكان بناء مدينة ما وخاصة تلك المراكز السياسية الكبرى يهدف قبل كل شيء الى ترسيخ سلطة المحتل وبسط سيطرته على المنطقة التي تم اخضاعها . ويعتبر سلوك سلوقس الأول نيكاتور نموذجاً بيّناً في هذا المجال . فهو لم يجعل من انتيغونية التي أسسها خصمه ، عاصمة لدولته . بل قام بنقل كافة مؤسسات الدولة منها كما ونقل سكانها أيضاً الى المدينة التي بناها هو نفسه . ولاشك أن ما دفعه الى ذلك هو طمس كل أثر يمكن أن يذكر الناس بخصمه انتيغون . وكأني به يحاول أن يظهر للناس أن التطور انما بدأ «من نقطة الصفر» . وهذا ما يفسر عدم رغبته في استخدام أية مدينة سورية قديمة بما في ذلك دمشق .

ومن المعروف أنه جرى بناء بعض المستعمرات اليونانية – المقدونية في تلك الأماكن التي كانت تشغلها سابقاً مدن وقرى السكان الاصليين للبلاد . فانطاكية شيدت في نفس المكان الذي كانت تشغله «قرية تدعى بوتيا» (Malala,chronogr.,P.,200) ، افاميا – في مكان القرية التي كانت تدعى فرناقة ، اللاذقية – مكان قرية مزابدة (Malala,chronogr.,P.,203) . ولكن ستيفانوس البيزنطي حافظ على تقليد آخر فهو يسمي القرية التي قامت على انقاضها اللاذقية – زاميتا . ومن الصعوبة بمكان القول : أية فرضية هي الأصح . ولكن ماله أهمية خاصة هو أن ظهور مثل هذه المعطيات لا بد وأنه يعكس ظاهرة واقعية . وأخيراً مدينة بيريية التي بنيت في المكان الذي قامت عليه واحدة من أقدم المدن السورية على الاطلاق – مدينة حلب .

وليست لدينا أية معلومات عن مصير سكان هذه القرى السورية . ولكننا نستطيع افتراض الوضع التالي : إما انه جرى ضمهم الى التنظيم السكاني الجديد أو أنه تم تدمير هذه القرى وطرد سكانها . ولا يستبعد أن يكون حوفظ على تلك القرى التي تقع ضمن التنظيم الجديد للمدن . والحقيقة أن رواية يوحنا مالالا (Ghronogr.,PP.,202–203)عن نشوء اللاذقية ، مع الأخذ بعين الاعتبار الجانب الخرافي فيها توضح أنه من المحتمل أن تكون القرية التي قامت على أرضها قد جرى توسيعها ومن ثم تحويلها الى مدينة : «لقد أسس هذا السلوقس نيكاتور نفسه مدينة بحرية أخرى في سورية هي لاوديكية وسمّاها باسم ابنته وكانت سابقاً قرية اسمها مزابدة» . أما روايته (نفس المصدر) لقصة بناء مدينة افاميا فهي أكثر وضوحاً «أنشأ هذا السلوقس نيكاتور نفسه مدينة كبيرة أخرى في سورية سماها باسم ابنته افاميا ، فقد وجد قرية تسمى فرنقة وأحاطها بسور ثم دعاها هذا السلوقس نفسه مدينة وسماها افاميا وقدم ضحية» . ولكن مع ذلك ليس باستطاعتنا حتى الآن أن نعرف شيئاً عن

مصير سكان هذه القرى . فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن المستعمرات الهلنستية كانت عبارة عن تجمعات سكانية مغلقة عندها يمكننا القول : إنه لم يكن باستطاعة السكان الأصليين أن يدخلوا في عداد مواطنيها وعلى الأرجح سلبت منهم أراضيهم . وفي حال العكس لم يكن للمدينة أن تبنى أصلاً .

وهكذا نرى أنه حسب تصورات العصر الهلنستي لم يكن بناء المدن يتم بالضرورة في أماكن غيرمأهولة . بل كانت المدن الجديدة تقوم على انقاض المدن أو القرى القائمة منذ زمن وقد روعيت أثناء ذلك الاجراءات التالية : جذب سكان جدد ، تحديد الوضع السياسي - الحالة السياسية - واعطاء الاسم الجديد .
ومع ذلك فإن بناء مراكز سياسية جديدة أدى إلى موجات عاصفة من بناء المدن فإذا لم تجر إعادة بناء المدن من جديد فإن تعديلات جوهرية كان يتم ادخالها على بنائها . وكان بناء هذه المدن يتم وفق نموذج واحد[١٠] هذا ما يبدو واضحاً في بناء انطاكية وبيرييا ودورا يوروبوس واللاذقية .

كانت ساحة الاجتماعات العامة لمدينة انطاكية تقع على شواطىء نهر العاصي وكان سورها على شكل زاوية قائمة أما شوارعها فقد امتدت على أساس الاتجاه العام للريح ومسقط أشعة الشمس - من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي (محور طولاني) ومن الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي (محور عرضاني) . وكانت الشوارع ذات المحور الطولاني مَبنية بالتوافق ، الى حد ما ، مع اتجاه النهر . أما اللاذقية فقد خططت بشكل أوضح وأدق - من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب - وقد انعكس هذا المخطط في بناء مدينة اللاذقية الآن وعلى هذا المنوال جاء أيضاً بناء افاميا وبيريية . وفي دورايوروبوس كان اتجاه الشوارع الطولانية من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، والعرضانية - من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . ومن الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق كان اتجاه شوارع مدينة جرش .

وهكذا يتضح لنا أن عملية بناء المدن الهلنستية لم تكن عفوية وانما خطط لها على مستوى شامل وواسع وبشكل دقيق للغاية . والى جانب حركة بناء المدن التي قادها السلوقيون كانت هناك حركة مماثلة قادها الحكام السوريون المحليون . ويفيدنا النقش الوارد الينا من أرساما (القرن الأول ق . م .) والذي نشره في عام ١٩٦٢ ف . ك . ديرنير في تحديد الخصائص الرئيسية للبنية السياسية لمثل هذه المستعمرات ودورها في حياة البلاد ويقول انطوخ الأول

---

١٠ ـ انظر الوصف العام لهذا النموذج لدى م . م . ماكسيموفا في كتابها «تخطيط المدن وبنائها - التكنولوجيا الهلنستية موسكو ـ لينينغراد، ١٩٤٨ .

ملك كوموجين في مقدمة نقشه هذا أن سلفه ارسام هو الـذي أسس مدينـة ارساما وقد عـاش هـذا الأخير في القـرن الثالث ق . م . ويفيـد النقش بأن ارسـام أحاط المـدينة الـواقعة عـلى هضبتـين بسور . وتبعـاً لهذا الـوضع الجغـرافي للمدينـة جعل ادارتهـا ذات قسمين ثم سمى المدينة باسمه . ويسجل النقش النشاط الذي قام به ارسام : تحت رعايته وعلى نفقته الخاصة جرى احاطة المدينة بحاجز لايمكن تجاوزه وبنـاء ملجأ أمـين يلجأ اليـه الناس في حـال تعرض المدينة لهجوم خارجي . ويتضـح من النقش انه كـانت هناك في المـدينة حـامية تـابعة للملك يقودها قائد عسكري .

ومن أطرف ما جاء في هذا النقش هـو التعداد الـوارد في Nomos للأشخـاص الذين لهم حق المشاركة في الولائم المقدسة المقامة على شرف تأليه اسلاف انطوخ الأول . وقـام هذا الأخير بتحديد واجبات الكاهن في المهرجان المقدس عـلى الشكل التـالي : «فليقم هو وليمـة عـامة لكـل محاربي الحـامية والمـواطنين مـالئا طـاولات الملك بأشهى المـأكولات أمـا الأقداح فليملأها حتى الجمام بأنواع الخمور . وليشاهد مـع قائـد الحاميـة كيف تحمي الجيوش البـلاد وسكانها ، فليهب هذا العيد السعادة للجميع» . ويتضح من هـذا التعداد بـروز مجموعتـين متوازيتين : (ph) rouron phulakha Khorion (s) tatian
Kai polou okhlon to opikhorion ومن الـواضـح أن المقصـود بـالمجمـوعـة الأولى الجيوش المتواجدة حول المدينة وكذلك المواطنون بينما يدخل في المجموعـة الثانيـة - الجيوش المتواجدة خارج أسوار المدينة والسكان الذين يقطنون المنطقة ولايتمتعون بحقوق المواطنية . ونحن لانملك أيـة معطيـات تسمح لنـا بالقـول أن هؤلاء الناس كـانوا خـاضعين للمـدينة أو لملكها . ولكن مما لاشك فيه أن الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنية كانـوا يشكلون جماعـة مغلقة ويجب أن نتوقع أنها كانت تتمتع بامتيازات خاصة .

وهكـذا نرى أنـه في نهاية القـرن الرابـع والقرن الثـالث ق . م . نشـأت في سـوريـة الهلنستية مجموعة من المدن ذات المنشأ المحلي وأخرى ذات منشأ يوناني وقـد قدر لهـذه المدن أن تلعب دوراً بالغ الأهمية في الحياة الاقتصادية والسياسية للبلاد .

أما المعطيات المتوفرة لدينا عن العلاقـات الزراعيـة السائـدة ضمن حدود المـدينة فهي ضئيلة للغـاية ولكنهـا مع كـل هذا تـبرز بكل وضـوح سيطرة الملكيـة الخـاصـة . فتحصيـل الضرائب من الملكيات الخاصة المتوضعة داخل حـدود المدينـة يأتي ذكـره عند ارسـطو في أحد مؤلفاته الاقتصادية حيث يعطي فيه وصفاً عاماً لاقتصاد المدينة . كما ونجد ذكراً لهذه الملكيات

في النقش الوارد الينا من اللاذقية . والمؤرخ في كانون الثاني عام ١٧٤ ق . م . ونرى أن الحالة المسجلة هنا معقدة للغاية . فقد قدم كهنة ساربيس واسيدا وهم هورابللودور وانطوخ الشكوى التالية الى سلطات المدينة . حيث كانت المدينة قد اتخذت قراراً تفرض بموجبه على كل من يطلب مكاناً ليقيم فيه نصباً تذكارياً أن يدفع مبلغاً من المال . وفي نفس الوقت طلب «بعضهم» مثل هذا المكان في المعبد نفسه . وكانت الأراضي القريبة من المعبد والمعبد نفسه ملكاً للأشخاص المذكورين وأقربائهم . هذه التركيبة طريفة بحد ذاتها : فأمامنا - قطعة أرض تعود ملكيتها لعائلة كبيرة يمثلها في هذه العملية ثلاثة أخوة . وبما أن قرار المدينة لم يوضح طبيعة الدفع لقاء الأرض المطلوبة لاقامة النصب التذكاري فقد خاف هؤلاء الأخوة من أن يفقدوا حقهم كمالكين . ذلك أن هذه الـdiaphora يمكن أن تفسر كثمن للأرض . وبناء على ذلك اتخذ أعضاء المجلس قراراً أكدوا فيه أن المال المدفوع ليس ثمناً للأرض وانما ضريبة تدفع لقاء وضع النصب . وبذلك تكون حقوق مقدمي الشكوى قد حفظت .

وهكذا يثبت لنا النقش أن الملكية الخاصة للأرض وامكانية بيعها وشرائها كانت موجودة في اللاذقية البحرية في القرن الثاني ق . م . وقد حافظت سلطات المدينة على قدسية هذه الملكية . ومن المشكوك فيه أن يكون الوضع في المدن السورية الهلنستية الأخرى مغايراً لما كان عليه الأمر في اللاذقية .

ونعتقد أيضاً أن هذه المدن كانت مركزاً مهماً للانتاج الحرفي . ولكن لا تتوفر لدينا أية معطيات بهذا الخصوص . ومع كل هذا فنحن نستطيع القول أن صناعة السفن التي كانت متطورة في المدن الفينيقية لم يكن لها إلا أن تتابع تقاليدها هذه كما أن حرفة البناء كانت منتشرة بشكل ملحوظ وفي كل مكان ولا بد من الاشارة أيضاً الى فن النحت حيث كان هناك ، دون شك اختصاصيون في تحضير النقوش وصناعة الفخار وغير ذلك .

ومن حسن الحظ أن المعطيات الواردة الينا من العصر الهلنستي تعطينا الامكانية الكافية لتحديد الدور الذي لعبته المدن ، وبالدرجة الأولى المدن الفينيقية ، في التجارة الدولية لذلك العصر . فقد كانت لها علاقات تجارية مع أهم مدن العصر الهلنستي وقبل كل شيء مع ديلوس .

وفي هذا السياق تشكل سلسلة النقوش التي أصدرها س . ريناك أهمية ملحوظة حيث يعود تاريخها الى القرن الثاني ق . م . وقد جاء في أحدها (OGIS,591) : «الى آلهة روما ، صانعة البّر والاحسان ، - من جماعة آلهة البحر البيروتيين - التجار و الملاّحين والوكلاء

التجاريين ، اعترافاً بإحسانها للجماعة والشعب ، عندما أعيد انتخاب مناسيّ بن ديونيسيوس ثانية – صانع الخير . أعد من قبل ميلانوس الأثيني» . والنقش الآخر الشبيه بهذا النقش هو وهو أيضاً على شرف آلهة روما ولكنه مؤرخ في عهد القائد ديونيسيوس بن Reinach,3,5, سوسيباتروس والى جانب ذلك كان يمكن أن يذكر الكاهن في صيغة تأريخية (Reinach,3,4) . كما ونشر س . ريناك عدداً آخر من النقوش التي تحكي قصص البناء . ومنها نعرف أن عمليات البناء كانت تقوم بها جماعات أو أشخاص لصالحهم . (Reinach,4,2)

كانت جماعة آلهة البحر البيروتيين عبارة عن اتحاد حر في ذي طابع ديني يضم أشخاصاً مرتبطين بهذا الشكل أو ذاك بالتجارة البحرية وكان يتزعم هذا الاتحاد قادة وكهنة . وكانت هذه وتلك من الوظائف الاجتماعية ذات طابع ابونيمي (ايبونيم – الأول من القادة التسع في اثينا القديمة وكانت ولايته تعتمد كتأريخ للمرحلة – المترجم) . وكان يحق للقائد أن يبقى في منصبه عدداً من المرات ولكن تغييره كان ممكناً (ونحن لا نعرف الأساليب التي كان يتم بموجبها تغيير القادة ولا الزمن المحدد لذلك) . كان الاتحاد يملك مخصصاته المالية ويتخذ القرارات المناسبة حيال المسائل التي تهمه . ولا شك أن وجود مثل هذه الاتحادات كان يعبر عن مصالح بيروت الراسخة والعميقة الجذور في جزيرة ديلوس .

ويعتبر التكريم المتكرر لآلهة روما ذو دلالة خاصة حيث يعكس طبيعة العلاقات النشطة التي تربط التجار البيروتيين بروما وبالايطاليين الآخرين الذين يمارسون نشاطاتهم التجارية في ديلوس .

ولكن يجب ألا نعتبر أن المثال الوارد هو الوحيد من نوعه . فقد كان هناك أيضاً – في ديلوس – اتحاد للصوريين (نسبة الى صور – المترجم) الذين يعظمون هرقل ووصل إلينا من هناك نقش كبير مؤرخ في الثلث الأول ، أغلب الظن ، من القرن الثاني ق . م . حيث يعطينا صورة واضحة الى حد ما عن بنية الاتحاد المذكور وعن مجال نشاطه . وكما هو الأمر مع الاتحاد السابق فقد كان أعضاء هذا الاتحاد أيضاً من الأشخاص الذين يرتبطون بالتجارة البحرية (قارن الصيغة : «لقد قررت جماعة الصوريين الذين يعظمون هرقل ، – التجار والملاحون») . وكان يتزعم هذا الاتحاد أيضاً قائد وكاهن . ويفهم من الصيغة التأريخية التي اختتم بها النقش أن هاتين الوظيفتين كانتا ايبونيميتان («في عهد القائد ديونيسيوس بن ديونيسيوس وعندما كان الكاهن هو باترون بن دوروفي») . كما ويأتي النقش على ذكر وظيفتين

أخريين – أمين الخزنة والسكرتير وكان هؤلاء مسؤولون عن تطبيق القرارات التي يتخذها الاتحاد .

أما جوهر الأمر فلا شك أنه أكثر طرافة : باقتراح من باترون بن دوروفي ، الذي أقيم هذا النصب على شرفه ، قامت المجموعة بارسال ممثلية عنها الى اثينا للحصول على قطعة ارض كي تقيم عليها معبداً لهرقل . وقد لعب باترون نفسه دور السفير في هذه البعثة واستطاع أن يحقق المهمة الملقاة على عاتقه بنجاح تام . ويجب أن نتوقع بأن اقامة هذا المعبد الجماعي لم تكن لها أهميتها الدينية فقط وانما كان الهدف منها تقوية وترسيخ علاقات صور مع اثينا عبر ديلوس . أما الامتيازات التي حصل عليها باترون شخصياً فهي : أنه تم وضع رسم له في المعبد وفي الأماكن الأخرى التي اختارها كما وأعفي من الأقساط والأتاوات التي كانت تدفع للجماعة وكذلك من الأعمال المتعلقة بالتحضير للاجتماع . وكان يجب الاعلان عن منحه الأكليل عند تقديم الأضاحي وكذلك في اجتماعات الجماعة . وهكذا نعرف أن ملكية الجماعة كانت تتشكل من المساهمات التي كان يؤديها أعضاؤها .

لقد كانت لديلوس علاقات قوية ووثيقة مع سورية . يدل على ذلك العدد الكبير من المراسيم التي كانت أصدرتها سلطات ديلوس على شرف السوريين المقيمين هناك والمؤرخة في القرن الثاني والأول ق . م . وكانت تلك المراسيم عبارة عن مكافآت لهؤلاء الأشخاص لقاء خدمات أدوها للمدينة مما أعطى العلاقات بين سورية وديلوس طابعاً رسمياً أيضاً . كانت المكافآت في أغلب الأحيان هي السماح بامتلاك أرض وبيت في ديلوس Ues kaioi) khiasxukhsis(وهناك أشخاص ممن منحوا مثل هذا الشرف (1G,11,777)من سلوقية (815,11,1G : يقول النقش بأن الطاقم الذي جرى تكريمه قدم خدمات للديلوسيين عندما كانوا في وطنه – صور (,774–1G,11,772,773)ومن أرواد (1G,11,777)وانطاكية (1G,11,600,11141) . وللنقش الأخير أهمية خاصة ذلك أنه أقيم تكريماً للانطاكي هيليودور بن اثيل ، «نديم» الملك سلوقس الرابع فيليوباتر وأحد أهم الموظفين epi ten Pra(umaton)to taumtuou)وقد أقامه على شرفه «وكلاء تجاريون وملاحون» من اللاذقية . وهذا لايدل فقط على عمق العلاقات التي كانت قائمة بين اللاذقية وديلوس والتي بدونها ما كان بامكان اللاذقيين اقامة النقش وانما يدل على حماية الادارة السلوقية للتجارة السورية آملة في ذلك ترسيخ مواقعها داخل البلاد وخارجها .

لقد قام ب . روسيل[١١] بجمع كمية كبيرة من المواد الاضافية التي تلقي الضوء على

---

١١ – يؤكد روسيل أن هذه الجماعة كانت من أقدم الجماعات التي قطنت الجزيرة . ولكن لاتتوفر لدينا أية معلومات تؤكد هذا الاستنتاج .

أهمية الدور الذي لعبه السوريون في ديلوس . وكانت هناك نقوش على شرف أشخاص من صيدا وصور ودمشق (ما بين أعوام ١١٣ - ١١١ ق . م .) وماراثون (مابين أعوام ١٠٢ - ١٠١ ق . م .) ومن سلوقس وصور وبيروت وأفاميا (أعوام ١٠٥ - ١٠٤ - ١٠٣ - ١٠٢ ق . م .) وبكلمات أخرى هناك مجموعة من السوريين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنية في ديلوس وفي نفس الوقت نرى أن الفينيقيين لا يتميزون بعاداتهم الدينية عن الهلنستيين . فقد شارك أشخاص سوريون في عمليات تجارية تخص ملكية معبد ابولو (إنطاكيون وصيداويون) .

ومن المعروف أن ديلوس لم تكن المركز الهلنستي الوحيد الذي كان للسوريين والفينيقيين علاقات وطيدة معه . فمن المعروف أنه كانت هناك عشيرة للصيداويين في أثينا في القرن الأول ق . م
(KAI.53,54,58.60) . كما وكان هناك كيتيون أيضاً
(KAI,55,57,Ditt,syll.,335)ولم يكن هناك أي فرق جوهري بين تنظيم هذه العشائر وتنظيم العشائر الفينيقية في ديلوس : كان يقف على رأس مستوطنة الصيداويين في أثينا أشخاص يحملون لقب RSوكانت القرارات تتخذ في الاجتماع العام للجماعة . وأخيراً كان يرمز اليها بمصطلحين اثنين : bd«مستوطنة» وhdw«الاتحاد المقدس» . وقد وصلت الينا من صور ارسالية «مجلس الشعب» في دلف (SEG,11,330)ويمكن إعادة تاريخها الى القرن الثاني ق . م . ومما يلفت النظر هنا أن مواطني ديلف يسمون من قبل أهل صور «أقرباء» والكلام يجري هنا عن تخليد أعمال الملوك حيال ديلوس وصور . وهناك نقش آخر يعود منشؤه لنفس التاريخ (SEG,4,601)ويتضمن قرار تيوس الذي يؤكد على الصداقة مع صور وإن هذه الصداقة قائمة «منذ أقدم العصور» وتعطي تيوس الحق لصور بأن تقيم على أرضها نصباً وقدمت المكان اللازم لإقامة مثل هذه النصب ومما لا شك فيه أن هذان النصبان يدلّان على مدى اتساع النشاط الدبلوماسي لصور في اليونان وآسية الصغرى . ويدل المصطلح sgvuenetsعلى أن سكان صور كانوا يطالبون بقرابتهم من اليونانيين حيث تم الاعتراف بهم شكلياً على أنهم هلنستيون .

ومن بيريا وصلت الينا قائمة بأعضاء جمعية حرفية أخرى (عام ١٠٣ - ١٠٢ ق . م) وتضم بين صفوفها أجانب ونقرأ فيها سبعة عشر اسماً لهم . بعضهم من انطاكية وبعضهم من افاميا وآخرون من اللاذقية (IG,2,3,1335) . وحسب المصدر IG,2–3,2358(عام ١٣٥ ق . م) . وفي أثينا كان يقود إحدى الجماعات الحرفية شخص يدعى ايرينوس وهو من

انطاكية . كما وتشير المقامات الموجودة على القبور في أثينا والتي يعود تاريخها إلى العصر الهلنستي إلى أشخاص من أصل سوري (حوالي الخمسين) (٣٩ منهم) من انطاكية و (شخصان) من هيرابوليس و (٤ أشخاص) من سلوقية و (١١ شخصاً) من صور[١٢]

وتجدر الإشارة أيضاً الى أن سورية كانت لها علاقة تجارية تقليدية مع مصر منذ بداية العصر الهلنستي . وكان القمح في طليعة الصادرات السورية اليها (PSI,324,325,P.col.zen.,269)حيث كانت مواسمه في سورية وفيرة جداً ذلك أنه كان يجنى منه محصولين في العام والمصدر PSZ,59012المؤرخ (حزيران - تموز عام ٢٥٩ ق . م) هو عبارة عن وثيقة بخصوص تحصيل الضرائب المترتبة على ممارسة النشاط التجاري الذي تقوم به استثمارات تعود ملكيتها لابولونيا والتي قامت بشحن بضاعة من سورية الى بيلوزي ويذكر بيان هذه البضاعة سلعاً كـ : السمن والزيت والخمر والعسل والجبن والجوز والرمان واللحوم وأنواع مختلفة من السمك وغير ذلك . وهناك مجموعة أخرى من البضائع التي كانت تشحن الى مصر من بلدان بحر إيجة عبر سورية ويذكر هنا خمر جزيرة هيوس وعسل جزيرة رودوس .

ولا شك أنه كانت لسورية علاقات تجارية واسعة مع المناطق القريبة منها في آسيا أيضاً . حيث يفيدنا المصدر P.col.zen.2 ، الذي يعود تاريخه لعام ٢٥٩ ق . م . أن نقل الحبوب يجري من سورية إلى غالية . وفي المصدر PSZ.59093(عام ٢٥٧ ق . م) يجري الكلام عن شخص ما من صور (؟) يدعى مينيكلا جاء بالعبيد والبضائع من غزة إلى صور ثم أخفى هذه الصفقة عن محصلي الضرائب مع العلم أنه لم يحصل على إذن قانوني مسبق باستقدام العبيد . ويتضح هنا أنه في حال وجود إذن خاص فإن مثل هذه الصفقات كانت تجري بصورة علنية .

ونحن لانملك أي دليل على انقطاع هذه العلاقات في العصر الروماني .

من المؤسف أنه لاتتوفر لدينا أية مصادر تسمح لنا بالحكم على مستويات الملكية لدى سكان المدن السورية الأحرار إبان العصر الهلنستي وبالتالي لانستطيع تحديد مستوى الانقسام الاجتماعي هناك . ولكن وجود محاربين مأجورين يعود أصلهم إلى مختلف المدن السورية له دلالة خاصة في هذا المجال . فالنقش الموجود على أحد القبور في مدينة ياسو (SEG,18,450يعود تاريخه إلى حوالي عام ٢٠٠ ق . م) يعدد أسماء المحاربين المأجورين

---

12 — J.Day,an,an economic history of athens.

الذين كانو يخدمون في جيوش المدينة فقد ذكر منهم الانطاكيون دوريون بن دوريون وغلافكي بن ايبانيت ليسماخ بن ياسون ورودون بن ايبانيت وآخرون من أرواد وصيدا وغيرها . وفي لوحة شرف أخرى (SEG.18,446يعود تاريخها إلى القرن الثاني ق . م) يذكر اللاذقاني ليسماخ فيها مرتين . بمعنى آخر نستطيع أن نقول أنه في القرن الثاني قبل الميلاد كانت توجد في سورية مجموعة من الناس لاتملك أي شيء مما أجبرها على العمل لحساب الآخرين كي تتقي العوز والجوع .

أما فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي للمدينة السورية الهلنستية فليس لدينا سوى مجموعة سلوقيّة من الوثائق والمعلومات المبعثرة وغير منسقة . فنعرف منها ، مثلاً أن منح حق المواطنية في مدينة سلوقية بيريّا يتم بموجب مرسوم يصدره الاجتماع الشعبي العام . فقد جاءت في النقش GMI,4,1261(اللاذقية البحرية ، كانون الثاني عام ١٧٤ ق . م) الصيغة التالية :

«قرر الأعضاء» والتي جاء تفسيرها لدى غيسيخي (S.V.peliunes) : «الأعضاء - الوجهاء وعند السوريين - أعضاء المجلس» . ونجد مثل هذه الإشارات لدى سترابون ولكن بخصوص جماعات أخرى (مقطع 7,2) : «يسمي المولوتيون والغيسبروتيون كبار السن peliasأما السوريون فيسمونهم peliovsوكذلك هي الحال عند المقدونيين الذين يسمونهم الوجهاء ، وهذا شرف ، وكذلك هي الحال لدى اللاكونيين أيضاً والماساليون ، - يسمونهم شيوخاً» . وهكذا نرى أمامنا مصطلحاً مقدونياً يستخدم في بعض المدن اليونانية - المقدونية الهلنستية في سورية وهذا المصطلح يتطابق مع مصطلح مجلس المعروف (هذا هو موقف جالا بيروموتيرد) . أما ب . روسيل ، وهو أول من نشر النقش المذكور فيعتقد أن الكلام إنما يجري هنا عن مجلس الشيوخ الذي كان آنئذٍ عبارة عن منظمة اجتماعية بدائية عاشت في القرن الثالث والثاني ق . م في كثير من مدن آسيا الصغرى . ولكن من الصعب الموافقة مع روسيل على أن هذه المنظمة كانت منظمة بدائية . وما يلفت النظر أن النقش يعرض قرار المجلس حول المحافظة على حق الملكية الخاصة لقطعة من الأرض كما ذكرنا سابقاً . وبمعنى آخر كان لهذا المجلس الحق في تقرير مثل هذه المسائل . ومن المهم أن نشير أيضاً إلى المقدمة التي سبقت اتخاذ القرار المذكور والتي تظهر في بنية النقش الذي ينقسم إلى قسمين . يبدأ القسم الأول بالصيغة التالية : «حسب رأي اسكلبيادوس - القائد والوجهاء» . كما يحوي هذا القسم الاقتراح المقدم من قبل كبار الموظفين وممثلي ملك اللاذقية إلى مجلس الشيوخ - الوجهاء لبحثه . ويتألف القسم الثاني من القرار نفسه إضافة إلى الصيغة

الواردة أعلاه . وهكذا فإننا لانرى أية فروقات بين عمل مجلس اللاذقية البحرية وعمل أمثاله من المجالس الأخرى المعروفة لدينا . وليس صدفة أن وضع غيسهيل إشارة التساوي بين مصطلحي «الوجهاء» و«مجلس الشيوخ» . وعلى الأرجح أن ادخال هذا المصطلح المقدوني والمحافظة عليه جاءا نتيجة طبيعية لكون أكثرية سكان المدينة من أصل مقدوني وقد أتوا بهذا المصطلح المعروف لديهم في وطنهم الأم . وقد أشرنا سابقاً إلى أن سكان صيدا استخدموا سابقاً في رسالتهم إلى سكان ديلغا تعبيري «المجلس والشعب» ، (SEG,2,330) . وهكذا نستطيع الآن أن نؤكد على وجود المجلس والاجتماع الشعبي في المدن السورية منذ القرن الثالث وإلى القرن الأول ق . م

من بين كبار رجال الدولة تذكر الوثائق بعض كبار الموظفين فقط (GMI,4,1261,pap.Gourob)حيث جاء ذكر أحد هؤلاء وهو من أصل صيداوي في المصدر : P.Mich.Zen.3 . وعلى حد قول يوسف فلافيوس في (FL.IOS,Antt,12,169)فإن كبار الموظفين الفينيقيين وموظفي المدن السورية الأخرى شاركوا في شراء حق تعهد الضرائب من البطالمة عندما كانت سورية تحت سيطرة هؤلاء .

وهذه الإشارة الأخيرة ذات أهمية خاصة : ذلك أنها تؤكد على أنه منذ القرن الثالث ق . م . بدأت هلنسة جهاز الإدارة في المدن الفينيقية وقد ترافقت بالقضاء على سلطة الملك .

إلا أن الغموض لازال يشوب طابع العلاقات التي كانت قائمة بين سلطة الملك والمدن [١٣] ولكن الذي لاشك فيه هو أن هذه العلاقات لم تكن مستقرة على وتيرة واحدة .

---

١٣) على مدى الخمسين عاما الاخيرة وحتى الآن لاتزال تبحث المسألة المتعلقة بطابع جهاز الدولة الهلنستي . فقد اشاريو . كيست في حينه انه لايمكن فهم قيام امبراطورية الاسكندر على أساس الوضع الذي كان قائما في مقدونيا حينها ولا على أساس «التطور السياسي الهلنستي» فهي نموذج لتنظيم جهاز دولة نبت في التربة السياسية للشرق . والحقيقة أن كيرست يعترف بأن أفكار السلطة الملكية وجدت في اليونان أيضا الامر الذي كانت له أهميته في التحضير لقيام الامبراطورية المقدونية . وهو يرى أن الاساس الاجتماعي للسلطة الملكية الهلنستية جاء نتيجة لسعي الفئات الغنية في المجتمع الى اقامة سلطة قوية تستطيع احلال الأمن وضمان قدسية الملكية الخاصة وهو يرى أيضا أنه في أساس الدولة الهلنستية كان يدخل الاحتلال المقدوني كواقع ومبدأ السلطة فردية لشخصية ذات قوة طاغية . ومع اعترافنا بصحة هذه المقدمات فإننا نعتقد بأن كيرست وقع فريسة للنظرة الأحادية حيال طابع تركيب الدولة الهلنستية . وهو على حق عندما أعلن ان «الشعب كجماعة مدينية كاملة الحقوق في البوليس الهلنستي لم يكن له وجود في المملكة الهلنستية . . . . الشعب - يتابع المؤلف - لم يكن أكثر من مجال للسلطة ولم يكن فاعلا لاية حقوق اجتماعية ، لم يكن

لم يلاق الاسكندر أية مقاومة تذكر عندما اجتاح سورية وكان باستطاعته الا يقوم بأية تغييرات جوهرية محافظا بذلك على الأوضاع القائمة كما وجدها . وحتى في تلك الحالات القليلة عندما كان يجري التغيير فانه لم يتناول سوى الملك . هذه السياسة شرحها بومبي تورغ بشكل واضح غير قابل للتأويل وذلك في مؤلفه التاريخي الذي وصل الينا في ملحق يوستين (9,6,10,2) . يقول يوستين انه عندما دخل الاسكندر البلاد السورية وجد أمامه عدداً كبيراً من «الملوك الشرقيين» فعزل بعضهم ووضع آخرين مكانهم وعقد معاهدات مع البقية ولكن هذا لم يغير شيئاً من جوهر الأمر . ويشير يوستين بشكل خاص الى عبد الأمين وهو الذي عينه الاسكندر ملكاً على صور . ومن بين الاصدقاء الجدد للاسكندر يذكر المؤلف ستراتونوس بن غيروسترانوس ملك ارواد (c.ruf.4,1,5) . ومما يلفت النظر أن الاسكندر عندما أخضع صور بعد حصار طويل وشاق حافظ تمام المحافظة على العائلة المالكة وأبقى السلطة في يديها(Ist.18,3,19)

بعد موت الاسكندر أصبحت العلاقة بين الملك والمدينة معقدة ومن الصعب تماما

حاملا مستقلا لمهام الدولة» . ثم يتابع : «ان دولة العصر الهلنستي – هي دولة الموظفين» . ومما يلفت النظر ان المؤلف وصل في نهاية الامر الى مناقضة نفسه عندما كتب على الصفحة ٣٥٤ من مؤلفه المذكور عن العلاقة القائمة بين الحاكم الهلنستي والبوليس الخاضع لسيطرته بأنها اتحاد تمارس فيه السلطة الامبراطورية سيطرتها على البوليس (المدينة الدولة – المترجم) . فاذا كان الشعب كفاعل للسلطة لاوجود له ، حسب رأي كيرست ، فمع من اذا أقام الملوك الهلنستيون علاقاتهم الاتحادية هذه التي تتطلب وجود طرفين على الاقل ؟ ويحظى بانتشار واسع الآن الرأي القائل بأن الدولة الهلنستية كانت شكلا من أشكال المنظمات الفدرالية . أما ب . زانكان فيعتقد ان الدولة السلوقية كانت تتصف بأنها شكلت مرحلة انتقالية من اتحاد دول ذات سيادة ، كما كانت عليه دولة الاسكندر المقدوني مثلا الى الدولة الفدرالية حيث سيادة الدولة المستقلة ، التي تدخل في نطاقها ، محدودة ويقول أ . هيس بأن المدن من الناحية القانونية كانت خارج حدود السلطة الملكية الأمر الذي أدى الى حدوث تناقض بين حالها القانونية والواقع الفعلي للأشياء وحسب رأيه لم تكن هناك أية قاعدة قانونية خاصة تنظم العلاقة القائمة بين المدينة والملك . أما روستوفتسيف فيقول بأن المدن كانت تعتبر نفسها حرة وذات سيادة بينما كان الملوك السلوقيون يعتبرونها تابعة لهم كل التبعية (M.Rostovtzeff,The so-cial and Economic History) . وأخيرا لنستمع الى قول ف . ارينبورغ الذي يقول بأن النظام السياسي الهلنستي الملكي كان عبارة عن مزيج من تبعية البوليسات الفعلية لسلطة الملك وبعض لمسات استقلالية هذه البوليسات ولقد وجدت نظرية الفدرالية هذه اكتمالها المنطقي لدى ف . غينشر الذي يعتبر أن المجتمع الهلنستي يتصف بنموذجين متناقضين لسلطة الدولة – النموذج العشائري حيث تعود السلطة الى الجماعة المدينية ، والنموذج الثاني سلطة الملك حيث تتجمع كل السلطة في شخص واحد . وهذا النموذج الأخير لايعبر بأي شكل من الاشكال عن ارادة «دولة يمكن وصفها عبر العلاقة مع اي بلد أو أي شعب» . ويكشف المؤلف عن مقدمات ظهور مثل هذه العلاقات التي كانت موجودة في اليونان منذ القرن الخامس وحتى الثلثين الأولين من القرن الرابع ق . م .

تحديد أي مبدأ يحدد طابع وحجم سيادة الملك عليها . وتجدر الاشارة هنا الى النقش الذي تركه لنا بطليموس الثالث يفيرغيت من ادوليس (54,OGIS)(النصف الثاني من القرن الثالث ق . م .)حيث يقول أنه عندما دخل سورية أخضع رؤساء الاقسام الجمركية لسلطته . ومن الطريف هنا أن الكلام يجري عن رؤساء أقسام محددة في الدولة السلوقية . ولكن هذا لم يكن لينسحب على سورية الهلنستية كلها . وهذا ما تؤكده الوثائق التي وصلت الينا من ممتلكات البطالمة خارج مصر فالنقش (506,12,1G)القرن الثالث ق . م) يقول أن صيدا دخلت في النيسوتيين بينما كان فيلوك ملكها واحداً من المبادرين والمشاركين في اتخاذ قرار لتكريم بطليموس الثاني فيلاديلف . ولكن الأهم في هذا النقش هو تقييم سياسة بطليموس الأول سوتير : «حرر» المدينة و«اعاد» اليها القوانين وخفف من وطأة الإتاوات . ويتبع الملك المكرم نفس السياسة . وسوف نرى أن سياسة روما في المناطق التي أخضعتها سوف تحظى بنفس الوصف . والكلام يجري هنا عن اعادة سيادة البطالمة على التركيبات السياسية الخاضعة لهم وقد وجدت سياستهم الخارجية تعبيراً لها في انشاء هذه التركيبات نفسها .

لقد كانت المحاولة الوحيدة ، في حدود اطلاعنا ، لتحديد الحال السياسية للبوليسات الداخلة في الدولة السلوقية هي تلك التي وصلت الينا في النقش OGIS,221عن هبة اريستوديكينوس أرضاً بالقرب من ايلون (زمن انطوخ الاول سوتير) . ومع أن الاحداث الوارد ذكرها هنا تجري في آسيا الصغرى إلا أن الأسس التي وردت في توجيه أنطوخ الأول كانت تطبق في كل الاراضي التابعة للمملكة السلوقية بما فيها سورية . وفي التوجيه الثاني الذي أرسله الى ممثله غيليوسبونط ميلياغر يعطي انطوخ الأول اريستوديكينوس حق ضم هذه الأرض summakhiai pros un bouletai polin tonen tei khorai tekai summakhiai يخيلّ للوهلة الأولى أن هذه الوثيقة تضع فئتين من البوليسات على طرفيّ نقيض ولكن التوجيه الثالث لانطوخ الأول يبدد هذا الاشكال تماما : pros en an Bouletaipolin ton enitei emeterai summkiai kazatompoleon tonen tei emeterai ssm per khaientei proteron summakhiai kazaperkai ونجد في نفس الصيغة في نفس التوجيه .

وهكذا نرى أنه يتضح من هذا المصدر أن العبارات المتعلقة بالبوليسات : en tei konrai tekhai summakhiai en tei emteraisummakhiai لها مضمون

واحـد . فمن الناحيـة القانـونية يتحـدد وضع المـدن باقـتران Summakhiai en tei أما الكلمات en tei khorai فتحـد من دائـرة المـدن التي يجـري الكـلام عنهـا في النقش . ومن الواضح أن المدن المقصودة هنا هي تلك «المتحالفة» مع انطوخ أو التي تدخل في حدود ملكيتـه أو تلك التي تقـع في منطقـة الاراضي المخصصة للهبـات . وقـد يبـدو من هـذه الـوثـائق أن عـلاقات «التحـالف» مع المـدن كانت الـواقـع السيـاسي الـوحيـد الممكن بـالنسبـة للملوك السلوقيين . ولكن دعونا ندرس هذه المسألة بتفصيل أكـثر . اذ يتضح من كـثرة الوثـائق التي وصلتنا من ديوان الملوك السلوقيين أن حال المدن تتحدد مباشرة من قبل الملك إمـا بأمـر صادر الى موظفيه المختصين FL.Ios.Ahtt.,12,138–144 اذا كان الأمر يتعلق بأراض محتلة وأما بعـد الاتفاق مـع ممثلي المـدينة عـلى التحالف مـع الملك (Polyb.5.68,7) أو بعقد قـائم على أساس ضمانات دولية (OGIS,2,57) . وفي الحالتين الأخيرتين تكون المدينة عبارة عن وحدة سياسية لها علاقات معينة مع الملك وليست جزءاً لا يتجزأ من الدولة . ولو لم يكن واقـع الحال هكذا لما كانت هناك أية ضرورة لأية محادثة حول اقامة تحالف أو لضمانة دولية لسيادة المـدينة . ولا شك أنه من الممكن اعتبـار وجود مثـل هذه الحـالات تعبيراً عن ضعف دولـة السلوقيين . ولكن وجودها لم يكن ممكناً فيما لو أن الحال القانونية للمدن لم تتضمن مقدمات ظهورها .

إلا أن قرار الاجتماع الشعبي لمدينة سلوقية بيرية بإعـطاء حق المواطنيـة لا اريستولـوخ يناقض ما قيل منذ برهة . فقد اتخذ هذا القرار بناء على توجيه من الملك وقد أرفق هذا التوجيه بالقرار الذي اتخذته سلطات المدينة ولكنه لم يصل الينا كاملاً . ويـدعى توجيـه الملك هذا الى سـاطات المـدينة Prostauma أي «أمـر» . وقد يخيـل للوهلة الأولى أن استعمال مثـل هـذه التعابير يفـترض أن تكون للملك سلطة مـطلقة عـلى المدينـة . وهذا الجـانب يعتبر جـوهريـاً للغاية – فالملك لا يستطيع أن يتصرف مباشرة بالقطاعات التي تدخل في صلاحيات المدينـة ، أن يهدي اريستولوخ حق المواطنية بمرسوم منه مثـلاً . إلا أنه يستـطيع أن يقـترح على سلطات المدينة اتخاذ هذا القرار أو ذاك ولكن حق القرار يعـود لهذه السلطات فقط . وعـلى الأرجح ان كل هذه المقدمات لم تتعد الشكليات إلا أن استمرارية هذه الشكليات لها دلالة خاصة . ففي ظروف خاصة وفي حال ضعف سلطة الملك كانت هذه الشكليـات تكتسب محتوى حقيقيـاً . وأخيراً هناك أمر آخر له أهمية جوهرية الا وهو البعثة التي أرسلتها مدينة سلوقية بيرية الى الملك والتي قدم لها اريستـولوخ خـدمات هـامة في القصر الملكي . فـالعلاقـات بين الملك والمـدينة كانت مبنية كما يبدو على نمط أية علاقات دبلوماسية أخرى قائمة بين طرفين مستقلين شكلياً .

يفيدنا النقش OGIS,229 ان المدن التي كانت خاضعة للملك تستطيع أن تعقد فيما بينها تحالفات . كما ويؤكد مثال صور أن المدن الخاضعة لسلطة الملك كانت تستطيع اقامة علاقات دبلوماسية مع مدن أخرى غير خاضعة لنفس الملك ودون الرجوع إليه (SEG,2,330,4601) .

وهكذا نرى أنه بمعزل عن أن الملك هو الذي كان يحدد الحال السياسية للمدينة فقد كانت هذه تسلك سلوك وحدات سياسية ذات سيادة . بل وأكثر من هذا نرى أن جوهر العلاقة القائمة بين الملك والمدينة كان يرمز اليه بكلمة eunoia - «كلمة الخير» أما علاقة المدينة تجاه الملك فكانت أكثر خصوصية - «الاخلاص» OGIS,12,223,2290 وبهذه الكلمة كان يرمز للعلاقة القائمة بين مدينتين مستقلتين عن بعضهما البعض (SEG,4,601 ، القرن الثاني ق . م .) ولعلاقة نائب الملك نحو المدينة (OGIS,55,58,213,243) وكذلك لعلاقة فرد ما تجاه الملك (OGIS,51,113,220,247) والى علاقات الأفراد مع بعضهم (OGIS,256,IGRR,3,1102,1017) . أي أن تعبير eunoia لم تكن له أية صفة قانونية وبالتالي لم يكن يحدد حال المدينة . وفي نفس الوقت كان يجري استخدام هذا المصطلح عندما لم يكن الأمر يتطلب تحديد المكانة التي تشغلها المدينة في وحدة سياسية ما ولكن عند تحديد موقفها حيال سياسة الملك أو تجاه سيادة هذه الشخصية أو تلك . وعليه تبرز أمامنا معضلتان : تحديداً ، كيفية تجلي سلطة الملك على المدينة وماهية الطبيعة الاجتماعية لتلك المؤسسات التي تجلت عبرها ، ظاهرياً ؟

يتردد معنا في النقوش التي وصلت الينا من مختلف مناطق سورية السلوقية مرتين تعبير ممثل الملك في المدينة المعنية . ففي الأمر الذي مر معنا ذكره سابقاً حول منح حق المواطنية في مدينة سلوقية بيريية إلى أريستولوخ (JMI,3,1183) وردت صيغة تدل على أن الاقتراح قدم من قبل ممثل الملك ومن أعضاء المجلس . وهناك وثيقة أخرى تبحث موضوعاً آخر وقد وصلت الينا من اللاذقية (JMI,4,1261,) ووردت في مقدمتها نفس الصيغ تقريباً Askb l epiadou epistatou kai arkhontonuome. ونحن على يقين بأن هذه المواد لاتسمح لنا أن نذهب بعيداً في استنتاجاتنا . ولكن مما لاشك فيه أن ممثل الملك كان يستطيع أن يتقدم بالاشتراك مع أعضاء المجلس باقتراحات الى المجلس والى الاجتماع الشعبي . ولكن من المستبعد أن يكون ممثل الملك هذا يعمل بصفته مستشاراً أو زعيماً لجماعة من كبار الموظفين . ولا يستبعد احتمال آخر : وهو أن يكون الاقتراح المقدم قد تم الاتفاق عليه مسبقاً

بين ممثل الملك ومجموعة من أعضاء المجلس وذلك عندما رأى ممثل الملك أن تدخله ضروري . فقد كان تحرك هؤلاء الممثلين غير منتظم حيث كانوا يتدخلون عندما يكون الأمر مهماً وضرورياً فقط . بمعنى آخر لم تكن مشاركة ممثلي الملك في اتخاذ قرارات سلطات المدينة ضرورية ولكن لم يكن بالامكان اهمال رأيه عند حل هذه المشكلة أو تلك من مشاكل المدينة . وفي نفس الوقت لم يكن باستطاعة هؤلاء الممثلين تجاوز سلطات المدينة عند اتخاذ أية قرارات تهم المدينة .

ومما له دلالة خاصة أن اقتراحات الملك الى المدينة كانت تصاغ على شكل تمنيات ولم تكن فيها أية كلمات تعبر عن صيغة الأمر . فتعبير Prostaema الذي تكلمنا عنه سابقاً هو رمز للعلاقة اللطيفة والمهذبة القائمة بين المدينة والملك وليس أكثر من ذلك أبداً .

والمظهر الآخر لسلطة الملك على المدينة يتجلى في جمع الضرائب ومختلف أنواع الأتاوات . ومن المعروف أن كتاب أرسطو «الاقتصاد» أعطى شرحاً مفصلاً نسبياً لطابع فرض الضرائب في المملكة السلوقية (2,1,4) حيث يعدد أرسطو الواردات الآتية من جمع الضرائب وذلك عندما يجري الكلام عن starpike . ويعدد الكاتب هنا ست أنواع من هذه الواردات : من الأرض ، من الملكيات الخاصة الواقعة ضمن حدود الوحدة السياسية الادارية المعنية[١٤] ، من ادخال واخراج السلع ، التعرفات ، ضرائب القطيع «وغيرها» . ويدقق المؤلف بعد ذلك قائلاً بأن أتاوة الأرض هي نفسها الضريبة التي تسمى ekphorion أو العشر (المقصود هنا التقييم الكمي للضريبة) وتتم جباية الذهب والنحاس أو الفضة من الملكيات الخاصة وذلك حسب امكانياتها الواقعية أما فيما يتعلق بالمدفوعات فالمقصود هنا ما يجمع من الأرض ومن القطاع التجاري والضريبة المترتبة على القطيع تشكل عشر الولادات . وأخيراً المقصود «بغيرها» - أي الأتاوة المترتبة على كل فرد والضرائب التي يدفعها الحرفيون .

ويشكل الجزء الأول من كتاب ماكافييف تكلمة جوهرية لهذه المعطيات حيث يعدد المؤلف أنواع الضرائب التي تجبى من سكان المملكة السلوقية .

ومن المرجح أن يكون الوضع مماثلاً في باقي المناطق السورية التي كانت تخضع لسلطة

---

١٤ ـ يعتقد روستوفتسيف أن Idia التي يجري الكلام عنها في مصدرنا المذكور ما هي إلا استثمارات زراعية خاصة كانت تدفع الضريبة المترتبة عليها نقدا وفي حالات نادرة كانت تدفعها عينا . وقد تراجع روستوفتسيف فيما بعد عن رأيه هذا حيث اعتبر Idia ملكيات تعود للملك شخصيا .

البطالمة . ويذكر الرّقم المشهور رقم SB,8008(عام ٢٢٦ - أو ٢٦١ ق . م .) نوعين من الملكية (والكلام هنا عن ملكية القطيع) : الملكية التي تخضع للضرائب والملكية المعفاة منها . ولكن ، حسب الأمر الملكي الذي وصل الينا عدد من مقاطعة كان يتوجب عرض القطيع الخاضع والمعفى من الضرائب على مراقب الشؤون الاقتصادية لتسجيله . أما من يتهرب من تنفيذ هذا الأمر فيفقد قطيعه ويعاقب . وكان القطيع يخضع لمراقبة دورية ويعاد تسجيله بين فترة وأخرى .

وهكذا نرى أنه يمكن تصنيف الضرائب في سورية الهلنستية في الفترة التي سبقت الاستعمار الروماني مباشرة الى : ضرائب عن الأرض، قسم من البذار ، محصول المنتجات الحقلية وولادات القطيع ، الضرائب المترتبة على ممارسة الحرف ، الضرائب المترتبة على النشاط التجاري ، واستخراج الملح ، الضرائب المترتبة على استخراج الخمور والضرائب المفروضة على كل فرد . وهي بهذا الشكل تنقسم الى ثلاث فئات : الضرائب المترتبة على مختلف النشاطات الانتاجية ، الضرائب المترتبة على الارباح التجارية والفئة الأخيرة وهي الضرائب التي لاتنتمي لا للفئة الأولى ولا للفئة الثانية . وبالتالي فإن كل هذه الضرائب بما فيها الضرائب المترتبة على استثمار الأرض تعتبر تحقيقاً للسلطة القانونية العامة والتي جاءت نتيجة لعلاقات التحالف أو نتيجة لاستخدام القوة المباشرة .

ومن المعروف أن الضرائب في الدولة السلوقية كانت تجبى بواسطة المتعهدين وهذا ما كان ينطبق على سورية أيضاً (F'L.IOS.,Antt.,12,169)(١٥) . ولكن على ما يبدو أنه كانت هناك طريقة أخرى لجباية الضرائب وذلك عن طريق موظفي الملك أنفسهم وهذا ما يشير اليه مصدرنا (I Makk.,3,29) .

والآن غدا بإمكاننا أن نقول أن وضع المدينة في الدولة السلوقية كان يتحدد بالسمات التالية . نظرياً ، كانت المدن عبارة عن وحدات سياسية ذات سيادة ولكن هذه السيادة كانت منوطة بارادة الملك الذي كان يمارس سلطته على المدينة وقد تجلى ذلك في مشاركة موظفي الملك بادارة شؤون المدينة وجمع الضرائب لصالحه .

ومن الطريف أن بوليبوس (15,24 a)لم يعتبر الخصائص التي اتصف بها العصر الهلنستي والتي أشير اليها في كل المصادر المتوفرة لدينا - لم يعتبرها جوهرية . فقد كتب يقول أن الملوك كانوا يعلنون دائماً في بداية عهدهم أنهم أصدقاء الكل وأن الكل حلفاء لهم ولكن ما

١٥- م .ى . روستوفتسيف ، تاريخ التعهدات الحكومية في الامبراطورية الرومانية ١٨٩٩ .

ان يرسخوا مواقعهم في السلطة حتى يبدؤوا التصرف لا كحلفاء وإنما كطغاة . وهذه الصفة الأخيرة لاتنسحب على الحال القانونية للمدينة فقط وانما هي تمثيل حي لواقع المدن وتعريف واقعي صادق لسياسة الملوك الذين كانون ينكسون بوعودهم في أغلب الأحيان .

وهنا نقول أن هذا النظام لم يكن سوى التطوير المنطقي للوضع الذي كان قائماً في الشرق الأوسط قبل العصر الهلنستي والذي يمكن وصفه ، كما نرى بازدواجية السلطة : سيادة المدينة كوحدة سياسية مستقلة شكلياً وسيادة الملك المفروضة بالقوة على المدينة .

أراضي الملك

من المعروف أن أول اشارة لهذه الفئة من الأراضي جاءت في أمر الاسكندر المقدوني بخصوص ليبية (OGIS,1)حيث جرى الكلام عن أن سكانها الذين يعيشون في نافلوخ يحافظون على استقلالهم الذاتي وعلى حريتهم وسوف يملكون الأراضي والبيوت وكل المنطقة التي يسكنون . أما الفئة الأخرى من الأراضي فتعلن أنها أراضي الملك . ويقطنها أناس ملزمون بدفع الضرائب . وهكذا فإن أراضي الملك – هي أراض منفصلة عن أراضي المدينة وتعود ملكيتها الى الملك وحده وتؤمن له دخلاً يؤديه العاملون فيها على شكل أتاوات(١٦) .

ولكن هذه الفئة من الأراضي كانت تضم على ما يبدو قسماً آخر تعود ملكيته لأفراد . وهذا ما يؤكده العقد الذي وقعه انطوخ الثاني لبيع أراض في بانوكوما الى مطلقته لاوديكا (OGIS,225)يقابل (WC,18–20)ويحق لها بموجبه أن تسجل هذه الأرض في المدينة التي تختار . كما وتعطى نفس الضمانات لمن يشتريها منها أو يحصل عليها بطريقة ما أخرى . ولكن فيما اذا قامت لاوديكا بضم هذه الأراضي الى هذه المدينة أو تلك قبل أن تبيعها فلا يحق للمشتري بعد ذلك نقلها .

وقد منح أنطوخ الثاني نفس الإمتيازات إلى أريستوديكيوس عندما أعطاه الأرض (OGIS,221,)يقابل (Wc,10,–13) ونرى من الأمر الملكي الصادر ببيع الأرض إلى لاوديكا انه قد أخذت هنا بعين الإعتبار الحالة التي لاتكون بموجبها الأراضي التي تعود ملكيتها لأفراد تابعة لمدينة ما . ومثل هذه الحالة ممكنة فيما إذا اعتبرنا أن أرض لاوديكا بعد أن أصبحت ملكاً

١٦ ـ أن الواردات التي تأتي على شكل أتاوات لايمكن أن تكون دليلا على وجود ملكية الملك أو على وجود الملكية العليا الخ ... كما يرى بعض الباحثين . ذلك أن الأمر هنا لايعني أكثر من تحقيق سلطة الملك . ويمكن أن نتكلم عن الملك كمالك أعلى فقط في حال أنه يمارس صلاحيات هذا المالك .

لأفراد بقيت خاضعة لمنطقة نفوذ الملك . وأوضح أيضاً : إنه لايستطيع الفرد الذي حصل مجدداً على الأرض ، عن طريق شرائها ، أو بأية وسيلة أخرى - أن يغير من وضعها القانوني دون موافقة البائع ولكن من جهة أخرى كان باستطاعة الملك فيما إذا استخدم سلطته أن يسمح بذلك . وفي نفس الوقت لايتحتم على الشاري أن يقوم بهذا العمل إذا لم يطلب منه الملك ذلك . وليس صدفة إن عقد لاوديكا المذكور لا ينص على وجوب وإنما ينص على حق . فضم هذه الأرض أو تلك إلى أملاك المدينة كان يتطلب (ولو شكلياً) موافقة هذه المدينة على ذلك . وهذا ما تؤكده رسالة ميلياغر الغليسبونطي التي يفتتح بها النقش OGIS,221 والموجهة إلى سلطات ايلون . يعرب ممثل الملك عن تمنيه على السلطات أن تتخذ قراراً بتكريم اريستوديكيدوس أن تقدم له عدداً من الإمتيازات بينها السماح له بضم الأراضي التي حصل عليها إلى أملاك أيلون . ويفهم من صياغة هذا الإقتراح أن سلطات المدينة غير ملزمة إطلاقاً بقبول ضم هذه الأراضي إلى أملاكها . كل هذه المعطيات تدل على أن صاحب الأرض الجديد لم يكن ملزماً بتغيير وضعها القانوني .

وهكذا فإن تعليقات OGIS 221,OGIS,225 تتلخص في أن لاوديكا والأفراد الآخرين الذين من المفترض أن تصبح لهم ملكيات في بانوكوم بعدها وكذلك أريستوديكيدوس بعد أن حصلوا على الأرض من الملك كان لهم الحق في أن يغيّروا الوضع القانوني لأراضيهم بعد موافقة المدينة المعنية على ذلك .

يتضح لنا الآن إذن أنه كان من الممكن أن تظهر ملكيات فردية خاصة في المنطقة التابعة للملك وذلك إما عن طريق البيع وإما عن طريق الهبات . وفي كلتا الحالتين كان الملك يمارس سيادته على هذه الأرض كسيد أوحد لها وهو الذي كان يسمح بتغيير وضعها القانوني (١٧). حتى الآن كنا ندرس المصادر الواردة إلينا من آسيا الصغرى في العهد السلوقي ولكن المواد المتوفرة لدينا عن سورية نفسها تؤكد إنه كان من الممكن أن تحدث هنا أيضاً عمليات كتلك التي حدثت بين أنطوخ الثاني ولاوديكا أو أن تهدى الأرض كما حدث لأريستوديكيدوس ذلك أن تحول الأراضي والقرى إلى ملكيات خاصة لم تكن ظاهرة محصورة في منطقة واحدة . فحسب للنقش المعروف الذي وصل إلينا من قرية بيتوكيكا OGIS 262 (IJRR 3 1020 Wadd2720a) كانت ملكية هذه القرية ، قبل أن يهبها أحد السلوقيين إلى معبد زفس ،

١٧- نبدأ من عمل روستوفتسيف M.Rostovtzeff,studl الذي يعتبر أن ضم الأراضي التي يهبها الملك لأفراد معينين الى ملكية احدى المدن أمر ضروري ولابد منه . ف . تارن ، الحضارة الهلنستية ، موسكو ١٩٤٩ . أ . ب . رانوفيتش ، العصر الهلنستي . ولكن هذا يناقض تماماً نص النقش الوارد الينا بخصوص لاوديكا واريسودكيدوس

تعـود إلى ديميتريـوس بن ديميتريـوس بن مناسيـا[١٨]. ويشير النقش المـذكور إلى وجـود أراض داخل أراضي الملك تعود ملكيتها للمعبد وهي تلك الأراضي التي وهبهـا الملك نفسه للمعبـد وفي هذه الحال لا فرق أبداً بين المعبد وأي فرد آخر . وتفيدنا رسالة أنطوخ الأول إن هذا الملك قـد أهدى قـرية بيتـوكيكا ومـا يتبعها إلى المعبـد[١٩] وما يميـز هذه الـوثيقـة عن وثيقـة لاوديكـا واريستوديكيدوس هـو أنها لا تشير إلى إهـداء الأرض مع العـاملين فيها كـما جاء في الـوثيقتين السابقتين[٢٠]

فالكلام هنا يجري عن إهداء المعبد مـوسم العام الجـاري فقط . بالإضـافة إلى ذلـك يشترط أن تخصص الإتاوات المفروضة عـلى السكان لتغـطية نفقـات تقديم الأضـاحي . كما ويشار إلى الواردات الأخرى التي يحق للكاهن التصرف بها لتغطية حاجـات المعبد . وهكـذا فإنه بـالإضافـة إلى منح المعبـد حق ملكية القـرية المعنيـة (وعلى الأرجـح أن المقصود هنـا هي الأرض ومختلف أصنـاف المنشآت التي أصبحت ملكـاً للمعبد) أكـد الملك أيضاً عـلى حقه في الحصول على مختلف أنواع الواردات ووهب للمعبد حق جباية الضرائب التي كانت فيـما مضى تجبى لصالح خزينة الملك . ولكن حق جباية الضرائب لم يكن يعطى بشكل أتـوماتيكي مـع إهداء الأرض أو القرية كما هو مفروض . وفي حـال كون الأمـر عكس ذلك لم تكن هنـاك أية حاجة لـلإشارة بشكـل خاص إلى إعـطاء الحق المذكـور . بل وأكـثر من ذلك أن حق جبـاية الضرائب لم يعط إلا لمدة عام واحد فقط .

---

١٨ ـ أن تفسير الفعل Ekho على اعتبار أنه يرمز إلى الاحتفاظ المشروط يناقض تماماً المعنى الحقيقي لهذه الكلمة التي تعني استخدام حقوق المالك .

١٩ ـ لقد فهم روستوفتسيف عبارة Oden kaie dunamis tou zeo katarkntai ان الآلهة عن طريق اظهار قوتها طلبت اعادة ملكية القرية الى المعبد وكانت قد سلبت منه قبل اجداد الواهب نفسه (M.rostovtzeff studien) . ولكن النقش لايشير لامن قريب ولامن بعيد إلى أن قرية بيتوكيكا كانت في السابق ملكا للمعبد ومن جهة أخرى لم يكن باستطاعة واضعي النقش المذكور ألا يشيروا إلى انتزاع ملكية طرف من قبل طرف آخر وبصورة غير قانونية . ويؤكد واضع النقش أنه أهدى هذه الأرض لان قوة الآلهة تجلت هنا بالذات ولكن يبقى الأمر غير واضح لنا تمام الوضوح : كيف تجلت قوة الآلهة هذه وبأية مظاهر؟ ولذلك فكل مانستطيع قوله هو أن التجلي المذكور كان مناسباً للملك .

٢٠ ـ ولذلك نعتبر أن وجهة نظر روستوفتسيف (المصدر المذكور) التي تقول بأن الملك عندما أهدى الأرض للمعبد أصبح لهذا الأخير الحق بأن يتصرف بـKatokhoi الذين يقطنون قرية بيتوكيكا لاأساس لها . ويعتقد روستوفتسيف أن سكان هذه القرية كانوا بمجملهم من Katokhoi الذين نشروا كل هذه الوثيقة ولكنه يعترف انه من غير الواضح لنا ما اذا كان المقصود فقط رجال الدين بالمعنى المحدد لهذه الكلمة أم أن المقصود سكان القرية التابعين . لقد أوضح و . و . كروغير معتمدا في ذلك على مصادر مصرية من العصر الهلنستي أن Katkhe هم أفراد أهدوا أنفسهم لخدمة المعبد . ويقول و . فيلكين في هذا الإطار أن Katokhe وهم قوم أهدوا أنفسهم لخدمة الآلهة بملء إرادتهم وذلك بعد أن اختارتهم بنفسها ومنحتهم قوة الأنبياء الخارقة . وفي أية حال نحن نرى في Katokhoi فئة من السكان التابعين للمعبد .

وكما يتضح من القرار الذي اتخذته المدينة(افاميا ـ إ . ش .)وأرسلته إلى أوغسطس «فإن المعبد قد أصبح تابعاً للمنطقة التي تملكها المدينة اعتباراً من القرن الأول للميلاد . وتجدر الإشارة إلى أن هذا القرار جاء مباشرة بعد الرسالة التي وجهها أنطوخ إلى سلطات المدينة حول هذا الموضوع . وبالتالي إن أراضي المعبد في بيتوكيكا قد دخلت هي الأخرى في نطاق الأراضي التابعة للمدينة . وإذاأردنا أن نعرف أسباب هذه الأحداث فعلينا أن نبحث عنها في عدم الإستقرار السياسي الذي ساد الحقبة الأخيرة من عهد السلوقيين والمرحلة الأولى من العصر الروماني . والوحدة السياسية الوحيدة التي حافظت على قوتها وهيبتها في هذه الفترة هي المدينة ولذلك فقد قرر الاكليروس الإعتماد عليها .

وفي هذا السياق ترتدي أهمية خاصة بالنسبة لنا المصادر التي وصلتنا من كوموجين . فالنقش الذي أوردناه سابقاً(ص ١٦ ـ ١٧)والذي وصل إلينا من أرسام في نيمفا يقول أن الملك هو الذي أهدى المعبد أرضاً من أراضيه الخاصة لسد حاجات العبادة وتقديم الأضاحي ولكنه احتفظ لنفسه بكل واردات هذه الأرض . وتفيد كلمة Kazosiesa الواردة في النقش بخصوص هذه الأرض إنها أصبحت ملكاً للآلهة أي ملكاً للمعبد . وتفيدنا الصيغة التالية Kai prosodous ek tautes akinetou ape-taxa بأن الأتاوات التي تأتي من الأرض التي وهبها الملك للمعبد سوف تصب بكامل حجمها في خزنة المعبد . وقد أشير أيضاً إلى أن الملك أعطى الكهنة حق التصرف بهذه الأرزاق . ومن هنا نستطيع القول إنه عندما كان الملك يهدي هذه الأرض أو تلك لم يهب تبعاً لذلك الواردات الآتية منها .

ويفيدنا النقش OGIS,383 بوضع مماثل حيث يخلد الملك الكوموجيني المذكور أنطوخ الأول أحد المعابد المحلية Khoran te ikanen Kai prosodous ex autes akinetous eis zusion poluteleian apeneima. ويحتوي النقش على «قانون» ينظم وضع المعبد ووضع الأرض المهداة إليه وقد صيغ هذا الوضع على الشكل التالي : «يأخذ الإتاوات من القرى التي أهديتها له أنا» . والأمر الجوهري الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو تحديد حجم الحقوق التي يتمتع بها المعبد في هذه القرية : حيث أنه لا يحق لأي كان تسجيلها أو إهداؤها أو تغيير وضعها القانوني أو المس بمصالحها بأية طريقة كانت . وتنسحب هذه القيود على الواردات الآتية من الضرائب أيضاً والتي حولها الملك إلى Khtemadaimon onasulon . وقد أدى ذلك إلى الحد من سلطة خلفاء أنطوخ الأول على أراضي المعبد وفي نفس الوقت لم يكن يحق للمعبد أن يضم هذه الأراضي إلى أملاك المدينة .

وإلى جانب وجود الملكية الخاصة في الأراضي التابعة للملك كانت هناك أيضاً ملكيات حصل عليها أصحابها إما لقاء أدائهم الخدمة العسكرية في جيوش الملك وإما لقاء تقديم خدمات أخرى وذلك حسب النظام الذي كانت تعطى الأرض بموجبه طالما أن المهدى يؤدي خدماته فإذا ماانقطع عن تأديتها لسبب ما تسحب منه الأرض . وهذا النظام لم يكن سائداً في البلاد التي كانت تابعة للسلوقيين أو البطالمة فقط وإنما كان سائداً أيضاً في المناطق التي كان يحكمها حكام محليون وعلى وجه الخصوص في منطقة شرقي الأردن التي كانت تحكمها أسرة التوبياديين (PSZ,59003 CPOJ,I)[٢١]. من الناحية النظرية كان الوضع القانوني لهذه الأراضي يتحدد بالعوامل التالية : مالك الأرض هو الملك وحيازتها مشروطة بتأدية خدمات معينة وفي حال انقطاع هذه الأخيرة يسقط تبعاً لذلك حق الحيازة[٢٢]. ولكن نقش منسيماخ[٢٣] المعروف والمؤرخ في نهاية القرن الرابع ق . م . يسمح لنا بمعرفة اتجاهات أخرى في هذا النموذج من حيازة الأرض . فالأمر على ما يبدو أكثر تعقيداً . إذ إنه من المعروف أن هذه الوثيقة عبارة عن عقد بيع مع حق الشراء ثانية . فمنسيماخ هذا قام ببيع عدد من أملاكه إلى المعبد بعد أن عجز عن تسديد ديونه لهذا المعبد وكان قد رهن هذه الأملاك لدى هذا الأخير . ويحتوي العقد على نص يمنع على منسيماخ وخلفائه أن يطالبوا بهذه الأرض مستقبلاً كما وتحدد الغرامة التي يجب دفعها فيما إذا رفع أحدهم دعوى لاسترجاع الأرض . وتؤخذ بعين الإعتبار كيفية تغطية النفقات التي قد يتكلفها المعبد فيما إذا قام الملك باسترجاع الأرض منه «بسبب منسيماخ» .

وأثناء إعداد الوثائق والإجراءات المرتبطة بهذه العملية جرى ذكر القرى والكهنة واستثمارات الـ Laoi ـ وكذلك العبيد والبساتين وأراضي منسيماخ نفسه . ولكن بسبب غياب مقدمة النقش لانستطيع معرفة أي شيء عن تاريخ هذه الأملاك قبل وصولها إلى منسيماخ .

ننتقل الآن لدراسة أوضاع القرى التالية : تابالمور الواقعة في سهل السرد قرب تلال ايلا وتاندوق القريبة منها وكذلك كومبديليريا (لقد كانت هذه القرى تدفع الإتاوات المترتبة

---

٢١ ـ في تعليقه على هذا الرقم يقول ا . تشيركوفير إن هذا النظام طبقه البطالمة في منطقة شرقي الاردن وكانوا قد جلبوه معهم من مصر . ولكننا نعتقد إن الحاكم المحلي كان يستطيع استخدام التقاليد المحلية في هذا المجال كما ووجد . م . دياكونوف نفس الظاهرة في الدولة الآشورية الجديدة .

٢٢ ـ على أية حال كان هذا هو الوضع في أملاك البطالمة . انظر R.taubech lag,the lawofgree Romanegypt inthe lightofthepapyri,warszwa,1955.

23 — W.h.bukler,dm.Robison,greek inscripitions,from sardes i, — Aja vol,16,1912

عليهـا إلى المعبد وكـانت تشكل من ٥ - ١٠ ستـاترات ذهبيـة في العام) وكـانت قريـة بـيريـا سوسترا الواقعة في منطقة «مياهمورست» (تـدفع الإتـاوات المترتبـة عليها إلى معبـد ساغـوريا وكانت هذه الاتـاوات تشكل ٥ - ٧ ستـاترات ذهبيـة في العام) ، قـرية إيليـوكوم في منـطقة أتّودا (وكانت تدفع سنوياً ثلاث أبولات ذهبية وثلاث ستاترات ذهبية) . ويتضح مما سبق إنه فيما لو لم يشترط في العقد انتقال حق جباية الضرائب إلى المالك الجديد لاستمرت هذه الأرزاق تصب ، كـما في السابق في خـزنة الملك . وهكـذا تسقط المقولـة التي مفادهـا أن حق جبـايـة الضرائب كان ينتقل أوتوماتيكياً إلى المالك الجديد بعد إهدائه الأرض أو حصوله عليها كهبة .

الفئة الثانيـة من أراضي منسيماخ هي الكليرات (*) من بينهـا كلير في كينار غـير بعيد عن تابالمور (عائداته السنوية ثلاث ستاترات ذهبية) وكلير آخر في منطقة مورست المائية في ناغريـو (عـائداتـه السنويـة ثلاث ستـاترات ذهبيـة وأربع أبـولات ذهبيـة تعـطى لمعبـد سـاغـوريـا كـوريـدا) . من حيث التـوضـع الجغـرافي يجب أن تشكـل القـرى والكليرات امتـداداً واحداً . وكما أن القرى كانت تدفع ضريبة نقديـة كذلـك كانت الكليرات وكـان حجم هذه الضرائب يتحدد على أسـاس مساحـة الأرض وبالتـالي دخلها . بـالإضافـة إلى ذلك كـانت الكليرات ، وكذلك القرى موضوع بيع وشراء . بمعنى آخر كانت الحـال القانـونية للفئتـين واحدة : فكلتاهما ملكية خاصة لمالكيها . وما يلفت النظر في هذا المجال أن المصادر المتوفـرة لدينا لا تعطي أية معلومات عن نظام فـرض الإتاوات في الكليرات التي كـانت موضـوع البيع والشراء . ومثل هذا الصمت يمكن تفسيره إما لأن هذا النظام كان معروفاً ولا حاجة لتسجيله وإمـا أن الضرائب كانت تلغي الاتـاوات . ونحن نعتقد أن الإقـتراح الأول ضعيف ذلك أن الدفعات النقدية ونظام تسديدها مثبت في النقش . أما إذا كان الإقتراح الثاني ممكنـاً فعندهـا تزول كل الفروقات بين القرى والكليرات .

ولتأكيد ذلك يفيدنا وضع آخر : فقد خضعت ملكيـة منسيماخ كلهـا إلى التقسيم بما في ذلك الكليرات والـLaoi وحصل نتيجة لذلك كل من بيغي وأدراست ، ولا نعـرف أي شيء عن هذين الشخصين على ممتلكات في قريتي تّابالمور وبيرياسوسترا تضم بيوتاً وعبيداً وبساتـين و Laoi .

ومهما كان الأمر فإن الكليرات في الدولة السلوقية قد أصبحت مع نهاية القرن الرابـع الميلادي موضوع عمليات بيع وشراء كما وخضعت «للإهـداء والهبات» وغـير ذلك من عنـاصر الملكية الخاصة . وهكذا يتضح من النقش أنه كان هناك اتجاه لتحويل الكليرات إلى ملكية خاصة .

(*) الكليرات ـ قرى زراعية ذات طابع عسكري وكانت تقام على أراضي الدول الحليفة أو الخاضعة لروما بهدف تحقيق المراقبة السياسية والعسكرية وكذلك بهدف منح الأرض للمواطنين الذين لا يملكونها ـ المترجم .

قد يتبادر للذهن أن هناك تناقضاً بين ما قيل منذ برهة وبين ما قيل سابقاً عن إمكـانية أن يسحب الملك «بسبب منسيماخ» القرى والكليرات التي حصـل عليها المعبـد من هذا الأخـير (٢٤). وفي هذه الحالة كان على منسيماخ أو ورثته أن يدفعـوا إلى المعبد كـامل الـدين المستحق له عليهم . وقـد فسر بعض البـاحثـين ذلـك بـأن الملك نفسـه كـان المـالـك الأعـلى لهـذه الأرض (٢٥). ويقول ت . زافادسكي : مع أنه كان باستطاعة الملك أن يأخذ هـذه الأرض ساعة يشاء إلا أنها مع ذلك كانت خـاضعة لاستثمار الورثـة الذين عـبروا عن اعترافهم بحق الملكية العليا للملك وذلك بدفع الضرائب له .

ونحن نعتقـد أن هـذا البنـد ينقسم الى العنـاصر التـاليـة : أولاً - الصيغـة diamn esimakhonالتي تؤكد ان الملك يستطيع أخذ الارض من المعبد لسبب ما يتعلق بمنسيماخ . ولكن هذا يعني أنه عندما بـاع منسيماخ الأرض الى المعبـد ، انما بـاعها بشروط prasis epi lusei ولم يفقد الحقوق والواجبات المترتبة عليـه كمالـك لها . وقـد يبدو مثـل هذا الاستنتـاج غريباً ذلك أن عمليةprisepi lusei (أو كـما يقترح ف : بـرينغسكهيم تسميتهاone epi lusei)وهي من حيث الجوهر شكل من أشكال الـرهن - وصل الى حـد أن البائـع لم يشترِ إلاّ موضوع العملية المذكورة - الارض . والسؤال الآخر الذي يطرح نفسه لماذا كان باستـطاعة الملك أن يأخذ من المعبد الارض التي كانت ملكاً لمنسيماخ ؟

نحن نرى أن الاجابة على هذه الاسئلة تكمن في حل المسألة الأكثر عمومية - وهي بنية الأرض التابعة للملك وحالها القانونية .

نستنتج من المواد والمصـادر التي تعرضنـا لها سـابقاً أن الاراضي التـابعة للملك كـانت تضم ثـلاث فئات : ١)ملكيـة الملك نفسـه ، ٢)الملكيـة الخـاصـة لـلافـراد ، ٣)حيـازات مشروطـة . ولكن الملكية الخـاصة داخـل أراضي الملك كانت محصـورة في الأطـر التـاليـة : اولاً- إنها ظهرت بارادة الملك نفسه وثانيـا يمكن الغاؤهـا في أي وقت يريـده . ومن هنا يخيـل الينـا للوهلة الاولى أننا أمـام وضع متنـاقض ، فالملك يستـطيع أن يتصرف بـأراض كانت في السابق ملك لاشخـاص آخرين . بمعنى آخـر لم يكن الملك سيداً وحسب وانمـا مارس فعـلاً صلاحياته على الممتلكـات المعنية حيث كـان يتصرف بالارض كـما يشاء . وعلينـا بالتـالي أن نعترف بواقعية وجهة نظر روستوفتسيف .

٢٤ـ يقول ت . زافادسكي أن هذه الصيغة يمكن أن تعني «بواسطة منسيماخ» أو «بسبب منسيماخ» . وهو يميل نحو الاعتقاد الثاني .

٢٥ـ أ . ب . رانوفيتش ، العصر الهلنستي .

يعتبر المؤلف أن الملكية الخاصة ، بكل ماتعنيه هذه الكلمة غير ممكنة في أراضي الملك فالوضع الناشيء هنا هو ملكية خاصة مجزأة : المالك الاعلى هو الملك والمالك التابع - فرد ما . وعلى هذا الأساس أخذت بعين الاعتبار في نقش منسيماخ امكانية الملك استرجاع الارض التي باعها منسيماخ الى المعبد وكذلك نقل الاراضي التي كانت سابقاً ملكاً لديمتريوس بن ديمتريوس بن مناسيا لملكية شخص آخر . ويعتبر السماح للاوديكا واريستوديكيدوس بتغيير الوضع القانوني لارضهم تخلياً من الملك عن حقه لا كسيد وحسب وانما ، وكما أشار روستوفتسيف كمالك لهذه الأراضي .

والآن أعتقد أننا نستطيع أن نعرف الاتاوات التي كانت تجبى من أملاك الملك بأنها لم تكن سوى ضريبة - ريع (٢٦) فعندما كان الملك يسمح بظهور استثمارات خاصة على أراضيه كان يحتفظ لنفسه بحق جباية الضرائب + الريع وهذا الاخير كان يمكن للملك أن يمنحه (مؤقتاً أو بصورة دائمة) الى الفرد المالك . ويمكن أن يكون الريع مقسما ، وفي هذه الحالة كان يجبى لصالح الملك كضريبة ولصالح الفرد المالك كاتاوات عينية أو نقدية .

وننتقل الآن لمعالجة أهم مشكلة من مشاكل التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي للمجتمع السوري على أعتاب الاستعمار الروماني وهي المسألة المتعلقة بوضع تلك الفئة من السكان التي يرمز اليها في المصادر التي بين أيدينا بمصطلح Laoi (٢٧) فهذه المعضلة مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالمعضلة المتعلقة بالبنية السكانية لمنطقة املاك الملك .

٢٦-لقد كتب ماركس يقول : «إذا كانت الدولة هي التي تقف مباشرة ضد المنتج وليس الأشخاص ذوو الملكية الخاصة . . . . كمالكة للأرض وفي نفس الوقت كسيدة ، عندها يتطابق الريع مع الضريبة أو على الأصح لايكون عندئذ أي وجود للضريبة التي يمكن أن تتميز عن هذا الشكل من أشكال ريع الأرض» (ك . ماركس ، ف . انجلز ، المؤلفات الكاملة ، الطبعة الثانية ، مجلد ٢٥ ، الجزء الثاني ، ص . ٣٥٤) .

٢٧ ـ لقد كان لفرضية روستوفتسيف التأثير الأقوى في حل هذه المسألة حيث يعتبر المؤلف هؤلاء الـ LAoi كالأقنان (Adcripti glebae) الذين سيصبحون ملتصقين بالأرض وبقراهم مع أنهم يتمتعون بحرية الإنتقال وحرية تشكيل منظمة ما تشبه الإتحاد (Rostovtzeff,the social and economic) . ويعتقد رانوفيتش إن وجود هذا الشكل الاتحادي هو دليل على أن هؤلاء الـ Laoi لم يكونوا لاعبيداً ولا حتى أقناناً ، وهو يعتقد إن «بيع» الفلاحين الى لاوديكا في الوثيقة المعروفة لايعني أكثر من إعطائها حق جمع الواردات التي كانت تذهب سابقا إلى خزنة الملك . (رانوفيتش ، العصر الهلنستي) . وعلى النقيض من رانوفيتش يقف ا . غ . باكشانين الذي يعتبر الـ Laoi ملكية خاصة للملك . أما ك .ك . زيلين فيعتبرهم محاصصين أنصاف عبيد . وتعتقد ى .س . سفينتسيسكايا إنه كانت تستخدم ضد الفلاحين أشكال الإلزام غير الإقتصادي ومثل هذه الأشكال كانت ممكنة في ظل المجتمع العبودي فقط ويعتبر كل من ا . ى . تيومنيف و ف . ف . ستروفه إن الـLaoi هم فئة من السكان وضعت مقابل المستوطنين والمستغلين اليونانيين . ولكن تجب الإشارة إلى أن الباحثان لم يخصصا أيْ بحث خاص لهذه المسألة . ويرى تيومنيف («الشرق الأدنى والمجتمع القديم» ـ «قضايا التاريخ» ١٩٥٧ العدد ٩) إن الـ Laoi هم «سكان محليون» يشكلون «القوة العاملة الرئيسية في الزراعة في القسم الآسيوي من

ويعتبر الأمر الذي أصدره بطليموس الثاني من أهم وثائق العصر الهلنستي المعروفة لنا حتى الآن والتي تأتي على ذكر هؤلاء الـ Laoi فقد حاول هذا الملك الحد من عملية استعباد الاحرار في المنطقة السورية التابعة له(SB,8008 يقابل ، BER,24552,). تأخذ مقدمة هذه الوثيقة بعين الاعتبار الوسائل التالية لتحويل الاحرار الى عبيد : الشراء ، الخطف ، السوق وغير ذلك من الوسائل الاخرى - التي تعتبر مبهمة ولا يضبطها أي ضابط - . يأمر الملك بتسجيل كافة الـ-Laoi الذين يتم شراؤهم لدى ناظر الشؤون الاقتصادية في المنطقة المعنية ومن يتهرب من التسجيل يعاقب ويدفع غرامة . كما ويأمر الملك اعتباراً من اللحظة بمنع بيع وشراء الـ-Laoi الأحرار أما الذين تم شراؤهم فيطلق سراحهم ويصبحون أحراراً .

ونحن نعتقد أن ناشري هذه الوثيقة وشارحيها على حق عندما يعتبرون أن كلمة soma لاتعني بالتأكيد - من الناحية - عبداً كما هي الحال في حالات أخرى . وعلى الارجح أن معناها في هذه الوثيقة لا يختلف عن معنى الكلمة الروسية « شخص » « فرد » . ويدعم هذا التفسير ما جاء في النقش IG,13,386 الذي وصل الينا من اغيالا (القرن الثالث ق . م .) حيث يجري الكلام عن غارة ليلية قام بها القراصنة على المدينة « وخطفوا الصبايا والنساء وافراداً آخرين وأحراراً وعبيداً ما مجموعه ثلاثين شخصاً» ثم «تحرير الأفراد الأحرار وبعض المحررين والعبيد » .

أما فيما يخص التعبير soma laikon eleuzeron فيعني الأحرار الذين ينتسبون الى الفئات الاجتماعية الدنيا من السكان الاصليين في سوريا . وهناك اقتراح آخر باعتبار اقتران-somata laikxa el-euzera يعني الأحرار الذين أصبحوا عبيداً(٢٨) .

امبراطورية السلوقيين» . أما ف . ف . ستروفه فقد ركز اهتمامه الرئيسي على Laoi مصر ـ ولكن هذه المسألة خارج نطاق عملنا هذا . فيعتبر المؤلف أن هؤلاء Laoi كانوا يشكلون القسم الرئيسي من سكان القرى المصرية ، وهم غير متجانسين فبعضهم كان يملك وبعضهم لايملك .

Laoi حسب ستروفه هم فئة تتمتع بحريتها الشخصية . ولكن لاتيومنيف ولاستروفة لم يبحثا بشكل مفصل الوضع الحقوقي والإقتصادي لهذه الفئة . ونشير هنا إلى أنه لا تتوفر أية مصادر تسمح لنا بتحديد المكانة التي شغلها هؤلاء Laoi في عملية الإنتاج الزراعي . وأخيرا يرى ي . م . دياكونوف إن الـLaoi هم طبقة مستغلة(بفتح العين) تتعرض للإضطهاد الغير إقتصادي والمباشر ولكنهم لم يكونوا ملكية خاصة للطبقة المسيطرة . ونحن نرى أن هذا التعريف الأخير للـLaoi يهمل التمييز القائم بين مختلف شرائحهم فهؤلاء لم يكونوا دائما من الفئات المستغلة (بفتح الغين)

٢٨-وتعتقد بافلوفسكايا أن اقتران مصطلح Soma بالتعريف Eleuzeron يترك انطباعا عن تداخل نقطتيّ بداية ـ العبودية والحرية . «ومن المرجح إننا لانستطيع أن نتكلم عن Somta eluzera وعن Somata oiktikha إلا إذا كان الكلام يخص الـLAOI ذلك انه هنا فقط تنمحي الحدود بين العبودية والحرية فالإنتقال من هذا الوضع إلى ذاك كان يحدث بصورة مستمرة «(ت . بولتا فسكايا ، س . غالوبتسوفا ، ا . ى . بافلوفسكايا العبودية .

ونحن نعتقد أنه أقرب الى الحقيقة أن نعتبر الفئة الوارد ذكرها في هذه الوثيقة ، من السكان الاحرار الذين ينتسبون الى فئة ال LAOI أكثر مما هم من السكان الاصليين الأحرار . وهذا ما تدل عليه صراحة الصفة Laikon . وكان من الممكن أيضاً أن ينتسب الى هذه الفئة أناس غير أحرار كانوا موضوع مختلف عمليات البيع والشراء . وتذكر الوثيقة التي نحن بصددها الـ Soma tLaikaoikaالذين كان من المسموح به قانونياً بيعهم وشراؤهم . أما اذا أثبت التقصي أن الشخص المباع كان قبل بيعه عبداً فعندئذ يجب أن يبقى لدى مالكه .

وهكذا نستطيع القول أن الانتساب الى فئة ال-Laoi لا يعني فقدان الحرية الشخصية أوالحفاظ عليها . ونشير أيضاً الى أن الوثيقة المذكورة تأتي على ذكر الوافدين والمحاربين الذين يعيشون في سوريا وفينيقيا والمتزوجين من نساء ال-Laoi حيث يعفون من تسجيل نسائهم كـ Somata Laika oLeuzera .

نستطيع القول الآن أن الأمر الصادر عن بطليموس الثاني فيلاديلف يبيّن أن الـ Laoi كانوا فئتين : أحرار وعبيد ونحن نعتقد أن لهذا الوضع أهمية استثنائية عند تحديد الحال القانونية لل-Laoi الذين جرى بيعهم وهذا ما يصادفنا في عدة وثائق .

ونشير أول ما نشير الى وثائق ديوان مملكة السلوقيين حيث تؤكد الوثائق المذكورة أن بيع ال-Laoi كان مشروطاً دائماً . فالنقش الذي يحتوي وثائق بيع لاوديكا قرية بانوكومي (OGIS,225,Wc,18—20) يشير الى أن الشارية الى جانب امتلاكها مختلف Topoiالتي كان يمكن وجودها في بانكومي تحصل على ال-Laoi العائدين لها مع كل ما يملكون . كما ويعطي لها أيضاً أولئك ال-Laoi الذين نشأوا في topoiوانتقلوا الى أماكن أخرى . وهكذا نرى أنه بموجب عمليات البيع والشراء هذه حصلت لاوديكا على حق ملكية القرى وال-topoi وال- Laoiالذين جرى اعتبارهم أيضاً موضوعاً لهذه العملية التجارية . وإذا أخذنا وثيقة مماثلة من ديوان البطالمة نرى أن هؤلاء الـLaoi كانوا حسب رأينا عبيداً للملك ولذلك فقط كان يمكن بيعهم أو إهداؤهم .

إن مايميز وضع هذه الفئة هو أنها كانت مرتبطة إدارياً بـtopoi معينة وعبرها بـKome التي كانت تعتبر على ما يبدو المركز الاداري لـtopoi ومن الواضح أن هذه العلاقة لم تنقطع حتى عندما ينتقل الـLaoi الى مكان آخر . أي أنها لم تكن عائقاً أمام انتقال هؤلاء الناس : فاستخدام الفعل metokhomai في الوثيقة لايعني من حيث محتواه أن انتقال الـ Laoiالى مكان آخر هو فعل مخالف للقانون وانما كان يجب اعلام السلطات الملكية عن هذا الانتقال

ذلك أن الامر يخص أشخاصاً تابعين مباشرة للملك . ولو كان انتقال الـLaoi مخالفاً للأنظمة لما كانت هناك حاجة لتأكيد هذه الإمكانية . بل كانت قد اتخذت ضدهم الإجراءات الرادعة الضرورية . وقد أشارت الوثيقة التي بين أيدينا الى امكانية مثل هذا الوضع الامر الذي يمكن تفسيره بعدم معرفة الملك بواقع الاشياء وهذا ما كان يجب التأكد منه على الطبيعة عند تسليم لاوديكا الاملاك التي اشترتها .

ويبقى بدون جواب السؤال حول سبب العلاقة القائمة بين Laoi وبين topoiذلك أنه حتى المصدر الذي بين أيدينا لا يعطي أي شرح لأسباب هذه الظاهرة . ولكن يمكن أن نتصور ، من الناحية النظرية امكانية وجود طريقين لظهور هذه الفئة من السكان . احدهما- غرس العبيد في الارض وتحويلهم الى مزارعين تابعين والطريق الآخر- تحويل سكان المنطقة المحتلة الى تابعين .

واذا علمنا أنه أثناء الحروب التي تشكلت خلالها الدول الهلنستية او تقاتلت فيما بينها لم تحدث تلك الهجرات البشرية الكبرى كما حدث أثناء فتوحات الملوك الآشوريين فيمكننا القول أننا أمام الطريق الأول .

أما وثائق العملية التي جرت بين انطوخ الثاني ولاوديكا فلا تتضمن أية معلومات بخصوص الأتاوات التي كان يجب على Laoi تأديتها لاسيادهم . والإشارة الوحيدة التي يمكن أن تعزى لهذا الوضع - هي البند الذي تعطى لاوديكا بموجبه حق الحصول على واردات العام الجاري . ولكن من الممكن أن تكون هذه الواردات ضرائب تجبى لصالح الملك كتحقيق لسلطته . وليس صدفة أن يتنازل الملك عنها لمدة عام واحد فقط . فالخزينة لا يمكن أن تحرم من هذه الواردات التي تصب فيها بشكل منتظم . والى جانب هذه الضرائب كانت تجبى أيضاً الاوتاوات المترتبة على الـLaoi

وفي هذا السياق نجد في نقش منسيباخ المذكور معلومات أكثر تفصيلاً . فقد عرفنا سابقاً أن أملاكه تتألف من عدد من القرى والكليرات التي تعطي مالكها دخلا يرمز اليه بمصطلح Phros ونجد تحديداً لمعنى هذا المصطلح في إحدى فقرات النقش Kai tou phrs tou aruvrkov kaitov letoruikov بمعنى آخر يمكن أن يكون الـphors نقداً أو سخرة أو الاثنين معاً . وعليه فإنه من غير المستبعد أن تكون الاتاوات التي أداها Laoi لاوديكا نقداً وسخرة . وفي نفس الوقت فإن من ينتقل من topos عليه أن يؤدي الـ-phors aruvi-kos الى الـ-toposالذي ينتسب اليه . أما فيما يتعلق بـ-phors letovruikosفيبدو

أن المهاجر كان يعود لتأدية سخرة أو كان يدفع ما يقابله نقداً .

ويتضح من وثائق لاوديكا ومنسيماخ أن Laoi كانت لهم ملكيتهم الخاصة بما في ذلك وسائل الانتاج . ولكن حتى في هذه الحالة لم يتميزوا عن العبيد الذين كانوا يملكون «بيوتاً» خاصة بهم . وليس صدفة أن توضع هاتان الفئتان في مستوى واحد : oikiai ton laon kai ton oiketon وتعترضنا هنا مسألة الحال القانونية لمثل هؤلاء الـ Oikiai فنحن نصطدم بملكية Oikit 9 Laoi في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه ملكاً للآخرين . ومن هنا فإنه لا يمكن لهاتين الفئتين أن تحوزا أية ملكية دون أن تكون هذه الأخيرة ملكاً لأسيادهم . ونحن نعتقد أنه يمكن بيع وشراء الـ Laoi والـ Oikit التابعين دون بيع Oikiai وتدعم قولنا هذا إشارة خاصة والتي لا حاجة لها لو أن هؤلاء كانوا يباعون مع ما يملكون .

ونستطيع أن نجد ما يكفي من القرائن بخصوص موضوعنا هذا في النقش الذي يحوي مراسلات انطوخ الثالث وولي عهده من جهة ، وبطليموس بن فراسيوس من جهة أخرى . وقد تم اكتشاف هذه الوثائق في تل الفر . وهي تثبت ملكية بطليموس للقرى السرية الرابعة من أملاك البطالمة الى أملاك السلوقيين . ويرتدي أهمية خاصة في هذا السياق إنذار بطليموس بن فراسيوس حيث تعدد هنا القرى التابعة له : تلك التي كانت ملكاً له وتلك التي كانت من أملاكه بالوراثة وكذلك ما وهبه إياه الملك . ويطلب بطليموس بن فراسيوس من الملك إخلاء هذه الأملاك من المضارب وحمايتها وعدم السماح بطرد الـ Laoi منها وهذا الطلب الأخير له أهمية جوهرية بالنسبة لنا . ذاك أنه لم يكن لبطليموس أن يطلب مثل هذا الطلب لو لم يكن Laoi ملكاً له . وفي إنذار آخر يطلب بطليموس بن فراسيوس إرسال الأرزاق المتواجدة في القرى التابعة له لدى Laoi على أن يجري ذلك تحت مراقبة الإدارة التي سيعينها هو .

بناء على ما سبق نستنتج أن مصطلح Laoi في سوريا الهلنستية كان يرمز الى فئة معينة من الناس يمكن أن تضم أحراراً وتابعين بغض النظر عن حالهم السياسية . ومما يلفت النظر أننا نصادف هؤلاء في الوثائق الخاصة بتلك الأراضي التي تقع ضمن حدود المدينة والتابعة قانونياً للملك . الأمر الذي يسمح لنا بالإعتقاد ان مصطلح Laoi يرمز الى فئة من الناس عاشت تحت السلطة المباشرة للملك وفي أرضه . ومن هنا جاء في نقش اريستوديكيدوس مصطلح Laoi basilkoi "ناس الملك" . وعندما يجري ضم الأراضي المباعة الى أملاك مدينة ما كانت الصفة الوحيدة لهؤلاء الناس والتي تحدد وضعهم هي تبعيتهم للمالك أي أنهم في وضع العبيد .

بعد هلاك الدولة الهلنستية شكل الـLaoi الجماهير الرئيسية للسكان الذين يعيشون خارج المنطقة التابعة للمدينة ، أما التابعين منهم فقد تحولوا بالتدريج الى طبقة العبيد الذين لم يتميزوا عنهم سابقاً .

الفصل الثاني

تنظيم الإدارة الرومانية في سورية .

قيام السلطة الرومانية في سورية

بعد انحلال الإمبراطورية السلوقية تحولت سورية عملياً الى مستعمرة رومانية . إلا ان الصراع على العرش بين الملوك السلوقيين كان لايزال مستمراً كما حصلت بعض المراكز السياسية الكبرى على استقلالها السياسي وظهرت هنا وهناك بعض الممالك الصغيرة . وبكلمات أخرى كان الوضع السياسي في البلاد متوتراً غير مستقر : فالصدامات بين أفراد العائلة المالكة مستمرة وبات خطر تسرب البدو الرحل من الصحراء السورية جاثماً ولم تكن إمكانية التدخل الاجنبي أقل خطورة - ومن الطبيعي أن يؤدي مثل هذا الوضع الى تخريب اقتصاد البلاد وبالتالي إلى تفسخ النظام الإجتماعي القائم وانهيار الدولة . وما اتحاد المدن السورية الذي تأسس في هذه الفترة إلا نتيجة لهذا الخطر الماثل الذي أصبح يهدد البلاد كلها . وهكذا فقد شكلت انطاكية وسلوقية بيرية واللاذقية (ابتداء من عهد اسكندر بالاسيوس وحتى انطوخ السابع) اتحاداً فيدرالياً أصدر عملة نقدية موحدة نقشت عليها خرافة Adelphon demon («الشعوب الشقيقة») .

ومن المرجح أن تكون المدن اليونانية الواقعة على شواطىء بحيرة (طبرية) والاردن قد شكلت هي الاخرى فيما بينها اتحادا - ديكابوليس [1] وذلك مع بداية ظهور الجيوش اليونانية على الحدود السورية .

ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الظروف يظهر الميل لخلق سلطة قوية قادرة على إحلال السلام والقضاء على الفوضى وحماية البلاد من الغزوات وتأمين مصالح الارستقراطية المحلية . ويقول يوستين في هذا السياق (IVST.,40,I,1,4) انه كانت توجد في سورية

---

١) ويعتقد هايلهايم أن ديكابوليس هذا تم تأسيسه مع بداية تشكل سورية كمقاطعة وذلك كضمانة ضد الهجمات التي يمكن أن تشنها قبائل البدو الرحل . ويوافقه الرأي المذكور H.Bieterhand, Die Dekapolis von pomp-eius bis Train — ZDPV.BD,79,1963 .

مجموعة تسعى لضم البلاد الى المملكة البنطية أما «الحزب» الآخر فقد وضع أمامه مهمة ضم سورية الى دولة البطالمة . ولكن لم تستطع أية من هاتين الفئتين تحقيق أهدافها : فقد كان ملك البنط ميتريدات مشغولاً في حربه مع روما ولم يكن البطالمة خياراً مقبولاً فهم الأعداء التقليديون لسورية السلوقية . ويختتم يوستين أقواله هذه مشيراً الى موافقة «الكل» على اختيار ملك أرمينيا – تيغران الثاني – وقد دعي هذا الأخير فعلاً وتسلم عرش سورية وخلال الأربعة عشر عاماً التي قضاها على هذا العرش عاشت سورية «أهدأ فترة حكم» .

ولكن رواية يوستين هذه غير دقيقة . ذلك أن تيغران الثاني هذا ، حسب معطيات سترابون (Strabo ,P.532) احتل سورية بالقوةanakrato حيث عبر الفرات وكان عليه أن يتغلب على المقاومة التي نظمها انطوخ العاشر لمواجهته (ولكن يجب أن لا تفهم محاولة ذلك الأخير للاحتفاظ بالسلطة كحركة شعبية قامت في وجه تيغران) . فلم يستطع الملك الأرمني أن يفرض سيطرته على سلوقية بيرية (Strabo,P.751,Eutrop.,6,14,2)أما المدن الفينيقية فلم تخضع له إلا في الفترة الأخيرة من حكمه لسورية . (Fl.Ios,Antt.,13,419–421,Plut,Lucull,21)بكلمات أخرى لم يحظ اختيار تيغران بالإجماع الذي يكتب عنه يوستين حيث لم تؤيده إلا المدن السورية الداخلية فقط ، أي تلك التي تتعرض بشكل مباشر لغارات البدو كما أن أوضاعها الداخلية غير مستقرة . ولاشك أن هذه الدول كانت مهتمة بالحفاظ على علاقاتها التجارية مع بلاد ما بين النهرين . أما المدن الواقعة على ساحل المتوسط فقد توجست خوفاً على تجارتها البحرية من تيغران الثاني وهذا ما يفسر مقاومتها لهذا المحتل . ومع كل هذا فإننا لانستطيع أن ننكر وجود حركة لصالح تيغران الثاني أما الفترة التي حكم فيها سورية (من عام ٨٣ حتى عام ٦٩ ق . م) فقد كانت فترة هدوء ونظام نسبيين [٢] .

في عام ٦٩ ق . م . أدى انتصار لوكول على تيغران الثاني الى خروج سوريا من تحت سيطرة هذا الأخير كما كانت هناك محاولة لإعادة سلطة السلوقيين . وفي هذه الفترة التي تميزت بغياب كل سلطة حقيقية تم تنصيب أنطوخ الثالث عشر الآسيوي ابن أنطوخ العاشر ملكاً على البلاد[٣] . ويقول يوستين Ivst.,40,2,2 إن لوكول هو الذي أعلن انطوخ الثالث عشر ملكاً(ab eodem luculo appellatur)وفي هذه الحالة يمكن أن يكون المقصود هنا دولة

---

٢) عن سورية في ظل دولة تيغران الثاني انظر : يا . ا . ماندانيان ، تيغران الثاني وروما . يريفان ١٩٤٣

٣)يخطيء يوستين في تسميته ابن انطوخ التاسع كيزكين .

مستقلة غير تابعة لروما . ولكن أبيان (App.syr.,49) يعرض لنا رواية أخرى : فعندما سحب ما غادات ، ممثل تيغران الثاني في سورية – جيوشه لمساعدة ملكه تسلل انطوخ الثالث عشر خفية واستولى على السلطة في سورية بمساعدة السوريين أنفسهم وأمام هذا الواقع وجد لوكول نفسه مضطراً للإعتراف بحق انطوخ الوراثي في استلام السلطة . ويبدو أنه من الصعب هنا أن نقول : عن أية التقاليد تتوافق وواقع الأشياء . فكل ما نعرفه أنه توجد في رواية يوستين أخطاء تخالف وقائع معروفة لدينا . ولكننا نستطيع أن نؤكد دون شك أن انطوخ الثالث عشر قد استلم السلطة فعلاً وأن حكومة روما (ممثلة بلوكول) قد اعترفت بهذه الحقيقة .

لقد أعطتنا المصادر معلومات متناقضة عن المرحلة الأخيرة من حكم انطوخ الثالث عشر . فقد كتب يوستين (Iust.,40,2,3–4) يقول بأن بومبي الذي استلم قيادة الجيوش الرومانية في الشرق قد ألغى القرارات التي أصدرها سلفه بخصوص بناء الدولة في سورية . وعندما طلب انطوخ الثالث عشر إبقاء السلطة في يديه أجابه بومبي بأنه لايستطيع أن يبقي في السلطة شخصاً بقي أربعة عشر عاماً في كليكية في الوقت الذي كان عليه أن يقاتل ضد تيغران الثاني وبعد أن قضى الرومان على هذا الأخير جاء هو ليستلم السلطة . بالإضافة إلى ذلك فإن انطوخ لايستطيع تأمين حماية سورية من غارات اليهود والبدو . ويتعرض انطوخ بدوره الى هذا اللقاء (Mithr,106) وإلى الطلبات المحددة التي قدمها الأول للثاني ويبرر رفض بومبي لطلبات انطوخ أنه بعد طرد تيغران الثاني أصبحت سورية ملكاً للرومان . وفي رواية أخرى لإبيان نفسه (App.,sur.,49) يشرح المؤرخ أسباب رفض القائد الروماني بشكل مغاير . حيث يقول أن هذا الأخير خشي من أنه إذا امتلك انطوخ جيشاً فإنه قد يسعى للحصول على كامل السلطة . وكان القناع الذي أخفى بومبي وراءه مخاوفه هذه هوان السلوقيين الذين انتصر عليهم تيغران الثاني ليسوا أهلاً لحكم سورية .

ولكن بغض النظر عن الاختلاف القائم في الروايات التي سردها كل من بومبي تورغ – يوستين وإبيان إلا أنها بمجملها تعكس الخط السياسي الذي انتهجه بومبي برفضه رفضاً قاطعاً أية مطالبة من قبل السلوقيين بالسلطة في سورية وتخليه عن مجمل السياسة التي اتبعها لوكول . ومما له دلالة خاصة أنه أثناء تسوية العلاقات بين تيغران الثاني وروما خرجت سورية وفينيقيا نهائياً من تحت سلطة تيغران ودخلت مجال السيطرة الرومانية . أي أن بومبي بالذات هو الذي احتل سورية وجعل منها مستعمرة رومانية جديدة . وفي نفس الوقت رفضت أية مطالبة لانطوخ الثالث عشر بالعرش السوري بل واعتبرت غير قانونية .

ويروي ديودور(Diod.,40,Ia–Ib) أن انطوخ الثالث عشر تكبد خسائر كبيرة في إحدى معاركه مع البدو الرحل واندحر أمامهم مما أدى إلى فقدان ثقة الناس به وبقوته . الأمر الذي أدى بدوره الى تنظيم مؤامرة في انطاكية ضده ولكنه استطاع سحقها وفر منظموها إلى كيليكية . ومن هناك وجهوا الدعوة الى المنافس الآخر لاستلام العرش فيليب الثاني (ابن فيليب الاول وحفيد انطوخ الثامن غريب) . لقد استغل هذا دعم عزيز – زعيم إحدى القبائل البدوية – له واستلم السلطة . حيث قام عزيز هذا بتتويجه ملكاً . مما حدى بانطوخ الثالث الى الاستنجاد بحاكم اميس (حمص – المترجم) سامسيغيرام فقام هذا الأخير باعتقاله وأعدمه . أما فيليب فبالكاد نجا من سيف عزيز .

ينقطع سرد ديودور في منتصف الكلمة ويبقى مصير فيليب الثاني في دائرة الغموض . ولكنه قد يدخل ضمن تحليل حيثيات السياسة التي اتبعها بومبي في سورية الذي نجده عند بلوتارخ (Plut.,pomp.,39) : «وعندما دخل سورية أعلنها بلاداً ليس فيها ملوك شرعيون ، مستعمرة من مستعمرات الشعب الروماني» . والإشارة إلى عدم وجود ملوك «شرعيين» تعني أن انطوخ الثالث عشر وفيليب الثاني قد قتلا . والآن ، أية رواية من هذه الروايات توافق واقع الأشياء ؟ المسألة لازالت حتى الآن مفتوحة . ذلك أن تطور الأحداث بهذا الإتجاه أو ذاك أمر محتمل[٤] . ولكن على أية حال فإن جيوش بومبي قامت في عام ٦٤ ق . م باحتلال سورية التي أعلنت مقاطعة رومانية .

سورية إبان الحروب الأهلية .

من المعروف أن البنية الإدارية – السياسية للمستعمرات الرومانية وعلاقتها مع السلطة المركزية في روما كانت تضبط بقانون خاص (Lex provinciae) وعلى الأرجح أن هذا القانون كان ينسحب على سورية أيضاً ولكن المصادر لاتعطينا أية معلومات بهذا الخصوص . ونحن نعتقد أن السبب في ذلك هو أن القانون المذكور لم يأت بجديد ، من

---

٤) نجد في الأدبيات التي تعالج هذا الموضوع عدة محاولات للتوفيق بين هاتين الروايتين . ولكننا نعتقد أن مثل هذا التوفيق غير ممكن . إذ كيف يستطيع أنطوخ الثالث عشر أن يقابل بومبي بينما هو في السجن لدى سامسيغيرام . كما أنه لم يكن باستطاعته أن يشكل أي خطر على السلطة الرومانية كما يؤكد ابيان . ومما يلفت النظر أيضا ما جاء في روايتي ابيان ويوستين عن الإنتفاضة التي حدثت في إنطاكية واستلام فيليب الثاني السلطة هناك . إذ أن المسألة على الشكل التالي : إما أنه لاوجود لهذه الحوادث وإما أن هناك ثغرة في هذه الروايات تمكن إصلاحها .

حيث الجوهر للوضع القانوني والاقتصادي لسكـان سوريـة . ومن البديهي أنـه فرضت عـلى السوريين تـأدية أتـاوات لصالـح خزينـة روما (App., Mither.,118, App., syr., 50, vell., Pat., 2,5.) بعد أن كانت هذه الاتاوات تؤدى لصالح خزنة السلوقيين وهكذا لاشيء جديد بالنسبة لدافع الضرائب أو لمؤدي الأتاوات .

وعند تقييمه لنشـاط بومبي في سـورية يـبرز بلوتارخ (Plut.,pomp.,39) النـواحي التالية : فقد «أسس» بومبي المدن و«حرر» بعضهـا وعاقب الحكـام المحليين واتخـذ عدداً من القرارات لحل بعض القضايا المختلف عليها بين المدن و«الملوك» . وأدى «تأسيس» المـدن إلى منح بومبي لقب Oikist وبـالتالي إلى تبعيـة هذه المـدن مباشرة لـه . وهذا مـاكان يتفق ، من حيث المبدأ والتقاليد الرومانية التي تعطي الحق لفاتح المدن أن يصبح وليها(٥) .

أما عملية «تحرير المدن» فيمكن فهمها بـاتجاهـين اثنين . أولاً - القضـاء على السلطة المـطلقة التي ، لهـذا السبب أو ذاك ظهرت في بعض المـدن واعادة كـامـل السلطة (نسبيـاً ، طبعاً) للهيئات الشعبية الجماعية . فقد جـرى القضاء عـلى السلطة المطلقـة لحاكمي بيبلوس (Strabo,755) ، وعلى الأرجح بعلبك . ثانيـاً - كان من الممكن أن يكـون المقصود هنـا إعفاء هذه المدن من دفع الضرائب وتأديتها لصالح روما . وهنا ترتدي المعطيات التي يسـوقها لنـا يفتريـوس (Evtrop.,6,14) أهمية خـاصـة . يقـول المؤرخ أن بـومبي «وهب الحـريـة» (Libertate donavit) الى سلوقية بيرية مكافأة لها على المقاومة التي أبدتها في وجه تيغران . وما من شك أن المقصود هنا هو إعفاؤها من تأدية الضرائب . لقد أخذ بومبي يحـل المعضلات القائمة في هذه المقاطعـة آملاً أن يحـل السلام الـداخلي في ربـوعها . وتفيـدنا المعـطيات التي يسوقها يفتريوس (Evtrop.,6,14) في تتبع اتجاه آخر من اتجاهات نشاط بومبي في سوريـا . فيقول أن بومبي أحيا من جديد التقليد الذي يعود أصله الى ليفيي حيث اقتطع أرضاً وأهداها إلى Daphna أي إلى انـطاكيـة . بمعنى آخـر أن بـومبي الـذي أصبـح الآن حـر التصرف في «أراضي الملك» التي أصبحت ملكاً لدولة روما أخذ باهدائها لبعض المدن السورية . لقد كان لنشاطات بومبي هذه هدف واحد : تحـويل سـورية إلى قـاعدة قـوية لـلاستعمار الـروماني في الشرق . وكـان لها هـدف آخر اكـثر عمقاً - تـرسيخ وتشجيـع التقاليـد الهلنستية في تنـظيم المجتمع . تلك التقاليد التي كانت قائمة في ظل السلوقيين . وهذا الاتجاه الاخير استمر حتى في الفترة التي أعقبت انتهاء الحروب الأهلية .

٥) يعتقد بوتسيوس أن بومبي أسس في سورية عددا من المدن . ولكن ليس لهذا الاعتقاد ما يبرره . والأرجح أن بوتسيوس اعتمد على ملاحظات بلوتارخ فقط . أما نحن فلا نعرف أية مدن بناها بومبي .

لقد كان للتغيرات السياسية الحادة التي امتازت بها مرحلة الحروب الأهلية تأثير سلبي على حياة المجتمع السوري . فقد أدى الصراع على السلطة بين مختلف الشخصيات الى فرض ضرائب باهظة على السكان دون أن يكون هناك أي نظام محدد لفرضها أو جمعها . فبحجة «معاقبة» المدن لاتخاذها هذا الموقف أو ذاك نهبت خيراتها هذا بالاضافة الى التخريب الاقتصادي الذي خلفته هجمات البارفانيين . أضف إلى هذا أن العداء مع الامبراطورية البارفانية خلق صعوبات جمة أمام التجارة مع بلاد مابين النهرين .

والواقع أن نائب القنصل في سوريا افال غابيني قام عامي ٥٧ - ٥٥ ق . م . باتخاذ اجراءات بدت للوهلة الاولى أنها تهدف لتخفيف عبء الضرائب التي قسمت ظهر السكان وخلقت صعوبات لايمكن تجاوزها عملياً . ويقول سيتسيرون (Cic.,De pr.con.,5,10)أن غابيني رفض كل القضايا القضائية التي رفعها متعهدو الضرائب (ius publicanononon dicere) والغى كل علاقاته معهم (Paitiones sine ulla iniuria fakto os rescidit)ولم يقدم لهم الحماية الشخصية (custodias sustulit)واستخدم بشكل واسع مبدأ الاعفاء من تأدية الاتاوات Vectidalis multos as stipendiarios liberavitوأخيراً منع المتعهدين «وعبيدهم» من التواجد في المدينة حيث كان يتواجد هو نفسه . وهذا ما يقول به التقليد الذي يعود بمنشئه الى تيتي ليفي (Cass.,dio.,39,59,2) : لايسمح للمتعهدين بجمع الأتاوت . ومن الواضح أن هذه السياسة كانت تتعارض تماماً مع مصلحة الفرسان وليس صدفة أن يرسم سيتسيرون ، في كلمته الاتهامية ضد غابيني حالة المتعهدين بخطوط سوداء للغاية فقد أعطاهم كعبيد لليهود والعرب والسوريين الذين خلقوا أصلاً كي يكونوا عبيداً ، ولكن يجب فهم سياسة غابيني هذه على ضوء الصراع السياسي الجاري في روما نفسها : عداؤه للفرسان . ولكن هذه الحادثة لم تستمر طويلاً . وفيما بعد أدت الانقلابات في سياسة روما الداخلية والخارجية الى تقوية نير الضرائب . وليس صدفة أن خصوم غابيني اتهموه بنهب سورية .

لقد كان ليكيتيوس كراسوس صاحب أول هجوم للجيوش الرومانية في منطقة ماوراء الفرات وكان ذلك في عام ٥٤ ق . م . وقد انتهى هذا الهجوم ، كما هو معروف بهزيمة منكرة للجيوش الغازية في موقعة قاراح في حزيران عام ٥٣ ق . م . وقد كان لهذه الحملة آثارها على الاوضاع الداخلية في سورية نفسها . فيفيدنا بلوتارخ أن القائد الروماني فرض الضرائب على السكان (من الواضح أن المقصود هنا ضرائب باهظة لمواجهة وضع استثنائي) حتى أنه اغتصب أملاك المعبد في بعلبك كما وجند السكان المحليين في جيوش احتياطية . وبعد مقتل

كراسوس أضحت سورية مكشوفة لدخول القوات البارفانية اليها . ففي عام ٥٣ ق . م . كانت المعارك قد انتقلت إلى أراضيها وفي عام ٥٢ ق . م . صد الرومان هجوماً بارفانياً على انطاكية ولم يغادر هؤلاء البلاد إلا في عام ٥٠ ق . م .

عندما اندلعت المعارك بين قيصر وبومبي وقفت سورية في صف الأخير . وكان السوريون في عداد جيوشه عندما خاض معركة فارسال كما وكانت سورية مصدراً هاماً لتزويد جيوشه بالمال والمواد التموينية . ويشير قيصر الى الاساليب البشعة التي اتبعها بومبي في جمع الضرائب والأرجح أنه أراد تشويه صورة هذا الأخير . ونحن على أية حال لا نعرف إلى أي حد كان قيصر صادقاً .

بعد معركة فارسال (عام ٤٩ ق . م .)والانتصار الذي حققه قيصر أصبحت سورية تابعة ظاهرياً لهذا الأخير الذي نظر في مطالب السوريين وقضاياهم واتخذ إجراءات لحلها . وأخذت بعض المدن موقفاً مهادناً .

للسلطة الجديدة . ولكن سورية بالذات كانت المسرح الذي بدأت منه الانتفاضات التي نظمها اتباع بومبي في السنوات الاخيرة من عمر ديكتاتورية قيصر . هنا بالذات استطاع تسيتسيلوس باسيوس ، وهو رجل مغمور غير معروف قط في المجتمع الروماني – أن يؤلب احدى الفرق المعسكرة في سورية وتمكن من احتلال أفاميا وصد كافة الهجمات التي نظمت ضده[٦] مما اضطر اتباع قيصر لمحاصرة المدينة واستمر هذا الحصار حتى مقتل قيصر .

كيف كان سلوك السوريين في هذا الوضع ؟ في حديثه عن احتلال باسيوس لكل من صور وأفاميا يعطي ديون كراسوس امكانية للقول بأن هذه المدن أخذت بالقوة ولذلك فإنه من

٦) من المؤسف أن المعلومات التي وصلت إلينا عن الحقبة القديمة تتضمن معطيات متناقضة عن تستسيليوس باسيوس يروي ابيان .App.,Bellaciv.377) روايتين . تقول إحداهما أن قيصر عهد إلى باسيوس «العناية» (Epimeleian)باحدى القطع العسكرية المتواجدة في سورية للوقوف في وجه البارفانيين ، شكليا كان قريب قيصر سيكست يوليوس هو قائد القطعة . فقتل الجنود هذا الأخير أثناء إحدى الصدامات مع تسيتلوس حتى أنهم أجبروا تسيتسيلوس أن يشاركهم الإنتفاضة وتقول الرواية الثانية التي ينسبها ابيان الى ليبون أن تسيتسيلوس هو من اتباع بومبي وكان قد كمن في صور بعد هزيمة قائده/وعندما سنحت له الفرصة استطاع شراء جنود سيكست يوليوس ودفعهم لقتله ثم دفعهم الى اعلان العصيان على قيصر . ويقول ديون كاسيوس (Cass.Dio,47,26 أن تسيتسيلوس كان ينتسب لفئة الفرسان وكان يخدم في جيوش بومبي وقد اختفى في صور بعد هزيمة قائده في معركة فارسال . وعندما حاول القيام بحركة انقلابية جرى اعتقاله ثم اطلق سراحه . وقد استطاع بعد ذلك أن يشيع خبر مقتل قيصر في افريقية وذلك بتزويره وثيقة تنص على أن المنتصر المزعوم قد عينه حاكما على سورية . وبعد ان هزم سكست يوليوس استطاع أن يؤلب القطعة العسكرية التي كان يقودها هذا الأخير ويجعلها في صفه هو . وهناك عدد آخر من الروايات . ولكن أيّها الصحيح ؟ هذا ما لانستطيع الجزم به حتى الآن . وكل ما نستطيع قوله هو أن تسيتسيلوس قاد في سورية انتفاضة ضد سلطة قيصر .

غير المستبعد أن تكون المدن السورية قد دعمت باسيوس . وفي نفس الوقت تشير المصادر الى أن أحد الزعماء السوريين واسمه الحافدوني قد دعم باسيوس كما وساعده البارفانيون أيضا . في آذار عام ٤٤ ق . م . قتل قيصر فأدى هذا التصعيد الجديد للصراع الطبقي والسياسي في روما الى تغيرات حادة في أوضاع سورية . فإذا كانت انتفاضة باسيوس قبل الآن مجرد حديث بسيط على مستوى الامبراطورية ويمكن سحقها بسرعة فقد أصبح باسيوس يشكل الآن قوة سياسية حقيقية يمكن لاعداء قيصر الاعتماد عليها . هذا العامل وموقع سورية الهام كعمق استراتيجي طبيعي في منطقة البحر المتوسط جعلا منها واحدة من مناطق الصراع بين أتباع قيصر والجمهوريين .

ومن المعروف أنه بعد مقتل الديكتاتور في ١٧ آذار عام ٤٤ ق . م . أقر سينات روما ، بناء على اقتراح مقدم من سيتسيرون كل تعليمات قيصر حتى تلك التي تحمل طابعاً مستقبلياً . بالتالي جرى تعيين غ . كايوس لونجين حاكما على سورية - مع أنه من أتباع بومبي سابقاً وهو واحد من زعماء المؤامرة وهو نفسه الذي قاد عملية الدفاع عن سورية ضد هجمات البارفانيين . كان عليه أن يتسلم السلطة بعد انتهاء مراسم دفن قيصر ولكنه اضطر للفرار من روما في بداية نيسان عام ٤٤ ق . م . ابان التحركات الشعبية التي اجتاحت المدينة أثناء دفن قيصر كما وفر معه بروتوس . ذلك أن انطونيو أحد زعماء أتباع قيصر استطاع اقناع السينات باتخاذ قرار عهد بموجبه إلى كاسيوس وبروتوس بتأمين المواد التموينية لروما (Cic.Ag,Att,15,9,1) . ولا شك أن انطونيو أراد في ذلك ابعادهما عن روما بل وكان على كاسيوس بموجب هذا القرار أن يتواجد في صقلية وهكذا اضحت سلطة كاسيوس في خطر مميت . والخطوة الثانية في هذا الاتجاه كان ذلك القرار الذي اتخذه السينات في عام ٤٤ ق . م . (APP,Bella id,4,57) والذي قضى بتعيين كاسيوس حاكما لمقاطعة من الدرجة الثانية هي مقاطعة ليبية Cic.,phil.,2,38,et 97:APP.,Bella Civ.,3,8,id.,4,57,Cass.,Pio.,47,21 وتم تعيين أنطونيو دولا بيلا حاكماً على سورية برتبة نائب قنصل . وهكذا أصبح الجمهوريون بين فكي كماشة . لذلك ليس غريباً أن رفض كاسيوس الانصياع وجاء الى سورية لا كممثل رسمي لحكومة روما وإنما كرجل سياسة قطع كل علاقة له مع إدارة قيصر . وهو يرى بأم عينه اقتراب الحرب الاهلية . أمام هذا الوضع أصبح من الطبيعي أن يغدو تسيتسيلي شخصاً «زائداً» لا حاجة له وبعد مقاومة لم تستمر طويلاً تراجع واستسلم (Cic., Ad sam.,12,12,3) وانضمت جيوشه الى كاسيوس أما تسيتسيلي (Cic., Ad fam,12,2,1, App., Bella Civ., 3,78) نفسه فقد اختفى عن المسرح السياسي الى الابد .

ومع كل هذا فإن دولا بيلا لم يتراجع عن الصراع . فبعد عودته المتأخرة الى سورية قام فوراً بمحاولة فاشلة لاحتلال انطاكية ثم تراجع وتحصن في اللاذقية . وشن من هناك هجوماً على أرواد بهدف نهب المدينة والاستيلاء على الاسطول ولكنه فشل هذه المرة أيضاً وعند عودته هاجمه كاسيوس وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً ثم تابع تقدمه وحاصر اللاذقية وأخذها بمساعدة حراسها فانتحر دولا بيلا . أمام هذا الوضع ، كيف كان موقف المدن السورية ؟

عندما هاجم دولا بيلا مدينة انطاكية دحرته حاميتها . ولا يشير مصدرنا .cass) Dio,47,30,2)لا من قريب ولا من بعيد الى موقف سكان انطاكية . أما عندما غزا أرواد فقد كان يستهدف سكان المدينة أنفسهم : «ليأخذ منهم المال والسفن».Cass) Dio,47,30,2) . وهذا يسمح بالقول أن سكان أرواد أنفسهم شاركوا في تنظيم المقاومة ضد الغزاة . وكان يمكننا أن نقول بأن مدينة أرواد كانت مفعمة بروح العداء لادارة قيصر لو لم يكن وضعها خاصاً للغاية . ولكنها ككل المدن الفينيقية كان لها موقف مغاير فقد رفضت اتخاذ خطوات سياسية لصالح كاسيوس . ويقول ابيان (App.,Bella Civ.,4,60–61)عندما بدأ كاسيوس حصار اللاذقية «طلب سفناً من فينيقيا ومن ليكارودوس» ولكن طلبه قوبل بالرفض . ولم تستجب له سوى صيدا . وهذا يدل على أن المدن الفينيقية كلها تقريباً كانت تعتبر الجمهوريين منافسين ضعفاء لادارة قيصر ولذلك لم تشأ أن تربط مصيرها بهم . وعلى الارجح أن ذلك كان السبب في أن كاسيوس أقام حكومات ديكتاتورية في كافة المدن السورية آملا أن يرسخ مواقعه بمساعدة صنائعه هؤلاء . وبناء عليه يمكننا أن نتوقع أن كاسيوس لم يحصل على المساعدة من صور وأرواد إلا بعد أن نصب فيهما أزلامه [٧] .

وتشير مصادرنا صراحة الى تعاطف اللاذقية مع اتباع قيصر . يقول ابيان (APP.Blla. Civ 4,62)أن أهل اللاذقية «كانوا يكنون له شعوراً بالصداقة» أي لدولا بيلا . ويقول كاسيوس (Caas Dio.,47,30,2)ان دولا بيلا أخذ مدينة اللاذقية دون قتال وذلك «بفضل الشعور بالصداقة الذي كانوا يكنونه لقيصر (أي سكان اللاذقية) » فعندما احتل كاسيوس المدينة أمعن فيها تخريباً وتهديماً دون أن تأخذه بها رحمة أو شفقة (App., Bella Civ,4,60)فنهب المعابد وخزنة المدينة وأعدم وجهاءها وفرض على الآخرين أتاوات مرهقة . ويشير ابيان الى أن المدينة أصبحت على شفا الكارثة [٨] .

٧)يعتقد ى . د دوبياش أيضا أن إقامة ديكتاتوريات في المدن السورية عجلت من عملية التفاف السوريين حول كاسيوس .

٨) يرسم ديون كاسيوس صورة اللاذقية بشكل آخر . فيقول بأن كاسيوس لم يؤذ المدينة أبدا وكل ما فعله هو أنه جمع الأموال منها ولم يعاقب أيا من معارضيه . ولكن ديون كاسيوس كان مجبرا على القول أن كاسيوس جمع الأموال وهنا يلتقي مع رواية ابيان حول نهب كاسيوس للمعابد ولأرزاق المدينة .

وهكذا نرى أن الوضع العام في سورية لم يكن في صالح الجمهوريين : فإذا كان سكان المدن السورية لم يعبروا جهاراً ـ باستثناء اللاذقية ـ عن عدائهم للجمهوريين فإنهم على أية حال حاولوا أن يتخذوا موقفاً حيادياً بانتظار تطور الاحداث لاحقاً . ومما زاد الامر سوءاً الضرائب المرهقة التي فرضها كاسيوس .

في ربيع عام ٤٤ ق . م تم سحق الجمهوريين في موقعة فيليبي وهكذا أصبحت سورية ومعها كل الشرق تحت سيطرة مارك انطونيو الذي كان عليه قبل كل شيء أن يجمع الاموال ليسدد جنوده . فطلب من المقاطعات الشرقية بما فيها المقاطعات السورية أن تسدد له ضرائب عشر سنوات خلال عام واحد (App Bella Civ., 5,5) وبعد الحاح شديد من قبل ممثلي هذه المدن وافق على تقليص حجم الضرائب وزيادة مدة تحصيلها . الاستثناء الوحيد كانت اللاذقية التي أعلنت مدينة «حرة» وأعفيت من الضرائب مكافأة لها على وقوفها الى جانب دولابيلا .

كانت مشكلة انشاء عمق سوري قوي احدى المشاكل الرئيسية التي واجهت انطونيو أثناء تنظيمه حملة جديدة ضد بارفيا . ويذكر ابيان (App., Bella Civ., 5,7) أن انطونيو قام بطرد الحكام الديكتاتوريين الذين تعاونوا مع بارفيا بعد مقتل كراكوس وعلى الارجح أن حملة انطونيو ضد تدمر جاءت لتخدم هذه الاهداف (App., Bella Civ., 5,7)

ومن الجدير بالذكر أنه كان لكيلوباترا تأثير ملحوظ على سلوك انطونيو وكانت هذه تسعى لاستخدام جيوشه لاعادة مجد البطالمة في مصر . فباعطائه قسماً كبيراً من سورية الى كيلوباترا يكون انطونيو قد قضى عملياً على كل نتائج الحرب السورية الثالثة . في عام ٤١ أو ٤٠ ق . م . كان البارفانيون سباقين الى مهاجمة سورية وتمكنوا من احتلالها كلها تقريباً ماعدا صور . ولكن في عام ٣٩ ق . م . تمكن فينيديي باسيوس من الانتصار عليهم في موقعة طبرة . وفي عام ٣٨ ق . م . انتصر عليهم مرة أخرى في موقعة عيندار . في ربيع عام ٣٦ ق . م . اندفع انطونيو بجيوشه ضد بارفيا ـ عبر أرمينيا الى ميديا ولكن الهجوم المعاكس الذي قام به أعداؤه أجبره على التراجع . وفي عام ٣٤ ق . م . أعاد الكرة ولكن هجومه اقتصر هذه المرة على أرمينيا وحدها وتمكن من أسر الملك أرتافزاد وأقام احتفالاً في الاسكندرية بمناسبة انتصاره هذا[٩] .

---

٩) بتفصيل أكثر عن سياسة أنطونيو في سورية والشرق الأوسط انظر : J.Dobias,Dejini ونشير خاصة الى ملاحظة بوخايم الذي يقول أن المدن السورية (وليست تدمر وحدها) حاولت أن تساير روما وبارفيا وكان لها موقف عدائي من سياسة انطونيو المعادية لبارفيا .

وهكـذا نرى أن الـوضع العـام في سوريـة ابان الحـروب الاهليـة كـان يتصف بعـدم الاستقرار السياسي وكذلك نظامها الاداري والضرائبي والمبادىء التي قامت عليهـا علاقـات السكان المحليين بالسلطات والتي كان من المفروض أن تتوافق مع العادات الرومانية ، كانت هي الاخرى غامضـة وغير ثـابتة . فقـد كانت الاوضـاع تتغير بشكـل دائم وذلك تبعـاً لتغير الاوضاع في روما نفسها وللنهج السيـاسي الذي كـان يتبعه الاشخـاص الذين استلمـوا زمام الامور هناك (في سورية ـ المترجم) بهذا الشكل أوذاك .

تحويل سورية الى مقاطعة امبراطورية .

الاستعمار العسكري الروماني :

في الثاني من ايلول عام ٣١ ق . م وقعت معركة رأس اكتيوم وتقرر نهائياً مصير بلدان حوض البحر الابيض المتوسط . ففي بداية هذه المعركة ترك مارك انطونيو قواته التي تحولت ، بعد مقاومة ضعيفة ، الى جانب خصمه أكتافيان . وفي عام ٣٠ ق . م أخضع اكتافيان مصر لسلطانه ودانت له كل منطقة الشرق وبذلك كان قد أصبح السيد المطلق على كل الامبراطورية الرومانية - من الراين وشبه جزيرة إيبريا الى الفرات وأعالي النيل .

كان النظام السياسي الذي أسسه اكتافيان أغسطس فريداً من نوعه . فهو من حيث طبيعته ليس سوى ديكتاتورية عسكرية مثلت مصالح كبار مالكي العبيد وكبار مالكي الارض داخل روما وخارجها وقد عاش هذا النظام الذي سمي (برينتيسيبات) -PrinCiPaTe أكثر من مئتي عام . ومن الطريف حقاً إنه أمكن تقديم هذه الديكتاتورية على أنها «ترسيخ» للمؤسسات الجمهورية القديمة ، كسلطة شعبية وهمية . حيث شغل الحاكم الفعلي أهم المراكز المنتخبة ومنح صلاحيات ممثلي الشعب (imPerium) ، وصلاحيات المنابر الشعبية كما وتمتع بنفوذ السيناتور الأول وبحق ترشيح من يريد لشغل المناصب التي يجري انتخابها . ومن الطبيعي أنه قد أصبحت لديه كل الامكانيات كي يلعب الدور الحاسم في كل مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية . وكانت أسباب الصدامات التي حدثت بين الامبراطور والسينات تعود الى أن بعضهم حاول اعطاء سلطته صيغة ملكية وأظهر قدراً كبيراً من الفردية والطغيان . وتدل الظروف التي أوصلت آل انطونيو الى سدة الحكم انه لم يكن لدى السينات أي خيار آخر .

ولكن البرينتسيبات أدخل بعض التغيرات الهامه على تنظيم وادارة المستعمرات وخاصة سورية . ومن المعروف أن جوهر هذه التغيرات كان في نقل عدد من المستعمرات (ومنها سورية) من مجال سلطة السينات ووضعها تحت الاشراف المباشر للامبراطور . بمعنى آخر ، ماجرى هنا ليس سوى اقامة سلطة فردية عارية من أي غطاء جمهوري . فقد كان لاغسطس وخلفائه هنا جهاز اداري مستقل كل الاستقلال عن الجهاز الجمهوري . وكان يقف على رأس هذا الجهاز ، في سورية - مفوض برتبة نائب قنصل .

ومن الصعب تماماً حصر أهمية هذا الاجراء الذي يبدو وكأنه اجراء اداري بحت . أولا - أصبح الامبراطور ، بموجب هذا الاجراء خلفاً وحاملاً للتقاليد الملكية ماقبل عصر روما . وفي سورية - لتقاليد النظام السياسي السلوقي ثانياً أصبح الامبراطور يلعب دوراً مزدوجاً ومتناقضاً في جوهره . فمهما كانت الاسباب والدوافع فإن تأسيس المستعمرات الامبراطورية من حيث الجوهر ليس إلا نفياً لأسس الاصلاحات السياسية الجمهورية حتى وإن كانت صورية . ولا شك في أن هذه كانت الخطوة الاولى لقيام نظام الدومينات .

لقد كان لتأسيس بيروت وبعلبك (هيليوبوليس) في العشرينات من القرن الاول ق . م . كمستعمرتين للمحاربين الرومان القدماء دور خاص في الحياة الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية في سورية . أما أسباب هذا التأسيس فواضحة فهذا الحدث لا يقع خارج اطار السياسة العامة التي انتهجها اغسطس في ايطاليا نفسها حيث أسس ثمان وعشرين مستعمرة في المقاطعات الرومانية . وتفيدنا المعطيات الرسمية التي يعود مصدرها الى الامبراطور مباشرة أن مستعمرات للمحاربين القدماء قد تم تأسيسها في كل من غالية البوربونية واسبانيا وافريقيا وصقلية ومقدونية وآخية وآسية وبيسيدا (RgdA,28,1-2) . لقد سعى اغسطس جهده لارضاء مجاهدي الحروب الاهلية ليس بتقديم الاموال وحسب وإنما بإعطائهم قطعاً من الارض أيضاً . ولذلك فليس مستغرباً أن يتوقف خصيصاً عند هذه المسألة في الوثيقة التي لخص فيها كل نشاطه السياسي إذ يقول : إنه أرسل الى المستعمرات اكثر من ثلاثمئة ألف شخص وقد حصلوا جميعاً على الارض وعلى مكافآت مالية (RgdA3,3) . ويشير أيضاً الى أن محاربي انطونيو وليتسيد قد حصلوا هم أيضاً على الارض . وبهذا تكون القاعدة الاجتماعية للامبراطورية قد زادت اتساعاً . ويؤكد اغسطس أنه وزع الأرض التي صادرها من مالكيها السابقين (RgdA,16,1) وكان من شأن هذا الاجراء الفريد من نوعه أن يفجر أزمة خطيرة في ايطاليا لولا الاموال الهائلة التي جرى انفاقها .

هذه السياسة التي جرى وصفها بخطوطها العامة في «مآثر اغسطس الالهي» وجدت تحقيقاً واقعياً لها في سورية بتأسيس مدينتي بيروت وبعلبك . وتجدر الاشارة هنا الى أن اغسطس لم يستخدم لبناء هاتين المدينتين مناطق آهلة . فبيروت بنيت على انقاض مدينة فينيقية هدمها تريفون ابان حروبه لانتزاع السلطة من بين يدي ديمتري الثاني وانطوخ السابع سيديت وجرى هنا توطين محاربي الفيلق المقدوني الخامس وفيلق اغسطس الثالث . أما بعلبك فقد بنيت مكان قرية تم انتزاعها من ممتلكات حكام ايتوريا . فهذا المكان بالذات هو الاكثر ملاءمة للرومان لتأمين صلاتهم بأهم مراكز العبادات المحلية وبالتالي تحولهم من غرباء

إلى جزء عضوي من سكان سورية .

كان يجب أن يترتب على بناء هذه المستعمرات خلق قاعدة اجتماعية معينة للسلطة الامبراطورية ومراكز انطلاق للسيطرة الرومانية على البلاد وهذا ماكان له أهمية خاصة على تخوم ايتوريا . كما ولعبت هذه المستعمرات دوراً ملحوظاً في ترسيخ تبعية الحكام السوريين المحليين لروما . ويفيد أحد النقوش التي وصلتنا من بعلبك ، وهو مؤرخ في القرن الأول أن الخيوط التي كانت تربط هؤلاء الحكام بروما كثيرة ومتعددة فإلى جانب منحهم حق المواطنية الرومانية كان هناك امتياز آخر وهو منحهم لقب باترون Patronat (صاحب ، حامي ، المترجم)المستعمرة . ونجد بين باترونات بعلبك الملك اغريبو وقد جرى تكريمه على الشكل التالي : «/للملك / المعظم /اغـ / ريبـ / و الطاهر ، صديق قيصر وصديق الروما ٢٥٧٥٢٨١ ، باترون المستـ / عمرة / وعلى نفقة الشعب / تمت اقامة هذا النصب » لاشك أن ل . أرمان وج ب . ريكوي على حق عندما أشارا الى أن هذا التكريم يمكن أن يكون إما لاغريبو الاول وإما لاغريبو الثاني فالاثنان حملا نفس الالقاب .

ويفيدنا النقش jml,u,2760بتكريم ملك آخر هو ملك حمص غاي يوليوس سوخيم

(«الى الملك المعظم غـ/اي /يوليوس سوخيم ابـ/ن/الملك العظيم سامسغرام ، صديق قيصر وصديق /الر/ومان/» Philo/r/ohmaeo) . حسب هذا النص كان الملك المذكور مخصوصاً بالشارات القنصلية ومتميزاً -honorat/o or namentis/ Con) (Cularip/us/وفي نفس المستعمرة كان يشغل أعلى منصب في مجلس المستعمرة وهو منصب دومفير (/duum/ viro guinguenn /ali/) . وما تجدر الاشارة إليه هو أنه إذا كان النصب الأول قد أقيم على نفقة Puplice الشعب فإن النصب الثاني أقيم على نفقة شخص فرد ـ هو لوتسي فيتيلي بن لوتسي سوسيان من قبيلة فابيفي . وهذا الحدث الأخير يدل على عمق العلاقة القائمة بين هذا الأخير وملك حمص .

لقد كان لتعيين الملوك المحليين باترونات للمستعمرة التي ينتسبون اليها هدف آخر : تقوية مواقع المستعمرة نفسها (وهذا ماحددته طبيعة العلاقات بين الباترونات وموكلين الرومان) وحمايتها من غارات البدو وغير ذلك من الاخطار . وتجدر الاشارة هنا إلى أن Tapulas patronatos التي جمعها وصنفها ل . هارمان تشترط عادة وجود Hospitium fides روابط كرم الضيافة والثقة / ومع أنه لم تتوفر لدينا حتى الآن أية معطيات عن سورية نفسها إلا أن هذه العلاقات كانت ، لاشك قائمة في العلاقات بين بعلبك من جهة واغريبو وغاي من جهة أخرى .

وهكذا ، فقد حددت سياسة اغسطس الاتجاهات العامة لتطور سورية على مدى مئتي عام تقريباً . حيث خلقت حالة من الاستقرار السياسي وأحلت السلام . ولم يجر أي تجاوز يذكر لهذا الوضع ماعدا بعض التحركات الشعبية الداخلية والتي لم تكن لها أهمية تذكر . كما توقفت نهائياً الاعتداءات الخارجية . فقد دارت رحى المعارك مع مملكة بارفيا على مدى مئة وخمسين عاماً بعيداً عن الحدود السورية ـ داخل أرمينيا وفي منطقة ما بين النهرين . وفي عام ١٦١ ، فقط ، استطاع البارفانيون دخول الأراضي السورية ولكن تم طردهم منها في شتاء عام ١٦٢ ـ ١٦٣ .

لاشك أن «السلام الروماني» أدى الى ازدهار سورية ورفع المستوى المعاشي لشعبها كما وأدى الى نمو التغيرات والاندفاعات الاجتماعية التي أدت في نهاية المطاف الى انفجار تلك الازمة الاجتماعية السياسية التي بدأت تلوح بوادرها في نهاية القرن الثاني الميلادي .

الفصل الثالث

النظام الاقتصادي السوري في عصر البرينتسبات

العلاقات الزراعية

حتى الآن لم تحظ مسألة العلاقات الزراعية في سورية في الفترة مابين القرن الاول وحتى القرن الثالث بالدراسة الوافية لا في التاريخ الوصفي السوفييتي ولا في التاريخ الوصفي الاجنبي . وغالباً مايشار إلى وجود الملكية الخاصة للارض بفئتيها الكبيرة والصغيرة في سورية حتى أنه يجري التأكيد على وجود علاقات الاستئجار والتأجير . ولكن تسجيل مثل هذه الاستنتاجات يقوم على بعض المعطيات التي يعود تاريخها إلى فترة متأخرة من تاريخ البلاد . وهذا لا يغنينا عن اعادة دراسة كافة المواد المتعلقة بهذه المسألة من جديد خاصة عندما يكون واضحاً لنا مدى صحة الاستنتاجات القائمة عليها . بالإضافة الى ذلك فإن هذه الموضوعات العامة لاتلقي الضوء على الحال القانونية لبعض فئات الاراضي لذلك فهي لاتسمح لنا بالكشف عن خصائص ملكية الارض واستخدامها في سورية . ونود أن نشير هنا إلى المحاولة الوحيدة لتصنيف الاراضي السورية في الحقبة التي نحن بصددها والتي قام بها ، كما هو معروف ف . هايهيلهايم فقد اعتمد هذا نفس المقاييس التي اعتمدها روستوفتسف لعصر السلوقيين لتحديد فئات الاراضي هنا حيث أشار الى أراضي الكلير وأراضي المحاربين القدماء وأراضي المعابد والقيصر وكذلك ممتلكات البوليسات . ولكن التناسب بين مختلف أشكال الملكية هذه يبقى غير واضح وبالتالي فإن الصورة تبدو مشوهة

العلاقات الزراعية في اراضي البوليسات :

لقد كانت البوليسات أهم وحدة سياسية – ادارية للمجتمع السوري في الفترة مابين القرن الأول وحتى القرن الثالث الميلادي . وكانت سلطة هذه البوليسات تمتد على حدود واسعة ، الى حد ما خارج سور المدينة . فقد جاء في أحد الشواهد الأثرية التي

يعود تاريخها الى القرن الثالث ,— A.Maricq, Res gestae sq: أصدره(Res gestae divi Saporis. poris.– «Syria»,t35,1955, PP.255-360),وفي ذلك الجزءالذي يدون قصة احدى حملات شابور الأول على سورية أن هذا نهب المدن السورية التالية «وضواحيها» : انات ، بيرت ، اسبوراك ، سور ، بارباريك ، هيرابوليس ، بيربية ، خالكيد ، افاميا ، ريڤانية ، زبفغم ، اوريم ، عَيندار ، لارميناز ، سلوقية ، انطاكية ، قارة ، وسلوقية أخرى ، الاسكندرية ، نيقوبول ، سيندزار ، حماة ، اريست ، ديخور ، دولينيا ، دورا ، قرقسيون ، غيرمانيكيّا ، باتن ، وخنار . «وضاحية»كل مدينة من هذه المدن هي دون شك المنطقة التابعة لنفس البوليس .

كما وكانت المدن التجارية تملك مثل هذه الحدود ، خاصة تلك التي تهتم بتطور التجارة البحرية ومثال ذلك المدن الفينيقية . حيث يذكر سترابون e ton Ardion Parafia.(P.735)ويروي اريان (Arr.Anab,2,13,8)انه كانت تتبع لارواد مستوطنات مثل ماراتون وسيغون وماريام ويسمي اريان هذه المستوطنات بـولـيسـات . وتـلفت الـنـظر تلك الألـقـاب التي يـذكـرهـا المؤلف (Arr.Anab.,2,13,7)–«ملك اراديان وجيران ارواد» . وهذا يسمح لنا بأن نقول بأن مملكة ارواد وحدود بوليس – ارواد لم تكن متطابقة وخاصة في نهاية القرن الرابع ق . م . ولكن مايرويه سترابون (P.753)يبين أنه كان هناك اتجاه لمطابقة هذين المفهومين . وعندما يذكر «ماراثون – البوليس الفينيقي القديم المهدم » سترابون يضيف أن الأروادين احتلوا أراضيه وأراضي سيمير المجاورة . ومن الواضح أن الأراضي التي كانت سابقاً تتبع ماراثون أصبحت الآن تابعة لأرواد وبقيت الحال كما هي عليه حتى القرن في الأول .

ومعروفة أيضاً قرية بلاتنة – وهي قرية صيداوية تقع ، على مايدو ، على حدودهم .(Fl.IOS.BJ,I,539)كما وكانت منطقة الكرمل وأراضي أخرى تدخل في أملاك صور . (FL.IOS.BJ,35)وتكشف لنا المصادر المتوفرة لدينا عن حالات مشابهة في بقية المناطق السورية . كاللاذقية ، كما يروي سترابون (PP.751–752)كانت تملك منطقة مهمة لزراعة الكرمة فالتلال المحيطة بالمدينة كانت مغطاة تماما بالكروم . وهذا ماأدى الى تخصص اللاذقية في تصدير الكرمة حيث يروي سترابون أن القسم الأكبر من الخمور المصدرة الى الاسكندرية كان يأتي من اللاذقية .

وكانت افاميا تملك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . . (Strabo.P.752) وماله أهمية خاصة في رواية سترابون هذه أن المدينة كانت محاطة بعدد كبير من القرى المحصنة . وكانت حدودها تمر بمحاذاة نهر مارسي الذي يفصل أراضي افاميا عن محمية النازيربين (Plin,NH,5,81)

هذا ويتوفر لدينا نقشان سجلت فيهما أسماء القرى المتوضعة في الأراضي التابعة لأفاميا . ويذكر في احدهما(SEG,19,648)سوريًا من قرية قبروزبادين . وفي الاخر(SEG,19,893)يجري الكلام عن احدى الأماكن المقدسة التابعة «لقرية الافاميين الفانا» . والجدير بالاهتمام هنا (وهذا مانجد له أمثلة مماثلة في الوثائق الواردة الينا من دواريوروبوس) الأسماء السامية للقرى : .Kaprozabdaion والتي توافق Kpr -Zbdy: « القرية المهداة » و. L'phn – Elfana« الإله تجلى » . ويحمل الشخص الذي ينتسب الى القرية الأولى اسما عربياً سورياً . عزيز أغريبو-.Azizos Agripa ونحن لانستطيع حتى الآن أن نعرف ما إذا كان سكان هذه القرى مواطنين من افاميا أم أنهم يتمتعون بالمواطنية فيها فقط . فعزيز أغريبو هذا لم يستطع وهو على قيد الحياة أن يعلن عن أنه أفامي الأصل بل كان مجبرا عندما يعرف عن نفسه أن يلجأ إلى صيغة معقدة تفيد أنه من احدى القرى الواقعة «ضمن حدود أفاميا . وهكذا يبدو أن عزيز أغريبو مواطن القرية التي كانت قائمة داخل حدود افاميا لم يكن مواطنا من المدينة . وبكلمات أخرى نريد أن نقول أنه الى جانب اليونانيين كان يوجد في أفاميا أناس ساميون (آراميون ـ سوريون ومن المحتمل ـ عرب) واذا صح استنتاجنا هذا فقد كان هناك ليس فقط من يتمتع بالمواطنية الكاملة وإنما وجد أيضاً أناس يعيشون في قرى زراعية تابعة للمدينة وتدخل في تركيبها . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن عزيز أغريبو أنهى أواخر أيامه في مدينةأغسطس تريفيروم فلا نستطيع التكهن بأن هذه الفئة كانت غير متمتعة بكامل حقوق المواطنية .

وكان هناك عدد كبير من هذه القرى داخل الحدود التابعة لانطاكية ـ Liban)ومن اشهرها قرية دفنة الواقعة على بعد أربعين مرحلة عن 231–2,230انطاكية ويعرف سترابون هذه القرية بأنها Katoikia Metria . وتشير المصادر الى عدد آخر من هذه القرى . ويشير غ . ل . كورباتوف بحق إلى أن المنطقة الريفية التابعة لانطاكية كانت تشكل الجزء الأكبر من شمال سورية أما المنطقة التي كانت مرتبطة بها اقتصاديا فقد فاقت كثيراً مساحة هذه الـ Xora . ويروي لنا سترابون (P.751)أنه كانت لانطاكية حدود

مع كل من كوموجين وافاميا وقرّة وكانت تروي أراضيها أنهار : ارقفت واورونت (العاصي) ولوبوت واينوبار . وتؤكد معطيات سترابون هذه مرة أخرى أن ماجاء به ليبانوس لاينطبق على الوضع السائد في عصره فقط وإنما يرسم صورة صادقة لمرحلة أكثر تقادماً في العهد . فقد أدت الأبحاث الأرخيولوجية في شمال سورية ، بما في ذلك انطاكية الى اكتشاف بقايا عدد كبير من القرى التي يعود تاريخها الى العصر الروماني بما في ذلك الفترة الواقعة مابين القرن الأول والثالث للميلاد .

ويروي كاسيوس ديون (78,37,3) ، ويعود تاريخ روايته هذا الى بداية القرن الثالث للميلاد أن احدى القرى التي كانت تابعة لمنطقة انطاكية كانت تبعد عن المدينة مسافة مئة وثمانين مرحلة أي ٢٢,٢ ميل .

ونعلم من وصف تدمر الذي وصلنا في « التاريخ الطبيعي » لبليني الأكبر ، (5,88)أنه كانت تتبع لهذه المدينة منطقة واسعة من الأراضي . ويذكر كتاب التعرفة الجمركية ، الذي وصلنا من تدمر (CIS,2,3913)غير مرة « حدود تدمر »- Oria) Palmurenon وفي النموذج الآرامي (Thwnyh)إلا أننا لم نستطع تحديد المنطقة الحدودية لهذه الأراضي إلا في عام ١٩٣٩ عندما نشر د . شلومبرجه النقوش التي وجدها هنا . حيث علمنا منها أن النقطة التي يقع فيها قصر الحير كانت الحد الفاصل بين حدود تدمر وحدود حمص والنقطة الثانية ـ خربة البلعاس ـ وكانت تشكل أيضا نقطة فصل بين حدود تدمر وأحد جيرانها . وكانت هذه المنطقةموضع خلاف على مايبدو فقد تم الاتفاق عليها مرات عديدة . وحددت للمرة الأولى عام ١١/١٢م . في عهد ميتيل كريتيك سيلان ثم في عهد ترويان (حوالي عام ١٠٢) ومرة أخرى في عهد ادريان وقد أقرها من بعده انطونيو بيي في عام ١٥٣ م ويقدم شلومبرجه اقتراحا موفقاً لرسم حدود تدمر : في الشمال والشمال الشرقي ـ على امتداد الفرات ثم عبر منطقة سهل الرصافة/في الجنوب حتى خربة البلعاس ومن هناك الى خربة الفي وعبر قصر الحير وسهل الضو .

لقد درس شلومبرجه المنطقة الشمالية الغربية من تدمر دراسة دقيقة ومفصلة ثم توصل الى أن هذه المنطقة كانت مسكونة من قبل قبائل متنقلة مارست مهنة الرعي ثم تحولت الى التحضر . وفي هذا المجال يثير اهتمامنا بشكل خاص الوصف الذي أعطاه بطليموس لتدمر في كتابه الشهير «الجغرافيا » (5,15,24) . حيث يعدد كافة البوليسات الموجودة في هذه المنطقة وطالما أن الكلام يجري عن « مدن تدمر » فنحن نستطيع أن

نتكهن أن هذه المدن كانت ولفترة طويلة خاضعة لسلطة تدمر . وفي كتاب التعرفة الجمركية التدمري المذكور (CIS,2,3913)يرمز الى القرى الريفية بمصطلح qry بالتالي Xoria . وفي أحد النقوش المكتشفة في خربة القيروان يوجد اهداء Lgdh dy qryt . واهداء مماثل Lgd dy qrtنشره ج . ستاركه عام ١٩٦٢ .

كما وكانت هناك منطقة ريفية واسعة تابعة لمدينة دورايوروبوس . وتشير المصادر الى عمليات بيع وشراء أراض في قرى تابعة لسلطات مدينة دورايوروبوس . وقد صيغت العقود المتعلقة بالأراضي الخاضعة لهذه الـXomiaفي مدينة دورايوروبوس وحفظت في الأرشيف المحلي . ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال قرية تيثير (DEPP.17A)ونصادف وقرية أخرى في DEPP.20ولكننا لم نستطع معرفة اسمها . أحد الوجوه الفاعلة في الوثيقة DEPP.25شخص يدعى ليكتيوس بن ليكتيوس الذي يعيش في on Nabagatois Kome (i) tes Peri Gabalein iparxeias.وكون الفقرة الأخيرة جاءت متعارضة مع أسماء القبائل المتعارف عليها « في دورايوروبوس » فهي على الأرجح دليل على أن ناباغاتا لم تكن تابعة للمدينة المذكورة خاصة والكلام هنا عن بيع أراض ليست تابعة للبوليس . وما يلفت النظر أيضاً أن هذه القرية تقع خارج حدود سلطة المدينة .

ونرى نفس الظاهرة في منطقة شرقي الأردن . حيث كانت تتبع مدينة جرش منطقة ريفية واسعة جداً .

مما تقدم نرى أنه لم يكن بإمكان البوليسات السورية ألّا تكون مراكز هامة للانتاج الزراعي .

وهكذا نرى أن المعطيات المتوفرة لدينا ، المباشرة ، وغير المباشرة ، تسمح لنا أن نقوّم العلاقات الزراعية التي كانت سائدة في كل من تدمر ودورايوروبوس وانطاكية .

العلاقات الزراعية وعلاقات الملكية في تدمر القرن ١ ـ ٣ م

لاتحتوي النقوش التدمرية على كثرتها معطيات مباشرة تسمح لنا أن نلقي الضوء على علاقات الملكية التي كانت سائدة في تدمر في الفترة الزمنية التي نحن بصددها . وحتى لائحة التعرفة الجمركية التدمرية المشهورة (CIS,2,3913)لاتتضمن معلومات

بهذا الشأن . غير أن هذه النقوش والنصب ولوحات القبور وغيرها تتضمن معلومات غير مباشرة تسمح لنا أن نوضح ، الى هذه الدرجة أو تلك ، ليس طابع علاقات الملكية السائدة بين العائلات فقط وانما داخل العائلة نفسها أيضاً . والموضوع الرئيسي للملكية هنا كما وفي كل مكان آخر هو الأرض .

كما أننا نستطيع القول أنه تتوفر لدينا معلومات عن طابع الانتاج الزراعي في تدمر . ولكن هذه المعلومات مجتزأة ومبعثرة . فالنقوش التي وجدت في المنطقة الريفية المحيطة بتدمر تكرر غالباً كلمة بستان (gny) . فنقش خربة القيروان الذي مر ذكره معنا على (ص ٤٢) الى جانب اهداء «غاديّ القرية » يتضمن اهداء « غاديّ بستان » Lgd,dy gny . وفي نقش اخر من خربة الدهور (عام ٢٣٨ ـ ٢٣٩) نقرأ كلمة gny . . . . على الأغلب ، « بساتين » . وأخيراً نقرأ في أحد النقوش التي نشرها ج ستاركه : اهداء «غاديّ بساتين» (lgd dy gny)وعدداً آخر من الآلهة . ومن هنا نستنتج أن البستنة كانت منتشرة في تدمر .
وتزودنا المصادر التدمرية . بمعطيات اضافية عن هذا القطاع من الانتاج الزراعي حيث تتكرر في هذه المصادر كلمة خمرة (hmr)ويبدو أن استخراج الخمرة كان يشكل قطاعاً رئيسياً في النشاط الانتاجي لأولئك الذين كانت بساتين الكرمة تحت تصرفهم . ومن الطريف أن نجد في إحدى الوثائق تعداداً لأنواع الخمور : « الخمرة الجديدة » hmr) hdt,RTP,701–702) «خمرة كثيفة» (hrm...qsˇr,RTP,699–700)وهناك نوع آخر من الخمرة الكثيفة لم نستطع حتى الآن تحديد ماهيته وتسمى : hmr...qsˇr) bsmk, RTP, 694–697) وعلى الأرجح أن مايميز هذا النوع الأخير عن سواه هو فقط طريقة استخراجه حيث تستخدم لهذا الهدف عصارات خاصة (Smk')

وتفيدنا لائحة التعرفة الجمركية التدمرية (CIS.2,3913)أن المنطقة الزراعية الريفية كانت تزود مدينة تدمر بالمواد الغذائية التي يرمز اليها النص اليوناني بـ : Ton brotonوالنص التدمري بـ : :St'Mt . ولقد علمتنا تجربة التاريخ القديم أن مثل هذه العملية الانتاجية تؤدي بالضرورة الى ولادة الاستثمارات الفردية وبعد ايقاف عملية التقسيم الدوري للأرض تتحول هذه الاستثمارات الى قاعدة تنمو عليها علاقات الملكية الخاصة .

ولكن ماتجدر الاشارة اليه أن المصادر التدمرية لا تفيدنا بأية معطيات مباشرة عن سير هذه العملية أو حتى وجودها في منطقة تدمر الريفية الزراعية . ولكي يتيسر لنا القاء

بعض من ضوء على هذه النقطة يتحتم علينا أن نلجأ لتحليل النقوش التدمرية وخاصة شواهد القبور التي تحتوي على المعلومات المتعلقة بمختلف عمليات الملكية التي كان موضوعها الأضرحة . ويثير الفضول في هذا المجال مصطلح hd الذي جاء في أحد النقوش المكتشفة في بازورية (آذار عام ١٧١م) وهذا المصطلح يعني الملكية العشائرية الوراثية للأرض والتي يمنع منعاً باتاً إهداؤها أو هبتها أو بيعها خارج العشيرة إلا بشرط حق شرائها مستقبلاً أو استعادتها في العام اليوبيلي . ولكن في المرحلة الأخيرة امحى كل فرق بين الملكية العشائرية للأرض وبين ملكيتها المكتسبة (Miqna)ولم يستمر هذا الفرق إلاّ في المجال الاكليروسي الأكثر محافظة ويسمح لنا مبدأ المقارنة بالقول أن تدمر أيضاً عرفت مثل هذه العملية حيث كان يرمز للمقابر هنا بـ : Hdولكن مؤلف النقش سعى لأن يظهر أن هذه العملية لاتخرج عن اطار الملكية العشائرية غيرالقابلة لعمليات نقل الملكية .

تحتوي المصادر التدمرية المعروفة والمنشورة حتى الآن صيغاً لمختلف أنواع المحظورات . وقد أورد النقش CIS,2,4218النموذج الأول للمحظورات المذكورة : « فلتبق هذه المشكاة مغلقة إلى الأبد لايفتحها عليه أحد . فلتنقطع ذرية كل من يفتحها ولىحرم من كل مساعدة(gr)الى الأبد ، بل وليحرم من العدل (Wl.Yqst)وليبق الى الأبد محتاج الى الخبز والماء » .
ومن الواضح أن هذه المقولات لاعلاقة لها بأيةعمليات تجارية وهدفها هو المحافظة على حرمة القبر فقط وحمايته من اللصوص . وكانت النصوص التي يعود تاريخها الى ماقبل العصر الهلنستي بكثير قد أشارت الى مثل هذه الظاهرة وعلى وجه الخصوص النصوص الفينيقية[1]والآرامية القديمة [2]التي وجدت على شواهد القبور . إلاّ أن صياغتها تختلف .

وهناك نوع آخر من المحظورات وهو يتعلق بالعمليات التجارية وعمليات البيع والشراء وما شابه . وتجدر الإشارة هنا الى النقش .CIS,2,4214 . حيث جاء في النص اليوناني لهذا النقش : «لقد بنيت هذا النصب وكرسته لأولادي وأحفادي الذكور بحيث لايقبلون فيه أي شريك تماماً كما كتبت » .
وهناك نص تدمري شبيه به : « هذا القبر الذي شيدته لأبنائي وأحفادي الذكور(dkryn) .

---

١ ـ نشير ، على سبيل المثال الى نقش اهيرام . لجبيلي kAl,1 ، ي . ن . فينيكوف ، قبرية اهيرام الجبيلي في مفهوم جديد «دليل التاريخ القديم ١٩٥٢ رقم ٤) وقبرية يهاميلك ملك جبيل CIS,I,1. : يقابل (kAl,10وكذلك خبر ملك صور تابينتا .

٢ ـ مثلا في النقوش المكتشفة في نيراب (,kAl,225,M.Lidzbav,1vi,haudbuuch.pjzd I)المؤرخة في القرن السابع قبل الميلاد

وليس لهم الحق ببيعه أو التصرف به أو قبول شركاء لهم/فيه wl Yhwh[š]tyn wlb'r wl'hbwr brh حسب ماكتبت » . كما ونجد صيغاً مماثلة في النقوش CIS.24215 («لايسمح لأحد أن يتصرف به ») ، 4217 . ومن الجدير بالذكر أن هذه الظاهرة لم تكن ظاهرة تدمرية خاصة . وكل ماتتميز به النصب التدمرية أنها لم تسجل حجم الغرامة المترتبة على مخالفة وصية المشيِّد كما هي الحال في المناطق الأخرى .

لاشك أنه كان لهذه المحظورات أهمية عملية محددة . فعدم وجودها كان يعني وجود امكانية حقيقية لخضوع هذه القبور لعمليات البيع والشراء وغيرها وذلك حسب القانون التدمري نفسه . حيث يرمز لمثل هذه العمليات بـ : hbr وrhq .

فالنقش CIS,2,4211 يسجل عمليات من النموذج hbr (آب عام ١٣٧ م .) وهانحن ننقل الترجمة اليونانية للنص المثبت في هذا النقش :
«لقد قبل يوليوس افيريلي يفتيخ بن أغاي شريكاً له في المقبرة هوغاي يوليوس غيرميي - أخاه بعد بنائها سوية قام الاثنان بترميمها على نفقتهما الخاصة لِصالحهما ولأبنائهما وأحفادهما وكذلك تكريماً لأبناء ماين أخيهما . كان ذلك في شهر دووس عام ٥٤٨» . أما القسم التدمري من هذه الوثيقة فتالف تماماً ولم يصلنا منه سوى الأسطر الثلاث الأولى : «يوليوس افيريلي يفتيخ بن اغاي اتخذ لنفسه شريكاً hbr في هذه المقبرة (b'yt) هذا الغاي يولي غيرميي أخاه الذي . . . . . .» .

من المرجح ان لاتكون لدى هؤلاء الأخوة ملكية جماعية ذلك أن حيازتهم المشتركة لأرض المقبرة قد صيغت كعقد بين أطراف مستقلة اقتصادياً . بالتالي مانراه أمامنا ليس إلا حادثاً مرتبطاً بعملية انشطار عشيرة العائلة الكبيرة وخروج خلايا اقتصادية منها ، وتجدر الاشارة إلى أن هذه الخلايا الصغيرة مستقلة من الناحيتين الاقتصادية والقانونية . وهذا ما يؤكده النقش : CIS,2,4197 ، (عام ٨١) حيث يجري الكلام عن ترميم مقبرة من قبل أشخاص لايشار الى صلة القربى التي تجمعهم . أما الفرضية المقترحة ، في التعليقات على النقش بخصوص علاقات القربى بينهم فليس لدينا ما يؤكدها .

ويروي لنا نقشان آخران CIS,2,4194) و4195 عن عمليات مشابهة لليشامش بن ليشامش بن تايمي . لقد اتخذ هذا لنفسه شريكاً (hbr) هو سراي بن زابديعات بن عطاقاب حيث قدم له في آذار عام ١٨١ مصطبة وست فجوات مقبرية . (gwmhy') وكذلك حصل بوني بن بولاخ بن يقرور على ثماني فجوات مقبرية . وقد جرت مثل هذه العمليات لمقبرة يوليوس افريلي مالي في عام ١٨٣ وعام ٢١٥ .

وترمز النقوش التدمرية للنوع الآخر من هذه العمليات بفعل rhq ، والمعنى المتعارف عليه لهذا الفعل هو «يصبح معزولاً» «يقصي»[٣] . وقد سجلت هذه العملية سلسلة النقوش التي نشرهاب . ك . كوكو فتسوف والتي اكتشفت في مغارة الجديدة(CIS,2,4171,4175ويعود تاريخها لعام ١٦٠ وعام ١٩١م . ويحذو كوكو فتسوف حذو كليرمون ـ غانو في تفسير الفعل rhqالذي هو ترجمة حرفية للفعل اليوناني exestesatoأي («تخلى عن») ، «حرم من») والذي كان يستعمل للدلالة على العمليات المتعلقة بالتصرف بالملكية . وتجدر الاشارة إلى أن استخدام مصطلح rhqفي الوثائق الواردة الينا من ايليفانتينا ليس ترجمة للمصطلح اليوناني إلى اللغة الآرامية وإنما هو تطابق تقليدين حقوقيين ـ محلي وهلنستي . ومن الطريف أن نجد في لائحة مقبرة نصر اللات أن المصطلح التدمري rhqيقابله المصطلح اليوناني exekHopesen . كما نجد مثالاً آخر لمثل هذه العملية في أحد النقوش التي نشرها ج . كانتينو في عام ١٩٣٠ . لقد أعطى كوكو فتسوف الفعل rhqالوارد في هذه النقوش معنى الكلمة الروسية «تخلى عن» . ولا زال المحتوى القانوني لهاتين العمليتين غير واضح حتى الآن . ولكن هذا لا يمنعنا من دراسة بعض خصائصهما .

يؤكد عدد كبير من الوثائق أنه بموجب عمليات الصنف الثاني المرموزة بالمصطلح rhqكان المالك السابق يفقد كامل سلطته على الجزء المباع أو المهدى من الضريح .
وكان باستطاعة المالك الجديد أن ينقل ملكية القسم الذي يعود إليه الى شخص ثالث .
وهذا ما حدث فعلاً لمقبرة مالك التي انتقلت ملكيتها لعدد من الأشخاص وقد نشرخ . انكهولت عدداً كبيراً من الوثائق التي تم اكتشافها في هذه المقبرة . من هنا نستطيع أن نستنتج أن العمليات المرموزة بالمصطلح rhqكانت تعطي المالك الجديد مطلق الصلاحية في موضوع الملكية التي اكتسبها . بمعنى آخر إن ما نراه هو وجود الملكية الخاصة للمقابر .

أما العمليات المرموزة بالمصطلح hbrفقد كانت ذات محتوى حقوقياً آخر . وهذا مايدل عليه علم اشتقاق المصطلحات التدمرية ، ويمكن أن نفترض أن الكلام إنما جرى ليس عن اقتطاع قطعة من الأرض فقط وإنما تقديم حصة ، أي أن الذي أمامنا هو ظهور الملكية الجماعية للممتلكات التي هي موضوع العملية . فقد تم تحديد قطعة من الأرض لكل من

---

٣ ـ تسجل الوثائق المكتشفة في اليفانتينا مصطلح mrhq الذي كان يستخدم للدلالة على رفع موضوع عملية البيع والشراء من مجال صلاحيات فاعل العملية . ومن الطريف حقاً ان هذا المصطلح لا يمس الجانب الحقوقي للعملية . امّا أن كلمة rnqكانت ترمز في تدمر الى أحد صنفي العمليات فهذا ليس إلاّ نتيجة لعملية تطورّ طويلة وسابقة .

المشاركين في العملية يستخدمها كما يشاء . ولكن هذه الأرض التي قسمت على الجميع ليست سوى ملكية جماعية . أي أن التملك الشخصي بدأ يظهر ، ولكن في إطار الملكية الجماعية . وفي القرن الثاني بعد الميلاد تظهر إحدى الخصائص الفريدة للوضع القانوني لهذا الصنف من التملك . فقد غدت عمليات hbr عبارة بيع حقيقي لهذه الملكية ولم تعد ، كما في السابق تقديم حصة من ملكية الجماعة ، وفي إطارها . في عام ١٩٣٠ نشرج . كانتينو إحدى الوثائق التدمرية التي وافق فيها المصطلح التدمري hbr المصطلح اليوناني exekhoresen ـ «تنازل عن» . (يعود تاريخ هذا النص لنيسان عام ١٩١م .) . وهكذا يتضح لنا أن الفرق بين هذين الصنفين من العمليات بدأ يتلاشى . كما وبدأت تتلاشى أيضاً الملكية الجماعية .

يمثّل أهمية خاصة في هذا السياق النقشان اللذان يحتويان على نسخة طبق الأصل أو على عرض (وهنا نجد صعوبة خاصة في أن ندقق المعنى أكثر من ذلك) للوثائق العملية المطابقة . أحدهما من مقبرة مالك وقد نشرها خ . انكهولت في عام ١٩٦٢ ويعود تاريخه لعام ٢١٤م ـ وجاء فيه « في شهر أيلول من عام ٥٢٥ . يوليوس اڤريلي عيد بيل الملقب بمزبنة وهو ابن يوليوس اڤريلي اينين . لقد قدمت ما كتبته يدي نيابة عن يوليوس بن اڤريلي الى عقيل بن ابراهات ، العبد المحرر (br hry) زبيديبول ، ذلك أنه لا يعرف الكتابة ، بما أعلنه هو يوليوس اڤريلي اغريبا بن اغتاب عبد هيليودور بن يرخيبول المحرر عن أنه يمنحه (lwt lh) حصة في الدار (brbw't) التي تقع مقابل الثلاث فجوات (gwmhyn) العائدة ملكيتها لاغريبا ولكن بشرط (md'nkl lmtl dy) أن يكون نصف هذه الحصة ملكاً له (mnth) ، نصف له ، والمدى ('rwh) حتى الفجوات الثلاث له أيضاً ، وأنه سوف يحافظ . . . . . ولن يكون له الحق (wl'yh'slyth) في توسيع حصته هذه داخل الدار (lmrh l'lwh'l rbw't') بأية طريقة كانت ، وإذا هو أراد أن يبني في حصته أيّ نصب (hwlwhmd'n) ، حجراً أم جداراً من الكلس (ktl dy hwr') أو من الطين (hmryn) بحيث يزيد من مساحة جهته . يوليوس اڤريلي نيشا بن برعاتينا ، شاهد ، يوليوس اڤريلي يرخبول بن مالك ، شاهد» .

من الواضح أن هذه العملية من صنف rhq . وتؤكد مقارنتها مع وثيقة مور ٣٠ أن طريقة رسم حدود العقار المنقول كما جاءت في هذا النقش ، وكذلك في الوثائق الاخرى التي تنص على مثل هذه البنود تتطابق مع الطريقة التي ترسم بها حدود قطعة أرض منقولة . وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن عقود نقل ملكية الأرض كانت المقياس المعتمد لنقل ملكية العقارات وغيرها من الأملاك .

لدينا نقش آخر يحوي نصاً مماثلاً وقد وصلنا من البازورية ويعود تاريخه الى آذار عام ٤٨٢ . ويقول النص : «في شهر أيار عام ٤٨٢ . سلمى ابنة بولاخ بن بوروفا نيابة عن (bmqmwt)عقيل بن بوروفا ، زوجها وموكلها (wgnsts)يداي بن فايلاي يعلنون (mwdy)لمالك بن مقيم بن عوكي أنها استلمت منه مئة وعشرين ديناراً من الفضة أعطته مقابلها (wthwthln)ونقلت اليه (yhbtlhwb'dt) ن [ص] ف الحصة التي تملكها هي (p[l]gwt mnt''hd'dydh)وهي عبارة عن مقبرة مؤلفة من ثلاثة أقسام (mnmnwn tlt m'rt dy dqbwr)سجلت مرتين . . . . طريقك من مكان الحزن هذا عبر حصتك (s^mlk)[4] مفتوح باتجاه الشرق سوية مع مالك (b^swtpwt)وبمشاركة (ws^wtpwt)عقيل زوجها . وكل حصة ـ ثلاثة أكواع التي أعطتها هي الى مالك و. . . . »إن ما يميز هذا النص هو التأكيد على أهلية المرأة .

كما هو واضح ، تقسم الوثائق الواردة أعلاه الى : الصيغة التأريخية ، الاطراف المشاركة في العملية ، عرض لجوهر العملية والشهود . ويحتوي عرض جوهر العملية بدوره البنود التالية : التأكيد على فعل النقل نفسه ، تحديد العقارات الخاضعة لعملية النقل ثم منع توسيع حدود العقار المنقول . الوثيقتان ، كما هو واضح صيغتا على شكل اعلان موجه من البائع الى الشاري . وتؤكد مقارنة هذه المواد مع المواد التي وصلتنا من ايليفانتينا[5] أن صياغة عقود نقل الملكية على هذا الشكل هو تقليد محليّ يعود تاريخه الى ما قبل العصر الهلنستي .

لاشك أن المواد التي عرضناها تسمح لنا أن نقول بكل ثقة بأن الملكية الخاصة للأرض كانت موجودة في تدمر والمنطقة التابعة لها .

٤- قارن الكلمة العربية شملن -S^amlun أي «شمل» ، «شيء ما مستقل» .

٥- من المعروف أن اطراف العمليات التي سجلتها وثائق اليفانتينا تدخل الصيغة التالية في كل وثائق نقل الملكية : « قال س بن ع ل. ز بن ن » أما الوثيقة نفسها فكانت عبارة عن إعلان موجه من أحد أطراف العملية الى طرفها الآخر يلخص فيه الطرف الأول جوهر العملية والشروط التي يتوجب على الطرف الآخر تنفيذها والتقيد بها . أماً واجبات الطرف الأول فتعتبر منفذة قبل البدء بالعملية (انظر R.yaron.Introductioh) وقد بقي هذا الشكل من صياغة الوثائق حتى القرن الثاني الميلادي (ي .د . اموسين ، العقد الآرامي عام ١٣٤ م . في منطقة البحر الميت ، العالم القديم ، موسكو عام ١٩٦٢ .

العلاقات الزراعية في دورايوروبوس

لقد وصلتنا من دورايوروبوس سلسلة من الوثائق التي يعود تاريخها إلى مرحلة تاريخية قريبة من تلك التي وصلتنا من تدمر كما أنها ليست بعيدة عنها من الناحية الجغرافية أيضاً وهي تنقل الينا نفس الصورة التي أعطتنا اياها الوثائق التدمرية .

أول ما تجب الاشارة اليه هو الرُّقم الآرامي الذي وجد في برج قاذفيّ السهام ويعود تاريخه لعام ٢٠٠ م . ويشير ناشر هذه الوثيقة الى أن طابعها لا يزال غير واضح حتى الآن . وهي تتألف من عدد كبير من المقاطع . ويعتقد ج . ث . ميليك ـ ناشر الوثيقة ـ أن الرُّقم عبارة عن وصية تحتوي على نصائح مختلفة في مجال الاقتصاد بما في ذلك مسائل العمل الزراعي .

يأتي نص الوثيقة على ذكر النخيل (tmr)ولكن الارشادات المتعلقة به غير واضحة . ويتبع ذلك نصائح بخصوص ريّ أشجار التين ([rwy yln[y) . وأغلب الظن أن الرُّقم احتوى على أوامر بخصوص ضريبة العبادة والطقوس الدينية ([e]ˆsyry[nd’]ˆsrh)بمقدار العشر من كافة محاصيل الحبوب (mn kl gnsyh[wnd]zr[y]) . تنصح الوثيقة بزراعة الحقول «حبوباً صيفية» (zr’h[d]qyt[’]) . من المفروض أن يأتي «البستاني »(gnyh ، قد يكون المقصود هنا ذلك الذي يشرف على إدارة الاستثمارة ، مع أن كلمة prnsغير موجودة ؟) بالحبوب خلال ثلاثة أيام ـ الشعير(s’r[y])وباقي المحصول (wsˇ[’]wr ’lylt) . نعتقد أن ما يقصد به هنا هو جلب الحبوب الى عنبر المزارع بعد تحضير الأرض لاستقبال البذار . عندما تتم حراثة حقل مزروع بالقصب (bytsygly)ينصح ببذره شعيراً (sˇ’ry)وريّه جيّداً .

من الواضح أن واضع هذه الوثيقة يوجه نصائحه الى مالك مفترض لمجّمع زراعي معقد . حيث نجد هنا مزارع النخيل وكروم التين والحبوب . كما وتفترض هنا امكانية استصلاح الأراضي المهجورة . ولاشك أن هذه المزرعة لم تكن الوحيدة في أراضي دورايوروبوس . وتفيدنا في هذا المجال الوثيقة DEPP,15 : والتي تتحدث عن بيع قطعة من الأرض تحتوي على أشجار وبيت مع كافة خدماته وحدائق و «كل هذا تابع له» . ولكننا حتى الآن لانعرف سقف مساحة مثل هذه المزارع كما لا نعرف أيضاً مستوى التناسب بين الملكية الكبيرة والملكية الصغيرة للأرض .

وعلى ما يبدو أننا نستطيع تقسيم الأراضي التي خضعت لعمليات البيع والشراء في دورايوروبوس . الى ثلاث فئات . الأولى - D.Pg.,2, khora يقابل (DEPP,17,DEPP,26 D.Pg101) ، والثانية - هي الأراضي التي من فئة ue´epifuteike´DEPP,25 يقابل (D.Pg.23 ، والثالثة - kle´ros - « حصة » . ولكن النص الذي بين يدينا يسجل عملية نقل فئة واحدة من الأراضي فقط . DEPP,15,) يقابل (D.Pg.1 ولكن لاشك في أن كل الفئات المذكورة كانت تخضع لعملية البيع و الشراء وهذا ما يؤكده وضعها القانوني الواحد في القرن الثاني و القرن الثالث للميلاد . وتجدر الاشارة هنا الى أن ما يجري الكلام عنه في الوثيقة DEPP.15 هو بيع جزء من الكلير الذي خضع سابقاً لعمليات متعددة من البيع و الشراء مما أدى الى تقسيمه الى أجزاء . أمّا التمايز في استخدام المصطلحات فلا نعتقد أنه يعكس ظواهر من واقع المرحلة القائمة وإنما يعكس وقائع تعود الى التاريخ البعيد أو الأكثر قرباً . إنها بقايا من الماضي ولم تكن لها أية فاعلية قانونية .

مع أنه لم تكن لهذه الفروقات فاعلية قانونية إلا أنها تؤكد أنه إلى جانب أراضي المدينة نفسها (khora) كانت ضواحي دورايوروبوس تضم أراضي القيصر التي كان السلوقيون يؤجرونها حتى أصبح استئجارها وراثياً فيما إذا تابع الوريث استثمارها دون انقطاع وأدى بعض الاتاوات (ue´epifuteetike´) وكذلك كان وضع الكليرات - وهي الأراضي التي حصل عليها الجنود لقاء خدمتهم العسكرية .

أن المواد التي نحن بصددها والتي تهمنا كثيراً في هذا المجال نجدها مسجلة في العمليات التالية المتعلقة بالأرض .

تحتوي الوثيقة DEPP,15 (القرن الثاني الميلادي) على عقد بيع أرض مع حق اعادة شرائها ثانية (وهذا ما تشير اليه الصيغة apedoto lysima ، انظر تعليقات س بريدفورد ويلليس) . تباع هذه القطعة من الأرض بـ ٢٤٠ دراخم ، مئة وعشرون منها كانت دينا للبائع بذمة امينادر «باسمه» والباقي عبارة عن غرامات مستحقة على المدين . لقد كانت هذه الأرض رهناً لدى البائع وقد تمت عملية البيع بعد انقضاء المدة المحددة لاستيفاء الدين .

وفي وثيقة أخرى (DEPP,25) يباع نصف البستان وتشير الوثيقة الى مكان توضع الأرض المباعة كما وتؤكد على بيع الأشجار وعرائش العنب وكل ما هو ملحق بهذا البستان . وتسجل الوثيقة بنداً خاصاً يحمي الشاري من أية مطالبات جانبية تتعلق بموضوع الملكية التي اشتراها .

ولكن الوثيقة التي تحظى بأكبر قدر من الاهتمام هي DEPP,26 وكانت قد وضعت على أساس القوانين الهلنستية المحلية والتي اعتمدتها القوانين الرومانية أيضاً . وجاء في نصها «الأعلى» : «لقد اشترى [يو] ل [ي] موسديمتريوس ، الذي كان فيما مضى محار[با] في الكتيبة الأ[غسطسية] الثالثة ، والذي يعيش الآن في راكوكيتا ، من اثيرنوس بن عبداب من [قرية] سهرادا - أوراي أرضاً تعود ملكيتها له ، وتقع داخل حدود هذه القر[ية] التي اشتراها هو نفسه من عبيب ابن قريته زايرادا - سهراي ، التي يسميها الاثنان معاً قرقفة ، عام ١٧٥» . أمّا النص «السفلي» فقد جاء فيه : «في عهد القنصلين نوموس ألبين و ليليوس مكسيم وفي اليوم السابع قبل الأيام الأولى من شهر حزيران وبحضور الرجال الموقعين أدناه على أختامهم الشخصية ، في صهارا ، وفي الثكنات الشتوية التابعة للكتيبة الاغسطسية الثالثة . اشترى يوليوس ديمتريوس الذي كان فيما مضى جندياً من جنود الكتيبة المذكورة ، والذي يعيش حالياً في راكوكيتا ، من اثيرنوس بن عبداب من قرية صهاريدا - أواراي ، أرضاً تعود ملكيتها له وهي واقعة في المنطقة المحيطة بهذه القرية وكان هو نفسه قد اشتراها بالحجم الذي هي فيه من عبيب بن بوزان ابن قريته في زايرادا - سهراي والتي يسميها الاثنان معاً قرقفة ، مع طريق للدخول اليها والخروج منها بالاضافة إلى الأشجار المثمرة وغير المثمرة ومع كل الحقوق المتعلقة بهذه الأرض . بثمن قدره مئة وخمسة وسبعين ديناراً ، استلمها البائع من الشاري ونقل اليه ملكية الأرض لتصبح ملكاً قانونياً إلى الأبد يستخدمها ، يبيعها يتصرف بها كما يشاء[٦] . جيران هذه الأرض : من الشرق - قناة مائية لنهر الخابور ، من الغرب - كرم العنب الذي تعود ملكيته للبائع ، من الجنوب - عبد اللات ، من الشمال - أرض البائع وأرض عبد اللات . وإذا سقط أحدهم سهواً فلن يكون هذا عائقاً لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل . حتى الآن كان في هذه الأرض ٦٠٠ غرسة عنب . لقد سلّم البائع هذه الأرض الى الشاري سليمة من كل أذية وغير مرهونة أو مختلف عليها أو مطالب بها . أمّا إذا لم يسلمها هكذا وطالب أحدهم بحق له فيها أو بقسم منها فيتوجب على البائع القيام بكافة الاجراءات القانونية والمحاكمات الكفيلة بإعادتها له خالية من كل مطلب وإذا لم يستطع فيدفع له ضعف ثمنها مع كافة المصاريف[٧] . كما ويعطي البائع كل ما يترتب على هذه لتنفيذ الأمر الامبراطوري والأتاوة الريفية . يتمتع هذا العقد

٦- نفس الصيغة تقريبا نجدها في .MYP (عام ١٣٤) .

٧- قارن Mpv.30 « كل ماعندي وما سأشتريه - ضمانة لافراغ ما بعته لك من أي اعتراض أو مطلب ».

بكل قوته حيثما أبرز . لقد سأل الشاري بكل شرف وضمير وأجابه اثيرنوس البائع بكل شرف وضمير . لقد كتب هذا العقد اڤيريلي سلمان ، المحارب القديم نيابة عن اثيرنوس بن عبداب ، الامي ، والذي يؤكد أنه باع أرضه هذه وقبض ثمناً لها مئة وخمسة وسبعين ديناراً وهو موافق على ما ورد أعلاه . ڤلافي سيرابيون ـ رسول بابوي وضع توقيعه . يوليوس ديوجين ـ أشهد . كلافريوس فيودور ـ تاجر جملة ، وضع توقيعه . يوليوس مونيم ـ محاسب ، وضع توقيعه . خيبون فلافي وضع توقيعه »هذه الوثيقة التي وصلتنا من دورايوروبوس نظمت على نمط الوثائق اليونانية الهلنستية من النموذج paraA epriatoBوالذي يتمتع بانتشار واسع في الحياة العملية اليونانية . وسوف نشير هنا إلى أهم الخصائص التي يتميز بها هذا النموذج . افتتاحيته ـ صيغة تأريخية حسب العصر الروماني (العام حسب القنصل واليوم حسب التعداد الروماني) . ثم يذكر المكان الذي تجري فيه العملية ويشار الى وجود الشهود . أما جوهر العملية فيصاغ على الشكل التالي : أسمي طرفي العملية (اشترى Aمن B) ، وصف المكان وما فيه ، السعر واستلام الثمن ، حقوق البائع والحدود . ثم يشار إلى أن العملية شريفة كما يشار إلى الضمانات التي يترتب على البائع اعطاؤها فيما اذا كانت الملكية المباعة تخضع لمطالبات الآخرين . وهنا يترتب على البائع القيام بكافة الاجراءات الكفيلة بتخليص الملكية المباعة لصالح الشاري أو دفع قيمتها مضاعفة مع تعويض الخسائر .

مواد لدراسة العلاقات الزراعية في انطاكية

ومع أنه لا تتوفر لدينا المعطيات الكافية لاعطاء صورة كاملة عن العلاقات الزراعية في انطاكية في القرن الأول وحتى الثالث ولكن وثائق يعود تاريخها الى مرحلة متأخرة توفر لنا امكانية تحديد بعض اتجاهات التطوّر التي يتصف بها هذا البوليس . فقد تجلت الاتجاهات المذكورة ، قبل كل شيء ، في انشاء ملكيات عقارية كبيرة وفي تجميع عدد كبير من قطع الأرض الصغيرة والمتوسطة في أيدي قلّة من الناس . وكانت هذه الاستثمارات تضم مساحات واسعة من الأراضي (Ioan.Chrys.,In Matth.63,4)وعدداً كبيراً من البيوت والحمّامات . كما وكان العبيد العنصر الذي لاغنى عن وجوده في هذه الاستثمارات . وهكذا فالتشابه واضح بين هذه الصورة وتلك التي تسمح برسمها الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس . ويؤكد مصدرنا المذكور أن القطبين الاجتماعيين الرئيسيين كانا يشكلان

أقلية ($\frac{1}{10}$ الاغنياء و $\frac{1}{10}$ الفقراء) بينما كانت الشريحة الوسطى تشكل الجزء الأعظم من الجماهير . وكانت هي التي تملك قطع الأرض «المتوسطة» المساحة . ومن المعتقد أنه لم يطرأ أي تغيير جوهري على الوضع الذي كان قائماً في المرحلة التي نحن بصددها بالمقارنة مع الصورة التي ترسمها المصادر التي يعود تاريخها لمرحلة متأخرة أكثر .

منطقة شرقي الاردن

يعتبر النقش IGRR,3,1341 من أهم الوثائق التي بين يدينا بخصوص تقويم العلاقات الزراعية في منطقة شرقي الاردن . وقد تم اكتشاف هذه الوثيقة في منطقة غير بعيدة عن مدينة جرش وهي تحتوي على مرسوم يحدد الغرامات التي تفرض على الأشخاص الذين قد ينتهكون حرمة الكرّامين . ولكن مع الأسف فإن الوثيقة لا تسجل أية معطيات تسمح لنا بتحديد منشئها (هل هي أمر امبراطوري أم أنها نص لقرار اتخذته سلطات المدينة) ولكنها مع ذلك تسمح لنا بإبراز نقطتين جوهريتين : التطور الملحوظ لزراعة الكرمة في المنطقة المحيطة بمدينة جرش وسيطرة علاقات الملكية الخاصة هنا . كما ويلفت النظر أيضاً حجم الغرامات المذكورة والذي يصل الى خمسين ديناراً .

العلاقات الزراعية في المستعمرات الرومانية

من المعروف أنه عندما تأسست المستعمرات الرومانية حصل مستوطنوها على قطع من الأرض مساحاتها متقاربة . ومن الطبيعي ألا تكون بيروت و بعلبك استثناء لهذه القاعدة ولكن لا تتوفر لدينا حتى الآن أية معطيات أو وثائق يعود مصدرُها إلى هاتين المدينتين بالذات . ولكننا نستطيع أن نفترض أن النظام القائم هناك لم يكن ليتميز بجوهره عن الحالات المماثلة التي عرفتها بقية أجزاء الامبراطورية .

تحظى النتائج التي توصل إليها ف . ي فان ليري عن العلاقات الزراعية في حمص باهتمام متزايد من قبل الباحثين . فقد أكدت هذه النتائج أنه في الوقت الذي أقرت فيه وضعية هذه المدينة كمستعمرة كانت تجري هنا عملية مساواة في ملكية الأراضي الموزعة على المستوطنين . ويتضح من أبحاث واستقراءات ف . ي فان ليري

أنه جرت هنا اعادة توزيع الأرض ، ومن المرجح أن يكون السبب في ذلك قدوم موجة جديدة من المستوطنين .

بمعنى آخر ، إن حصول المدينة على وضعية المستعمرة كان يجرّ وراءه (وهذا ما حدث للمدينة التي نحن بصددها) تغيرات جوهرية في الحياة الاجتماعية ـ الاقتصادية للبوليس المعني . غير أن المعطيات المتوفرة لدينا عن مخطط مدينة حمص لا تسمح لنا بتحديد مساحات قطع الأرض التي جرى توزيعها . ولكن هناك ثلاث نقاط تلفت النظر اليها : ١) ليس هناك تماثل بين هذه القطع ، ٢) مساحاتها صغيرة نسبياً ، حتى القطع الكبيرة منها ، ٣)لم ينسحب نظام التقسيم المتساوي على كل أراضي حمص . ولكن هل هذا يعني بقاءها جزئياً لسكان المدينة السابقين وعدم تأثر الأراضي التي يملكونها بالاصلاح الجديد الذي رافق تحول المدينة الى مستعمرة ؟ يجب اعتبار هذه الفرضية ممكنة .

وأغلب الظن أن الأوضاع في باقي المستعمرات كانت مماثلة أيضاً .

× × × × × × ×
× × × × × × ×

تأسيساً على ما سبق نستطيع الآن أن نؤكد أن الملكية الخاصة للأرض كانت هي السائده في المدن السورية والمناطق التابعة لها في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث للميلاد . والحقيقة أنه يمكننا أن نعتبر أن القانون الذي تسحب بموجبه الأرض من مالكها فيما إذا لم يستخدمها لمدة سنتين وتصبح ملكاً قانونياً لصاحبها الجديد ـ هذا القانون كان ساري المفعول في سورية أيضاً . وتؤكد ي . م . شتايرمن أن هذا القانون ليس سوى نتيجة لاعتبار كل قطعة جزءاً لايتجزأ من الوحدة الكلية التي هي أراضي المدينة ككل فلم تكن المدينة لتسمح ، مهما كانت الظروف بايقاف عملية استثمار أراضيها ولذلك كانت تعطيها للشخص الذي يستطيع استثمارها فقط . بكلمات أخرى لقد كانت المدينة هي صاحبة الحق المطلق في التصرف بهذه الأراضي . ولكننا في نفس الوقت لا نملك أية معطيات يستنتج منها أن المدينة كانت عائقاً أمام تحقيق صاحب الأرض لملكيته على أرضه الخاصة .

ولو عدنا الى عقود بيع وشراء الأرض لما وجدنا فيها اشارة لتأثير ما كانت المدينة تمارسه على هذه العمليات . فقد كانت الفاعلية القانونية لهذه العقود أصيلة فيها ولم تكن بحاجة للتصديق من سلطات المدينة.. إذاً المدينة لم تكن مالكاً أعلى للأرض وإنما الادارة السياسية التي تمارس سيادتها على الأراضي التابعة لها ضمن هذا الاطار السياسي فقط . فالمدينة هي صاحبة السيادة على الأراضي الواقعة داخل حدودها وكان طبيعياً أن تطلب من مالك ما تحقيق سيادتها هذه على الأراضي التي هي ملكه ، أي مصادرتها منه في حال عدم قيامه بواجباته وجعلها ملكاً لغيره . وفي نهاية الأمر فإن أية سلطة سوف تفرض نظاماً معيناً لضبط مسألة تحقيق حقوق المالك تجاه أملاكه بشكل لا تسمح له فيه أن يسيء استخدام هذه الحقوق . ولم تكن المدن السورية استثناء لهذه القاعدة .

لقد رأينا أن الأرض كانت موضوع بيع وشراء مما خلق امكانية واقعية لتمركز ملكية الأراضي في أيدي قلة وانتزاعها من مالكيها المفلسين . وتؤكد الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس أن هذه الامكانية كانت تأخذ شكلاً واقعياً بصورة مستمرة . فنحن نرى هنا انتقال ملكية الأرض الناتج عن عدم توفر القدرة على ايفاء الدين المستحق ، أي أننا أمام حالة فقد فيها انسان ما وسيلة عيشه وأساس استقلاله . ونرى من جهة أخرى المحارب الروماني الذي حصل على الأرض . وتاريخ هذه الأرض بحد ذاته ذو دلالة خاصة : فالقطعة من الأرض التي حصل عليها هذا الروماني كان قد اشتراها شخص ما ليجمع أملاكه في دائرة واحدة . بعد ذلك تباع لشخص ليست له أملاك قريبة . وهنا قد يكون الشاري يملك أرضاً للمرة الأولى بهدف ترسيخ أقدامه في القرية المعينة ، وقد يكون الشاري مالكاً لعقارات ما ويود توسيعها . ونحن نرجح الحالة الثانية حيث تشير الوثائق الى أن الشاري هو من سكان القرية المعنية وعلى الأرجح كان يملك هنا أرضاً ما .

إذاً يمكننا الآن أن نؤكد على وجود فئتين من الملكية الخاصة للأرض في سورية في القرن الأول وحتى الثالث ضمناً : ملكية كبيرة تتركز في أيدي قلة ، وعدد كبير من قطع الأرض المتباعدة احداها عن الأخرى والتي يملكها أشخاص .

الأراضي الامبراطورية في سورية

في الفترة من القرن الأول وحتى القرن الثالث ضمناً

عندما هلكت الممالك الهلنستية لم تنهر معها منظومة أراضي «الملك» اذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح . فبعد أن خضعت سورية للسيطرة الرومانية ظهرت هنا مساحات واسعة من الاراضي التابعة مباشرة للسلطات الرومانية (انظر . سورية ابان الحروب الاهلية) وبعد أن تحولت سورية الى مستعمرة امبراطورية غدت هذه الاراضي تابعة للامبراطور . منها مثلاً ، القسم الشمالي من البلاد الذي بدأ استغلاله في العصر الامبراطوري . وهذا يسمح لنا ان نؤكد بأن هذه الاراضي لم تكن تابعة للبوليسات وعلى الاغلب ان استيطانها لم يبدأ إلاّ في ظل السلطة المركزية .

تسمح لنا المواد الارخيولوجية التي اكتشفها ج . تشالينكو في سورية وبشكل رئيسي في منطقة انطاكية أن نتعرف بصورة أكثر تحديداً على خصائص ملكية الارض هنا . فقد تم العثور على مجموعة من المزارع في منطقة الرفادة (أكثر المنشآت قدماً هنا يعود تاريخها الى القرن الثاني الميلادي ومن المحتمل الى القرن الاول الميلادي) . وكل مزرعة من المزارع المكتشفة هنا عبارة عن مجموعة من المنشآت والابنية التي تضم بيت سكن مستقل مع أقسام اخرى هي عبارة عن مصاطب مفتوحة باتجاه واحد أو أكثر وعليّات واماكن لتخزين المؤونة وغيرها . لقد كانت مثل هذه التجمعات موجودة في مناطق اخرى ايضاً حيث يشير ج . تشالينكو الى وجودها في دير عمّان ، دير سامبيل ، شنشار ، وفي سيرجل والرويحة . ويشير المؤلف الى أن أراضي مثل هذه الفيلات لم تكن واسعة بشكل عام : فهي لم تتجاوز «بعض الدستات» من الهكتارات الصالحة للزراعة . ويشير ج . تشالينكو ، بحق الى ان ظهور هذه الفيلات جاء نتيجة لتوزيع أراضي الامبراطور على المحاربين القدماء والموظفين وغيرهم .

نحن نعتقد ، ان النهاية الطبيعية لعملية تشكل الملكيات الخاصة في أراضي الامبراطور قد جاءت مبيّنة في سلسلة من الرقوم التي يعود تاريخها الى عصر ديوكليتيان (نهاية القرن الثالث الميلادي) والتي نشرها ج . تشالينكو في الجزء الثالث من مؤلفه . فإلى جانب

حدود القرى يشار هنا الى حدود الملكيات الموجودة (ep(oikion ففي الرُّقم التاسع من هذه المجموعة ، التي اكتشفت في فرقانة يجري الكلام عن اقامة oroi ep(oikioy kaperoy umeo) . كما يسجل الرُّقم الثامن الوارد الينا من بازيغير ظاهرة مماثلة : هنا تقام orio ep(oikion)zaeroys . وبما أنه في الحالة المعطية توضع epoikion في طرف وتوضع kome في طرف آخر لذلك نستطيع أن نؤكد مع ناشر هذا الرُّقم أ . سيريغا أن المقصود هنا إنما هي الملكيات الخاصة . هل يعني المصطلح الذي بين يدينا ـ القرى التي هي ملك خاص ؟ نعتقد أن مثل هذا التفسير مقبول خاصة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار اسم العقار الاول حيث ترد كلمة koper . وجدير بنا أن نؤكد هنا الرُّقم JMl,2,569 الوارد الينا من برج المولّق (عام ١٦١ م .) ـ تقدمة نصب (Dli BOMO(i (الأرجح أنه مطابق للإله السوري مدبح الذي كانت عبادته منتشرة في سورية) يشارك في تشييده ابولوني ابولوفان وحالبيون اولاد ماريون apo epoikioy meizoy وتفيدنا المعطيات التي جمعها ج . تشالينكو وكذلك الرُّقم wadd.,2505 لرسم صورة أوضح لخصائص الحياة في هذه المستوطنات الفلاحية التي تقع خارج الدائرة التابعة للبوليسات . وحسب الرُّقم المذكور اعلاه كانت هناك فئة من الاراضي التي تعتبر ملكاً جماعياً لكل أعضاء الجماعة المتساويّ الحقوق . فالى جانب اماكن الاستخدام العام التي تقع داخل المدينة مباشرة كالشوارع والساحات مثلا كانت هناك المراعي أيضاً . والى جانب هذه الملكية الجماعية كانت هناك فئة أخرى من الأراضي التي يملكها أشخاص وهذه كانت تضم ، على الارجح الأراضي الزراعية والبساتين والكروم وغيرها .

وهذا ما تشير اليه الاكتشافات الارخيولوجية في الجزء الشمالي من سورية والتي قام بها ج . تشالينكو . حيث نرى أن القرى الزراعية التي وجدت هنا تتألف من استثمارات مستقلة . وبناء على ذلك يمكننا أن نؤكد بشكل قطعي أن ما نراه أمامنا ـ بقايا تنظيم نشأ على قاعدة الاستخدام الفردي للأرض أدى مع التطوّر اللاحق الى نشوء بنية قائمة على أساس الملكية الخاصة .

ولكننا حتى الآن لا نستطيع أن نحدد مستوى التناسب، الذي كان قائماً بين هاتين الفئتين من الملكية . فالرُّقم المذكور wadd.,2505 يسجل لنا قراراً اتخذته قرية قارينا وتمنع فيه استخدام أراضي العشيرة لاقامة البيادر . ولانعتقد أن هناك أيّ معنى خاص لكون أراضي العشيرة مكاناً لتجميع المحصول . ولكن ما يثير الانتباه في هذا الرُّقم هو الاشارة الصريحة لوجود اتجاهات لاغتصاب اراضي العشيرة وتحويلها الى ملكية خاصة . فبناء البيدر كان من

شأنه أن يثبت حق بانيه في ملكية الأرض التي استخدمها لبنائه . وهكذا يكون الرقم موجهاً ضد اغتصاب أراضي العشيرة . ولكن لا شك في انه لم يكن باستطاعة مثل هذه المراسيم ايقاف تطوّر هذا الاتجاه وكل ما هنالك أنها كانت تؤخر تطوّره فقط . لقد اجرى ج . تشالينكو استقصاءات ممتعة للغاية في منطقة قطوّرة . حيث وجد في هذا المكان نوعين من المساكن : بيوت فلاّحية متواضعة بنيت متقابلة مع بعضها وفيلات أكثر علوّا من هذه البيوت بشكل ملحوظ .

ويعود تاريخ النموذجين المذكورين الى الفترة من القرن الثاني وحتى الثالث ضمناً . ونرى هنا أيضاً مدافن فخمة والى جانبها قبور عادية غاية في التواضع ويحمل المدفنون فيها أسماء سامية . كما ونرى أيضاً الاضرحة المزركشة الضخمة للمواطنين الرومان . ويذكر احد النقوش المدونة على ضريح من هذه الاضرحة (JMI,2,455) والذي يعود تاريخه ، على الأرجح الى القرن الثاني الميلادي ـ محارباً قديماً من اللواء الثامن الاغسطسي وهو تيطوس فلافي يوليان وزوجته فلافيا تبيطا وخلفاءهم . وهناك مدفن آخر مؤرخ في عام ١٩٥م . وهو مدفن اميل ريغان . كما أننا نلاحظ نفس الظاهرة ـ مجاورة البيوت الفلاحية الفقيرة للفيلات الفخمة ـ في ستي الروم ، وهنا ضريح ايسيدور بن بطليموس الذي بني عام ١٥٢م . ونحن لا نستطيع أن نعرف ما اذا كان السكان هنا تابعين للشخصيات المذكورة أم لا واذا كانوا تابعين فما هي أشكال هذه التبعية . ولكن مما لا شك فيه انهم كانوا يتميّزون بثرائهم ، بما في ذلك المساحات الشاسعة من الاراضي التي كانوا يملكون . كما أنه لا شك في أنهم تمتعوا بنفوذ واسع . ويشير ج . تشالينكو الى ظواهر مماثلة في عدد آخر من قرى جبل سمعان .

ومما يدعو للأسف أنه لا تتوفر لدينا مواد موثوقة تسمح لنا بتحديد طابع ومدى الصلاحيات التي كان يتمتع بها الامبراطور (وبالتالي الموظفون الذين كانوا يمثلون مصالحه) في الاراضي التي كانت تعتبر ملكاً له .

إلاّ أنه توجد بحوزتنا مواد تؤكد تحقيق الملكية الخاصة على هذه الاراضي ولكن هل يعني هذا تطوّر حق الملكية في القرون الاولى وحتى الثالث ضمناً قد أدى الى تراجع حق الملكية العليا التي كان يتمتع بها المالك الاعلى (باستثناء تلك الحالات المتعلقة بملكيته الخاصة) ؟ حتى الآن ليس هناك ما يناقض هذا الافتراض . ولكن الحكم النهائي سوف تعطيه الوثائق الجديدة .

أراضي المعابد في سورية
في القرون الأول وحتى الثالث ضمناً

حتى الآن لم تحظ هـذه المسألـة بدراسـة خاصـة مستقلة . ويعـود سبب هـذا الـوضـع الغريب الى شح المصادر التي تقتصر حتى الآن على ثلاثة نقوش تعود لمراحل تاريخية مختلفـة كما أنها اكتشفت في أماكن مختلفة في المنطقة التي نحن بصدد دراستها . ولكن هـذه الوثـائق تنقل الينا معطيات صحيحة وهامة حول هذه المسألة . فهي تصور المعابد في علاقـاتها الاقتصـادية المعقدة مع العالم المحيط بها .

عنـدمـا تحـدثنـا سـابقـاً عن النقش المعـروف الـذي وصلنـا من بيتـوكيكي IGRR,3,1020 أشرنا الى أن أحد السلوقيـين أعطى قـرية بيتـوكيكي الى معبد زفس وأكـدنا على وجود ملكية المعابد للأرض في الأراضي التابعة للملك والأراضي التابعة للمدينة بعـد أن أصبح المعبد تابعاً لها . وقد أكد الملكان فاليريا نوس وغاليين على حقوق المعبد وامتيازاتـه وفي نفس الوقت يعاد نشر الـوثيقة السلوقيـة التي تحكي عن اهداء القـرية . ونحن نعتقـد أن هذه الوثائق تشير إلى أنه في ظروف ليست معروفة لدينا كانت تحدث تجاوزات لحقـوق المعبد بمـا في ذلك حق الملكية . وفي نفس الوقت فإن اعادة حقوق المعبد أو التأكيـد عليها لم يكن يتعـارض والاعراف السائدة في المقاطعة أما التجاوزات فكانت تعتبر افعالاً غير قانـونية . وعليـه ، بناء على هذه الوثيقة نستطيع أن نعتقد أن معبد بيتوكيكي كان هو المالك الشرعي للقرية التي تحمل نفس الاسم حتى في العهد الروماني .

ويحكي نقش آخر وصلنا من محلة فريكي (افاميا) ويعود تاريخه الى بداية القـرن الرابـع أن واضع هذا النقش عبدرابس قد بـاع أرضه سـرّاً الى «المعبد الـوطني» . ويبدو أن نـاشريّ النقش على حق عندما يعتقدون بأن من يبيع الأرض للمعبـد يحتفظ لنفسه بحق استثـمارها . ولكن استنتـاجاً كهـذا لا يعتبر كـافياً . إذ أنـه بغض النظر عن أن الـذي بين يـدينا هـو وثيقة وحيدة ، وهذا ما لا يسمح لنا بمعرفة تاريخ نشوء العمليات المثبتة فيها ومدى انتشارها إلاّ اننـا نستطيع الاعتقاد أنه في نهاية القرن الثالث ـ بداية القرن الرابع لوحظ في سورية وجود ظواهر تذكرنا ، عن بعد ، بالبريكاري الاوروبي في بداية القرون الوسطى هنـاك (البريكـاري ـ هو حق استثمار الأرض لفترة زمنية معينة يجددها مـالك الأرض نفسـه بعد أن يـوافق على الـطلب المقـدم اليه بهـذا الشأن . وكـان هذا الحق أحـد أشكال وقـوع الفلاحـين الاحرار في التبعيـة الاقطاعية في بداية القرون الوسطى ـ المترجم) .

بين يدينا نقش ثالث (JMI,6,2946)وصلنا من حصن نيحا (غير مؤرخ) . ويساعدنا هذا النقش على رسم صورة تقريبية لمصادر دخل المعبد السوري . فقد جاء في هذا النقش : «من الواردات (ex usu et reditu)تلك الآتية ممن هم مديونون للإله ميفسين (obliyatorum dei Mifseni)ومن القرية (et vici)و(من) عابدية (et cultoribus eius)وطالبي حمايته حنينة وساتسيردوت ، وزبيدة وقنديدة ، وآنّا المخ (ضرمة ؟) ومغان وسميعون وزبيدة وبيدياب» .

لقد أشار ش . كليرمون ـ غانو في حينه إلى أن هذا النقش يدل على وجود أراض تعود ملكيتها للآلهة وتؤجر للفلاحين وتذهب عائداتها الى خزنة المعبد ، ويعتبر المؤلف أن ملكية الإله منفصلة تماماً عن ملكية العشيرة المحلية (vicus)ومع ذلك فقد كان المعبد يستغل الفئتين معاً . ولكن مثل هذا الوضع كان يتطلب ، على الأغلب ، وجود كلمة مشتقة من الفعل conducoالذي يعني من جملة ما يعني ـ «يأخذ بالأجرة» ، «يستأجر» . ويقترح ج . ب . ري ـ كوكي أن تترجم مقدمة النقش على الشكل التالي : «على الواردات والأرباح الآتية من الأراضي المرهونة لصالح الإله ميفسين»الخ . . . مضيفاً لهذا أن المخصصات التي تسمح بممارسة فعل الاهداء كانت تؤمنها الواردات العادية التي تأتي من الأرض المرهونة لصالح المعبد ومن العشيرة الريفية التي يملكها المعبد وكذلك من تقدمات المؤمنين . هذا التفسير هو في الواقع الأقرب إلى معنى الفعل obliyoولذلك نحن نفضل وجهة نظر ج . ب . ري ـ كوكي . ومع ذلك يخيّل الينا أنها هي الأخرى غير مرضية . فعلى الأرجح أن تعبير obliyatorum dei Mifseniيعني الناس المرتبطين . بمعبد ميفسين بالتزامات محددة ويحتمل أن يكونوا تابعين له . وهذا التفسير هو الوحيد الذي يعطي صيغة الاضافةdei Mifseniمعناها الصحيح . ما هو وضع «هؤلاء المدينين للإله ميفسين» ؟ مع الأسف لا نستطيع استجلاء الامر بالوضوح الكافي نتيجة لشح المصادر . ولا يستبعد أبداً أن يكون وضعهم مشابهاً للوضع الذي كان عليه عبد رابس . وأكثر من ذلك أن معبد ميفسين يلعب هنا دور المستغِل (بكسر الغين ـ المترجم) وعلى الإرجح ، مالك القرية كلها وهنا يكون وضعه مشابهاً لوضع معبد بيتوكيكي .

لاشك أنه من الصعوبة بمكان تحديد مدى توافق هذه الصورة مع واقع الحال في سورية مع العلم أنه لاشك في أن كل المعابد السورية كانت الى هذه الدرجة أو تلك ، من كبار مالكي الأراضي والقرى كما وشاركت هذه المعابد في مختلف العمليات المتعلقة بالأرض بما في ذلك عمليات البيع والشراء . والأمر الذي له أهمية جوهرية في هذا الاطار أن ملكية المعبد للأرض

كانت ممكنة ليس فقط في الأراضي التابعة للملك وإنما في أراضي المدينة أيضاً . وأخيراً لا بد من الاشارة الى أن كل معلوماتنا هذه مأخوذة عن معابد صغيرة غير معروفة نسبياً . وعليه يمكننا أن نتصور حجم العمليات التي كانت تقوم بها المعابد الضخمة الغنية كمعبد هيليو بوليتان مثلاً .

الحرفة

وصف عام للإنتاج الحرفي

تفيد الإكتشافات الارخيولوجية في مختلف انحاء سورية وكذلك الوثائق المدونة ، بغض النظر عن شحّها وتبعثرها على شكل مقاطع متفرقة ، عن وجود دوائر واسعة لمختلف فروع الصناعات الحرفية ـ صناعة الفخّار ، النسيج ، صناعة الالبسة ، صناعة الأحذية ، معالجة المعادن ، البناء والنحت . لحسن الحظ أن الوثائق المدونة تعطينا صورة مرضية عن تنظيم الصناعات الحرفية والعاملين فيها ، كيف كان تنظيم عملهم وكيف كانت علاقاتهم مع السوق .

من المعروف أن المدن الفينيقية كانت لها تقاليد عريقة في عالم الصناعات الحرفية تعود جذورها الى ما قبل العصر الهلنستي وقد حافظت المدن المذكورة على هذا التقليد واستمرت كمراكز كبيرة لهذه الصناعات . فقد كتب سترابون (b.758)أن أهل صيدا استفادوا من تجربة وشهرة أسلافهم الذين كانوا أسياداً لعدد كبير من الحرف (nobytekhnoi)كما وانهم يستطيعون اصلاح مصنوعاتهم . ويذكر النقش الفينيقي من جبيل والمؤرخ في القرن الاول قبل الميلاد البنّاء (bnh)عبد شمون بن اساع (kai,12) . أمّا النقش اليوناني الوارد الينا من أم العواميد (ضواحي صور) والمؤرخ في القرن الثاني ـ الثالث تقريباً (SEG,7,330)فيذكر لنا المهندس المعماري بيرنيقيان . والمهم في الأمر أن عملية بناء المدن كانت تحتاج الى الكفاءات الضرورية لهذا الهدف وكان يجب خلق كل هذه الكفاءات الامر الذي حصل فعلاً .

ويتضح من المصادر المتوفرة لدينا أن صناعة الحرير كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في المدن الفينيقية . لوكان lucanيحدثنا عن صناعة الاقمشة الحريرية في صيدا (luc,bhrs,10,141 - 143) . كما اشتهرت جبيل وصور - حسب معطيات Tot.orb.descr.31 - بصناعة الكتان (Linteamen)ويشير مصدرنا هذا الى أنهما كانتا تصدرانه الى «كل العالم» (omni mundo) . ومن المفيد أن نشير هنا الى أن لائحة الأسعار التي أوردها ديوكليتيان (9,18)تحدد ثمن زوج الاحذية الفينيقية الصنع ب ٦٠ ديناراً . ويشير نفس هذا المصدر الى «الجلود الفينيقية» (8,5)حيث يبلغ ثمنها ١٠٠ دينار ومن المعتقد أن دباغة الجلود في المدن الفينيقية كانت تتم بطريقة خاصة تكسبها نوعية فريدة . وهكذا نرى أن الكلام إنما يجري هنا عن تخص الانتاج المحلي .

ولكن ثلاثة فروع انتاجية فقط كان لها الدور الاهم في حياة المدن الفينيقية . أولا - بناء السفن بما يتمتع به هنا من تقاليد عريقة وراسخة . وليست خافيةً على أحد الاسباب التي دفعت بهذه الصناعة هنا الى القمة : فالتجارة البحرية هنا بدونه غير ممكنة . ويورد ديودور (2,16,6)أن سميراميس عندما كانت تستعد لحملة على الهند استدعت بنائي السفن من فينيقية وسورية وقبرص وغيرها من البلاد البحرية وأمرتهم بناء سفن نهرية سهلة الفك والتركيب . ونحن نعتقد أن رواية ديودور هذه مختلفة ولا أساس لها خاصة وأنه يذكر البنائين الفينيقيين أولاً علماً بأنه كان يتحدث عن الوضع في العصر الروماني .

أهم ما اشتهرت به فينيقية من صناعات هي صناعة الدمقس وصباغة الصوف . وكان دمقس صور من أجودها وأغلاها ثمناً (Strabo,b,757) . ويشير سترابون الى وجود عدد كبير من ورش الصباغة هذه التي شكلت عماد الثروة والرخاء في المدن الفينيقية .

الفرع الانتاجي الثالث والمهم أيضاً هو صناعة الزجاج والخزف حيث كانت الاواني الزجاجية مادة للزينة فقط . وكانت صناعة الزجاج تعتمد على نوع معين من الرمل يوجد قرب عكا (F1,IOS.BJ,2,190 - 191,Plin,لقد اشتهرت هذه الصناعة في كل المدن NH,36,191,Starbo,P.758,Tac.,Hist.,5,7)الفينيقية وخاصة في صيدا حث تميّز الزجاج المصنوع هنا بشدة لمعانه وتذكر المصادر الكؤوس الزجاجية المصنوعة في مدينة صيدا (Ath.,Deipnosoph.,468c) . كما ووصلت بعض المصنوعات الزجاجية التي تحمل أسماء أصحاب الورش الصيداوية التي صنعت فيها هذه الأشياء وهما ارتاس CIL,5,8118;9.6085I;10,85622;13,10025;15,ايريني (IG,14,2410₂)ونيكون (CIL,10,8062₂,15,6961);6956;IC,14,2410₁)كما

وكانت منتشرة انتشارا واسعا مصنوعات مجموعة أخرى من ورش صيدا التي يعود تاريخها الى القرنين الاول والثاني للميلاد وأصحاب هذه الورش هم أنيوين وياسيون وماغيس ونيكيبي . وكانت توجد في صيدا أيضاً ورشة لصناعة الزجاج هي ورشة اريستيي ويعتقد الباحثون أنها كانت معاصرة لورشة انيون . لقد كانت الصناعات الصيداوية المذكورة تصدّر الى كافة دول حوض المتوسط وحتى الى بعض مراكز البحر الاسود مثل بانتيكوبيي واوليفيا وقد اكتشف عدد كبير منها في مختلف المدن الاوروبية .

مما سبق يتضح لنا أن الانتاج الحر في المدن الفينيقية كان ينقسم في الفترة التي نحن بصددها إلى قسمين : فبعض هذه الصناعات الحرفية لم يكن يتطلب تجميع العمال (وهنا نستطيع أن نتوقع ، ولو من الناحية النظرية ، أن بعض الورش لم يكن يعمل فيها سوى صاحبها) أما بعضها الآخر فلم يكن ممكناً دون تمركز عدد من العمال فيه (بناء السفن مثلاً) . وعليه ، نستطيع القول أنه كانت توجد في المدن الفينيقية ورش حرفية كبيرة وهذا ما يدل عليه الانتشار الواسع النطاق للمصنوعات الفينيقية . من ناحية أخرى نحن لا نعرف أي شيء عن وضع العاملين في هذه الورش ولا يستبعد أن يكون هناك العبيد والعمال المأجورون . ومن الاهمية بمكان أن نشير هنا الى أن الانتاج في هذه الورش كان له طابع سلعي واضح .

لقد كانت دمشق مركزاً حرفيّاً هاماً حيث يشير ديوكليتيان في تعريفه (19,6) إلى أن السجاد «العربي أو الدمشقي» كانت له شهرة خاصة في كل منطقة حوض البحر الابيض المتوسط . فلم يكن له سعر ثابت بل كان يتحدد على اساس وزن الصوف المستخدم في صناعته وكذلك حجم العمل المستهلك لتحضيره .

أمّا التعريف الجمركي التدمري المعروف فلم ينقل لنا ـ عكس المتوقع ـ سوى الشح اليسير عن الحرفيين والانتاج الحرفي . ولا يأتي ذكر هذا الأخير إلّا عند تحديد التعرفة الجمركية المفروضة على الحرفي المعني لقاء السماح له بتسويق انتاجه بنفسه . فيذكر الجدول رقم (٣) (النص اليوناني ، سطر ٨٠ ـ ٨٣) أنه توجد هناك محلّات لبيع الأحذية يدفع أصحابها ضريبة شهرية قدرها ديناراً واحداً . كما ويذكر الحذّاؤون في السطر ١٣٩ من النص اليوناني . بالاضافة الى ذلك يعالج التعريف (الاسطر ١١٦ ـ ١٢٠ ، النص اليوناني ، ٧٢ ـ ٧٣ ـ النص التدمري) الناحية القانونية لاستخراج الملح . ومن الطريف أن النص التدمري للتعرفة ينص على أن ضريبة النصب المصنوع من البرونز (slmy nhs,drty)تعادل ضريبة البرونز الغير مصنع (Ytyb[wn]hyk[nh]s) . ويشير تطور فن النحت في تدمر الى أن هذه المنحوتات محلية قام بصنعها حرفيون .

وتأتي الكلمات المنقوشة على النصب التذكارية مكملة لهذه المعلومات . فالتوقيع المثبت الى نصب سيبتيم اذينة (CIS,2,3945)تدمر ، نيسان من عام ٢٥٨) تم تنفيذه بناء على طلب مجموعة من الحرفيين العاملين في مجال الفضة والذهب . يقول النقش CIS,2,3914 (تدمر ، آذار ١٧٥) أن أولاد العم يارخبول بن عوجة وعبيدة بن خدودان حفيدا يارخبول بن خدودان قد أقاما على نفقتهما الخاصة بوابة من الذهب والنحاس في معبد بيلا . وتشير بعض المصادر التدمرية الاخرى الى مختلف أنواع الهدايا المقدمة الى المعابد من قبل أفراد . ونعتقد أنه يحق لنا أن نتوقع أن هذه المصنوعات قد تم تحضيرها محلياً .

كما وكانت توجد في تدمر الصناعة الفخارية المحلية . ويشير الباحثون الى قرابة الصناعة الفخارية التدمرية مع مثيلتها في دورايوروبوس الامر الذي يسمح لنا بتسجيل تأثير النماذج الهلنستية على التدمرية .

ويدلنا هذا العدد الكبير من النقوش على الانتشار الواسع الذي كانت تحظى به حرفة تقطيع الحجارة في تدمر . ولكن حرفياً واحداً فقط قرر أن يخلد اسمه بأحرف ، أضعف من النص الاصلي وجدت منقوشة على أحد النصب في تدمر (CIS,2,3974) ، تدمر ، تشرين أول عام ١١٣) : «فليتذكروا يارخاي - قاطع الحجر» . كما ويذكر النقش CEG,7,155 (تدمر ، القرن الاول - الثاني تقريباً) النحات اسكندر . ففي إحدى الشواهد (CIS,2,4261)يسمّى المدفون شعدال بن هبدبول بن مقيم حرفيا دون ذكر أية تفصيلات أخرى (mn')وهذا النقش وصلنا من تدمر وقد أرّخ في تشرين الثاني عام ١٧٢ . وأخيراً لدينا أحد المصادر الذي يذكر فيه طبيب ('SY') .

بغض النظر عن ندرة هذه المصادر وتبعثرها إلاّ أنها توضح أن الحرفيين في تدمر كانوا - يملكون في القرن الاول - الثالث ورشهم الخاصة (أمّا مسألة من كان يعمل في هذه الورش وما عددهم فلا زالت مفتوحة) وأن طابع الانتاج هنا كان سلعيّاً مما سمح بفرض ضرائب عليه . ولا يعطينا ذكر هذا العدد القليل من الحرف في لائحة التعرفة الحق بالقول أن الحرف الأخرى غير المذكورة هنا لم تكن خاضعة للضرائب .

لقد شغلت الحرفة حيّزاً هاماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدن السورية التي أنشأها اليونان والرومان TOt.,Orbescr,31, يصنف اللاذقية كمركز هام لانتاج الكتان . ويقول اديكت ديوكليتيان أنه كانت توجد في هذه المدينة أيضاً صناعة حريرية وأخرى صوفية (21,2,25,2),(20,4)كما كانت تصدر مختلف أنواع الألبسة .

لقد دلت الاكتشافات الأثرية في دورايوروبوس على أنه كانت توجد هنا مجموعة كبيرة من ورش الحرفيين الذين مارسوا حرفة دهان المصنوعات الفخارية كما وتطورت هنا تدريجياً صناعة المصابيح (محافظة بذلك على التقليد الهلنستي في هذا المجال) . ويشير المؤرخون الى أنه ابتداءً من عصر كلافديوس بدأت تتطور هنا صناعة الأواني الزجاجية . ولم تكن بيروت - المستعمرة الرومانية - مقصرة في مجال تطور الصناعات الحرفية حيث تذكر المصادر حرفيين ممن مارسوا حرفة تصنيع البرونز والتعامل مع حجر المرمر .

الوضع الاجتماعي للحرفيين

لايزال الشح يخّيم على عالم المصادر التي يمكن أن تعطينا تصوراً مقبولاً عن الموقف من ممارسة المهن في المجتمع السوري ابّان الفترة التي نحن بصددها وعن التنظيم السائد داخل الورشة الحرفية . ومع أن ليبانوس يشير إلى أن ممارسة الحرفة في انطاكية كانت تمنع صاحبها من الإشتراك في أجهزة السلطة . أي أن الحرفة كمهنة كانت تنتسب الى المهن التي تدل على وضع اجتماعي وضيع نسبياً . وهناك وثائق أخرى تدعم هذا التصور . أحدها النقش (jmi,4,1410) الذي وصلنا من فريقي (أفاميا) وهو مؤرخ في بداية القرن الرابع تقريباً ونورد هنا نصّه : «وهكذا ، مقدماً شكره يقول عبد رابس : عندما كنت شاباً كان الهي ، (الإله) أركسيلايا ، الذي ظهر لي بوضوح ، قد أحسن لي الصنيع مراراً . عندما بلغت الخامسة والعشرين أرسلت لأتعلم الحرفة وبعد وقت اتقنتها ولكنني بعت معلمي أرضاً دون علم أحد كي أتخلص من الإنضمام إلى سكان المدن لقد كنت محقاً» . وقد أشرنا سابقاً إلى تلك الخصائص التي تتمتع بها ملكية المعبد للأرض والتي يكشف عنها هذا النص . ولكن ما يهمنا في هذه الوثيقة شيء آخر لايقل أهمية حيث يشار هنا إلى أن الشخص الذي كتبت هذه الوثيقة بإسمه تعلّم حرفة وهذا عطف خصته به الآلهة . ومن الصعب أن نعرف من النص لماذا فهم عبد رابس الأمر على هذا الوجه مع أنه يبدو للوهلة الأولى أن المسألة في غاية السذاجة . ولكننا نعتقد أنه يجب النظر اليها بالإرتباط مع عملية بيع الأرض . فقد تم تنظيم عملية البيع هذه بشكل لايظهر معه الإنحدار الاجتماعي والمادي للبائع . ولكن لم يكن لهذه العملية ألا تؤدي إلى نتائج غير منتظرة : فقد أصبح البائع تابعاً من الناحيتين الإقتصادية والحقوقية مع أنه ظل محتفظاً بحريته الشخصية . وفي هذه الحال أصبحت الحرفة التي تعلمها عبد رابس تشكل مصدراً ما لعيشه . من جهة أخرى فإن استخدام صيغة الفعل السلبية تدل على أن عبد رابس لم يكن هو المبادر للعملية المذكورة وإنما المعبد . وعليه يمكن القول أن هذا الوضع قد زاد من تبعية عبد رابس للمعبد .

ولا تقتصر أهمية هذا النص على ما ذكرناه فهو يلقي ضوءاً جديداً على رواية لوكيان المعروفة والتي وصلتنا من ساموساني حول الاهتمام الذي أولاه والد الكاتب لمستقبل ولده (luc.,somn.,1-2)فعندما بحث مع أصدقائه مسألة اختيار المهنة التي على ولده أن يتعلمها توجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار شح ميزانية العائلة وحاجتها إلى مساعدة عاجلة . ويرسم لوكيان الصورة التالية لطريقة تفكير الإبن «لو تعلمت حرفة ما لأصبحت أملك ما يكفي وتحررت وأنا في هذه السن من العوز وليس هذا وحسب بل ولأدخلت السرور إلى قلب والدي مقدماً إليه مدخولي» . وعند اختيار المهنة تؤخذ بعين الاعتبار العناصر التالية : يجب أن تكون الحرفة ليست فقط «من أنبل الحرف» وسهلة الإستيعاب وإنما يجب أن تكون لائقة برجل حرّ وتؤمن له مردوداً سريعاً ومحترماً . ويقع الإختيار على حرفة النحت . أولاً لأن عم الرّاوي كان نحاتاً جيداً ، ثانياً لأنه هو نفسه كان يصنع اللعب من الطين عندما كان صغيراً معبراً بذلك عن ميله إلى الحرفة التي يرغب .

وهكذا تظهر لنا رواية لوكيان أن اختيار الحرفة كانت تفرضه ظروف مادية صعبة . وفي نفس الوقت كان يتم اختيار الحرفة - بشكل أساسي - على أساس ميل الشخص الذي سيتعلمها : ومن المسلم به أن الموهبة والرغبة كانتا الضمان الأكيد لنجاح المهمة . وما يلفت النظر هنا هو السعي للإستفادة من إمكانيات الأقرباء . ولكن الأب نفسه لم يكن هو معلّم الإبن ، مع أنه من الأسهل والمنطقي أن تعلّم ولدك المهنة التي تتقنها أنت نفسك . ولكن على ما يبدو أن والد لوكيان لم يكن يتقن أية مهنة أي أن ضرورة التوجه نحو هذه المهنة ظهرت خلال سير حياة العائلة وليس صدفة أن توجه والد لوكيان إلى خال ولده . ففي عائلة الأم كانت الأمور مختلفة تماماً (luc.,somn.,7)فالحرفة هنا وراثية من الأب إلى أبنائه : فجد الولد لأمه كان قاطع حجارة وكذلك أصبح ولداه . وهكذا تروي لنا رواية لوكيان حياة عائلتين : أساس نجاح إحداها كانت الحرفة أمّا الثانية فتحاول السير في نفس الطريق وعليه فقط كانت ممارسة الحرفة نتيجة لانحدار اجتماعي معينّ وقع لهذا الفرد . وهناك نقطتان أخريان في رواية لوكيان تلفتان النظر . أولاً وجود تصور لدى السوريين (لوكيان سوري الأصل تعلّم اليونانية فيما بعد) أن هناك أنواع من الحرف لا يليق بالرجل الحر أن يمارسها . ولا تعطينا المصادر أية تفصيلات بهذا الشأن .

ثانياً ، تقودنا رواية لوكيان إلى جو الورشة التي يعمل فيها الولد ليتعلّم الحرفة التي تم اختيارها . حيث يخبرنا أن التلميذ يصبح على احتكاك مباشر بالعمل منذ اليوم الأول لدخوله الورشة وإنه كان يعاقب بالضرب فيما إذا اقترف خطأ ما (luc.,somn.,3)إذاً لقد كان

التلاميذ فئة من الفئات العـامله في هذه الـورش . ولكن مع الأسف لايشـير لوكيـان للفئات الأخرى وهذا ما يمكن تفسيره بأن تلك الفئات لم تكن مهمـة بالنسبـة له . ولكن كـون مالـك الورشة يتقن الحرفة يعني أنه كان يشارك شخصياً في عملية الانتاج . ولا يشير لوكيان إلى ما إذا كانوا يتلقون أجراً ما لقاء عملهم أم لا، يبدو أن صاحب الورشة كان يأخذ إنتاج عمل تلاميـذه لنفسه (★) .

الجماعة الحرفية

تشير المصادر المتوفرة لدينا (cis,2,3945)الى وجـود جماعـات كانت قـد تكونت عـلى أساس الحرفة التي تمارسها . فالمصدر المشار إليه هنا يؤكد أنـه في تدمـر وفي القرن الثـالث الميلادي ، على الأقل كانت توجد اتحادات حـرفية قـامت على أسـاس ممارسـة الحرفـة الواحـدة (كاتحـاد العاملين في مجال المجوهرات مثلاً) . وهناك مصادر أقدم عهداً تشير إلى أن مثل هذه الجماعات كانت تتجمع في جزيرة ديلوس حول إله واحد ولذلك فنحن لانستطيـع أن نحكم على تنـظيم هذه الجماعات إلاّ بشكل غير مباشر . ومثل هذه الجماعات كـانت موجـودة في تدمـر في القر ن الأول للميلاد . فالنقش (cis,2,3980)(تدمر ، شباط عام ٣٤) يخبرنا أنـه «في شهر شبـاط من عـام ٣٤٥ شيـد هـذا المـذبـح (clt,dh)[أعضـاء الجـماعـة] ([bny m]r3h)أهليبـول ومالاخبيل وأهدياه للآلهة» . يلي ذلك قائمة بأسماء أعضاء الجماعة الذين يبلغ عـددهم ثمانيـة أشخـاص . ومما يلفت النـظر أن أياً من هؤلاء الأعضـاء لايتمتع بلقب مـا مما يـدل عـلى أنهم أشخاصاً عاديون ليست لهم أية صفة رسمية . كما أنه لاتوجد هناك أية تسمية لهذه الجماعة .

ولـدينا وثيقـة ثانيـة تشير الى وجـود جماعـات دينية ، وهي (cis,2,3919)مؤرخـة في نيسان عام ١١٧ ، تقول الوثيقة : «هذا النصب لزبيدة بن سعاد بن تيموشمس أقامه المجلس (bwl')عـلى شرفه وقـد شهد لـه ياريخبـول – الإله عنـدما قـاد جماعـة كهنة بيـلاّ brbnwt) (mrzhwth dy krmy bl في شهـر نيسان عـام ٤٢٨» . وتكمن أهمية هـذه الوثيقـة في أنها تظهر بعض الصفات الداخلية لتنظيم هذه الجماعات : حيث كان يقف عـلى رأس كل جمـاعة شخص يحمل لقب (rb)«عظيم» ، «رئيس» ، وقـد اتحد أعضـاء هذه الجـماعة عـلى أساس

★ – كما قال لنا مشكورا ي . ف . فنيخيان أنه في مصر الرومانية كانت هناك عقود لتعلم الحرفة ولم يشر فيها إلى أن المتعلم كان يدفع لقاء تعلمّه . ولكن المعلم كان يأخذ لنفسه انتاج عمل هؤلاء التلاميذ .

الحرفة التي يمارسون . والواقع أن الوثيقة تتكلم عن جماعة من الكهنة ولكن وجود هذا الواقع بحد ذاته يعطينا كامل الحق في الكلام عن وجود اتحادات تمثل باقي الجماعات الاجتماعية بما في ذلك الحرفيين . وعلى الأرجح أن النقش الذي وجد على مذبح معبد بيلا في تدمر له ارتباط بهذه الجماعة وكان ج كانتينو قد نشره : «عندما كان حدّوان - السناتور (snqltyq‘)بن عقيل رئيساً للجماعة (brbnwt mrzhwt)كما وصلتنا وثيقة أخرى من تدمر (seg,7,151)مؤرخة في آب عام ١٩٣ ولكن في حالة يرثى لها . ميز ابان بن مالح الذي جاء ذكره فيها يسمّى كاهناً أعلى (وإذا صح ترميم الناشر لها) «الإله العظيم زفس - بيلا» .

وأخيراً فلنر النقش المؤرخ عام ٢٤٣ والذي نشره خ . اينكهولت . يقول النص : «[في شهر] تشرين من عام ٥٥٥ . عندما كان رئيس الجماعة (brbnwt mrzhwt)يارخاي بن إغريب بن يارخاي بن ياديبيلا بن عوجي بن يعطا الذي خدم الآلهة (dys^ms^‘lhy‘)وأشرف على التنجيم على مدى عام كامل (wytb ‘l qsm‘ s^t klh)وجلب الخمرة المعتقة للكهنة على مدى عام كامل من بيته الخاص ، حقيقة جلب الخمرة بالزقاق[8] (l‘‘yty) من الغرب . فليبق خالداً ومباركاً ذكر ولديه بيرتيناكس ومالكوس وعقيل - الكاتب (ktwb‘)وزابي بن سعدا ناظر المطبخ (dyhw‘‘lbt dwd‘)وياريخبول خلّاط الخمرة (mmzgn‘)وأولئك الذين ساعدوا ، انتهى» .

نعرف من هذا النص أن رئيس الجماعة لم يبق في منصبه لأكثر من عام واحد (وقد أشار خ . اينكهولت الى هذه الناحية) وكانت واجباته تضم التنجيم وتأمين الخمرة للكهنة - وقد يكون بعض المواد الزراعية الأخرى (وتبقى غامضة مسألة ما إذا كان المقصود هنا تأمين الحاجات الضرورية للمعبد لتقديم الأضاحي أم الحاجات الشخصية للكهنة) . كما أنه من غير المعروف أيضاً ما إذا كانت هذه الأخيرة الزامية أم اختيارية . فالوثيقة تشير الى عدد آخر من الوظائف داخل الجماعة مما يسمح لنا بتحديد الاتجاهات الرئيسية لنشاطها والى جانب رئيس الجماعة تذكر الوثيقة الكاتب الذي يقوم - على ما يبدو - بوظيفة السكرتير ، وهناك رئيس المطبخ والخمار . لقد كانت الجماعة تنظيماً دينياً يمارس على وجه الخصوص اقامة الولائم الجماعية . وهذا ما يدل عليه مصطلح (mrzh)الذي يعني «وليمة» «مأدبة» . . الخ . وكان باستطاعة الجماعة أن تشترك في تقديم الهدايا وما شابه الى الآلهة بما في ذلك أعمال البناء . ومن الطبيعي أن مثل هذه النشاطات كانت تحتاج الى نفقات مادية يرجح أن تكون الجماعة قد خصصتها من مساهمات الأعضاء .

---

٨ - حول استعمال الأداةا كأداة تأكيد انظر : ل . خ . ويلسكير ، حول اداة التأكيد Laفي اللغة السورية - كسينا ، ٨٦ ، ١٩٦٥ .

يعود منشأ هـذه الجماعـات الدينيـة الوراثيـة المرمـوز اليها بمصـطلح mrzh الى مرحلة تـاريخية سـابقة للعصر الهلنستي . حيث تشـير المصادر الى أنها كـانت مـوجـودة في أوغـاريت (النصف الثـاني من الألف الثانيـة قبل الميلاد) حيث كانت بحـوزة هذه الجماعات ملكيـات معينة . كما وكانت موجودة في قرطاجة mrzh إذاً ، كانت موجودة في المدن الفينيقية في الألف الأول قبـل الميـلاد . واذا صحت مقـارنـة mrzh الـواردة في وثـائق النصـوص المقتبسـة (cis,1,165) مـع الـولائم التي كـانت تقـام للرجـال الأحـرار والتي نـوه عنهـا أرسـطو (arist.,polit.,2,8) في وصفه لقرطاجة تكون هذه الـ mrzh منـذ نشأتهـا عبارة عن مـآدب دينية جماعية – تقليداً ، بقي موجوداً في سـورية حتى في العصر الـروماني . وعـلى الأرجح أنها كانت في نشأتها عبارة عن اتحادات للرجال الـذين تجمعهـم عبادة دينيـة واحدة . ولكن طـابع هذه الـ mrzh تغيّر تدريجياً . لقد كان نشوء الاتحادات المهنية في المرحلة التي نحن بصـددها قـائماً عـلى أساس الاتحـادات الدينيـة المشـار اليهـا . حيث استفـادت الاولى من المبـادىء التنـظيميـة والأشكـال التي وضعتهـا الثـانيـة . ومن الملفت للنـظر حقـاً أن النقش cis,2,3945 لا يشير أبداً الى الـطابع الـديني للجماعـة الحرفيـة التي يصفها فقط عـلى أساس الحرفة التي يمارسها أعضاؤها . وتجدر الاشارة الى استخدام المصطلحات في هذه الوثيقة . فكما سبق وذكرنا أننا نجد في نصها كلمـة synelia التي تعني عادة جمـاعة مـا أو بشكل أكـثر تحديداً جماعة من الناس يشاركون في تأدية مدفـوعات مـا . هل هـذا يعني أن أعضاء هـذا التجمع كانوا يدفعون ضرائب للدولة ؟ نعتقد أن هذا جائز ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المقصود هنا هو المشاركة في تغطية نفقات التجمع . كان باستطاعـة التجمع أن يقيم نصب التكريم وبالتالي اتخاذ القرارات الضرورية لذلك . واذا كان الأمر كذلك فإن امكانية اتخاذ القرارات لم تقتصر على هذا المجال فقط .

نحن نعتقد أن الطابع الدنيوي لهذه الجماعات جاء نتيجة تطوّر طويل سابق .

يؤكد لنا النقش الذي يكرّم فيه سيبيتم فورودا cis,2,3942 عام ٢٦٧ تقريباً أن بعض هذه الجماعات قد تحوّل الى قوة سياسية هامة ، عـلى سبيل المثـال جماعـة كهنة بيـلا في النصف الثاني من القرن الثـالث الميلادي حيث حـاولت عائلة أذينـة وزبيدة – زنـوبيا الاعتـماد عليها لتقوية نفـوذها السيـاسي بالاعتـماد على الأشخـاص الملتفين حـول الجماعـة المذكـورة . ومن المرجح أن تكون الجماعات الحرفية هي الأخرى قد مارست تأثيراً ملحوظاً .

ونصادف بعض المواد الأخرى عن تاريـخ الجماعـات الحرفيـة في النقوش المكتشفـة في مدينة جرش والمؤرخة في بـداية ومنتصف القـرن الثالث الميـلادي . أحدهـا (g,190) الذي يكرم فيه باترون المدينة أفيريلي يوليان ، ينـوّه الى «الجماعـة الأبديـة المقدسـة صانعـة الكتان» حيث تضور هذه الجماعة كمبادرة لإقامة النصب المذكور .

التجارة

التجارة السورية في حوض البحر الأبيض المتوسط

لقد كانت المرحلة التي نحن بصددها (القرن ١ ـ ٣) مرحلة التطور اللاحق للتجارة السورية في حوض البحر المتوسط والبلدان القريبة . وما أشرنا إليه سابقاً عن انتشار سلع الصناعة الفينيقية يوضح مدى انتشار منتوجات هذه الصناعات ـ والى حد ما ـ البنية التجارية للمدن الفينيقية . فإلى جانب تصدير منتجات الحرف المحلية والمنتجات الزراعية كان يجب أن تزدهر تجارة الترانزيت وخاصة تجارة الحرير الصيني وعطور الجنوب العربي . ونحن نعتقد أن هذه العلاقات قد استمرت حتى بعد سقوط المدن الفينيقية تحت السيطرة الرومانية . كما ونعتقد أيضاً أن المستعمرات التجارية الفينيقية في أكبر المراكز التجارية اليونانية (ديلوس واثينا) بقيت هي الاخرى تحافظ على ازدهارها ذلك أن دول «العالم الروماني» ودخولها في نطاق دولة متوسطية موحدة كان يجب أن يساعد على ازدهارها .

يذكر ج . دي في بحثه الخاص بتاريخ مدينة أثينا في القرن ١ ـ ٣ أن شواهد القبور في هذه المدينة تحفظ لنا ١٣٣ اسماً لأشخاص سوريين . ١١٨ منهم من مدينة انطاكية ، ٦ ـ من صيدا ، ٤ ـ من صور ، ٩ ـ من أرواد وعسقلون ودمشق ويافا والسامرية . ونعرف أيضاً اثنين من جرش وواحداً من فيلاديلفيا وآخر من ـ الرها . وتقول معطيات البحث المذكور أنه في الفترة من عام ٤٠٣ ق . م وحتى القرن الاول الميلادي لم يكن معروفاً سوى ٦٥ شخصاً من أصل سوري (بما في ذلك ٣٩ من انطاكية) أي أنه خلال قرنين من حكم البرينتسبات زاد عددهم ٦٨ شخصاً اي بمعدل الضعف . قد تكون هذه الزيادة نتيجة لصدفة ما إلاّ أنها تعكس واقع تغير كمي في عدد السوريين الوافدين الى اليونان .
كما وكانت للسوريين علاقات تجارية مع بقية جزر الحوض . فحسب المصدر (ig,12,3,6)في نهاية القرن الأول قبل الميلاد كانت هناك جماعة للسوريين ـ الذين يرفعون العبادة لادونيس وافروديت واسكيلبي في جزيرة سيما .

عند الحديث عن التجارة السورية ـ الايطالية لابد من التأكيد على أنه ليس السوريون وحدهم من كانت لهم نشاطات تجارية عى الأراضي الايطالية وإنما كانت للإيطاليين ، بما في ذلك الرومان اهتمامات كبيرة بالتجارة السورية . ويؤكد النقش (CIL,10,1797) (بداية القرن الأول الميلادي ، مدينة بوتيولا) أنه كانت توجد في بوتيولا جماعة من التجار يديرون أعمالهم في الاسكندرية ومقاطعات آسيا وسورية (mercatores qui Alexandriai Asiai syriai negotiantur)

وتعتبر هذه الكثرة من النقوش المكتشفة في روما دليلاً على حيوية العلاقات التجارية بين سورية وايطالية وخاصة روما . فهذه النقوش تعود لأشخاص من مختلف مناطق سورية وخاصة تدمر (CIS,2,3902, عام 236) . وصور (IGRR,1,132) . وافاميا (IGRR,1,311,317) . لقد كانت عشائر أهل صور في بوتيولا لاتتمتع بامتيازات خاصة هنا . يقول النقش (IGRR,1,420) المؤرخ في ٢٩ أيار عام ٧٠ م . أنه تم إرسال «إله الشمس» من صور إلى بوتيولا عن طريق البحر ، على الأرجح بعل ـ آمون . ونشير في هذا السياق الى النقش (IGRR,1,421) الذي يضم نسخة من رسالة أهل صور الذين يعيشون في بوتيولا الى الميتروبوليا مؤرخة في ٢٣ تموز عام ١٧٤ ومقطع من قرار مجلس صور المتخذ في كانون الأول من نفس العام . حيث يوضح المصطلح اللاتيني (statien) المستخدم هنا عند الحديث عن هذه العشيرة أنها عبارة عن ممثلية للصوريين (نسبة لمدينة صور ـ المترجم) في بوتيولا وكان الهدف من انشائها تسهيل أعمالهم التجارية وتنظيم علاقاتهم مع مركز الامبراطورية .

تبدأ الرساله بالتأكيد على عظمة العشيرة التي إهتم بها سابقاً الصوريون الذين عاشوا في بوتيولا وكان عددهم كبيراً وكانوا أغنياء . وبالمناسبة فالوضع « الحالي » قد تغير : ذلك أن العدد أصبح أقل ومع تغطية النفقات الضرورية لتقديم الأضاحي وفروض العبادة أصبح من العسير على الصوريين دفع الضريبة السنوية المترتبة على العشيرة والبالغة مئة ألف دينار . وعليه تطلب العشيرة من حكام صور الاهتمام بمستقبلها والحفاظ على وجودها الأمر الذي يتطلب دفع المبلغ المذكور . وتختتم الرسالة بالقول أنه لا الملاّحون ولا التجار الصوريون يدفعون تبرعات لصالح العشيرة لا في بوتيولا ولا في روما . وما يثير الاهتمام حقاً في المقطع المقتطف من اجتماع مجلس صور هو الاقتراح الذي تقدم به فيلوكول والذي أصبح قراراً . وتخبرنا صيغة الاقتراح أن الصوريين المقيمين في روما اعتادوا أن يدفعوا من مساهماتهم مئة ألف دينار إلى حكومة بوتيولا يجري انفاقها ، على مايبدو لتسديد الضرائب . وقد اتضح

أن الصوريين المقيمين في بوتيولا يطلبون اعطاءهم امكانية ابقاء هذا المبلغ لديهم (أي يطلبون مساعدات اضافية لتسديد الضرائب) او فيما إذا لم يوافق المقيمون في روما على تقديم تلك النقود ، فإعطاؤهم ، هم المقيمين في بوتيولا امكانية دعم الممثليتين حسب الشروط السابقة . أي أن يجري جمع التبرعات من الصوريين المقيمين في بوتيولا بحيث تقوم ممثلية بوتيولا بتخصيص مخصصات معينة لتمويل ممثلية روما . لقد وصلنا من قرار المجلس مقدمته فقط حيث جاء فيها أن ممثليات صور تقوم « بمحطتين » ، احداهما - في روما « الامبراطورية » والثانية ، على مايبدو في بوتيولا . وبما أنه تمت الموافقة على كلام فيلوكل وطلب « اؤلئك » الذين في بوتيولا يعترف به طلباً عادلاً إذاً يجب أن نتوقع أنه تمت الاستجابة لهذا الطلب بطريقة ما من هذه الطرق .

نستطيع مما سبق أن نستنتج أن جمع التبرعات من المواطنين لدعم « المحطات » كان ظاهرة دورية ومنظمة . ويبدو أن مخصصات هذه العشيرة كانت تأتي من تبرعات أعضائها . وفي نفس الوقت كانت صور مهتمة بالوضع المادي للممثلية وما الدعم المادي الذي قدمته لها سوى دلالة واضحة على ذلك . كانت توجد في بوتيولا أيضاً عشيرة للنبطيين وكانت لها آلهتها الخاصة ((mhr)mt',CIS,2,150,) لعام ٢٠ ق . م ويفيد النقش عن أعمال ترميم المعبد مما يدل دلالة واضحة على وجوده في السابق أيضاً) . لقد وصلنا من بوتيولا النقش CIS,2,157) عام ١١ م) الذي يروي لنا أن النبطيين زيد وعبد الله ولدي تايمو قد ضحيا بزوج من الجمال للاله ذو الشرى

وفي القرون الأولى للميلاد كان السوريون يعيشون أيضاً في أكبر المراكز التجارية الاسبانية كقرطاجة الجديدة ومالاكا وقردوبا (قرطبة - المترجم) وهسباليس[٩]. ونشير في هذا الإطار إلى النقش الذي وصلنا من مالكا (IGRR,1,26) (للأسف أن النص غير مؤرخ ولكن من غير المرجح أن يكون تاريخة قبل القرن الثاني الميلادي) حيث يكرم فيه كلوديوس باترون جماعة السوريين هناك . ولكن النقش الذي وجد على شاهدة أحد القبور في (IGRR,1,25) في محلة جينا غير بعيد عن تريفو في جنوب فرنسا يعتبر غاية في الطرافة . تايمو ، ويسمى كذلك يوليان بن سعد حيث يسجل هذا النقش المراحل الرئيسية في حياته . لقد ولد هذا الشخص في قرية افيل (وفي القسم اللاتيني اضافة هامة devico) (Athelani) التابعة لمدينة قنافة السورية . وكان هذا اليوليان قد جاء الى غاليا في جنوب

٩- بتفصيل أكثر انظر : F.cumoht,les syriens en espange et les adonies a Seville,-'Syria',vol.8,1927.

79- M.rostovtzett,les inscriptions.

فرنسا ليعمل بالتجارة واسس شركته الخاصة حيث وصلت نشاطاته إلى اكتافيانا بما فيها لو غدون . ويعود تاريخ هذه الوثيقة التقريبي الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث .

وفي منطقة الراين نصادف السوريين أيضاً : فالنقش الذي مر ذكره معنا سابقاً (SEG,19,648)من اوغسطة تريفيرورم يذكر أحد الاشخاص السوريين واسمه عمزيز اغريب من افاميا .

تعتبر الاكتشافات الفخارية الاغريقية والرومانية في دورايوروبوس ضئيلة من حيث العدد وخاصة نماذج القرن الثالث قبل الميلاد حيث يمكن أن تكون قد نقلت الى هنا عند تأسيس المدينة . ولكنها ، على أية حال تدل على أن العلاقات التجارية مع العالم الاغريقي - الروماني قد وصلت حتى أطراف سورية على حدودها مع بلاد مابين النهرين . لقد استوردت دورايوروبوس المجوهرات المصنوعة من البرونز .

ومع أن المصادر التي وصلتنا شحيحة ومبعثرة إلاّ أنها تؤكد على توسيع وترسيخ العلاقات التجارية بين سورية والعالم الغربي في عصر البرنيتسبات : فقد أنشئت قواعد تجارية وظهرت مستعمرات جديدة كما وانتقل الكثير من السوريين الى الغرب .

تجارة السوريين في الشرق .

أما الطريق الأخرى للتجارة السورية فقد اتجهت نحو الشرق - الى بلاد مابين النهرين ثم الى الهند وآسية الوسطى والصين . وأشهر تنظيم تجاري تخبرنا به الوثائق كان في تدمر . وأكثر مالفت انتباه الباحثين المعاصرين هو دور هذا التنظيم في تطور العلاقات مابين الامبرطورية الرومانية وبارفيا في مراحل متقدمة نسبياً . حيث يخبرنا أبيان (APP.,B.civ,5,9)عن غارة شنها انطونيو على تدمر حيث سكانها « التجار ينقلون السلع الهندية والعربية ويبيعونها في بلاد الرومان » . وهذا القول لايعود الى ابيان وانما هو الاتهام الذي وجهه انطونيو الى التدمريين بأنهم يتبعون سياسة ذات وجهين الأمر الذي اعتبر ذريعة لمهاجمة تدمر . وعليه يمكننا التأكيد على أن القول المذكور يعود الى وثائق انطونيو الرسمية . ولاشك أنه لايجوز أن نرى في ذلك تقييماً شاملاً ونهائياً لاقتصاد تدمر . ولكن المعاصرين يؤكدون على أن هذه الصفة هي الأكثر وضوحاً في اقتصاد هذه المملكة .

أول من أفرد بحثاً خاصاً للتنظيم التجاري في تدمر هو الباحث الالماني البارز أ . هيرن الذي أهمل ـ بغير حق ـ كواحد من أبرز الباحثين في مرحلة ماقبل المادية التاريخية . لقد استخدم في عرضه أربعة نقوش « قوافل » واتخذها أساساً لاعادة رسم طرق وأساليب تجارة القوافل هذه . وحتى بعد ظهور معطيات جديدة بقيت استنتاجات هيرن ، من حيث الجوهر صحيحة . لقد سجلت التعرفة الجمركية التدمرية السلع الأساسية لتجارة الترانزيت التدمرية في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي . من هذه السلع : العبيد وأصبغة الصوف الارجوانية والمر والزيت والحبوب والخمور والدهن والسمك المملح والقطيع . ولاشك أن هذه القائمة غير كاملة ذلك أن التعرفة وصلت الينا تالفة . ونرى أنه من الطريف الاشارة الى أن التعرفة حددت فئتين فقط من حجم الحمولة ـ حمولة جمل واحد وحمولة حمار واحد . وهذا يدل على نوعين من القوافل التي كانت تأم تدمر . وعلى كل حال فالتعرفة تشير إلى وجود تجارة التجزئة في تدمر وخاصة تجارة الالبسة .

هناك عدد كبير من النقوش التوضيحية لتجارة تدمر مع مدن بلاد مابين النهرين نوردها لاحقاً . فبفضل هذه النقوش استطعنا أن نعيد إنشاء تاريخ العلاقات التجارية لتدمر مع خاراكس وفولوكسيا وفورت وجيناي . ففي عدد من النقوش يذكر مواطنون تدمريون أقاموا في خاراكس وفولوكسيا . أي أنه ، على أقل تعديل كانت في هذه النقاط مستعمرات تدمرية الامر الذي يدل على قوة العلاقات التجارية وأن تدمر مهتمة بمسألة فرض سيطرتها وترسيخها على الطرق التجارية المؤدية الى بلاد مابين النهرين . وليس صدفة أن تشجع حكومة تدمر اؤلئك الذين يعملون بنشاط لتطوير تجارتها في حوض دجلة والفرات . وليس صدفة أيضاً أن نجد أن بعض التدمريين قد أصبحوا من ذوي الشأن في مدن بلاد مابين النهرين . ولاشك أن هذا التوسع الاقتصادي لتدمر قد ساعد على تغلغل النفوذ الروماني . وتجدر الاشارة هنا الى المغزى السياسي الخاص الذي ارتداه انشاء معبد للاغسطسيين في فولوكسيا : فهنا يظهر معبد لأهم العبادات الرومانية الحكومية على الاطلاق حيث تعتبر مشايعته دليلاً على الولاء للامبراطورية . فقد حاولت روما جهدها زرع عبادة الأباطرة الرومان في منطقة مابين النهرين أثناء نزاعها مع الامبراطورية البارفية وذلك في محاولة منها لزرع روح العداء لبارفيا في أذهان الناس .

أما بشأن العلاقات التجارية بين تدمر ومصر فحتى الآن لايتوفر لدينا سوى نقش واحد : (CIS,2,3910) (تاريخه التقريبي يعود الى نهاية القرن الثاني الميلادي) حيث يذكر هذا النقش شخصاً يدعى يوليوس افيريلي مكّي الذي قاد القافلة الى وادي النيل .

أمـا النقش الحضرموتي فهـو نموذج فـريد 931,aفلقـد ذكر فيـه أشخـاص ، تـدمـريـون (tdmry) byry weddm يقـابـل الاسم الأول اسم خـير بـاللغـة التـدمـريـة (hyr;CIS,II,3924,3939) أمـا الاسـم الثـاني فـيقـابـله بـالـتـدمـريـة اسـم عـزيـز zyzw,CIS,II,3924,3934^) الخ . .) وهذا يعتبر دلالة واضحة على أنه كانت لتـدمر عـلاقات مباشرة مع الجنوب العربي ومن المحتمل أن هذه العلاقات كانت عبر الخليج العربي .

يثير النقش Inv.,X,96 اهتماماً خاصاً عند تقييم التجارة التدمرية . فالنقش كما هـو معروف تدمري المنشأ وقد أقيم على شرف مارك اولبي يارخاي بن خـيران المعروف لـدينا هـو الآخر . لقد أقام هذا النصب تجار جاؤوا من بلاد السكيف ، على ظهر المـركب الذي يملكـه حنينة بن حدودان . والصعوبة الجدية هنا هي معـرفة المنـطقة الجغـرافية التي يقصـد بها بكلمـة «بلاد السكيف» نحن نعتقد أن المقصوده هنا هي ممالك الساكس في شـمال غربي الهنـد وهي المنطقـة التي كان يمكن للتدمرين أن يصلوها عبر نهر هندا . .

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر CIS,II,3924	آب عام ١٩ م . باللغتين اليونانية والتدمرية	يادبيل بن عزيزو بن يادبيل من «أبناء» ماتوبول (باليونانية «من أجنحة ماتابول») .	تجار - تدمريون وإغريق ، شاركوا في القافلة - (dy bslwky')	ساهم في بناء معبد بيلاّ	
تدمر Inv.,X,40 يقابل SEG,vII,142	آب عام ١٨ م . باللغتين اليونانية والتدمرية هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف .	زبيدابول بن عقيلو بن عهات بن عاقا ، تدمري من «أبناء» معزيان .	تجار تدمريون	على شرفه	
تدمر, Inv.,X,7	النصف الثاني من القرن الأول . باللغتين اليونانية والتدمرية هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف		تجار تدمريون	على شرفه	

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Inv.,X,38	نيسان ، عام ١٣١ باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف	يرخاي بن نيبوزاباد بن سلاملات بن احدانا – مواطن ادريانا – تدمر ، ستراب ميريدات ملك خاراكس في منطقة التلوانيين .	تجار من خاراكس	على شرفه	
تدمر SEG,XV,849	عام ١٣٢ . نقش اغريقي هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف	سُعيد بن بوليادع	قافلة تجار منطلقة من فنولوكسيا ، قادة القافلة عتيق بن يارخبول وتاريمارتسو ، بن تاريمارتسو تقام أربعة نصب في حرش مقدسة في معبد زفس ، في معبد أريسا وفي معبد أتارغاتيس .	شريف ومحب للوطن ، ساعد التجار والقوافل والمواطنين في فولوكسيا لم يرحم نفسه ولم يبخل بماله لخير الوطن ولذلك كرّمه الاجتماع الشعبي بإقامة نصب له وكذلك مارتسيلا (قنصل سورية أعوام ١٣٢ – ١٣٥) أنقذ القافلة من خطر داهم .	الأرجح أنه أمّن حماية مسلحة للقافلة

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر, Inv.,X,112	أيلول عام ١٤٠ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	بن الكسندر اراخونت (؟) فورات الذي انضم الى منطقة خاراكس .	المشاركون في القافلة والذين انطلقوا مع مالح بن عزيز من خاراكس الى فولوكسيا وتدمر .	ذلك أنه كان نافعاً لهم في كل شيء . على شرفه أقيم نقش .	
تدمر, Inv.,X,81	كانون أول عام ١٣٥ م . باللغتين اليونانية - والتدمرية . وهناك توقيع على لوحة الشرف .	يوليوس مكسيموس قائد فيلق (اسم الفيلق غير موجود) .	مارك اولبي ابجر بن خيران بن ابجر والمشاركون في القافلة والذي انطلق معهم من خاراكس .	على شرفه	
تدمر GIS,II,3916,	نيسان عام ١٤٢ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	نيسا بن هالة بن نيسا بن هالة بن ريفائيل بن ابيساي قائد القوافل	المشاركون في القافلة - تجار وصلوا معه من فورات وفولوكسيا	تعبيراً عن الشكر والعرفان لقيادته لهم ومساعدتهم في كل شيء	

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Inv.,X,124	شباط عام ١٥٠ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	نيسا بن هالة بن نيسا بن هالة قائد القوافل	المشاركون في القافلة الذين نزلوا معه من تدمر وفولوكسيا	لأنه قدم الى القافلة كل مساعدة وعلى شرفه أقيم النقش .	لقد أثبت ستاركه (انظر : تعليقاته) أنه نفسه قائد القوافل في CIS,II,3916 .
تدمر CIS,II,3928	آب عام ١٥٥ م . باللغتين اليونانية – والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	مارك اولبي بن يارخاي بن خيران بن ابجر	المشاركون في القافلة المنطلقة من خاراكس أما النص اليوناني فيقول أن النقش أقيم برعاية قائد القوافل زبدعات بن زبديلا بن يداي .	تعبيراً عن الشكر واعترافاً له بالجميل لمساعداته التي قدمها للقافلة . وعلى شرفه أقيم النقش .	على الأرجح أن يكون أخا مارك اولبي ابجر بن خيران بن ابجر (Inv.,X,81)
تدمر Inv.,X,111	آب عام ١١١ م . باللغة التدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	مارك اولبي يارخاي بن خيران بن ابجر	قافلة نزلت من خاراكس	لأنه ساعدهم في كل شيء . وعلى شرفه أقيم النقش	مطابق لما قبله

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Inv.,X,90	كانون الثاني عام ١٥٧ باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولبي يارخاي بن خيران بن ابجر .	القافلة المنطلقة من خاراكس تحت حماية قائد القوافل (وفي النص التدمري : «عندما كان قائد قوافل») ياداي بن زبديلا بن ياداي .	على شرفه .	مطابق لما قبله وحسب ، قائد قوافل وعلى الأرجح أن يكون أخازابديعات بن زبديلا بن ياداي CIS,II,3928
تدمر CIS,II,3960	آذار عام ١٥٧ ، باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولبي يارخاي بن خيران بن ابجر .	خيران بن يارخاي بن تايمة وحبيبة بن يارخاي بن خيران «أبناء أنوبات» ، أصدقاؤه» (Rhmwhy)والتجار الذين انطلقوا معه .	على شرفه	مطابق لما قبله وحسب ترميم ش . كليرمونت غانو يذكر النص اليوناني أن القافلة انطلقت من خومان .
تدمر CIS,II,3961	لم يبق أثر للتاريخ ، وصلنا فقط القسم التدمري .	ما[رك] اولب[ي] يارخاي بن خي[ران] بن ابجر .	التجار الذين [انطلقوا معه من . . . ؟]	لم تبق الصيغة	مطابق لما قبله . رممه ج . ستاركه .

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Inv.,X,107	حزيران عام ١٥٩ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولبي يارخاي بن خيران بن ابجر .	القافلة التي انطلقت من خاراكس وقادها بن يارخاي . ابجر .	عرفاناً على مساعدته لهم بكل الوسائل وعلى شرفه .	مطابق لما قبله .
تدمر CIS,II,3963	تقديراً ، النصف الأول من القرن الثاني الميلادي باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	تيارس بن ليشماش بن مالك بن عباينة الشريف والمحب للوطن	المشاركون في القافلة الذين . . . . [معه]	لأنه كان نافعاً لهم وساعدهم في كل شيء .	
منطقة تدمر SES,VII,3963	منتصف القرن الثاني الميلادي . نقش باللغة اليونانية . يوجد توقيع على لوحة الشرف .	سعيد بن باليداع الشريف والمحب للوطن .	«مجلس وشعب» تدمر تقام أربعة نصب في معبد المدينة للآلهة الأربعة (en te[i] tetradeie tes po–leos).	ساعد التجار والمواطنين والقوافل في فولوكسيا معبد اغسطس فكرّمه الحكام ادريانا وانتونينابيا ، قرار	مطابق للمذكور في SEG,X,849

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
			وكذلك ثلاثة أخرى في مدن خاراكس وفوكسيا وجيناي .	الحاكم بوبلتيسيا مارتسيلا وكذلك «المجلس والشعب» والقوافل وأشخاص آخرون .	
تدمر Ihv.,x,29 .	تموز عام ١٦١ م . باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اميلي ماركيان اسكلبيدا عضو المجلس الحاكم في انطاكية ، مالك الربع (tetar-tonen ,dy rb')	التجار الذين انطلقوا من خاراكس وقائدهم قائد القوافل - نيس بن بليادع .		قائد قوافل وهو أخو السابق .
تدمر CIS,II,3948 .	نيسان عام ١٩٣ م . باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	تيمارس بن تيمة بن مقيم بن غربة قائد قوافل .	المشاركون في القافلة التي انطلقت معه من خاراكس .	قدم لهم ٣٠٠ دينار من الذهب القديم لنفقات الطريق وكان نافعاً لهم ، على شرفه وشرف يداي وزبيدبول وأولاده .	

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر CIS,II,3949	آذار عام ٢١١ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . يوجد توقيع على لوحة الشرف .	يداي بن تيمارس بن تيمة بن مقيم بن غربة .	النقش يعاني من تلف كبيرومن المعتقد أن من اقامه هم تجار مقيمون في فولوكسيا حيث قدم لهم مبالغ كبيرة .		أبناء السابق .
تدمر CIS,II,3933	نيسان عام ٢٤٧ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	يولي افيريلي زبيدة بن مقيم بن زبيدة بن عشير بن بيضة .	المشاركون في القافلة الذين نزلوا معه في فولوكسيا .	ذلك أنه كان نافعاً لهم ، وعلى شرفه .	

ويعتمد هذا التقرير على «بيريبلا البحر الأريتيري» (مقطع ٣٨) الذي يضم «السواحل السكيفية» إلى منطقة منابع نهر هندا . ويعود مثل هذا التصور إلى افتراضات الجغرافيين الإغريق الذين افترضوا أن منابع نهر هندا تقع في القفقاس (Av.,Oramar.,1286–1293)ولكن هناك حل آخر . فالمعروف أن الجغرافيين الإغريق اختصروا بلاد السكيف أساساً في منطقة البحر الأسود (Per.Ps.Scyl.,63,Per.Ps Scymn.,835 – 840,PS.,arrper.Pont.Eux,49,Av.,Ora mar.861 – 863)وإذا ما انطلقنا من هذا التقرير عند تفسيرنا لـInv. ,X,96فيجب أن نعترف أن المركب وصل من شمال البحر الأسود إلى ميناء ما يقع في منطقة شرقي البحر المتوسط . ونحن نرى أن الافتراضين منطقيان . وعلى أية حال فالثابت هو أن التدمريين اتخذوا اجراءات للمشاركة ليس فقط في تجارة القوافل وإنما في التجارة البحرية أيضاً .

وهكذا نرى أن المصادر المتوفرة لدينا تعطينا إمكانية كافية للحكم على نظام تجارة القوافل . فالقافلة (synodia ,s^yr)أو (s^ykt')عبارة عن جماعة تستطيع أن تتخذ بكل حرية القرارات المناسبة لمختلف القضايا التي تواجهها . وتصادفنا مثل هذه القرارات فقط عند تقرير إقامة نصب تكريماً لشخص ما . ولكن لاشك في أن اجتماع القافلة العام كان يتخذ قرارات لحل مسائل أخرى ، مثلاً إقامة علاقات مع هذا الشخص أو ذاك ممن قدموا خدمات مفيدة للقافلة ، أو انتخاب قائد القافلة ، أو تحديد مسارها إلخ . . . لقد كان للقافلة مخصصات مادية عامة ، وكانت تتشكل من مساهمات المشاركين فيها وفي حالات نادرة كان شخص ما واحد يأخذ على عاتقه تغطية كافة نفقات القافلة .

ولكن لاتتوفر لدينا المعطيات الكافية لتحديد مهمات وصلاحيات قائد القافلة بالتفصيل المرجو (synodiarv,hes,rbs^yrt)والحقيقة أن بعض المصادر تعطي بعض المعلومات عن مهمات هذا الأخير فهو رئيس القافلة الذي يعمل وسعه لكي تكون أوضاع كافة أعضاء القافلة مرضية . وهذا يدل على أن رئيس القافلة كان يتمتع بامتيازات قيادية داخل الجماعة . غير أننا لانعتقد أن روستوفتسف محق في اعتباره قائد القافلة . «قيصر – قافلة» . هذه التسمية تتناقض والصيغ التالية : «انطلقوا» أو «نزلوا» «سوية معه» ، هذه الصيغ التي تدل دلالة واضحة على أن الكلام يجري هنا عن أشخاص متساوي الحقوق . ولو كان لقائد القافلة أي وضع حقوقي خاص لكان لابد من أن نجد له انعكاساً ما في صياغة النقوش . وتجدر الإشارة هنا إلى النقش CIS,II,3936حيث تحتوي هذه الوثيقة على معلومات هامة للغاية عن وضع قائد القافلة . وقد وجدت الوثيقة مرافقة لنصب يوليوس أفيريلي سلاملات

بن عبيدة والذي أقيم بقرار من «مجلسر وشعب» تدمر . كان هذا الشخص قائد قوافل (a]rkHemporon,rb s^yrt]) وقد قاد القافلة «دون مقابل» «على نفقته الخاصة» proika,mgn mn kysh فعلى ما يبدو أن عمل قائد القافلة كان مأجوراً . ومن الطريف أن أحد النقوش المقامة على شرف سيبتيم فورودا CIS,II,3942) أو IGRR,III.1045) والمؤرخ عام ٢٦٧ ، تقريباً حيث يمدح فيه المذكور لأنه موّن القافلة على حسابه الخاص .

وليس غريباً أن تكون حماية طرق تجارة القوافل إحدى المهمات الأكثر أهمية بالنسبة لحكومة تدمر الأمر الذي تشير إليه المصادر صراحة . ويعتبر النقش Inv.,X 44 اذو أهمية خاصة في هذا المجال ويعودُ تاريخه لعام ١٩٩ . يقول النقش : بقرار من «المجلس والشعب» تقيم العشائر التدمرية الأربع نصباً على شرف عقيل بن مكيّ بن عقيل بن سيفور عرفاناً له بالخدمات التي أدّاها إبان الحملة ضد البدو الرحل وكذلك لقاء تأمينه حماية القوافل على نفقته الخاصة . أما القسم التدمري فيقول أنه يكرّم لقاء خدماته في مختلف الاجراءات (b'strtgwn s^gy,yn) التي اتخذت لتأمين سلامة البلاد wb?ryhyh—? وكذلك لقاء تنظيم القوافل .

لاشك أن هذا التطوّر العاصف لتجارة القوافل كان له تأثير بارز على حياة مجتمع تدمر . ويتضح من المصادر التي أوردناها أنه كان يوجد في تدمر في المرحلة التي نحن بصددها أناس متخصصون بقيادة القوافل والرحلات التجارية . ومن هؤلاء مثلاً نيس بن هالة الذي كان يقود القوافل المنطلقة من تدمر إلى فولوكسيا ومن فولوكسيا وفورات إلى تدمر . كما ونجد عائلات بكاملها تمارس نفس المهنة منها مثلاً الأخوان زبيدعات ويداي أبناء زبيدل .

ولقد رأينا أن كبار العائلات الأرستقراطية كانت تشارك في تجارة القوافل حتى أن بعضهم كان يقود بنفسه مثل هذه القوافل . ويمكن أن نشير هنا الى الأخوين سعيد ونيس ولدي بليادع حيث كان أحدهما قائداً للقوافل والآخر كان يقدم مساعدات مالية لبعض التجار وكذلك للمستعمرة التدمرية التجارية في فولوكسيا . ومثل هذه العائلات – عائلة تيمارتس ابن تيمة بن مقيم بن غربة وولده يداي . فقد قادا القوافل وقدما مساعدات للمشاركين في تجارة القوافل . ومن الواضح أن هذه النفقات كانت تعوّض بنمو وتطوّر تأثيرهما في مختلف المجالات بما في ذلك – التجارة وبالتالي بإمكانية الحصول على أرباح اضافية من العلاقات التي وطدتها ورسختها تلك المساعدات . ويعتبر نشاط الأخوين مارك أولبي الأبجر ومارك أولبي يارخاي أبناء خيران بن أبجر من أكثر النشاطات وثائقية في هذا المجال

فالأول كان قائد قوافل والثاني غالباً ما كان ينظم مثل هذه القوافل التي كـان يقودهـا رجالـه أو عملاؤه التجاريون . وكانت له علاقات تجارية مع تجار تدمريين يمارسون التجارة البحرية كما وأصبح أبجر بن مارك أولبي يارخاي قائد قوافـل في حياة والـده الذي أراد ، عـلى ما يبـدو أن يجعله خليفة له في هذا المجال .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل اقتصرت ملكية هؤلاء على المجـال التجاري أم أنها امتدت لتطال الأرض أيضـاً ؟ نعتقد أن الامكـانية الأخـيرة واردة ولكن حجم العمليات التجارية الذي تتحدث عنه الوثائق يؤكد أن عماد ثروة هؤلاء كانت الواردات الآتية من تجـارة القوافل .

ومن المسلم به أنه كان للأرستقراطية التجارية (إذا صـح هذا التعبـير) تأثـير واضح في حيـاة المجتمع التـدمري . ولكن من المـدهش فعلاً أن الـوثائق التي تحكي عن هؤلاء لاتشـير إطـلاقاً إلى cursus honorum - هم أي انه لم تكن لهم أية مكانة في الوظائف الإدارية في المدينة . ولكن ألسنا هنا أمام اختلاط الأوضاع مصادفة ؟ من الواضح أن مزيداً من المعطيات وحده القادر على إلقاء مزيد من الضوء على الدور الذي لعبته الأرستقراطيـة التجاريـة في حياة مجتمع تدمر .

من المحتمل أن تكون الأرستقراطية التجارية موجودة في المراكز التجـارية الأخـرى إلاّ أنه لاتتوفر لدينا أية معطيات حول هذا الموضوع .

إذاً ، كـما رأينا ، فقـد دعمت تدمـر علاقـاتها التجـاريـة مـع المـدن المـذكـورة ببنـاء مستعمرات تجارية تابعة لها فيها وكذلك ببناء معابد للآلهة التدمرية هناك . وبغض النـظر عن صحة المصادر فإنه لابد من اضافة دورايوروبوس إلى قائمـة المدن التي كـانت تربـطها بتـدمر علاقات تجارية وثيقة . والدليل على ذلـك هو المعبـد التدمـري الذي تم العثـور عليه قـرب البرج الشمالي الغربي لسور المدينة . وعلى الأرجح أن تاريخ بنـاء هذا المعبـد يعود إلى النصف الأول من القرن الأول الميلادي . وتؤكد ذلك اللوحـة التذكـارية التي تحمـل تاريـخ شباط - آذار لعـام ١١٥ م حيث تقول اللوحـة أن ليسوس بن كـونون بن بـاتروكـلا «أقام عـلى نفقتـه الخـاصة هـذا البيت والطابق العلوي بعـد تطهـرّه أمام الإلـه زفس لتوفيقـه وتوفيق خلفـائه» (cumont,I, أو SEG,VII,754) على الأرجح أن ف . كومون محق عنـدما يعتـبر أن المقصود بكلمـة oikos في النقش ليس المعبد وإنمـا بناء مـا شيّد عـلى أرض المعبد . وأهم مـا في هـذه الوثيقة إشارتها إلى أن أكثر العائلات نفوذاً في دورايوروبوس كانت تعتبر أنه يجب تقديم الهدايا

والأضاحي إلى آلهة تدمر ومن الواضح أن السبب في ذلك ليس أكثر من السعي لتمتين العلاقات التجارية مع تدمر بالإضافة الى ذلك تم بناء معبد في وسط دورايوروبوس ويدعى معبد غادّ - معبد المدن الثلاث ، تدمر ودورايوروبوس ومدينة ما ثالثة من الصعب تحديدها . وعلى الأرجح أن بعض الوثائق المكتشفة في المعبد قد أثارت اهتمام الباحثين . احداها (ED,VII–VIII,907) وجدت مع رسم الإله - حامي دورايو.وبوس وتنص على : «غاد دورا أعده خيران بن مالك بن ناتسور . في شهر نيسان عام ٤٧٠» (أي عام ١٥٩) أما الوثيقة الأخرى (ED,VII–VIII,908) والتي ترافق رسم الإله - حامي تدمر فهي على نفس النمط : «غاد تدمر أعده خيران بن مالك بن ناتسور . في شهر نيسان عام ٤٧٠» لقد أشار ناشر و هذه الوثيقة إلى أن اسم ناتسور في الوثائق التدمرية (GIS,II,4202) يشار إليه على أنه أحد أجداد سيبتيم أذينة الذي تبدأ شجرة العائلة منه . واعتماداً على هذا التشابه في أسماء الأجداد يعتقد الباحثون بحذر شديد أن هناك علاقة ما بين عائلة أذينة وعائلة مُعّد الرسمين المذكورين في معبد غاد . لاشك أنه يتوجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني (حوالي ٦٠ سنة تقريباً) الذي يفصل CIS,II,4202 (عام ٢٢٥ تقريباً) عن وثائق معبد غاد . ولكننا يمكن أن نعزي هذا الفارق إلى أنه في CIS,II,4202 يشار إلى أربعة أجيال بينما يشار في وثائق معبد غاد إلى ثلاثة أجيال فقط . أما تشابه الأسماء فيمكن أن يكون مجرد صدفة خاصة وأن اسم nsr' القريب يصادف مرتين على شواهد القبور في النقش CIS,II,4403 وهكذا تبقى مسألة القرابة خاضعة للبحث ولكن على أية حال فقد كان خيران بن مالك بن ناتسور في منتصف القرن الثاني الميلادي واحداً من الرجال ذوي النفوذ في العشيرة التدمرية المقيمة في دورايوروبوس . ويبدو أن معبد غاد الذي أعيد بناؤه مرّات عدة كان مكاناً للعبادة واجتماع التدمريين المقيمين في دورايوروبوس . أما رسوم الآلهة - حامية دورايوروبوس وتدمر فقد كانت تعبيراً عن ولاء التدمريين لوطنهم وللمدينة التي فيها يعيشون . كما وتشير المصادر إلى وجود اتحاد راسخ ومتكاقىء بين المدينتين في منتصف القرن الثاني الميلادي .

ويلفت النظر النقش ED,VII–VIII,909 الذي يرافق رسم أحد آلهة تدمر وهو الإله يارحبول . وقد أعد هذا الرسم «بن مايتي وقاذفو السهام (bd bny myt'qs^t')» ومن الطريف حقاً أن وثائق دورايوروبوس تأتي على ذكر قاذفيّ السهام التدمريين . ويعود تاريخ مثل هذه الوثائق لعام ١٦٨ (ED,VII–VIII,p.83–84) لقد كتبت احداها بلغتين . ويقول نصها اليوناني EXFanei idtapteua : «إبتاني - القائد» - يعرف بشكل تام اللغتين الآرامية والتدمرية . أما النص التدمري لهذا النقش فهو أكثر تفصيلاً : «ذكرى طيبة .

أعـدها إبتـاني - القائـد بن زبيدعـة الذي يقـود قاذفيّ السهـام الذين في دورا tnstrtg'br' zbdch dy 'lqst' dy bdwr في شهر آذار عام ٤٨٠» . وهناك نقش آخر باليونـانية يـرافق رسم الإله ميترا وقد أعده «زينوبا والذي أيضاً بايابا بن ياريخبـول قائـد قاذفي السهـام» ويعود تاريخ هذا النقش لعام ١٧٠ - ١٧١ . نستدل مما تقدم ، دون أي لبس أنه في منتصف القرن الثاني الميلادي وفي نصفه الثاني كانت توجـد في دورايوروبـوس فرقـة قاذفي سهـام تدمـرية . ولايجوز القول أن هذه الفرقـة كانت ضمن القـطع العسكريـة الرومـانية المتـواجدة هنـاك - الكتيبـة عشرون لقـاذفي السهـام التـدمـريـين حمـاة السـواحـل والتي كـانت معسكـرة في دورايوروبوس منذ عام ٢٠٨ وحتى عام ٢٥٦ ، على أقل تقدير ، وذلك لسبب رئيسي هـو أن وثـائق هـذه الكتيبـة كـانت مكتـوبـة بـاللغـة الـلاتينيـة ، بمـا في ذلـك النقــوش (قـارن ED,VII–VIII,906 ويعتقد م . ي . روستوفتسف أنه تم إعداده قاذفي السهام هؤلاء لحماية القوافل التجارية . وكان من الممكن الموافقة على هذا الرأي لو كانت الـوثائق قـد أشارت إلى شيء ما عن مهام هؤلاء الجنود .

ونحن نعتقـد أن صيغـة «قـاذفي السهـام من القـوس الـذين في دورا» (qs^t'dy bdwr') تدل دلالة واضحة على أن مهمة هؤلاء الجنود في دورايوروبوس هي حمـاية المـدينة . ويدعم هذا القـول نقشان يفصلهـما عن بعضهما فـاصل زمني قصير يقدر بعـامين أو ثـلاثة . فنحن لا يـدهشنا أبـداً التغيّر المستمـر لقادة هـذه القطع . إذ أن الـوضع الـذي كـانت عليـه دورايوروبوس في الفـترة التي أعدت فيهـا وثائقنـا هذه يـدل على أنـه كان عـلى قاذفي السهـام التدمريين المتواجدين في هذه المدينة أن يكونوا حلفاء مساعدين للقوات الرومانية . أمّا إعادة تنـظيمهم في الكتيبة عشرين فيعتبر الإجراء الـدوري الـذي هـدف الـرومـان من ورائـه الى استخدام أكثر فعالية للجنود التدمريين . ولكن تجب الاشـارة إلى أننا لا نملك أيـة وثائق تشـير الى وجود قاذفي السهام هؤلاء في دورايوروبوس في مراحل أكثر قدماً .

ويدل وجود السوق التجارية والدكـاكين المجـاورة لها في دورايـوروبوس عـلى أن هذه المدينة كانت مركزاً تجارياً محلياً وتدمرياً هاماً . ومما لاشك فيه أن تنظيم هذه السوق التجاريـة قد تعرّض لتغيرات هامة خاصة في عصر مملكة بارفيا فقـد تقلصت مسـاحتهـا بشكل ملحـوظ نتيجة لبناء المزيد من المحـلات التجاريـة فيها وبـالتالي فقـد تبدل تنـظيمها بشكـل واضح . ونحن لا نشـك في أهمية هـذه الظاهـرة أبداً فهي مـرتبطة - حسب رأينـا - بالنمـو المضـطرد للمؤسسـات التجاريـة الكبيرة التي سحقت المؤسسـات الصغـيرة ووضعت في قبضتهـا كـل العمليات التجارية الهامة . فسلسلة النقوش SEG,VII, أعوام (٣٨١ - ٤٣٠ أي (٢٣٥ -

٢٤٠) تحوي معطيات هامة عن نشاط مثل هذه المؤسسات . ونظراً للأهمية التي تتمتع بها هذه السلسلة نجد من المهم عرض ترجمتها كاملة .

«٣٨١ . بعد ذلك : ساهمت أنا نيبوخبل بـ ٢١٢٠ ديناراً . بعد ذلك : أرسلت بابة عبر بيميلا بن أداغابار ٢٠٢ ديناراً وعبر باتا بن خميني ٨٥٠ ديناراً وعبر برنابو بن سمية ١٠٠ دينار .

٣٨٢ . بعد ذلك ساهمت أنا نيبوخيل بـ ٢١٢٠ ديناراً . أعطيت فرعات ١١٤٠ ديناراً وغيرها ٦١٦ ديناراً . بعد ذلك : أرسلت بابة عبر بيميلا ٢٠٢ ديناراً وعبر باتا ٨٥٠ ديناراً . وأخذ ماريبال ١٥٢ ديناراً .

٣٨٣ . عندما وصلت كاخاندس جلبت ٧٨ ديناراً .

٣٨٤ . لقاء أخذ ماريبال ٧٤ ديناراً و ٣٤ .

٣٨٥ . بعد ذلك : تم دفع : ماريبال أخذ ١٥٢ ديناراً وفرعات ١١٤٠ وغيرها ٦١٦ وغيرها ١١٦٠ . وأخذ فرحات ١١٤٠ ديناراً أخرى . لقد أرسلت إلى عبدان ٢٠٠ دينار والمجموع ٣٢٦٨ .

٣٨٦ . تقرير . بعد ذلك : أخذت من بيلانتي (؟) لننيبوخيل ١٥٠ ديناراً وأخذت لبحيرمن ٢٤ . لشراء اللحمة ١٩ ديناراً وجوب ٢٩ وفراء --- ديناراً وشعير ١٥٢ ديناراً ولحمة ٣ دنانير .

٣٨٧ . بعد ذلك : أعطيت أغريبات -- ، أعطيت -- t -- ، وفي دورا -- da .

٣٨٨ . لتنظيم الحامية المسلحة --onoa ديناراً --- لشراء البخور ٥٠ ديناراً ، -- ديناراً ، ١٥٠ ديناراً ، -- den --- ، ٨٠٠ دينار ، -- ٨ دنانير ، ٥ دنانير إلى بابيليتا و ١١ ديناراً إلى هيرقليت .

٣٨٩ . بعد ذلك : أعطيت إغريبات ، أعطيته ٣٠٠ دينار كي يجلب لي --- ثلاثة قدور .

٣٩٠ . أعطيت فانا سلمان ٨ دنانير .

٣٩١ . بعد ذلك :

٣٩٢ . ٨ دنانير أعطيت لمالك .

٣٩٣ . لقد استلم منّا من آل KOKOMOI العائد لسلمان طقماً واحداً من الثياب .

٣٩٤ . لقد حصلت من آخر تأجير(*) على شعير ٦٢٠ قيراط .

٣٩٥ . بعد ذلك : استلمت -- .

★- على الأرجح ربع تأجير الأرض .

٣٩٦ . أبواليت ٤ دنانير .
٣٩٧ . دوسيبت -- ١٦ ديناراً .
٣٩٨ . ٢٥ ديناراً ، ٢٥ ديناراً ٣١ ديناراً (؟) .
٣٩٩ . لي عند غيرميس ٤٨ ديناراً وعند تجار الخبز ٢٤ ديناراً .
٤٠٠ . ساداماس ٢٦ ، ٧ ، ١٩ ، ١٦ ، ٢١ ، ٧ .
٤٠١ . لقد أخذت من فالتينوس ١٨١ ديناراً لقد أخذت من فالينتينوس ما أرسله هو لي ، ٣٨٩ ديناراً ، مارابيلا ١٠٠ دينار . أملك سوية مع أنينس ومالح (ولقد جلبت هذا إلى دورا أيضاً) : ٦٩ برميلاً من الخمر المعتق حصتي منها ٢٣ برميلاً . وأملك أيضاً ، أنا أملك أيضاً ، وعقباسي وأكينيبس ومالح في بانابيلا ٢٠٠ برميل ، لي منها ٥٠ برميلاً وقد دفعت ثمن حصتي كاملاً (*) .
٤٠٢ . ضد نيكوفونت .
٤٠٣ . بعد ذلك : لي عند غرانيت ثمن صوف غنم ١٤ .
٤٠٤ . عندنا صوف مصنع ٩٨ وصوف مباع ٧٣ .
٤٠٥ . --- polym بعت صوفاً ٧٩ ، لقد قسمنا الصوف ٣ ، وقسمنا صوفاً آخر ٢١ .
٤٠٦ . لقد باع ماريبال صوفاً ٥٨ وصوفاً آخر ١٤ .
٤٠٧ . لقد رفضنا سابقاً الصوف المصنع ٦١ . نقود معدودة .
٤٠٨ . صوف ٢ . صوف ٣ ، صوف ١ ، صوف ١٨ ، صوف ٣ ، صوف ١ , ١ ، صوف ١ , ٢ ، صوف ١٠ ، صوف ٢ ، صوف ١ ، صوف ١ ، صوف ٣ ، صوف ٤ ، صوف ١ ، (**)
٤٠٩ . ٤٥٠ شحنة شعير (***)
٤١٠ . بلدان (؟) ٣ ، ٢ ، ٢ (؟)
٤١١ . خبز إلى صور و٣ دنانير ، قمح ١٠ دنانير ، شعير ١٢ ديناراً ، خمر ٤ دنانير .
٤١٢ . عصافة ١٢ .
٤١٣ . ؟ noldeos دينارين ، شوح (٧)
٤١٤ . -- ديناراً -- شوح ٨ دنانير ، شعير دينارين .

★يأتي بعد سطرين طمسا كلياً .
★★ الارجح كانوا يقيسون بآلات الصوف
★★★ يلفت النظر أن وحدة القياس المستخدمة هنا نجدها مثبتة في تعرفة الضرائب التدمرية .

٤١٥ . إلى با --- ٢٧ ديناراً .
٤١٦ . بنفسي ٥٠ ديناراً ، ديناراً واحداً على الشعير . أعطيت مانو ٤ دنانير ، و٤ دنانير للحمة ؟ ١١ ديناراً للشوح و ٤ دنانير للخمر ، ----
٤١٧ . مجموعة I . بعد ذلك : أرسلت إلى عبدان نيبوخيل : قمصان ٢٠٤٧ ، ٢٠٤٦ ، ٢٠٤٦ روباً ، ٢٠٤٢ ٧ منشفة ، ٢٠٥٠ شرشفاً وغيرها ٣٠٤٢ ، ٢٠٥٥ منشفة حمام ، ٢٠٤٦ روباً ، ٢٠٣٥ منشفة حمام ، ٤٠١١ ولادية من الصنف الرديء . مجموعة الصبغة أرجوانية ٩ ليرات .
٤١٨ . إلى خلاميد ٣ دنانير .
٤١٩ . إلى افّادان --- ١٥٦٠ .
٤٢٠ . ولّادي ١٠١٣ ، ١٠٩٠ روباً ، ---
٤٢١ . صبغتنا الأرجوانية ١٢ ليتراً .
٤٢٢ . باراغافديا 2da قمصان صوفية نصف كم ١ ، روب صوفي نسائي واحد ، قميص صوفي واحد أرجواني بدون أكمام . ربطة . عُصابة واحدة ، بطانية واحدة ، بطانية مزركشة واحدة ، روب أبيض واحد --- skade3mia (؟) ٥ ، وسادة واحدة .
٤٢٣ . ٢٠٤٤ زوجاً من الجزم ، ٢٠٤٨ منشفة حمام ، لاوديكية (لاذقانية) ١٠٣٢ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٦ .
٤٢٤ . -- ٤ ، -- ٢ ، مشاعل عدد ٢ .
٤٢٥ . إبيميلا ٢٠ رباط .
٤٢٦ . pdمشاعل ٣ ، ٦ ، ١٠١٠ ، ٥ .
٤٢٧ . مجموعة أولى . هيل ١ ، كوستامين ١ ، (؟) asnabo3 – مين ١ ، –sibal(؟) anal^ – مين ١ .
مجموعة ثانية و ١٠ أزواج جزم ، ريمين ٢ ، روبين نسائيين solal – مين عدد ٦ .
٤٢٨ . أربطة صوفية جديدة ٨ ، ٣ ، سوار عدد ٢٣ ، 18
٤٢٩ . لدي رهن : أربطة بقيمة ٤ دنانير ، خاتم بقيمة ٨ دنانير .
٤٣٠ . لدي رهن : أم فرعات بقيمة ٣٢ ديناراً ، زوجة ماريبلا بقيمة ٨ دنانير .
وهكذا نرى أن عمليات نيبوخيل التجارية والتي تحكي عنها الوثائق تتكون من مدفوعات نقدية مجهولة الغاية وفي حالات أخرى نراه يشارك في شركات تجارية ويساهم في مؤسسات غريبة وبالإضافة إلى ذلك نرى أنه يقدم القروض مقابل رهن معين . ولا يقتصر نشاطه على دورايوروبوس وحدها بل يمتد إلى القرى والمدن المجاورة كصور مثلاً . لقد كان نيبوخيل

يتاجر بالحبوب والمواد التموينية الأخرى (بما في ذلك الخمر).والصوف والألبسة والأحذية والأرجوان والشوح . وتبدو عملياته التجارية غير منظمة بل فوضوية فهو ينتقل من عملية إلى أخرى ولا أهمية عنده للمادة أو للشخص الذي يتاجر معه المهم بالنسبة له هي التجارة بحد ذاتها فهو مستعد للدخول في أية عمليةِ تجارِية تضعها أمامه اللحظة المعينة دون سابق تخطيط .

وهذا يسمح لنا بالاستنتاج أن التخصص التجاري لم يكن موجوداً في دورايوروبوس في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي . فالعمليات التجارية التي يقوم بها نيبوخيل لايمكن مقارنتها بتلك التي كان يقوم بها التجار الفينيقيون والتدمريون الذين غالباً ما كانت عملياتهم تتعدى حدود مدنهم . وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : وماذا يمنع وجود مثل هؤلاء التجار في دورا أيضاً ؟ لاشيء . بل هو احتمال واقعي .

والحقيقة أن الأبحاث الأرخيولوجية في دورايوروبوس تسمح لنا باقتفاء عملية نمو وتطّور وحتى تمركز الرأسمال التجاري في الفترة التي نحن بصددها . فإذا كانت الدكاكين التجارية ، في العصر الهلنستي ، والتي توضعت في ساحة السوق التجارية عبارة عن محال متواضعة تتألف من المستودع ودكان البيع نفسه فقد تحولت في مرحلة لاحقة إلى مجمعات من البيوت الفنية التي تتألف غالباً من عشرة بما في ذلك بيوت سكنية ومستودعات . وهذا دليل أكيد على نمو الثروات وبالتالي توسع العمليات التجارية .

تجارة المعابد في سورية في القرن الاول وحتى الثالث ضمناً . (للميلاد)

لقد كانت المعابد تشكل إلى جانب المدن مراكز تجارية هامة في سورية في الفترة المذكورة . ولكن للأسف لاتعطينا الوثائق سوى صورة عامة وتقريبية عن تجارة المعابد في سورية وتنظيمها . غيران بعض الوثائق (IGRR,111,1020)تشير الى تنظيم معارض تجارية دورية في أراضي المعابد كان يشارك فيها الناس من المقاطعات المجاورة وحتى البعيدة . حتى أنه في عهد انطوخ أصدر مجلس المدينة أمراً تنظم بموجبه اقامة المعارض التجارية في أراضي المعابد : وكان يجب أن تقام عبر كبار الموظفين المختصين المسؤولين عن الحدود التابعة لبيتوكيكي وkHora . ولاشك في أنه كانت تتخلل هذه المعارض طقوس وشعائر دينية ولذلك كان اليهود يمتنعون عن الاشتراك فيها .

وتدل الرواية الانجيلية المعروفة (عندما طرد يسوع المسيح التجار من الهيكل) على أن المعابد كانت تلعب دوراً هاماً كمراكز تجارية في كل آسيا الوسطى والغربية ولم تكن سورية استثناء في هذا المجال .

الفصل الرابع

البنية الاجتماعية للمجتمع السوري في الفترة مابين القرن الاول والثالث للميلاد .

قبل أن نبدأ بمعالجة موضوع البنية الاجتماعية في سورية ابان المرحلة التي نحن بصددها نرى لزاماً علينا أن نشير إلى أننا لانملك معطيات مباشرة عن هذا الموضوع وخاصة عن مستوى التناسب القائم بين مختلف فئات السكان . ولكننا نستطيع أن نجزم بوجود هذه الفئة أو تلك وتحديد خصائصها .

عندما نعالج البنية الاجتماعية لهذا المجتمع القديم أو ذاك فإننا نقصد أولا ـ تحديد الطبقات ، أي تلك الجماعات من الناس التي يميزها عن بعضها البعض « موقعها في نظام الانتاج الاجتماعي المحدد تاريخيّاً وبموقعها (القسم الأعظم مثبت ومصاغ قانونياً) من وسائل الانتاج وبدورها في تنظيم العمل الاجتماعي وبالتالي بأساليب حصولها على نصيبها من الثروات الاجتماعية التي تملكها وحجم هذا النصيب » [1] ، ثانياً ـ بما أن « الفوارق الطبقية في المجتمعين العبودي والاقطاعي مثبتة بموجب التقسيم الفئوي للسكان » و « طبقات المجتمع العبودي والمجتمع الاقطاعي (وكذلك نظام القنانة) كانت أيضاً فئات خاصة » [2] ، ـ فالفئات ، هي جماعات من الناس تتميز عن بعضها البعض حسب وضعها القانوني .

× × × × × ×
× × × × × ×

١ـ ف . ا . لينين ، المبادرة الكبرى ـ الاعمال الكاملة م . ٣٩ . ص . ١٥٠ .

٢ـ ف . ا . لينين ، البرنامج الزراعي للاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية ، الاعمال الكاملة م. ٦. ص ٣١١ .

العبيد في سورية القرن ١ - ٣م .

تتميز هذه المرحلة من تاريخ سورية بأنها (سورية) كفت أن تكون مصدراً للعبيد وهو الدور الذي لعبته منذ بداية العصر الهلنستي [٣] وكذلك في زمن الحروب الرومانية ضد السلوقيين [٤] . والحقيقة أن كاسيوس نفسه قام بخطف الأحرار وبيعهم عبيداً ولكن انطونيو الذي أراد استمالة الناس الى صفه قام بتحرير كل من استعبدهم كاسيوس وأتباعه (Flav.Ios,Ahtt,14,313) . ولكننا نعرف أن العبيد استمروا موضوعاً للملكية الخاصة ولعمليات البيع والشراء .

العبيد في الوثائق التدمرية

أهم الوثائق التدمرية التي تأتي على ذكر العبيد في تدمر هي التعرفة الجمركية المشهورة (CIS,II,3913)حيث يكون العبيد هنا مجال تجارة الترانزيت . وتنص لائحة التعرفة الجديدة في اللوحة الثانية على : « يدفع مستورد العبيد ('lymy')إلى تدمر أو الى خارج حدودها [فليدفع المشتري] عن كل شخص (lkl rgl)[٥] ٢٢ ديناراً . عن كل عبد يباع في المدينة أو خارجها ١٢ ديناراً . أما عن مخضرمي الحرب - العبيد (mn 'lm wtr[n])ممن يباعون في المدينة[٦] فعشرة دنانير . . . . وإذا أراد الشاري اخراج العبيد وبيعهم خارج المدينة

٣- يقول النقش Seg,X,242 ان بين العبيد الذين بيعوا لاستشارة اكسيوخ - اثيني - كان هناك رجل يدعى فانوس وهو سوري الاصل . كما وترافق احتلال الاسكندر المقدوني لصور بعمليات استعباد واسعة . لقد استعبد الاسكندر ثلاثين الفا من أهالي صور ؟ Diod.,17.46 وكذلك Arr Anab.2,24, ويقول آريان ان الاسكندر استثنى من أهل صور العائلات الارستقراطية وعلى رأسها الملك ازيميلك وكذلك قناصل قرطاجة ذوي الصفة الدينية الذين اختبأوا في معبد هرقل - ميلكارت . وتقول بعض المصادر أن هؤلاء الناس تم بيعهم كعبيد وعلى الارجح خارج حدود سورية . كما واتسم بسمة جماعية سوق الناس من سورية الى مصر بعد تحويلهم الى عبيد . وليس صدفة ان يكون بطليموس الثاني فيلاديلف مجبرا على اصدار امر يمنع بموجبه استعباد الاحرار من سكان المنطقة التي نحن بصددها .

٤- بعد انتهاء حرب روما ضد انطوخ الثالث أصبح ظهور العبيد السوريين ظاهرة عامة في منطقة غربي المتوسط . وعلى الارجح أن هؤلاء وكانوا اسرى حرب وقد بيعوا في أسواق جزيرة ديلوس . وكان العبيد السوريون من الشخصيات الرئيسية في الفن الكوميدي الروماني في المرحلة التي نحن بصددها . قد يكون هذا نتيجة لتأثير نمط الاسكندرية الكوميدي على الروماني . ويذكر سيتسبرون بدوره العبيد السوريين المباعين . ولكن الملفت للنظر حقاً أن هؤلاء كانوا يشكلون عماد انتفاضة العبيد التي هزت بعنف جزيرة صقلية في القرن الثاني ق . م . ونعرف أيضاً بعض كبار رجال الفن الروماني الذين كانوا عبيدا ومن أصل سوري : عالم النحوم. بومبيلي اندرونيك ، وعالم الفلك مانيلي انطوخ وصانع الفن الايمائي بوبليلي سير وغيرهم .

٥- قارن بالعربية Ragulun - «رجل» .

٦- ترميمنا لها 'Bmdyt - « في المدينة » قائمة على مقارنتها بالسطر الرابع .

فعلية أن يدفع ١٢ ديناراً عن كل عبد » . وهناك نص مماثل في لائحة التعرفة القديمة « فليدفع للشاري ذلك الذي يجلب الناس الى تدمر أو المناطق التابعة لها ثم يخرجهم منها للتجارة ـ عن كل شخص ٢٢ ديناراً . أما ذلك الذي يخرجهم فعليه أن يدفع للشاري ١٢ ديناراً . أما من يبيع عبداً ـ من قدماء المحاربين فعليه أن يدفع عشرة دنانير » .

يرمز للعبد في المقاطع التي نحن بصددها بمصطلح ʼlm . وفي اللغة السورية الكلاسيكية عبر عن مفهوم العبد بمصطلح ʻabdā- ونادراً ـ ʻalayma- والذي يعني « شاب » ، « ولد » . ولكن وثائق اوغاريت التي يعود تاريخها الى النصف الثاني من الألف الثاني ق . م تأتي على كلمة glm بمعنى شاب وخادم ، عبد .

يتضح مما تقدم أن الكلمات التي جذرها lm قد استخدمت في اللغة السورية للدلالة على مفهوم العبد ولكن بشكل نادر تقريباً مع أن مثل هذا الاستخدام للكلمات معروف في اللغات السامية . ولكن لماذا استخدم واضعوا لائحة التعرفة التدمرية هذه الصيغة بالذات ؟ ألم تؤثر المصطلحات اليونانية على التدمرية في هذا المجال ؟

يحتل مصطلح soma مكانة خاصة في هذه الوثيقة ويقابله في التدمرية kgl للدلالة على الشخصية المباعة . ولكن أهم مصطلح في لائحة التعرفة في الموضوع الذي نحن بصدده هو مصطلح wtrh (يقابله في اليونانية oyetrana) الذي يسمح لنا أن نحدد بشكل أدق ماهية العبيد الذين يجري الكلام عنهم . لقد أشار ديتنبرغ في معرض تعليقاته على اللائحة إلى مقطع من كتاب مارتسيال « De delatoridus » وحسب هذا المقطع يعتبر الـ man-cipia vete-raua بما في ذلك العبيد منهم ، طبعاً ، تلك الفئة من الناس التي تخضع للاستغلال المستمر لفترة لا تقل عن عام واحد . ولكن ماهو الفارق بينهم وبين mancipia novicia . وتفيدنا في هذا المجال ملاحظات ويجيست بخصوص العبيد ـ « المسؤولين » حيث تؤكد لنا أن مصطلح wtrn استخدم للدلالة على تلك الفئة من العبيد الذين لهم مكانة مافي قيادة استثمارة مالكهم أو اؤلئك الذين تعلموا « علماً حراً » . ولقد كان هؤلاء أقل قيمة من اؤلئك الذين لامهنة لهم كونهم أكثر نفعاً كعبيد .

وهكذا نرى أن اللائحتين القديمة والجديدة أخذتا بعين الاعتبار الحالات التالية : ١) جلب العبيد الى داخل حدود تدمر ، ٢) بيعهم في المدينة وضواحيها ، ٣) اخراج العبيد خارج حدود تدمر . كل هذه الحالات تعامل العبيد كموضوع بيع وشراء يجلب عائدات ـ أي ملكية خاصة . وما يلفت النظر أن الضريبة عن

كل عبد تحـدد بغض النظر عن قيمتـه الحقيقية فهـو على ايـة حال سلعـة ولكن قيمته تحـددها نوعيته ثم مسألة العرض والطلب في السـوق . وتثير الـدهشة حقـاً الضريبة التي تـترتب على استـيراد العبيد حيث تصـل الى الضعف بالمقـارنة مـع الضريبة المـترتبة عـلى عمليـات البيـع والشراء الحاصلة داخل حدود تدمر . وهذا مايخلق انطباعاً بأنه لامصلحة لواضعي الـلائحة في استيراد العبيد ولذلك سعوا لعرقلة هـذه العملية . ومن الصعـوبة بمكـان فهم وجود مثـل هذه الظاهرة في ذلك الوقت فالمعطيات في هذا المجال معدومة حتى الآن . وهي على مانعتقـد ليست مرتبطة بخصائص ما جديدة لأسلوب استغلال المنتج المباشر بل علاقتها عـلى الارجح تنحصر في محاولة حماية السوق المحلية لتجارة العبيد من المنـافسة الخـارجية . وإذا كـان الأمر كذلك فهذا يعني أنه كان هناك مصدر محلي لسـد النقص في سوق تجـارة العبيد . وبـالإمكان الإشارة الى حل آخر أيضاً وهذا أيضاً ممكن . فقد يكون السبب في عـرقلة استيراد العبيـد هو الخوف من أن يشكل عمل هؤلاء منافساً خطرا للعمل الحر المأجور . ولكن نعتقد أن الجواب النهائي على هذه المسألة لازال خارج حدود الممكن .

يحتل « أبناء البيت » مكانة خاصة في الوثائق التدمريـة (bny byt)التي يعود تـاريخها الى القرنين ١ ـ ٢م . ونلاحظ أن هذا التعبير يستخدم في الحالات التالية . في خمس حالات، كسبب لإقامة نصب يشار فيه الى الأمنيـات بالخـير والتوفيق لـه و « لأبناء بيتـه » . وفي ثلاث حالات يقام النصب لتحقيق الخير والبركة لمجموعة من الناس تـذكر أسماؤهم و « لكل أبنـاء البيت » .

كما وتذكر الوثائق التدمرية اؤلئك الذين تحرروا من العبوديـة . وتشير احـداها إلى أن أحـد السادة حـرر عبدتـه ليتزوجهـا . وهناك حـالات لايذكـر فيها سبب أو أسبـاب تحريـر العبيد . وتشير بعض الوثائق إلى مشـاركة هؤلاء في عمليـات تتعلق ببناء الأضرحـة أو أجزاء منها مما يدل على أهليتهم . وتجدر الاشارة إلى أن العبد المحرر لايعـرف أباه وهـذا أمر طبيعي ولذلك فهم ينتسبون الى مالكهم السابق . وتشير احدى الوثائق التدمرية الى أن أحدهم أقام نقشـاً وهو غـيرمن بسام ، عبـد محرر لمـالك بن وهـاب . وفي نقش آخر مهـدى الى « الالـه الأعـظم » يـذكـر شخص مـا يـدعى يـوليـوس ، عبـد محـرر سيدّه كـان غـاي يـوليـوس باسوس . وهذا يدل على أن القانون التدمـري حافظ عـلى علاقـة ما بـين العبد المحـرر وبين سيدّه السابق . ولكن مع الاسف لاتعطينا وثائق تدمر أية تفصيلات بهذا الخصوص .

العبيد في وثائق دورايوروبوس

تحتوي وثائق دورايوروبوس هي الأخرى على معطيات ثمينة عن وضع العبيد والمكانة التي شغلوها في نظام الانتاج الاجتماعي . وماله أهمية خاصة هنا هو أن هذه الوثائق لاتعطي صورة عن دورايوروبوس وحدها وإنما تتطرق إلى المدن المجاورة أيضاً وعلى وجه الخصوص الرها وحرّان .

وتسمح لنا هذه الوثائق أن نحدد نمطين للعبودية هنا . ـ دائمة وكذلك مؤقتة ، جزئية مرتبطة بتسديد الدين وفوائده . ويذكرنا هذا بالوضع الذي كان سائداً في ألآ لاخ Alalakh بغض النظر عن الفارق الزمني الكبير بينهما .

وتذكر وثائق دورايوروبوس العبيد الدائمين خمس مرّات . وذلك في معرض الكلام عن عملية بيع أو نقل ملكية أو طلاق وامكانية بروز أية مطالبة بحق الملكية . لقد كان العبيد جزءاً من هذه الملكية . حيث تذكر احدى هذه الوثائق ، وهي مؤرخة في عام ١٨٠م . أن ليسي بن ليسي بن غيليودور بن اريستونيك قد باع عبده إيهاب الذي له من العمر عشرون عاما كما باع نصف كرمه . وهذا لايعني أبداً ، أن هذا العبد كان يعمل في الكرم وهو مرتبط به غير مفكوك عنه . لأنه لايمكن للوثيقة أن تغفل مثل هذه الناحية الهامة .

وتروي لنا وثيقة أخرى مؤرخة عام ٨٧م عن عملية بيع وشراء أكثر تعقيداً . فيها يقوم نيكانور بن كسينوقراط بإعادة ملكية ما إلى حماته تيموفاسا بنت سلوقس حيث كان قد أخذ منها سابقاً استيفاء لدين كان قد قدمه لزوجها ديوكل بن دانيها ولها نفسها . ولكنه احتفظ لنفسه من هذه الملكية بثلاثة عبيد . ونقرأ في الوثيقة الشرط التالي : « كل شيء مما يملكون ماعدا العبيد الذين أسماؤهم : نابوبارك ، تينهاناي ونبوعاب الملقب بابيسا » .

وهناك وثيقة أخرى مؤرخة عام ١٨٠م تروي لنا عن إعطاء أحدهم عبيداً له الى ابنته . وتقول الوثيقة أن الرجل (اسمه لم يصلنا) ابن سلوقس بن تيومينستا قد اعطى هؤلاء العبيد الى ابنته أمافيارا ملكية خاصة لها ولورثتها الى الابد . ويقول أن هذا الامر لايجوز أن يتبدل أو يلغى أبداً .

وهكذا نرى أننا لانصادف أي ذكر لهؤلاء العبيد إلاّ عندما يخضعون لعملية نقل من ملكية شخص لملكية آخر ـ وهذا أحد أهم حقوق المالك في موضوع ملكيته الخاصة . وفي الوثائق لانعثر على أي شرح لظهور العبودية في الحالات التي ذكرنا . وتجدر الملاحظة هنا أن

العبيد الذين صادفناهم يحملون أسماء سامية بينما يحمل مالكوهم أسماء يونانية . ولكننا نسرع ونقول أنه لا يجوز أن نبتعد كثيراً في أي استنتاج يمكن أن نستخلصه من هذا الواقع . فهناك رأي مفاده أن هؤلاء العبيد الذين يعود منشؤوهم الى السكان الأصليين قد أصبحوا عبيداً بعد أن عجزوا عن تسديد ديونهم . ولكن من المرجح أن ظهور حالة العبودية في الحالات التي نحن بصددها يعود لأسباب أخرى : إمّا بالولادة أو لسبب ما آخر غير معروف ولا يستبعد أن يكونوا قد باعوا أنفسهم . وفي هذه الحالة فقط يمكن الإعتراف بصحة الافتراض القائل بأن هؤلاء العبيد من أصل محليّ - أي من السكان الاصليين . اما فيما يتعلق بالأسماء التي يحملونها فلا نعتقد أنها دليل كافٍ على أنهم من سكان دورايوروبوس ذلك أن متكلمي اللغة الآرامية كانوا منتشرين في كل أنحاء سورية ومنطقة مابين النهرين .

ومما تجدر الاشارة إليه أيضاً أن أية وثيقة من الوثائق التي بين يدينا لا تشير اطلاقاً الى الثمن الذي يساويه العبد . مع أنها تتكلم بدقة متناهية عن كل السلع الاخرى موضوع الصفقة .

ننتقل الآن الى تحليل الوثائق التي وصلتنا من الرها حيث تشير هذه الوثائق الى وجود عبيد يملكهم أشخاص وعبيد يملكهم الملك (bd dylh dmlkwt)ولكن النص الذي وصلنا من « أرشيف الرها » والذي يعود تاريخه لعام ٢٤٣م لا يفيدنا بأية معطيات عن وضعهم ولكن هذه الوثيقة نفسها تعطي وصفاً للوضع العبيد الذين يملكهم أشخاص ، ولأصلهم . والوثيقة التي نحن بصددها عبارة عن عقد بيع احدى الاماء (mt)وتدعى اماتسين وهي أسيرة حرب بيعت كعبدة . والبائع هو مارتسيا افيريلي تيرون بن باربيلشامين من حرآن . ثمن هذه الأمة - ٧٠٠ دينار وعمرها ٢٩ عاما . وتسجل الوثيقة للشاري الحقوق التالية : ملكية العبدة ، حرية بيعها واستخدامها حسب حاجته (lmqn wlm bnh wlmbd kl dtsb) .

وهناك عدد من الوثائق التي تعطي وصفاً لتلك الظاهرة التي نسميها ، اصطلاحاً العبودية المؤقتة . وسوف نتناول الآن احداها وهي مؤرخة عام ١٢١م . وقد وصلتنا بحالة مقبولة كما وكتب عنها عدد لا بأس به من الابحاث تقول الوثيقة أن شخصاً يدعى فرعات - ينتمي الى فئة الارستقراطية المحلية أقرض شخصاً آخر يدعى برلع بن تاتاي من قرية كذا (لم يصلنا اسم القرية) ٤٠٠ درهم فضي اصدار صور وقد رهن هذا الاخير لدى الاول كل مايملك . كما وتعهد برلع أن يعمل كعبد لدى فرعات كي يعفيه هذا الأخير من فائدة المبلغ . وفي حال أخل برلع بشروط الاتفاق عليه أن يدفع درهماً واحدا غرامة عن كل

يوم تأخير . ولا يحق للمدين أن يمرض لأكثر من سبعة أيام وفي حال عدم تسديد الدين يستمر العمل حتى يتم التسديد .

أصبح واضحاً أننا نستطيع الآن قبول وجهة النظر القائلة بوجود مثل هذه العقود في منطقة الشرق الأوسط منذ مرحلة ما قبل العصر الهلنستي . فبالإضافة الى ما جاء به روستوفتسف وس . بريدفورد - ويلس عن العصر البابلي الجديد نشير أيضاً الى الوثائق التي وصلتنا من ألالاخ والتي تحتوي على معطيات مماثلة . والفرق الوحيد الذي نسجله بين وثائق ألالاخ ووثائق دورايوروبوس هو أنه في الأولى لم يكن المدين نفسه يقوم بالعمل العبودي بل أعضاء عائلته . وعندما تصل الأمور الى درجة يترتب فيها على المدين نفسه أن يعمل تكون العملية قد وصلت إلى نهايتها الطبيعية . فالمقدمات الضرورية لنشوء مثل هذه العلاقات (الى جانب افلاس المدين نفسه) هي الإقتصاد الطبيعي وعدم نمو أو النمو غير الكافي للعلاقات النقدية . وهذا فقط يجعل من الممكن بل ومن المفيد تغطية الفائدة «عيناً» أي بإعطاء جزء من المحصول أو بقوة العمل . والمقدمة الأخرى المهمة أيضاً لنشوء العلاقات المذكورة هو الوضع التالي : عدم امكانية استعباد المواطنين بشكل مباشر بسبب عدم قدرتهم على دفع ديونهم .

وتجدر الاشارة الى أن علاقات مثل هذا العبد مع سيّده تضبطها شروط العقد التي تنص ، ولو نظرياً على امكانية الغائها في حال تسديد الدين . ولذلك فالمدين هنا لا يفقد شخصيته القانونية ولا حقوقه المدنية . وليس صدفة أنه لا يصبح عبداً بل doylikas kheiasفقط . وعلى الأرجح أنه هنا تكمن صحة رأي من رأى في هذه العقود شكلاً من أشكال استئجار عمل الأحرار .

ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن الذي أمامنا هو عمل مأجور فقط . فمع وجود كل الصفات التي أتينا على ذكرها أعلاه كان المدين يفقد الحرية الواقعية في أن يتصرف بنفسه كما يشاء ، أي فقد حريته الشخصية . بالاضافة الى ذلك يصعب علينا التصوّر أنه كان باستطاعة من استدان هذا الرقم (٤٠٠ درهم) تسديده دون أن تكون لديه أية مصادر دخل اضافية سوى قوة عمله .

ومع أننا لا نستطيع أن نقول أي شيء محدد عن مدى انتشار مثل هذه العقود خارج دورايوروبوس ولكن الملاحظ أن الوثائق التي وصلتنا تؤكد على وجود هذا الشكل من أشكال الاستغلال وتذكره كما وتذكر العبودية بالمعنى المحدد لهذا المصطلح .

أما الوثائق التي وصلتنا من المناطق السورية الاخرى والتي تحوي معطيات وأخباراً عن العبودية فهي مجتزأة جداً . وتذكر أحدها عبيداً تابعين للمعبد المحلي ـ زفس الاولبي . وتقول وثيقة اخرى مؤرخة في نهاية القرن الاول للميلاد أن النصب التذكاري Auiei pakeid ai أقامته تيخه عبدة أبولو بن ليسب . وقد وجدت الى جانب هذا النصب شاهدة قبر من صيدا هذا نصها : « غاي يوليوس امفيون ، السيد المعطوف ، وداعا » ومن المرجح أن يكون عبيد غاي هم الذين أقاموا له هذا النصب على نفقتهم الخاصة . نقول هذا ونحن نعرف أن الوثيقة لاتشير من قريب أو بعيد الى ذلك .

وتشكل الوثيقة التي وجدت في انطاكية أهمية استثنائية لتقييم الوضع القانوني و حق الملكية للذي يتمتع به العبيد في سورية في الفترة الزمنية التي نحن بصددها . والوثيقة عبارة عن نقش على قبر مكتوب باللغة اللاتينية على حجر من مرمر أبيض . يقول النص : « غيلنكون ـ الى العبد (consev vo) الذي قدم خدمة (pene merenti) ، اهتم الوريث أيضاً بتحضيره » . تدل لغة النص على أن العبدين كانا يحملان كنية مواطن روماني ، وعلى الارجح من المحاربين القدماء . ولكن مايهمنا هنا أمر آخر تماماً . فالعبد كما هو واضح لايملك وحسب وانما يتصرف بملكيته ايضاً بل ويستطيع أن يورث مايملك لورثته كما ويستطيع أن يرث أيضاً . ويبقى غير واضح الدور الذي يلعبه هنا سيده . إذ أنه لايؤتى على ذكر مالك العبد (أو العبيد ؟) لعله لم يكن بتدخل في مثل هذه الامور أو في أية علاقات ، من هذا النوع تقوم بين عبيده . وإلاّ كان يجب أن يشار الى موافقة السيد على نقل الورثة أو استلامها .

ل يصبح من الطبيعي أن يشارك العبيد في عمليات تجارية كبيرة وعلى نطاق واسع . وتلفت الانتباه في هذا الاطار الحادثة التي عالجها ستسيفولا ، فبغض النظر عن أن الرواية مختلقة اختلاقاً إلاّ أن المحامي اليوناني اعتبرها نموذجاً . فالرواية على الشكل التالي : حصل شخص ما يدعى كاليماخ على قرض من ستيخ ، عبد سيي للقيام برحلة تجارية بحرية من بيروت الى برونـدزي ـ مدة تسديد القرض ٢٠٠ يوم . وقد اتفق على أن البضائع التي سيأتي بها كاليمايخ من بيروت الى بروندزي هي الرهن مقابل المبلغ . حتى وفي حال عدم استطاعة كاليماخ انهاء عملياته التجارية في الوقت المحدد عليه أن يدفع كامل القرض وفي روما . ولكن على أعتاب انتهاء المدة شحن كاليماخ بضاعته على ظهر السفينة وتوجه الى سورية بصحبة « عبد » ستيخ . وهكذا أدركه الوقت وهو لا يزال في عرض البحر . مانعتبره مهماً في هذه العملية هو التالي : عبد سوري يملك امكانيات تسمح له أن

يقدم قرضاً طويل الأجل لدعم عملية تجارية بحرية ويبدو أنه يمارس عمليات مماثلة كمحترف ولـذلك يحق لنـا أن نتوقـع أن هذا العبـد يملك علاقـات تجاريـة واسعة في كـل منطقـة البحر الابيض المتوسط بما في ذلك روما مما يسمح له أن يشترط تسـديد القـرض هناك إمّـا عن طريق التحويل أو بتسديد حساب ما لعملية سابقة . على أية حال فإن حجم هذه العملية يدل بحـد ذاته على غنى هذا العبد ووضعه الاجتماعي .

وهناك نقش يوناني آخر وصلنا من بصرى ولكننا مع الأسف لانستطيـع تأريخـه . وهو عبارة عن شاهدة على قبرعبدة . يحتوي نصه على عبارة طريفة : تسامح الآلهة العبدة المسماة على الكلمات السيئة التي تفوهت بها . ونحن لانستطيع أن نعـرف بالضبط مـا المقصود بهـذه العبارة . ولكن الذي نستطيع قوله هو أن العبدة المذكورة لعبت دوراً مافي حياة المدينة .

وهكذا نرى أن العبودية كانت منتشرة في سورية في الفترة التي نحن بصدد دراستها كـما وكانت عملية استعباد المنتجين الصغار الأحرار مـوجودة ومعمـولاً بها هي الاخـرى . ولكن الحد الفاصل بين هؤلاء وبين العبيد ظل قائماً من الناحية الشكلية على الاقل ، أمّـا في الواقـع فلم يكن هناك أي فرق يذكر بين هاتين الفئتين . وفي نفس الـوقت كان بـاستطاعـة العبد أن يملك ثروات كبيرة ويتصرف بهـا كما يشـاء ويشارك في عمليـات تجاريـة واسعة النـطاق داخل البلاد وخارجها . وفي مثل هذا الحال كانت تختفي عملياً أيـة فروقـات بين مثـل هؤلاء العبيد وبين المتعهدين الأحـرار أما الشكـل الحقوقي لهؤلاء العبيـد فقد أصبـح هو الآخـر لايتناسب ووضعهم الحقيقي في المجتمـع ـ لاكمضطهـدين ومستغلين (بفتـح العـين) بـل كـمالكي وسائل انتاج ومستغلين (بكسر الغين) ومضطهدين .

لقد بقي العبيد المحررون مرتبطين بأسيادهم السابقـين حين بقي العبـد المحرر يحمـل التزامات محددة تجاه سيده السابق . وتجـدر الاشارة هنـا الى التشابـه القائم بـين وضع هؤلاء العبيد المحررين وبين الأحرار المستعبدين لهذا السبب أوذاك فلاهم أحرار تمـاماً ولاهم عبيـد بالمعنى التاريخي للكلمة .

لخص القانون السوري في القرن الخامس الميلادي كل التاريخ الطويل لتطور التصّـور الذي ساد بخصوص الوضع القانوني للعبيد . وهوولاشك يعكس الوضع الذي كان سائداً آن ظهوره وحتى لمرحلة أكـثر قدمـاً . فالعبـد فيه ملك خـاص لسيده . والعبـد هو مـوضوع عمليـات البيع والشراء وتفصـل الاشارة إلى مـزاياه وصفـاته عنـد بيعه أو شرائـه . وفي حال حدوث غش من قبل البائع يقضي القانون باعادة العبد المباع وفسخ الصفقة .

وأقر القانون المذكور الصفقات التي لاتذكر فيها صفات العبد ومزاياه . وأشار الى سرقة عبد الغير أو استملاكه بطريقة عير قانونية تؤديان الى بيع السارق نفسه ووقوعه في العبودية . وما يملكه العبد بين يديه يعتبر ملكاً لسيّده . وإذا كان العبد يملك ، قبل حصوله على حريته عبداً ولكي يتبع هذا العبد الاخير ملكية سيّده العبد بعد تحرير السيد نفسه كان لابد من وثيقة خاصة يصدرها سيد العبد المالك للعبد الآخر . وإذا أراد السيّد أن يكون عبده وريثه فذلك ممكن ومسموح به . وفي هذا الحال يضع القانون شرطين : أن يتم تحرير العبد وأن لايكون لدى المورّث اولاد . ولا يسمح القانون أن ينوب العبد عن سيّده في المحاكمات القانونية . لقد حدد القانون عدد العبيد الذين يستطيع المالك تحريرهم في وصيته . فإذا كان السيّد يملك عبداً واحداً أو عبدين امكنه تحريرهما معاً أو أحدهما أما إذا كان يملك ثلاثة عبيد فلا يحق له أن يحرر اكثر من اثنين ، وإذا كان يملك ٥ ـ ١٠ عبيد فيحق له تحرير النصف ، من ٩ ـ ٣٠ ـ الثلث ، ومن ٣٠ ـ ١٠٠ ـ الربع . وتجدر الاشارة هنا الى بعض الشروط : إذا حرر صاحب الوصية عدداً من العبيد يفوق الحد المسموح به قانونياً فيعتبر تحرير العدد الزائد لاغيا أمّا إذا حرر كل عبيده فيعتبر قراره هذا لاغياً أصلاً ولا يحرر أيّ عبد من هؤلاء . ولا شك أن lex fufia ca ـ ninia يشكل أساس مثل هذه التعليمات .

كما عرف القانون السوري شكلا آخر من أشكال تحرير العبيد ـ بحضور شهود ، وكذلك بوجود الاكليروس الكنسي ـ المطران والكهنة ، وفي القرية ـ بحضور شيخ القرية وكاهنها . وقد اعتبرت هذه الطريقة هي الاكثر عملية من سواها . وتقول الوثيقة أن هذه الاسس وضعت بناء على تعليمات الامبراطور قسطنطين . ولكن العلاقة بين العبد وسيّده استمرت حتى بعد التحرير الشكلي للعبد . فقد كان باستطاعة السيّد اتهام عبده السابق بعدم احترامه له وهذا وحده كان يكفي لكي يصبح المحرر عبداً من جديد .

وليس صعباً أبداً أن نرى أن أكثر بنود القانون السوري المذكور المتعلقة بتحرير العبيد مأخوذة ـ عن القانون الروماني مع قليل من التكيّف مع الواقع السوري .

الأحرار في سورية في القرن ١-٣م .

قبل أن نبدأ بدراسة البنية الإجتماعية للسكان الأحرار في سورية في الحقبة المذكورة نود أن ننوه إلى أن الوثائق التي وصلتنا من تدمر ودورايوروبوس وجرش هي الأكثر إكتمالاً وشمولاً لدرجة أنها تسمح لنا بتتبع مصير بعض العائلات . فالصورة التي تقدمها لنا هذه الوثائق هي الأكثر اكتمالاً ولذلك سوف نتوقف عندها بشكل رئيسي .

البنية الإجتماعية لمجتمع تدمر :

من المعروف أن أول ما تتصف به النقوش التدمرية هو أنها تعطي تسلسلاً طويلاً وبالأسماء للشخصية الرئيسية للنقش تصل في أحيان كثيرة إلى الجد الخامس . وهذه الظاهرة ترافقنا طوال المرحلة التي نحن بصددها . وهكذا ففي آذار عام ٥١م . يكرّم مقيم بن عقيل بن باتسيلا بن تايماي الملقب حكيش ، وعلى الأرجح أنه في عام ١٢٠م . أقيم نصب تذكاري لمالك بن وهب اللات بن معاني والتسلسل العائلي لبطل النقش يأتي على الشكل التالي مالي (هو نفسه أغريبا) بن يرخاي بن ليشماش بن رعية ، وفي حزيران من ١٤٠م يقام نصب لآحوفال بن خيران بن سابا بن خيران بن بوني بن شعوت ، وفي عام ١٥٧م يكرّم مارك أولبي يرخاي بن خيران بن ابجر، وفي عام ٢٤٢م . تصلنا أخبار يوليوس أفيريلي زينوبيا(هو نفسه زبديلا) بن مالك بن مالك بن سانا سوما، وفي عام ٢٥٤م . نعرف عن يوليوس أفيريلي عوجة(هو نفسه سلوقس) بن عزيز بن عزيز بن شملة . ومن الطريف أن هذا التسلسل يرد في النص اليوناني بالمقارنة مع الرواية التدمرية بالطريقة المختصرة . ولا شك أن الحفاظ على هذا التسلسل دليل واضح على أن العلاقات العائلية بقيت موجودة حتى هلاك تدمر وهذا يمكن أن يكون مرتبطا، على الأرجح ، بتعريب المدينة إذ أن الوثائق التي وصلتنا من منطقة حوران تحوي تسلسلا عائليا يصل أحيانا حتى الجد العاشر . كما وتحافظ العلاقات العائلية هنا على تقاليد ما دون انقطاع .

ولكن ما هو مصير هذه العشائر والعائلات التي تشكل قوامها . تقول الوثائق التي بين أيدينا أنّه كان يقف على رأس كل عائلة من العائلات المستقلة اقتصادياً رأس البيت رجل . ومع ذلك فإن الوضع الداخلي للعائلة يبدو معقداً في حالات عدة . فتشير إحدى

الوثائق ، وهي مؤرخة في نيسان عام ١٣٩م . إلى تكريم بارق بن عمريش بن ياريخبول بالإضافة إلى ذلك يكرمّ ولده مقيم . ويدل هذا التكريم المشترك على أن أعمال الخير التي كانت سبب هذا التكريم قام بها الإثنان معاً . كما وتدل الإشارة إلى الابن بشكل منفرد على أنه المرشح لخلافة أبيه في قيادة العائلة ولذلك بدأ إدخاله مجال الحياة الإجتماعية . وقد يكون الأب قد منح الاستقلالية لولده وكان هذا بدوره يقود عائلة مستقلة . وهناك وثيقة أخرى تروي عن تكريم عيلام بن خيران وأباه . وهذا التسلسل يدل على أن الإبن هنا هو فاعل الخير الأساسي . ويستنتج من هذا أحد أمرين : إما أن يكون الإبن يقود عائلة مستقلة أو أنه أصبح عملياً رأس العائلة في حياة أبيه . ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن السلسلة العائلية التي وجدت في قبر زبيدة تبدأ من عيلام وتنتهي إلى الجد الرابع الأمر الذي يدل على أن عيلام هذا قد لعب دورا هاما للغاية في حياة هذه العائلة .

كما وتتوفر لدينا وثائق تروي عن إهداءات «لصحة» الهادي نفسه وإخوته أو أولاده وإخوته . ولا يستثنى في مثل هذه الحال ألا يكون الدافع هو الحب الأخوي فقط (وهذا ممكن أيضاً) وإنما واقع آخر وهو أنه بعد وفاة رأس العائلة قام مكانه أحد الإخوة وأصبح رأس العائلة التي بقيت محافظة على وحدتها .

ووصلتنا وثائق أخرى عن إشتراك جماعي لعدد من الأخوة في فعل ما . فقد بنى كحيل وخيران مدفناً لأبيهما عتينتان بن كحيل . كما وبنى بناي وأراخيش وأريمو أبناء تايماس بن بناي ضريحاً لهما ولأولادهما ، وفي السادس من شباط عام ١١٥ م أقام مالك وياريخبول وحجاج أبناء بوليا بن عبيداي نصباً على شرف «مالك العالم» ، في حزيران عام ١٤٦م . قام خمسة أخوة - زبيدا بول وأتينور ومالكو وعمرو وويديبول أبناء برشمسا بن زبيدابول ببناء عمود وسقف في نازال . وحجاي بن عوجة بالمشاركة مع أخيه أقام نصباً لمالكو بن سعداي . وفي آب عام ٢٤٠ تنازل يوليوس أفريلي خيران ومالوخ ولدا غيرمان عن جزء من المدفن إلى يوليوس أفريلي فيوفيل بن تايمارتس .

وهكذا يتضح لنا أنه بعد موت رأس العائلة كانت إما تنقسم إلى عدة عائلات مستقلة إقتصادياً عن بعضها البعض أو كانت تحافظ على وحدتها وتنمو تحت سلطة أخ واحد أو عدة أخوة .

وبما أنه كان يحق للنساء إقامة نصب تذكارية إذن كنّ ، على الأرجح ، يتمتعن بملكية خاصة بهن .

أصبح بمقدورنا الآن أن نؤكد أن الوساطة التجارية ، وعلى الأرجح الأرض كانتا تشكلان أساس ثروة أرستقراطية تدمر . حيث نصادف من ممثليها من يملك مبالغ كبيرة من النقد . وهذا ما تدل عليه تلك النفقات التي كانوا ينفقونها عندما استلموا مناصب هامة في إدارة المدينة . يقول أحد النقوش ، وهو مؤرخ عام ١٧٥م . أن «المجلس والشعب» أقرا إقامة نصب تذكاري لأثنين من أنجال ياريخبول عبيدة إبن حدودان وياريخبول بن عوجة ذلك أنهما أقاما في الهيكل الرئيسي لمعبد بيلا ست بوابات من البرونز المطلي بالذهب . وكان يوليوس أفريلي عوجة ـ سلوقس الذي مر معنا ذكره سابقا قد وضع تحت تصرف مجلس روما عشرة آلاف درهم .

ومن الجدير بالذكر هنا أن مثل هذه الوقائع لم تكن موجودة في القرن الثاني فقط بل وبقيت حتى في القرن الثالث الميلادي . ذلك أنه ، على الأرجح ، أن العائلات التدمرية الأرستقراطية قد حافظت على وجودها وثروتها حتى هذه الفترة .

كان يجب أن يلعب المواطنون الرومان دوراً هاماً في حياة تدمر وخاصة المحاربون القدماء بمن فيهم السكان الأصليون والرومان الذين حصلوا على حق المواطنية في تدمر . فمن المعروف أن الوحدات العسكرية التي شكلت في تدمر كانت تؤدي خدمتها العسكرية في نوميديا وبادونايف وعلى مسافة مباشرة من تدمر وفي دورايوروبوس . وتذكر النقوش التدمرية مرّات أربع سيرجوس ـ وهم مواطنون رومان في الحالات الأربع . كما ويذكر مرّة واحدة غاي يوليوس خيران بن ألاخبيلا عندما حصل على حق المواطنية .

بدأ ظهور المواطنين الرومان في تدمر منذ القرن الأول الميلادي وكان منهم التجار ورجال العلم وغيرهم . وقد لعبوا دوراً هاماً في تنظيم الوساطة التجارية .

وشكل صغار الملاّك وصغار المنتجين وأصحاب المشاريع الصغيرة الجماهير الرئيسية من السكان الأحرار في تدمر كما تتحدث الوثائق أيضاً عن صغار الحرفيين والتجار . ولكن ما لا نستطيع معرفته هو نسبة القوى بين مختلف فئات السكان الأحرار في تدمر نتيجة لشح المعلومات أو انعدامها . ولكن ما نعرفه هو أن ممثلي الفئات الدنيا بدؤوا يقعون في تبعية ممثلي الفئات العليا في فترة متقدمة نسبيا ، وعلى الأرجح منذ القرن الأول للميلاد وكان يرمز لهؤلاء التابعين بمصطلح Gr الذي نصادفه في وثائق تدمر أربع مرات . ويعتقد ج . ب شابو أن هذا المصطلح يعني ، «كريم» (Hospes) ويعني أيضاً «باترون»* على أية حال سوف ننتقل الآن

---

* كلمة لاتينية قديمة وتعني الحامي ، المدافع عن الاشخاص التابعين له من الاحرار المستضعفين والعبيد المحررين - المترجم .

لدراسة النصوص التي تحوي هذا المصطلح . لقد جاء في إحدى هذه الوثائق وهي مؤرخة في عام ٢٣٨م . ما يلي : «ممجد اسمه إلى الأبد . لقد بنى غادا ومنّ ، ابن خالاي لكي تأتيه الصحة ولأولاده ولGr ـه ديفين . عام ٥٥٠» . وهناك صيغة أخرى شبيهة تستنزل اللعنة على من يمس وحدة المدفن (تدمر عام ٥٧م .) : «فلتنقطع ذريته وGrـه إلى الأبد» . يدل هذان النصان على أن العلاقة مع Grهي علاقة شخصية وأن هذا الGrلعب دورا غاية في الأهمية في حياة التدمري ولذلك ليس غريبا أن نرى أن واضع النص الأخير يعتبر الحرمان من الGrمصيبة كبرى كالحرمان من الأولاد . وفي وثيقة أخرى (تدمر عام ٥٥م .)يستعمل هذا المصطلح للتعبير عن العلاقة بين المهدي وبين الآلهة : «في شهر أيار من عام ٣٦٦ أقام هذا النصب عطينتان بن زبيدعات بن توشابيبا للإله الرحيم شدرافاكي يكون له Grـ هو وكل أهل بيته» . ونحن نعتقد أن مصطلح Grيجب أن يخدم هنا معنى «باترون» . كما وتستخدم أيضاً كلمةGywmللتعبير عن معنى باترون التي يقابلها في النصوص اليونانيةProstates .
تقول احدى الوثائق (تدمر حوالي عام ٢٦٧م .) أن الفارس يوليوس أفريلي سيبتيم إيادي أقام نصباً على شرف «صديقه»وباترونه سيبتيم فورودا . إذاً لقد كان سيبتيم فورودا باتروناً وصديقاً للفارس يوليوس أفريلي سيبتيم ايادي كما وكان صديقاً وباتروناً ليوليوس أفريلي سلاما كاسيانوس (تدمر ، نيسان عام ٢٦٧م .) في حالة أخرى يقول النص اليوناني : أن أفريلي فيلين أقام نصباً على شرف باترونه سيبتيم خيران بن أذينة (تدمر ، تشرين الأول عام ٢٦١) . وهكذا يتبين من المصطلحات التي بين أيدينا نموذجان من العلاقات .
أولا ـ «الصداقة»والمعبر عنها بمختلف أعمال الخير التي غالباً ما تأخذ شكلاً مادياً ملموساً .
ثانياً ـ باترون بالمعنى المحدد لهذه الكلمة ، أي حام ، مدافع عن .
ونحن نعتقد أن العلاقة القائمة بين المصطلحين Gywm Gr/Gyr تتمتع بأهمية خاصة . فالأخير هو اقتباس من المصطلح اليوناني Prstaes وقد دخل اللغة التدمرية نتيجة لانتشار الثقافة الهلنستية ـ الرومانية في الوسط المحلي . وفي نفس الوقت نؤكد على أن مصطلح «Gr» كان يعبّر عند التدمريين عن نمط ما من العلاقة وذلك قبل اقتباس المصطلح اليوناني وظهور مثيله التدمري . ولا يستبعد أن يكون إدخال المصطلح اليوناني مرتبطاً باختلاف العلاقة القائمة بين الGr والباترون وبين هذا الأخير والـGywmوقد يكون الأمر مرتبطاً باعتماد الدولة للمصطلحات القانونية اليونانية .

ونجد في القرن الثالث للميلاد أن الموالاة قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أن بعض ممثلي الفئة الأرستقراطية كانوا من الموالين . فيوليوس أفريلي نيبوزابد بن سعاد وهو نفسه الذي

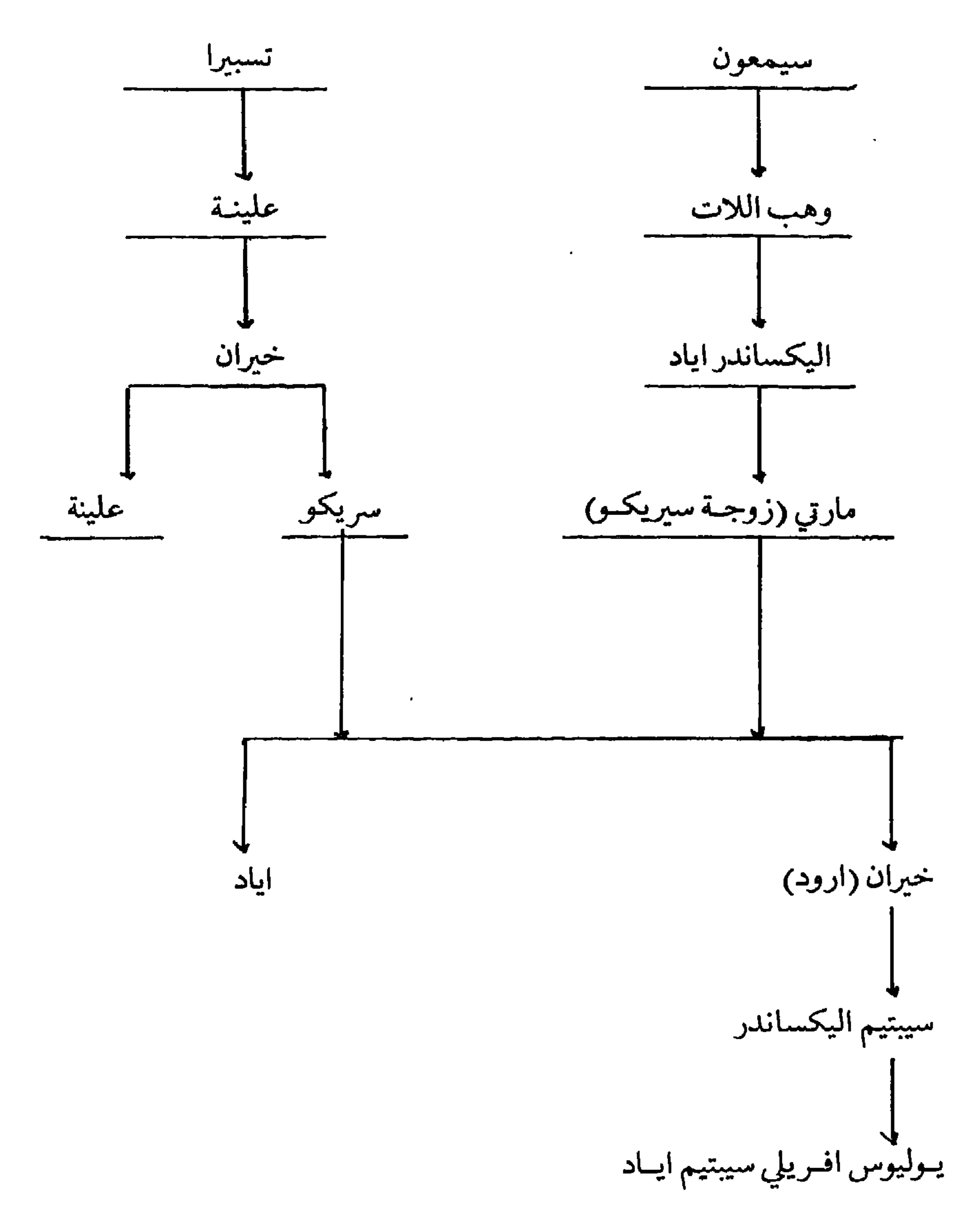
أقام في عام ٢٦٢ نصباً تذكارياً على شرف سيبتيم فورودا ، كان حاكم مستعمرة . وكان يوليوس أفريلي سيبتيم اياد ينتمي هو الآخر إلى عائلة تدمرية أرستقراطية . أما يوليوس أفريلي سيبتيم مالح فكان ينتمي إلى فئة الفرسان أي سيناتور . وأخيراً يوليوس أفريلي سالم كاسيانوس وكان ينتمي إلى فئة الفرسان كان موال لسيبتيم فورودا . وعلى ما يبدو أن هذه الظاهرة تعكس رغبة بعض دوائر الأرستقراطية المحلية في التخلص من رقابة السلطة والأجهزة الحكومية الامبراطورية . كما وتعكس عملية التمايز الاجتماعي في الفئات التي كانت يوماً ما تنتسب إلى الارستقراطية المحلية ذات النفوذ وتعكس أيضاً ازدياد نفوذ وسلطة الدوائر البروقراطية المحلية التي ارتبط ازدياد نفوذها ارتباطاً وثيقاً بصعود آل أذينة ـ زنوبيا إلى السلطة .

يعتبر مصير عشيرة السيبتيميين خلفاء آل تسبيرا النموذج الأكثر كمالاً حين يوضح لنا كيف جرت هذه العمليات في واقع الحال .

لقد زودتنا المصادر التدمرية بمعطيات تسمح لنا أن نتتبع تاريخ هذه العشيرة على مدى قرن كامل حيث اتخذت العشيرة لنفسها اسماً آخر هو سيبتيم وذلك في النصف الأول من القرن الثالث . ويعرض ج . ب . شابو في معرض تعليقاته على الوثائق المذكورة ـ التسلسل التالي لعشيرة السبتيميين التدمرية :
سيمعون وهب اللات أليكساندر اياد مارتي (زوجة سريكو) خيران (ارود) سيبتيم اليكساندر يوليوس أفريلي سيبتيم اياد
تسبيرا علينة خيران سريكو علينة اياد .
لاشك أننا لانعرف كل أسماء أجداد وآباء هذه العشيرة والأسماء التي أتينا على ذكرها هنا وجدت مكتوبة على نصب تذكارية تخليداً لأعمالهم وخدماتهم . وتذكر الوثائق عادة اسم الشخص الذي يجري تكريمه واسم أبيه وأحياناً اسم جده ونادراً ما تذكر اسم جد الجد . ومن المعروف أن هذا التسلسل لا يأتي على ذكر أقارب آخرين . وفي هذا المجال تتشابه الوثائق التدمرية مع الوثائق النبطية من نفس الفترة الزمنية والوثائق البونية في النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد .

يمكننا تصنيف هذه الوثائق اصطلاحاً على النحو التالي . ثلاثة نقوش هي عبارة عن تواقيع موجودة على لوحات الشرف التي أقامتها قبيلة الزبيدبوليين ، وتوقيع ـ على لوحة الشرف التي أقامها مجلس تدمر وآخر على النصب التذكاري الذي أقامه أحد أعضاء العشيرة ـ سريكو إثر وفاة زوجته مرتي .

السيبتيميين التدمرية :



ننتقل الآن لمعالجة النقوش التي أقامتها قبيلة الزبيدبوليين . لدينا في هذا الإطار نصان ـ عبارة عن رفع شأن الأبناء لقاء الخدمات التي أداها والدهم . يقول النص اليوناني : «ايادي بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا ـ أولئك الذين من عشيرة الزبيدبوليين ، تكريماً لهم . في شهر ديستر عام ٤٩٠» . ويقول النص التدمري : «هذا النصب لايادي بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول كلهم على شرف سريكو ، أبيه في شهر آذار عام ٤٩٠» .

ويقول النص اليوناني لوثيقة أخرى : «هيرودوس ، الملقب أيضاً بخيران ، بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا ـ أولئك الذين من عشيرة الزبيدبوليين ، تكريماً لهم ، في شهر ديستر عام ٤٩٠» ويقول النص التدمري : «هذا النصب لخيران بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول كلهم على شرف سريكو ، أبيه . في شهر آذار عام ٤٩٠» .

أول ما يلفت النظر هنا أن الصيغة «على شرف سريكو ، أبيه» موجودة في النص التدمري فقط أما النص اليوناني فقد احتوى على الصيغة العامة «تكريماً» وهذه الصيغة تترك انطباعاً لدى القارىء الذي لم يقرأ النص التدمري أن هذه النصب إنما أقيمت تكريماً لكلا ولدي سريكو . ولكن النص التدمري يوضح دون لبث أن الولدين إنما يكرمان لقاء الخدمات التي قدمها والدهما . علماً بأن الوثائق تثبت أن الوالد ، سريكو ، كان لايزال على قيد الحياة . حيث يقول النص اليوناني لاحدى الوثائق : «تكريماً لذكرى مرتى ابنة اليكساندر ، الملقب أيضاً بادي ، بن وهب اللات بن سمعون أقامه سريكو بن خيران ، زوجها . في شهر ديستر عام ٤٩٠» . ويقول النص التدمري : «هذا النصب لمرتى ابنة ايادي بن وهب اللات بن سمعون أقامه لها سريكو ، زوجها بعد وفاتها تكريماً لها . في شهر آذار عام ٤٩٠» أي أن سريكو كان لايزال حياً في نفس العام ونفس الشهر الذي أقيمت فيه نصب التكريم لولديه . إذاً هل أقيمت النصب تمشياً مع تقليد ما لدى قبيلة الزبيدبوليين ؟ ولكننا نعرف إحدى النصب التذكارية في تلك الفترة الزمنية وقد أقامتها أيضاً قبيلة الزبيدبوليين تكريماً لعلياني أخي سريكو . وقد كتب النقش المرافق لهذا النصب باللغة الآرامية فقط . يقول النص : «هذا النصب لعلياني بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول ذلك أنه كان شافعاً لهم . على شرفه . في شهر آذار عام ٤٩٠» وتتبع تحت هذا النقش مباشرة قائمة تعدد الخدمات التي أداها علياني . وأخيراً ، قد يتبادر إلى الذهن أن مثل هذا التكريم غير العادي الذي حظي به سريكو جاء نتيجة لطبيعة الخدمات التي أداها . وبين يدينا وثيقة مؤرخة في

نفس الفترة المذكورة وهي عبارة عن نقش مرافق لنصب تذكاري أقيم لسريكو بناء على قرار مجلس تدمر .

ويسمح لنا القرب الزمني بين هذه الوثائق التي تخلد ذكرى سريكو أن نقول بأن تكريم هذا الأخير جاء نتيجة لتأديته نفس الخدمات وإذا كانت بقية الوثائق لا تأتي على ذكر هذه الخدمات فان إحداها على الأقل وهي الوثيقة Ci,ii,3952 تذكرها بالتفصيل : بنى على المدخل سبعة أعمدة مزينة بالزخارف كما أقام مجمرة معدنية . أي أن خدمات سريكو مشابهة من حيث طابعها لخدمات علياني .

وهكذا يتضح لنا أن إقامة نصب التكريم للأبناء على شرف والدهم وفي حياته إنما هو تقليد نابع من طبيعة الحياة الداخلية لهذه العشيرة الأمر الذي سننتقل الآن لمعالجته طالما أن الوثائق المتوفرة لدينا تسمح بذلك .

نشير قبل كل شيء إلى أن نظام القرابة لدى سيبتيميي تدمر يسجل حسب الخط الأبوي . ولا ذكر للأمهات في مثل هذا النظام . ونحن لا نعرف اسم زوجة سريكو مرقى إلا من خلال النصب التذكاري الذي أقيم خصيصاً لتخليد ذكراها . وفي نفس الوقت يوضح لنا هذا النقش أن المرأة لم تقطع صلتها وعلاقاتها مع عشيرتها التي ولدت فيها بعد الزواج من رجل ينتمي إلى عشيرة أخرى .

ونعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الأخوين سريكو وعلياني قد كرّما كل على حدى ونتيجة للخدمات التي أداها كل بمفرده وعلى نفقته الخاصة . وهذا ممكن فقط في حال انقسام العائلة الكبيرة إلى عائلات صغيرة مستقلة . وهذه الصفة الأخيرة هي التي تطبع حياة العشيرة التي نحن بصددها في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .

ولكن هل يمكن أن تتفق إقامة النصب التذكارية على شرف الأبناء لقاء الخدمات التي أدّاها الأب وهذا الاتجاه الأخير ؟ نحن نقول نعم . فالأب ، وهو رأس العائلة سابقاً يمكنه إعطاء حق التكريم هذا لولديه مستخدماً سلطته العائلية ويبدو أن القبيلة التي أقامت هذه النصب قد لبت رغبته هذه . بكلمات أخرى إن ما نراه هنا هو استقلال أبناء سريكو عن أعضاء العائلة الآخرين . ونحن نعتقد أن هذه الخصوصية التي يتمتع بها ولدا سريكو هذان قد جاءت نتيجة لأنهما سوف يرثان مكانته في قيادة العائلة أو أنهما سيقودان العائلة سوية ، بعد وفاة الأب ، أو العائلات التي ستنقسم إليها العائلة الكبيرة سريكو بن خيران ، كما يفهم من الوثائق ، لا يشغل أي منصب أو وظيفة رسمية في تدمر أي أنه كان يتصرف كمواطن عادي

وبذلك يكون قد عبّر عن شعوره بالعرفـان نحو وطنـه . ولكن الأهم هنا هـو أن النفقات التي أنفقها سر يكو وأخوه عليـاني تدل على أن هذه العائلة كانت تملك ثروة نقدية كبيرة .

ننتقل الآن لمعالجة نقش يعود تاريخه إلى الستينـات من القرن الثـالث الميلادي أي قبـل مئة عام من تاريخ الوثائق التي عالجناها أعلاه .

يقـول النص اليـونـاني للوثيقـة المـذكـورة : «سيبتيم فـوروددا النـائب العـام البـارز وغسطس ـ القائد والزعيم ـ يوليوس أفريلي سيبتيم ايادي ، الفارس بن سيبتيم اليكسـاندر ن ايرود ، من الجنود ـ لصديقه وباترونه تكريماً . عام ٥٧٨ ، شهر سانديك» .

النص التـدمري : «سيبتيم فـوروددا النائب العـام الأبرز والقـائد والـزعيم . أقامهـا ليوليوس أفـريلي سيبتيم ايـادي ، الفارس بن اليكسـاندر بن خـيران بن سريكو وعـلى شرف صديقه وباترونه . في شهر سيوان عام ٥٧٥» . أهم مسألة هنا ولاشك هي مسـألة التـاريخ . فهناك خلاف واضح في تأريخ كل من النصين لنفس الوثيقة . فالنص اليوناني مؤرخ في شهـر كاسانديك وهو ما يقابله في التاريخ التدمري شهر نيسـان ، وعام ٥٧٨ عصر السلوقيـين أي نيسان من عام ٢٦٧م . أما النص التدمري فهو مؤرخ في شهر سيوان الذي يقابله في التـاريخ اليوناني شهر دايسيو ، وعام ٥٧٥ عصر السلوقيين ، أي حزيران ـ تموز عام ٢٦٤م . ويميـل ج . ب . شابو إلى الأخذ بهذا التاريخ الأخير انطلاقاً من أن النقش المذكور كان قد وجد مـع الوثائق الأخرى التي تكرّم فوروددا في نيسان عام ٢٦٧ م . ولذلك فالتأريخ اليوناني ممكن .

تعتـبر وجهة النـظر هـذه محتملة وقـريبـة من الحقيقـة . ولكن إذا ابتعـدنـا قليـلاً عن التأويلات والتزمنا بالنص الذي بين يدينا فإننا نستطيع أن نؤكد أنـه في البدايـة ، في عام ٢٦٤ أقام سيبتيم ايادي نصباً تذكارياً «لصديقه» و «باترونه» سيبتيم فوروددا ورافقهـا نقش تدمـري واحد فقط . وبعد ثلاث سنوات ، أي في عام ٢٦٧ ولأسباب غير معروفـة أضاف إلى النقش التدمري نقشاً آخر يونانياً مؤرخاً عند وضعه . ومن المحتمل أن سيبتيم ايادي لم يشـأ أن يكون أقل شأناً من الآخرين ذلك أن النقوش في ذلك الوقت كانت تكتب بلغتين فقام بإضافة النص اليوناني إلى النقش المذكور .

يسمح لنا النقش الـذي نحن بصدد دراستـه إن نتتبع مصـير أحد فـروع هذه العشـيرة خلال ثلاثـة أجيال . لقـد كان خـيران ، الذي يسمّيـه النص التدمـري هيرودوس ـ Apo Stration أي أنه في بداية القرن الثالث الميلادي كان جندياً في الجيش الروماني . وهذا يـدل على أن خلفاء تسبيرا قد أفلسوا مما أجبر هيرودوس خيران على اختيار العسكريـة حرفـة له ليس

لأنها تعد بوضع مادي مقبول بل طمعاً في وضع اجتماعي ممتاز كمحارب قديم فيما بعد . كما وحمل ولده اسم سيبتيم اليكساندر الأمر الذي يدل على أنه حصل على حق المواطنية الرومانية . ولكن كيف حصل هذا ، نحن لاندري . قد يكون ذلك بموجب القانون الذي أصدره كركلا (عام ٢١٢ م .) والذي يسمح ، مع بعض الاستثناءات بإعطاء حق المواطنية لكل سكان الامبراطورية . ولذلك يستبعد أن يكون هيرودوس خيران ، المحارب في جيش روما قد أصبح مواطناً رومانياً . وتجدر الإشارة إلى أن خلفاءه اتخذوا اسم سيبتيم . وقد يكون أقرب إلى الحقيقة القول أن هذه الخطوة من قبل خلفاء تسبيرا جاءت مرتبطة مع نفس الخطوة التي اتخذتها عشيرة أذينة وسيبتيم فورودا . وهذا التوافق في الأسماء له دلالة أخرى على تبعية السيبتيميين ـ خلفاء تسبيرا إلى فورودا وهذا ما انعكس في نص النقش . ولقد أشرنا سابقاً إلى أن يوليوس افريلي سيبتيم ايادي كان فارساً وهذا يؤكد على سمو مرتبته الاجتماعية .
وهكذا نرى أن تاريخ عشيرة السيبتيميين التدمريين ـ خلفاء تسبيرا هو تاريخ انهيار عشيرة كانت في وقت ما من العشائر المعروفة والغنية كما أنه تاريخ صعود أحد فروعها من جديد سلم المراتب الاجتماعية ولكن كموالين لموظف امبراطوري وخلفاء لمحارب قديم . ولاشيء يمنعنا من الاعتقاد أن ما نراه هنا ليس ظاهرة منفردة وإنما انعكاساً لعمليات اجتماعية عميقة حدثت داخل المجتمع التدمري .

تلمع أمام أعيننا هنا شخصية سيبتيم فورودا الذي تذكره الوثائق كباترون . حيث يطلق عليه النص التدمري لأحد النقوش والمؤرخ عام ٢٦٢ والذي أقيم باسم «مجلس وشعب» تدمر تكريماً له ـ اسم Mrn «سيّدنا» مما يشير إلى أنه كان يشغل مناصب حكومية . ولكن ما يثير الدهشة فعلاً أن وثائق تدمر لاتعطي أية معلومات عن تسلسله العائلي . ولايمكن فهم هذا الوضع إلاّ إذا كان سيبتيم فورودا لا يملك مثل هذا التسلسل المعترف به رسمياً في تدمر أو في أية منطقة أخرى من ذلك العالم . وقد يكون فورودا قد خرج من وسط لاتسمح القوانين بتسجيل التسلسل العائلي له . ومثل هذا الوسط كان واحداً وحيداً وهو وسط العبيد . وإذا كان الأمر كذلك فيبقى أن فورودا هو عبد محرر (قد يكون سيده ومحرره أذينة) حصل على المواطنية في تدمر وصعد السلم الإجتماعي بمساعدة سيّده أذينة . وإذا صح توقعنا هذا عن سيبتيم فورودا فأمامنا ظاهرة فريدة امتازت بها تدمر في القرن الثالث الميلادي وهي صعود ممثلي الفئات الاجتماعية الدنيا إلى مراتب اجتماعية عليا بمساعدة الحكام المحليين . مزيحين بذلك إلى الخط الخلفي ممثلي العشائر التدمرية العريقة .

البنية الاجتماعية لمجتمع دورايوروبوس

تعطي الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس صورة جلية نسبياً عن البنية الداخلية للعائلة المحلية وماهية حركتها . فالرجال حسب العرف هم الشخصيات الرئيسية في كل صفقة وعلى الأرجح أنهم أرباب هذه العائلات مما يستدعي وجود ملكية جماعية لكل من الزوج والزوجة .

ولكن بعض الوثائق تؤكد أن الوضع الداخلي للعائلة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير .

فالعقد الذي نحن بصدده مؤرخ عام ٨٧م . أي زمن السيطرة البارفية . ولكن السلطة البارفية لم تكن تتمتع بأي تأثير يذكر على تطور الحياة الداخلية لمجتمع دورايوروبوس . فالوثيقة ترسم لنا الوضع التالي . قدم نيكانور بن كسينو قراط بن أداي قرضاً لديوكل بن دانيم بن أبولوني وليتموناسا ابنة سلوقس بن ليسي زوجة الأخير وسجل كل أملاكهما رهناً لحين استرداد الدين . ويبدو أنه بعد موت ديوكل أعطت تيموناسا كل أملاكها لصاحب الدين ولكن هذا الأخير ردها لها كاملة ماعدا ثلاثة عبيد أبقاهم في أملاكه . وفي هذا الإطار يؤكد س . بريدفورد ويلس أن تيموناسا هذه تذكر في وثيقتين اخريين وصلتا إلينا من معبد أزّانا تكوني ومؤرختان على التوالي أعوام ٦٢ - ٦٣م . وهذا نصهما : «تيموناسا ابنة سلوقس بن ليسي ، زوجة ديوكل بن دانيم » ومعروف أيضاً ابن هذين الزوجين واسمه بوليميل بن ديوكل بن دانيم .

ويؤكد بريد فورد ويلس أنه في حال وجود أولاد (ولد ودون شك بنت حين تسجل الوثائق أن تيموناسا هي حماة نيكانور) فيجب أن يكونوا هم الورثة الشرعيين لأبيهم . ولكن الوثيقة لا تشير من قريب أو بعيد لشيء من هذا . ولم يستطع ويلس أن يعطي أي تفسير لذلك . ونحن نعتقد أنه بالإمكان فهم ذلك بكون الصفقة التي نحن بصددها إنما هي بين أقارب . فأحد ورثة ديوكل هي زوجة بيكانور ، أي أحد المستفيدين من الصفقة . ولكن النقطة الهامة هنا هي أن الوثيقة تؤكد على أن القرض يقدم إلى ديوكل وتيموناسا سوية . وهكذا تصبح تيموناسا مشاركاً متساوي الحقوق في هذه الصفقة المشتركة . وهذا سينعكس دون شك ، على وضعها كزوجة تتمتع بكامل الحقوق التي يتمتع بها زوجها . فالوثائق المذكورة تشير إلى أنها تستطيع أن تمارس نشاطها بشكل مستقل . وهذا بدوره يتطلب أن تكون هذه المرأة متمتعة باستقلال إقتصادي .

على ضوء ما تقدم أصبح بالإمكان فهم طبيعة الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس حول الطلاق والتي بدت غريبة بعض الشيء . إحدى هذه الوثائق وهي مؤرخة عام ٢٠٤ م . ومحتواها Aurafos uamos ، أي قطع زواج تم عقده دون أية وثائق مدونة ويتفق الزوجان على إعطاء كل منهما للآخر حق الزواج ثانية ويتخليا عن أية مطالبات تتعلق بالملكية . وتروي الوثيقة الأخرى (من دورايوروبوس أيضاً) وهي مؤرخة عام ٢٥٤ م . تفصيلات أكثر حول هذا الموضوع ، فالزوج (أنطوخ) أعاد لزوجته (أميمة) كل ما أخذه منها سابقاً . والفرق بين الحالتين واضح : ففي الحالة الأولى كان يسود مبدأ الإستقلال في الملكية لكل من الزوجين وفي الثانية أعطت الزوجة كل ما تملك لزوجها ولكنها احتفظت بحق الملكية واستعادتها في حال فسخ الزواج .

وهكذا نستطيع التأكيد على أن مبدأ الاستقلال في الملكية كان يسود الحياة العائلية في دورايوروبوس وبالتالي احتفظت المرأة بأهليتها واستقلالها الاقتصادي .

ويحتوي قانون الوراثة عند غياب الوصية مواداً كثيرة حول هذه المسألة وهو أيضاً من دورايوروبوس . ومن الطريف أن الرُّقم يحمل تاريخ عام ٢٢٥ - ٢٥٠ م . بينما يعود تاريخ القانون نفسه الى العصر الهلنستي وعلى الأرجح أنه لم يطبق إلا في القطاع التابع للملك ومع الزمن اتخذته المدينة نموذجاً . ويضع القانون النظام الوراثي التالي : في حال عدم وجود أبناء (له أو بالتبني) يرث الأب أو الأم (فيما إذا لم تكن هذه الأخيرة قد تزوجت من جديد) ينتقل حق الوراثة بعد ذلك إلى الأخوة من نفس الأب ، ثم - الأخوات من نفس الأب - ثم والدي الأب أو العم وفي حال عدم وجود أي من هؤلاء تعتبر الملكية هالكة وتعود الى الخزينة الملكية .

لاشك أنه ليست مهمتنا معالجة منشأ هذا القانون . ولكن ما يجب الاعتراف به هو أن هذا النظام كان سائداً في كل العالم الهلنستي ويعتبر وجود نظام مماثل في القانون السوري مقتبس عن القانون الهلنستي . فقانون الوراثة السوري يعتبر أنه في حال عدم وجود وصية فحق الوراثة عائد للوجوه التالية : الأولاد من الجنسين بالتساوي ، في حال عدم وجودهم - الأب ، وفي حال عدم وجوده - الأخوة والأخوات (تشاركهم الأم في حال وجودها) ثم أخوة الأب وورثتهم ، ثم - أخوات الأب وورثتهم (الرجال وثانياً النساء) ويبدو التشابه واضحاً بين القانونين . وهذا يدل على أن هذا القانون كان يسود كل الأراضي السورية في الفترة التي نحن بصددها .

عند دراستنا لهذا القانون لابد أن نلاحظ أنه يعني ، دون شك ، تلك الحالة التي

يستقـل فيها الابن عن أبيـه ويؤلف عائلة مستقلة اقتصـادياً وقـانـونيـاً . ونـلاحظ أيضـاً أن الانتساب الى فئة الأقرباء يقتصر على أولئك الـذين من أب واحد وفي حـدود الدرجـة الثانيـة للقرابة . ومثل هذا الوضع ممكن فقط في حال الانهيار التام أو الجزئي للعلاقات العشائرية .

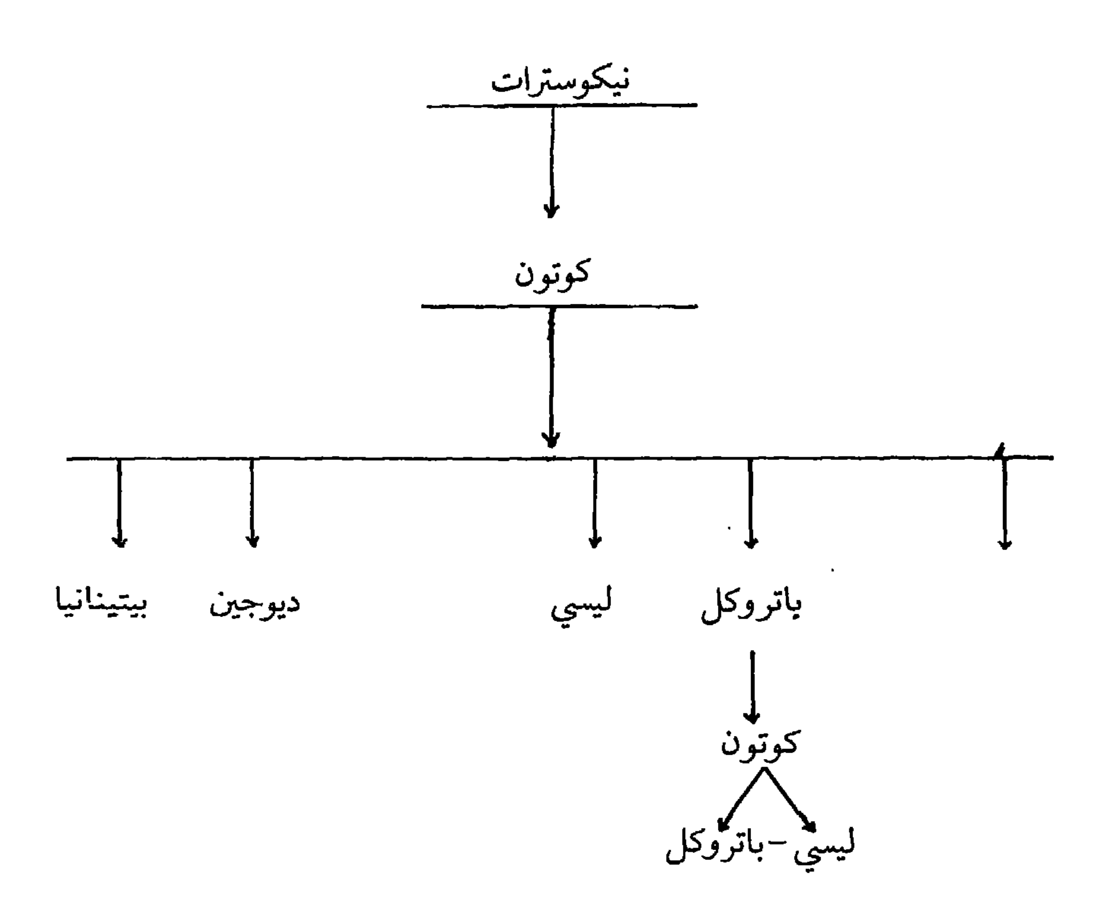
وعليـه يصبح واضحـاً لنا لماذا تقف الوثـائق التي من دورايـوروبـوس عن تعـدادهـا للأجداد عند الفخذ الثالث . وتبقى نادرة تلك الحالات (عام ٩١ م .) عندما يكون ليساني بن سلوقس بن أمونيا بن ابولوقان-فاعلاً لحدث ما . وحسب وثيقة أخرى ، وهي أيضاً نـادرة يقوم ديوجين وديونسي ولدا دامونيك بن فيادر بتقـديم ضحية بغيـة « النجاة والصحـة » « لهما ولأخوتهما وأبنائهما ووالدتهما وأقربائهما » . ويمكن أن نقول أنه بالمقارنة مع النقوش التـدمريـة فإن الفاعل هنا أخوان اثنان يقودان عائلة موحدة كبيرة . ولكن المعروف أن الكلام إنما يجـري عادة عن الهادي وأولاده .

وهناك استنتاج هام آخر نستنتجه من قانون الوراثة هذا - فالمرأة تحافظ على علاقاتهـا مع بيت أبيها وليس هذا وحسب وإنما تحافظ أيضاً على حقوقها المترتبة عن هذه العلاقـات . وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما أشرنا إليه من استقلالية المرأة الاقتصادية والحقوقية .

بغض النـظر عن شـح المعـطيـات التي وصلتنـا من دورايـوروبـوس عن تلك الفئـة الاجتماعية التي امتلكت ثروات نقدية كبيرة ، وعلى الأرجح أراض واسعـة ولكن بالـرغم من هذا فإن مالدينا يعطي إمكانية لرسم صورة ما عن أوضاع هذه الفئة .

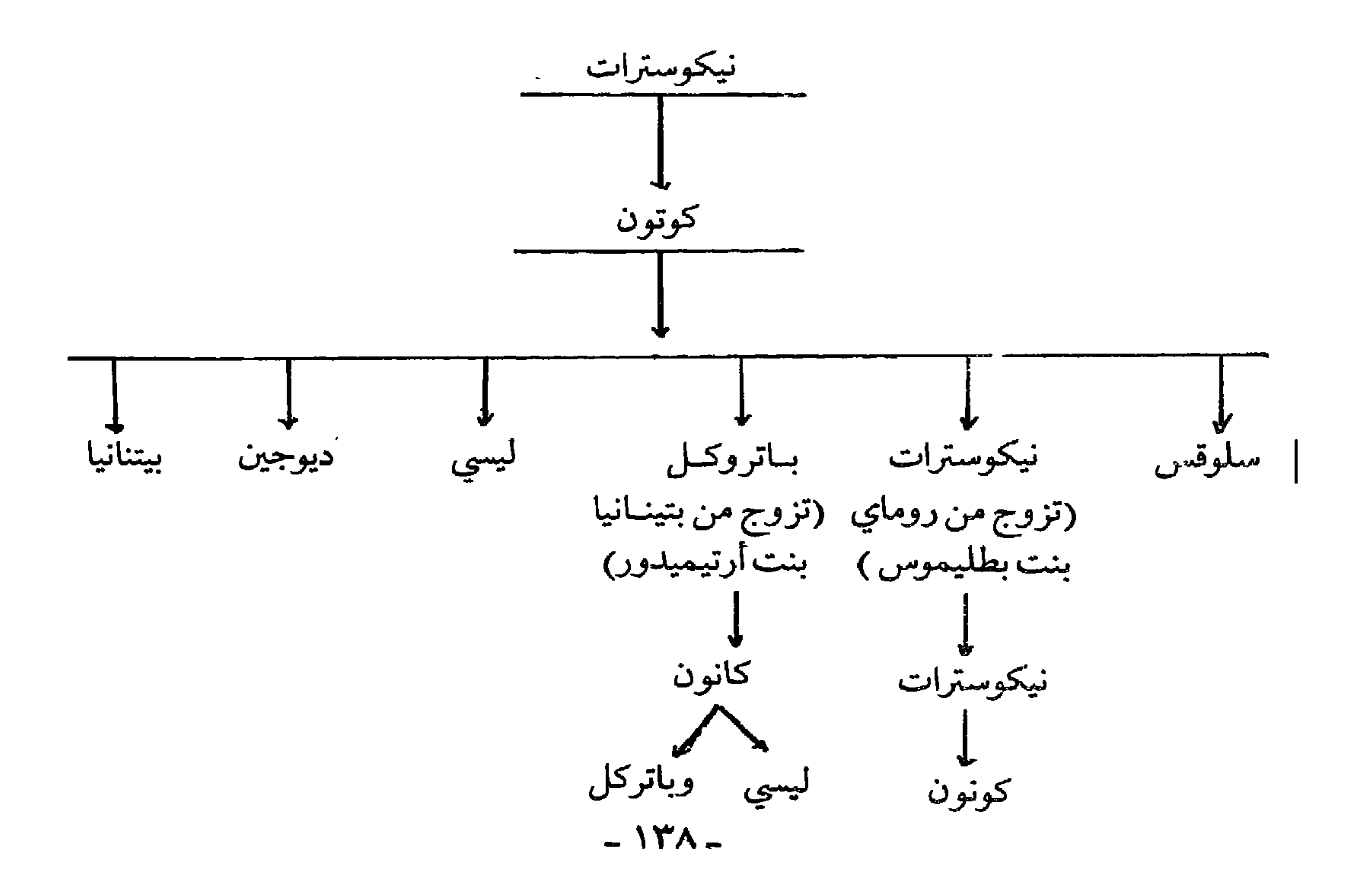
لقـد أفادتنـا الاكتشافـات الأثريـة بسلسلة من النقوش وجـدت في ميتريـوم والمنـاطق المجـاورة وتتحدث عن مجمـوعة التقـدمات التي أهـداها أشخـاص ينتسبون لعـائلة واحـدة وخلال فترة زمنية طويلة . أول هذه النقوش مؤرخ تأريخاً بوليوغرافياً في القرن الأول الميلادي ويروي أن إبينيك ، منـادي وكاهن الـرب أقام هيكـلاً للآلهـة على نفقتـه الخاصـة . ويروي النقش الثـاني المؤرخ عام ١١٦ - ١١٧ ، أن الاسكنـدر بن إبينيك قـام بترميم هـذا الهيكـل نفسـه « الذي بنـاه أبوه منـذ زمن بعيد » ثم أضـاف بعض الأعمال الاخـرى ، أعـاد تـركيب الأبواب التي سرقها الرومان ووضع أبواباً أخرى إضافية . ويفيـد النقش الثالث أنـه في العام التالي قام هذا الشخص بتشييد بناء مقدس مع بعض الإضافات التكميلية . ونعتقد أنه تجب الموافقة مع رأي روستوفتسيف أن هؤلاء الناس ينتسبون إلى ارستقراطية دورايـوروبوس وقـد حافظت هذه العائلة على وضعها المادي الممتاز هذا إلى النصف الثاني من القرن الأول وبدايـة القرن الثاني .

كما ونستطيع أن نتتبع تاريخ عائلة أخرى عاشت في النصف الثاني من القرن الأول وحتى بداية القرن الثاني للميلاد . وقد وجدت رسوم وأسماء ممثليها على مسرح تقديم الأضاحي المشهور في معبد آلهة تدمر ويعود تاريخ هذا المسرح الى النصف الثاني من القرن الأول للميلاد : ديوجين وليسي وباتروكل ونيكوسترات أبناء كوتون بن نيكوسترات وابنة هذا الأخير بتينانيا . وقد رسم على هذا المسرح أيضاً كوتون بن باتروكل عندما كان لا يزال طفلاً . ومن نفس هذا المعبد وصلتنا إحدى الوثائق المؤرخة عام ١١٥ م . وقد جاء فيها أن ليسي بن كوتون بن باتروكل أقام على نفقته الخاصة Tonde ton oikon to yperoion ومعروف لدينا أيضاً أخا ليسي الثاني ، باتروكل بن كوتون بن باتروكل . وقد أعطتنا هذه التفاصيل إمكانية إعادة رسم شجرة هذه العائلة بدرجة مقبولة من الدقة .



وتشير الوثائق المتأخرة نسبياً إلى أعضاء هذه العائلة . ففي إحداها يذكر اسم كوتون بن نيكوسترات في عملية تسديد ديون أبيه نيكوسترات . حيث أخذ الإبن على عاتقه مسؤولية تسديد ديون أبيه . وفي وثيقة أخرى (عام ١٨٠ م) يذكر هذا الكوتون بن نيكوسترات نفسه كشاهد ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن هيلودور حاكم المدينة هو شاهد أيضاً من ضمن هؤلاء الشهود . وهكذا فإن هذه العائلة حافظت على وضعها الإجتماعي في نهاية القرن الثاني الميلادي أيضاً .

وهناك وثائق أخرى تعود لعام ٣٧٣ من العصر السلوقي (عام ٦١ م) تكشف لنا عن أعضاء آخرين من هذه العائلة . فتشير الى سلوقس بن كوتون بن نيكوسترات . ويذكر نقش آخر روماي ابنة بطليموس وزوجة نيكوسترات بن كونون وتذكر في نقش ثالث بتينانيا بنت ارتيميدور وزوجة باتروكل بن كوتون . حيث كانت لهم مقصوراتهم الخاصة في لوج مسرح معبد اتارغاتيس . وهكذا نستطيع الآن أن نضيف الى القسم الأول من شجرة هذه العائلة قسماً آخر :



وهكذا نرى أن هذه العائلة استطاعت أن تحافظ على ثروتها لفترة زمنية طويلة بغض النظر عن الكارثة المالية التي حلت بنيكوسترات الثاني وأجبرته على أن يلجأ للاستدانة كي يستطيع استعادة ثروته .

لقد قلنا سابقاً أن الارض في دورايوربوس كانت موضوع عمليات تجارية وغالباً ماكانت تنتقل من ملكية شخص ما لتصبح ملكاً لآخر . ومثل هذا الوضع كان مقدمة طبيعية لخلق الملكية الكبيرة للأرض كما أنه دليل على حتمية إفلاس المالكين الصغار والمتوسطين . والواقع أن هناك وثيقة تدل على أن الملكية الكبيرة للأرض تكونت هنا من قطع الأرض المبعثرة والمتباعدة عن بعضها البعض . ولكن هذا الوضع لم يكن ليؤثر جدياً على النتائج الاجتماعية لمركزة ملكية الأرض . ونعتقد أنه من المفيد أن نشير الى أن المشتري في هذه الوثيقة هو المحارب القديم يوليوس ديمتري الأمر الذي يدل على أن وجوهاً جديدة لها ارتباط وثيق بالإدارة الرومانية بدأت تتغلغل في صفوف كبار ملّاك الأرض في دورايوروبوس .

أما عن إفلاس صغار الملاك وصغار المنتجين فنعلم من الوثائق المدونة لعملية تقديم القروض التي كانت تؤدي في النهاية الى استعباد حقيقي للمدين الذي لا يستطيع التسديد حيث يبقى الى أجل غير مسمى تابعاً للدائن . والصيغة العامة التي تشترك فيها هذه الوثائق هي التأكيد على أن كل مايملك المستدين يعتبر رهناً لدى الدائن مع العلم أن هذه الملكية تبقى في حوزة الأول حيث يستثمرها .

البنية الاجتماعية لمجتمع جرش . القرن ١-٣ م .

تؤكد النقوش التي وصلتنا من جرش على وجود ارستقراطية مالية كبيرة في هذه المدينة قامت ثروتها ، بشكل أساسي على ملكية الأرض والتجارة . وتدل الأضاحي والتقدمات التي تقوم بها هذه الفئة على سعة ثروتها ، فتروي إحدى الوثائق (عام ٢٢-٢٣ م) أن زابديون بن أرسطوماخ تبرع بمبلغ ألف درهم من ماله الخاص لبناء معبد زفس الأولمبي . أما أرسطون بن أرسطوماخ (عام ٤٣ م وقد يكون أخاً لهذا الأخير) فقد تبرع بمبلغ ١٥٠٠ درهم لنفس الغرض وقد صكت هذه الدراهم في صور . وفي عام ٤٣م تبرع أفينيون بن أفينيون بن لوب بنفس المبلغ ولنفس الغرض أيضاً . وفي النصف الثاني من القرن الأول تميّز فيون بن ديمتري بكرم لا يضاهى أو بالأحرى بثروة لا تضاهى . حيث يقول أحد النقوش أن هذا تبرع بمبلغ ٧١٠٠ درهم إصدار صور لبناء معبد الإله زفس الأولمبي كما وتبرع بمبلغ ١٥٠٠ درهم لبناء

مدخل هذا المعبد بالاضافة إلى ذلك خصص مبلغ ٨٦٨٦ درهماً لأهداف متعلقة ببناء المعبد أيضاً و ١٣١٤ درهماً لصنع تمثال زفس من البرونز . وهكذا نرى أن مجموع ما تبرع به فيون هذا بلغ ١٨٦٠٠ درهم . وأخيراً تقول إحدى الوثائق أن تيطوس فلافي بن دينوسيوس ابي . . . . خصص مبلغ ٣٠٠٠ درهم لمشاريع البناء .

لاشك أنه لايستطيع تحمل مثل هذه النفقات الضخمة إلا أشخاص أغنياء جداً . وللمقارنة نقول أنه في ٦٧-٦٨م . لم يستطع سارابيون بن أبولوني بن ديميتري أن يخصص لنفس الأهداف سوى ٤٠٠ درهم فقط .

ولاشك أن هذه المعلومات غير كاملة ولكنها تسمح لنا بالقول أنه كان يوجد في جرش إبان الفترة التي نحن بصدد دراستها أشخاص يملكون ثروات طائلة .

فمنذ القرن الأول الميلادي بدأ المحاربون القدماء يوطدون مواقعهم في أوساط الارستقراطية المحلية . وقد أشرنا سابقاً الى تيطوس فلافي بن دينوسيوس ابي . . . . . ، إذ أنه من السهل معرفة تاريخ حياته الذي له دلالة خاصة . حيث تنبؤنا إحدى الوثائق أنه كان مواطناً من مواطني جرش الذين ولدوا فيها وانتسب الى الجيش الروماني ثم سرح منه فيما بعد وذلك بعد أن وصل فيه الى رتبة قائد كما أنه حصل على المواطنية الرومانية في عهد الفلافيين . ويبدو أن هذا الشخص شغل مكانة اجتماعية رفيعة بعد عودته الى وطنه ذلك أنه يتمتع بكل امتيازات المحاربين القدماء وحق المواطنية الرومانية وكذلك امكانيات مالية محترمة . وماقيل عن تيطوس هذا لم يكن حدثاً فريداً أبداً .

فتروي لنا احدى الوثائق أن فلافي كيرسيلوخ قدم تقدمة للآلهة لاكاينا . وتفيدنا وثيقة أخرى بتكريم تيطوس فلافي فلاك كيرسيلوخ من قبل شخص يدعى ديميتري وهو نفسه ديفيل بن ديميتري Eynoias khrin وهذه الجملة الأخيرة تشير الى أن ديمتري بن ديميتري كان موالياً لتيطوس فلافي كيرسيلوخ .

ولكن لسوء الحظ لانملك أية معلومات عن الفئات الدنيا من سكان جرش - صغار التجار والحرفيين . . . الخ . ولكن إذا صح فهمنا للنقش G,182 فيمكننا القول بوجود علاقات الموالاة - الباترونات - في جرش في القرن الثاني الميلادي .



تأسيساً علی ما سبق عرضه نستطيع الآن أن نحدد فئات السكان الأحرار في المدن السورية في الفترة التي نحن بصددها على النحو التالي : الارستقراطية العقارية - التجارية التي تملك ثروات مالية كبيرة ، ثم فئة الملاك المتوسطين وصغار المالكين . وتجدر الإشارة هنا الى الاتجاه الذي بدأ يسود هنا ومحتواه إفلاس هؤلاء ووقوعهم في نظام التبعية وكذلك ظهور نظام الباترونات والذي نشأ بدوره من صلب علاقات الجوار والمساعدة المتبادلة . وكان من الطبيعي أن تصبح هذه العلاقات ، في المقاطعات قاعدة قامت عليها تبعية المواطن الحر ، شكلياً للمواطن الأكثر تأثيراً أو للموظف . وهذا ما كان ينطبق على سورية أيضاً . ويثير لدينا اهتماماً خاصاً ، هنا اكتشاف قانون في مدينة ديجيستي يمنع تقديم «المساعدة» لمن لا يطلبها ولا يريدها . وتشيري . م . شتايرمن الى أن مثل هذه المساعدات كانت تؤدي الى التبعية وعلى الأرجح أن هذه العمليات كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في كافة أرجاء الامبراطورية مما تطلب منعها . ولكن ، على الأرجح أنه لم يكن لمثل هذا المنع فاعلية تذكر ذلك أن «فاعلي الخير» هؤلاء كانوا يملكون من الوسائل ما يكفي لاظهار هذه العمليات وكأنها تتم بكل حرية .

نقول ، أن المعطيات المتوفرة لدينا لدراسة وتقويم مناطق ومدن سورية تؤكد أيضاً أن ما نراه أمامنا إنما هو ظاهرة عامة تنسحب على كل المنطقة التي نحن بصدد دراستها وعلى مدى كل المرحلة الزمنية المعنية بهذه الدراسة .

ونشير هنا على وجه الخصوص الى رواية مالالا Malala الذي يعيد إحياء العادات والتقاليد الانطاكية - تقول روايته عن الانطاكي سوسيبي الذي عاش في القرن الأول الميلادي أنه كان سيناتوراً وقد انتقل مع اغسطس ليقيم في روما ويمكن أن نتوقع أنه إنما أصبح سيناتوراً ومواطناً رومانياً بقرار من الامبراطور ، أن سوسيبي هذا كان من كبار الأغنياء في أنطاكية إن لم يكن الأغنى على الإطلاق . فالرواية تقول أنه أوصى لمدينته مبلغاً من المال يكفي لدفع الضريبة المترتبة عليها لعام كامل وذلك لتمويل احتفالات ومباريات رياضية على مدى خمس سنوات تقام كل عام في شهر معين ولمدة ثلاثة عشر يوماً يشارك فيها المنشدون والفرق المسرحية وتضم أيضاً ألعاب القوى والفروسية وغيرها . وما تجدر الإشارة إليه أن مثل هذه الوصايا كانت معروفة في تاريخ انطاكية قبل الاحتلال الروماني . إذ يقول مالالا في إحدى رواياته أنه في العصر الهلنستي أوصى مارون بأن يبني على نفقته الخاصة معبد موز ومكتبة . وهكذا نرى أن ماقام به سوسيبي لا يدل على نمو ثروة فئة معينة من السكان في القرن الأول الميلادي فهذه الفئة كانت موجودة منذ زمن وإنما يدل على أن بعض رجال السلطة في انطاكية تميزوا بثروات طائلة للغاية .

فتروي لنا وثائق انطاكية الاخرى (القرن ١ - ٢م) عن تقدمات أكثر تواضعاً بكثير للآلهة المحلية . ولكنها هي الأخرى تتطلب نفقات غير قليلة مما يدل على غنى فاعليها .

ومن الطريف أن الرأي العام الاجتماعي كان يقدر في مثل هؤلاء الأغنياء تواضعهم واستعدادهم للدفاع عن العدالة وعمل الخير وكذلك مختلف التقدمات لمدينتهم .

وتعتبر المعلومات التي حصلنا عليها من تحليل الوضع الذي كان قائماً في تدمر ودورايوروبوس وجرش عن تطوّر العلاقات العائلية ، عامة ومشتركة لكل المناطق السورية الأخرى . إذ تؤكد الوثائق التي وصلتنا من أفاميا واليكسندريه (الاسكندرية - المترجم) في ظل حكم عيسى ومن سلوقية وبيريا على الوضع الاجتماعي والاقتصادي المستقل الذي تمتعت به المرأة هنا . حيث تحوي الوثائق المذكورة معلومات تقدمات باسم نساء من أجل سعادة وخير عائلاتهن بما في ذلك أزواجهن وأولادهن كما وتحوي قرارات باسم الاجتماع الشعبي تقضي بتكريم امرأة - كاهن سابق . ولم يكن زواج المرأة عائقاً أمام استقلاليتها .
الى جانب هذه التقدمات الفردية نصادف أيضاً تقدمات جماعية يقوم بها أفراد عائلة واحدة . ففي ١٥٧ م . قدم كل من ألباي وياراي ولدا موسيا تقدمة إلى «الإله العظيم لسكان نازالة» أجل خلاصهم وخلاص أولادهم » . وفي عام ٨٦م قدمت قرية قورفية (انطاكية) إلى «آلهة الوطن» زفس - مدباخ وسيلامان وقد سمي ديوجين بن انطوخ وفيوفل المتبنى من أخيه ، وزوجته فيوفيلا ابنة فيوفل وأمه سوسيس وأبناء سوسيس وفيوفيل . ويبدو أن رأس العائلة قد رأى من الضروري ذكر أسماء كافة أفرادها كمشاركين في هذه العملية . وهذا ما يضع أساساً لتحركهم في المستقبل . بشكل مستقل عن إرادته . وتذكر المصادر تقدمة أخرى (عام ١٦١ من البرج المعلق) على شرف زفس - مدباخ قام بها الأخوة ابولوني وابولونوفان وحاليبون أبناء ماريون . ومن معلولا جاءنا نقش يروي عن تقدمة للإله مالاحيد قام بها أبناء كيريل بن باتروكل ويعود تاريخ النقش لعام ١٠٦م .

وهكذا نرى أنه الى جانب العائلات التي انقسمت بعد موت رأسها بقيت هناك عائلات لم تخضع لهذا الانقسام وحافظت على وحدتها بقيادة بعض الأخوة سوية . ومن المتعارف عليه هنا أن يتبنى الأخ أخاه .

المواطنون الرومان في سورية القرن ١ - ٣ م .

تشير المصادر المتوفرة لدينا الى أنه ابتداء من القرن الاول الميلادي بدأ المواطنون الرومان يلعبون دوراً بارزاً في حياة المجتمع السوري بما في ذلك داخل الوسط الارستقراطي وخاصة اؤلئك الذين ينتسبون لفئة المحاربين القدماء . واشارت المصادر الى أنهم كانوا يشكلون فئة لها وزنها في فئة كبار مالكي الارض . وحتى الآن لم تتضح مسألة منشأ هؤلاء المواطنين وكذلك الوضع حيال مسألة تلك التغيرات التي حدثت في تركيب الشرائح العليا للمجتمع السوري وأيضاً مسألة البنية الاجتماعية لمستوطنات المحاربين القدماء والمكانة التي شغلتها في الحياة السورية ابان القرن ١ - ٣ م .

البنية الاجتماعية لبعلبك - مستعمرة المحاربين الرومان القدماء

تجيز لنا مجموعة النقوش الواسعة التي نشرهاج . ب . ري - كوكي ومصدرها بعلبك أن ندرس بكثير من الدقة البنية الاجتماعية لبعلبك - واحدة من مستعمرتين للمحاربين القدماء في سورية . ولانعتقد أن الوضع في بيروت كان يختلف كثيراً عنه في بعلبك ولذلك فإن الاستنتاجات التي توصلنا اليها من دراستنا للمصادر التي وصلتنا من هذه الاخيرة تنسحب على بيروت المستعمرة الرومانية الثانية في سورية .

ولكن مع الأسف أن واحداً من أهم المصادر التي نعتمد عليها لدراسة تاريخ بعلبك ليس مؤرخاً وقد وصلنا من نيحا وهو اهداء من اثار عابتس النيحي لسلامة اغسطس . وصاحب الاهداء هنا pagus Augustus(pagus Augustussecit et dedicavit).وفي معرض تعليقه على هذا المصدر يقول ري كوكي ان pagus Augustus عبارة عن اتحاد للمواطنين الرومان ظهر في أعقاب توزيع الاراضي في وادي نيحا . ويعتقد الباحث أن ورود اسم اغسطس في الوثيقة هو دليل على أن الاراضي كانت قد وزعت على عهد هذا القيصر بل وعلى الارجح في نفس الوقت الذي بنيت فيه بعلبك وبيروت . وهناك بعض الوثائق التي وصلتنا من نيحا ويعود تاريخها الى عهد انطونيوبيّا وهي تنقل الينا ذكراً لعائلتين متنفذتين هنا : عائلة التسلسينيين وعائلة الوليين . فقد اهدى أفراد هاتين العائلتين تقدمات مشتركة للامبراطور .

وهكذا نرى أن المستعمرين لم يكتفوا ببناء مدينة اصبحت مركزاً لمنطقة زراعية معينة وانما أسسوا هنا قرى زراعية تابعة اداريا للمستعمرة . أما المدينة نفسها فقد قسمت اداريا الى وحدتين اداريتين جاءت على ذكرهما الوثائق . من جهة أخرى ليس لدينا الكثير من الوثائق عن السكان الأحرار في مدينة بعلبك والقرى التابعة لها . وأول ما يلفت الانتباه في هذا المجال النقش الذي وصلنا من نيحا (ليس مؤرخاً) : « مينيسك عن النذور التي قدمها عن نفسه وعن ابنته وزوجته ومن يربيهم » . وتؤكد لنا وثائق آسيا الصغرى في هذا السياق أن كلمة Zreptos كانت تعني الأولاد الأحرار الذين يتربون في كنف السيد كما وكانت تعني أيضاً المطعمين ـ العبيد . وبالتالي نحن لا نستطيع أن نعتمد على هذا المصطلح لتحديد الوضع الاجتماعي للاشخاص المعنيين في هذا النقش اذ أنه من الممكن أن يكونوا Zreptos في نقش مينيسك إما أولاداً أحراراً يتربون في كنفه منذ الصغر لأسباب نجهلها وإما عبيداً ولدوا في بيته . ولكننا ، على أية حال نعتقد أن المقصود في هذا النقش هم أولاده الشرعيون (أو يصبح من غير المفهوم التأكيد على ابنته) . ولكن ما يلفت النظر أن مينيسك يقدم النذر باسم Zreptos الذين يبدون هنا كعناصر مكونة للعائلة المعنية وفي الوقت نفسه ـ عناصر سلبية .

الوثيقة الثانية وصلتنا من حرملة وهي غير مؤرخة أيضاً . وتنص على « أقام أتاري ريغينا على نفقته الخاصة . . . . » يشيرري كوكي إلى أن الصيغة « اتاري ريغينا » . تحمل معنيين : «أتاري بن ريغينا» أو «أتاري عبد ريغينا» وبما أن الاسم الثاني هنا هو اسم إمرأة لذلك نعتقد أنه من الاقرب إلى الحقيقة أن يكون أتاري عبداً . أو كان من المفروض أن ينتسب الى أبيه . وإذا صح تفسيرنا هنا فأمامنا حالة يتمتع فيها العبد بشيء من الملكية الخاصة (ومن هنا جاءت الصيغة exiden) تسمح له أن ينفق حسب رأيه . والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نؤكد عليه هنا هو وجود شكل ما من أشكال التبعية بين أتاري وريغينا ـ تبعية الأول طبعاً .

ونشير هنا إلى أن النقشين مكتوبان باللغة اليونانية وهذا يسمح لنا بالقول أن أشخاص هذه الوثائق هم من السكان المحليين . وتتميز هنا الوثيقة التي جاءتنا من دير ـ لباس حيث كتبت باللاتينية . وهذا يدل على أنها جاءتنا من أوساط المستعمرين . يقول نص هذه الوثيقة : « للاله جوبيتر البعلبكي الأفضل والأعظم وفى كل من كاليست وابولو في النذر الذي نذراه لصحة السادة » . يعتقد ر . موتيرد أن المقصود بالسادة هنا لا يمكن أن يكون الامبراطور وانما سادة هذين العبدين الذين وفيا نذرهما . ونحن نعتقد أن هذا التفسير معقول ولكنه يقودنا إلى عدة استنتاجات . أولاً العبيد يدخلون دائرة الملكية الجماعية . غير أننا نفتقر

الى الـوثائق التي يمكن أن تعـطينا صـورة ما عن هـذه الجماعـة ولذلـك لن يكون بـاستطاعتنـا تقييمها . ثانياً ـ يتمتع العبدان كاليست وابولوني بحق الملكيـة الخاصـة ويتصرفان بملكيتهـما كما يشاءان ، ثالثاً ـ يستطيع العبدان تحمل نفقات جماعية وبالتالي المشاركـة في الحياة العمليـة وتكوين جماعات ، عند الضرورة .

وإذا صحّ ما ذكرناه سابقاً فإننا نستطيع أن نؤكد على وجود فئة غير حرة من السكان في بعلبـك بما في ذلـك العبيد . وقـد كان من حق هؤلاء أن تكـون لديهم ملكيتهم الخـاصة التي يتصرفون بها كما يشاؤون . وفي هذا المجال لم يكن هناك فرق بين وضع العبيد في المستعمرات الرومانية وبين وضعهم في المدن السورية الاخرى .

أما عن وضع العبيد المحررين فهناك كمية من الوثائق أكبر بكثير . فهناك ثلاثـة نقوش غير مؤرخة في هذه المجموعة . احدها اقامه العبد المحرر بوبلي ستاتيـلي اتسيليان عـلى شرف شخص ما يدعى بوبلي ستاتيلي بن غاي يوست سينتيان ، على الارجـح أنه حـاميه وسيـده . ويبدو أن هذا الأخير كان يتمتع بمكانة اجتماعيـة مرمـوقة : فعنـدما كـان يخدم في الجيش كـان بـرتبة praefectus fabrorum وعنـدما تقـاعد وأقـام في بعلبك أصبـح عضـواً في مجلس المدينة .

وأخيراً تفيدنا احدى الوثائق التي وصلتنـا من بعلبك أن كـوينت بيبي يانـوار أوفى نذره للاله جوبيتر « لصحة (prosalute) حاميه بيبي نوات وولده باسمه واسم زوجته بيبياتالوسا وأولاده وأخوته . نعتقد كما يعتقد ري ـ كوكي أن صـاحب النذر عبـد محرر لبيبي نـوات وإذا صحّ هذا الاعتقاد ترتسم أمامنا الصورة التالية : عندما كان كـوينت بيبي عبداً لـدى سيده سمـح له هـذا الأخير بتكـوين اسرة وبـالتـالي استثـمارة مستقلة . ونحن لانعـرف شيئـاً عن الظروف المحيطة بحصوله على حريته ولا بوضعـه المادي الـلاحق . ولكن مايلفت النـظر أن هذا العبد المحرر هو رأس لعائلة أبوية وهو سيدها وتضم هذه العائلة زوجته وأبناءه وأخوته . كيف أصبـح هؤلاء أعضاء في عـائلته ، نحن لانعـرف . كل مـا نعرفـه أن عدد أعضـاء هذه العائلة يدل على أن كوينت بيبي يانوار كـان شخصاً ثـرياً . ووصلنـا نقش آخر من النصف الثاني من القرن الأول وكان هذا النقش قد أقيم على شرف شخص غير معروف شارك في حملة تسيسنيا بيتا على كومجـين (عام ٧٢ م)وحـاز على عـدد كبير من الاوسمـة ومن هذه الأخـيرة ornameuta duumlralia بنـاء على قـرار مجلس القـادة . لقـد أقـام هـذا النقش مـارك انــطوني حينـون عبــد حـوبلون المحــرر . ولا شـك أن مــارك انــطوني حينـون يحمــل praenomen و homen سيـده السابق ولـذلك يعـاد تصحيح اسم العبـد ليصبح مـارك

انطوني حويلون وعليه يمكننا أن نتوقع أن أحد أجداده حصل على الجنسية الرومانية من انطونيو وأصبح ينتسب الى فئة المحاربين القدماء الذين استوطنوا بعلبك وكان موقفهم إبان الحروب الأهلية معاد لاغسطس .

نستدل مما سبق على أن العلاقة بقيت وثيقة بين العبد المحرر وسيده السابق حتى أن هؤلاء كانوا يقومون بأعمال كاعضاء في العائلة . والسبب المباشر لذلك هو أن العبد كان يأخذ nomen سيّده ويصبح بذلك متصلا صلة مباشرة بالعائلة . ويبدو أن إقامة النقوش على شرف أو لصحة الباترون كانت جزءاً من reverentia الذي كان يتوجب على العبد المحرر أن يعبر عنه تجاه سيده السابق . وهذا لم يكن ليتناقض مع الاستقلال الاجتماعي والاقتصادي للعبد المحرر .

وكانت توجد في بعلبك أيضاً فئة من عبيد الامبراطور المحررين . وقد وصلنا نقش أحد هؤلاء ويعود تاريخه لعهد كركلا تقدمة إلى آلهة بعلبك الثلاثة (جوبيتر وفينيرا وميركوريا) « لصحة » الامبراطور . قدمها سيبتيم . . . باسيوس ، على الأرجح عبد سيبتيم سيفير المحرر ، موضوع التقدمة بناء عمود من البرونز مطعم بالذهب مما يدل على الامكانية المادية الكبيرة التي كان يتمتع بها الرجل .

أما فيما يتعلق ببناء العائلة في وسط المستوطنين الأحرار كذلك دور بعض أفرادها فلا نستطيع أن نبني أي حكم إلا بناء على نصب الاهداء والتكريم . ولكن هذا بدوره يخلق لنا صعوبات ذلك أننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت الأسماء الواردة في الوثائق هي أسماء كل أعضاء العائلة ثانيا- إن ذكر اسم شخص ما يعني انه ينتسب الى العائلة المعنية فقط ولا نعرف مدى دائرة الأقارب بمن فيهم اؤلئك الذين لا يخضعون لسلطته ويؤتى على ذكرهم بمعيته . وعليه تصبح هذه المعلومات تقريبية وليست دقيقة . وسوف نعتبر لاحقاً أن الأسماء الوارد ذكرها في النقش تشكل عائلة موحدة أو تربطها بهذه العائلة روابط قوية .

نستبق العرض لنقول أن المعطيات التي سنعرضها لاحقا توصلنا إلى الاستنتاجات التالية . من المتعارف عليه أن النقوش التي تقام تقربا من الآلهة يقيمها رأس العائلة الذي يمثلها في كل علاقاتها مع العالم الخارجي حسب وجهة النظر الرومانية حيال سلطة الأب . وفي هذه الحالة يكون بقية أفراد العائلة موضوع تمنيات بانتظار نعم الآلهة . وفي بعض النقوش الأخرى يكون الأخوة أو « الاقرباء » موضوع التمنيات . ولا نعرف حتى الآن أي شيء عن علاقتهم مع صاحب التقادمة أو الاهداء .

كـما وتـوجـد نصـوص أخـرى حيث رأس العـائلة يتصرف بـالتعـاون مـع بقيـة أفرادها ـ الزوجة والأولاد وهذا يدل على أن هؤلاء يتمتعون بـأهلية اجتماعية وإذا كـان الامر كذلك ، زواج sinemanu ومساواة الأولاد والبنات ، تحـريرهم من السلطة البـطريركيـة للأب ولوشكليا . وفي احدى الحالات يشارك في التقـدمة الى جـانب الأب ، زوجته وأولاده وحفيده . ولكن هل كان الأب يتصرف في مثل هٰذه الحالات كـرأس للعائلة أم كمسـاهم في التقدمة ؟ حتى الآن لانعرف شيئاً عن هذه المسألة .

لكننا نعرف بعض الحوادث التي يقوم فيهـا الأخوة ـ الـورثة بـايفاء نـذر أبيهم أوأمهم وتشير بعض الوثائق الى أن هذا الأمريتم بناء على وصية . وبما أن مثل هـذا الشرط غير مـدون في الوثائق فإننا نعتقد أنه لم يكن هناك وجود للوصايا المكتوبة ولا الشفهيـة . ولكن الثابت هـو أن الورثة لم يكونوا يرثوا الملكيـة فقط وانما كـانوا يـرثون الالـتزامات أيضـاً . ونرى مثـل هذا التطبيق في الواقع عندما يدعى لوراثة شخص مـا أناس ليسـوا أقاربـه . وهذا مـا يروي عنـه النقش الذي وصلنا من بعلبك والمؤرخ أعوام ١٢٨ ـ ١٣٨ م . وهـو عبارة عن تقـدمة « الى الإله البعلبكي الافضل والاعظم جوبيتر ، لِصحة الامبراطور قيصر ترايان ادريـان اغسطس أب الوطن ، بناء على وصية لوتسيا انطوني سيلون فارس الفيلق الثالث » . ونجد أن منفذي هذا النذر هم ورثته كل حسب نصيبـه : « لوتسي فـاري ماغن بن كـونيت المحارب القـديم وعليه يقع نصف النذر ، لوتسي فـاليري ميليـور بن لوتسيـا اليتيم ـ الربـع ، وخيبي وروف وفوكس ابناء غاي اليتامى ـ الربع ايضـاً »لاشك أن العـلاقة القـائمة بـين صاحب الـوصية والورثة الذين أوصى لهم بثروته ترتدي هنا أهمية خاصة . وبما أن النقش لايعطينا أية معلومات بهذا الخصوص لذلك سيكون جوابنا على هذا السؤال استقرائياً . فالوضع الاجتماعي للورثة يتحدد بالمعطيات التالية : أحدهـم من المحاربين القدماء ، والأرجح أنه لم يحصل عـلى مرتبـة قيادية ، وبـاقي الورثـة ـ يتامى . وعـلى الاغلب أن لا يكون هؤلاء قـد بلغوا سن الـرشد . وعليه نعتقد أن ورثة لوتسي انطوني سيلون لايتمتعون بمنزلة اجتماعية رفيعة والواقع أنهم كانوا يماثلونه في هذا المجال .

رقم النقش حسب JMIVI مصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أو قدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
٢٧٦١ ، بعلبك ، النصف الثاني من القرن الاول الميلادي	الى المقدس فيسباسيان اغسطس	انطونيا بنت تيبيريا باكات وبريستسيلا	تنفيذاً لوصية انطوني طورا	أقيم احتراماً
٢٧١٥ ، بعلبك ، في عهد انطوني بيّا (عام ١٣١ ـ ١٦١ م) .	الإلـه البعلبكي الأفضل والأعظم جوبيتر ، لصحة الامبراطور تيطوس ايليا ادريان انتونين اغسطس بيا ، اب الوطن	توينت تيدى مكسيم	لرحمته وصحة أولاده واحفاده .	اوفي النذر من كل قلبه .
٢٧٤٦ ، بعلبك ، في عهد م . افريلي ؟ يوناني .	مارك افريلي .... ولده قيصر .	كوينت كراخي	تنفيذاً لوصية بوبلي كراخي ر	
٢٧٥٢ ، بعلبك ، بدون تاريخ .		... إينون .	لرحمته وصحة أهله .	أوفي النذر من كل قلبه .

رقم النقش حسب MIVI لمصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أو قدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
٢٧١٨ ، بعلبك ، بدون تاريخ .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوبيتر .	كوينت بيبي روف بن كوينت .	وبيبي سيكست ، ري ، كوينت ، وأبنائه .	أوفى النذر .
٢٧٢٠ ، بعلبك ، دون تاريخ .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوبيتر .	تيطوس بونتي كلافدي بروتيين .	لصحته وصحة تبرينا ابنته وصحة يوفنتسي زوجته .	أوفى النذر .
٢٧٢١ ، بعلبك ، دون تاريخ .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوبيتر .	تيبري كلافدي نابيليس بن تيبيري .	مع زوجته وأولاده .	أوفى النذر من كل قلبه .
٢٧٤٣ ، بعلبك ، دون تاريخ .	بناء على اجابة الإله كونار . .	بيبي افريليان دي ، عضو مجلس مدينة بعلبك .	لصحته وصحة انطوني ديودورا والزوجة المحترمة والاولاد جميعهم مع خاريونا الزوجة المحترمة جدا .	أوفى النذر من كل قلبه

رقم النقش حسب MIVI مصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أو قدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
٢٧٣٠ ، بعلبك ، دون تاريخ .	الى الإله البعلبكي العظيم سيد الكل .	كاسيوس فير .		.
٢٧٤٨ ، بعلبك ، دون تاريخ .		. . . كارمي مونتان كوينتيليان بن تيبيريا كارمي كوينتيلا الذي هو باستور .	لصحته وصحة فيرمينا زوجته ، وأولاده ـ وصحة فيرمينا ومونتان ومارتسيلا .	أوفى النذر من كل قلبه
٢٧٤٩ ـ ٢٧٥٠ ، بعلبك ، دون تاريخ والنصان متماثلان .		مارتسيلا وكوينت فولين ، أولاد مارك فولين سيكست بن سيفير .		نذره الاب ، بكل رغبة .
٢٧٥١ ، بعلبك ، القرن ٣ ـ ٤ م .		يوليان :	لصحته هو يوليان وصحة سيكوندا وغيميلا ـ والاولاد وصحة زوجته غيميلا وتيبيرى ومارك وصحة اخته غيرا وكارليست وسيكوندا وكوينت ولدا اختيه .	أوفى النذر من كل قلبه .

رقم النقش حسب MIVI لمصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أو قدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
٢٧٤٥ - بعلبك ، بداية القرن الثالث م .	. . . بصحة امبراطورنا وسيدنا اغسطس .	نذره لوتسي يولي عيمير .	أوفاه يولي غير ميسون وابناء فيكتورين وحفيد غيمير المتساوي الحقوق .	
٢٧٢٨ ، بعلبك ، دون تاريخ	الى الإله البعلبكي الاعظم زفس	كريسكيـ . . . . صاحب النذر .	لصحة زوجته وأولاده وأقربائه .	
٢٩٣١ ، نيحا ، دون تاريخ باللغة اليونانية		اموني	لصحة أبنائه	أقامه للإله
٢٩٣٠ ، نيحا ، دون تاريخ . باللغة اليونانية .		مينيسك	عن نفسه وعن ابنته وزوجته ومطعميه .	صاحب النذر .
٢٩٣٢ ، نيحا ، دون تاريخ باللغة اليونانية .		أقامه فيسي اموني .	لصحته وصحة أبنائه واخوته .	صاحب النذر .
٢٩٤٧ ، حصن	الى سفرون المقتصد .	ميس بن غيّا .	وأخوته . . .	

رقم النقش حسب JMIVI مصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أوقدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
نيحا ، دون تاريخ . باللغة اليونانية .		غاي انتوني		
٢٩٠٤ ، دير الاحمر ، دون تاريخ .		ابيمي .	لصحته وصحة أولاده .	أوفى النذر .
٢٩٠٨ ، دير الاحمر ، دون تاريخ .	الى الإله الغداري	خاياي .	لصحته وصحة أولاده .	
رقم النقش حسب JMI,V	الصيغة التمهيدية .	اسم الذي اهدى أوقدم	تركيب العائلة .	صيغة الختام .
٢٩٨٩ ، باب مرعي ، عام ١٢١ - ١٢٢ . باللغة اليونانية .	الى زفس إلـه بيـت مرعي .	كيردون بن ديودور		أقامه على نفقته الخاصة .
٢٩٦٤ ، جعيتا ،	الى القيصرة يونون	الاخوة غاي وغرميل بيبي	تنفيذاً الوصية والدتهم	

رقم النقش حسب MIVI لمصدره وتاريخه	الصيغة التمهيدية	اسم الذي أهدى أو قدم	تركيب العائلة	صيغة الختام
عهد انتونين بيّا ٢٩٠٢ ، رأس بعلبك دون تاريخ . باللغة اليونانية	لصحة الامبراطور قيصر تيطوس إلـي اندريان انتونين اغسطس بيّا اب الوطن . وصحة أولاده		بيتيلي لوتسي لصحته وصحة زوجته وأولاده واخوته .	

اذن نحن أمام حالة إما أن يكون فيها الورثة هم من الموالين لصاحب الوصية ، وهنا تتبدى لنا علاقات الباترونات ، أو أنهم أصدقاءه وأولادهم أو ماشابه . وتشغل النقوش الخاصة الموجهة من اشخاص لآخرين مكانة خاصة وسوف نعرضها أدناه .

نعرف من هذه النقوش أن موجهيها أشخاص يشغلون مكانة رفيعة في مجتمع بعلبك وغالباً اؤلئك الذين قفزوا قفزات هائلة في سلم المراتب الاجتماعية ووصلوا إلى فئة الفرسان وحازوا على كل ما يترتب على ذلك من أوسمة ومكافآت . ويقابلهم آخرون ممن يشغلون مكانة اجتماعية أدنى : في احدى الحالات ـ عبد محرر وفي حالة أخرى ابن العبد المحرر . أعلى مرتبة اجتماعية بين كل مقيمي هذه النقوش كان يشغلها مارك الفي اليمبياك ـ محارب قديم ، وكذلك مارك يوليوس ماتسير ـ عضو جماعة اغسطس .

نقول : أننا لا نعرف ما دفع هؤلاء الناس لاقامة هذه النقوش إلا أن الصيغة المألوفة ob meritaالتي نصادفها هنا مرتين يمكن أن تعني ليس فقط الخدمات الاجتماعية وانما تعني أيضا أعمال الخير والحماية وغير ذلك من الخدمات الخاصة . ولكن على أية حال تدل هذه النقوش على وجود علاقات اجتماعية في بعلبك قريبة من الباترونات مع أنها قد لا تكون مطابقة لها . .

وهكذا تسمح لنا هذه النقوش أن نلقي ضوءاً على تلك الفئة الاجتماعية العليا التي تكونت في بعلبك . فقد خدم هؤلاء سنين طويلة في الجيش وحققوا فيه نجاحات باهرة أهلتهم لاكتساب مكانة اجتماعية مرموقة في الامبراطورية الرومانية حيث شاركوا في أعظم الحملات التي شنتها روما في هذه المرحلة . ثم أصبحوا فيما بعد الفئة الحاكمة في المقاطعات الرومانية .

الواقع أنه ليس لدينا ما يكفي من الوثائق لمعرفة الحالة المادية لهذه المجموعة . لقد لفت غ . يولي نبكانور البعلبكي أنظار العالم القديم كله تقريباً ذلك أنه اشترى جزيرة سالامين التي باعتها اثينا بعد أن حطمها سولا sullaثم أعادها لها فيما بعد . كما أوصى ل . انطوني سيلون ورثته بتقديم ٨٠ جنيها أي ٢٦ كغ من الفضة .

إن مايثير فضولنا في هذه النقوش أن الاشخاص المحوريين فيها بعد أن تقاعدوا لم يساهموا رسميا في إدارة المستعمرات فلا مكان لهم في المجلس أوغيره من المؤسسات الادارية . ونحن نعتقد أن هذه الظاهرة لم تأت مصادفة بل هي رغبة واعية ومقصودة

هدفها عدم الارتباط بالسلطات المحلية . ولكن تأثيرهم على سير أعمال الادارة كان واضحاً إذ أنه كانت لهم علاقات واسعة جداً مع السلطات الامبراطورية كما أن سمعتهم كمحاربين قدماء وضباط قادة كان لها فعلها هي أيضاً . ومن الطبيعي أن امكانياتهم لحماية من هم ادنى منهم في سلم المراتب الاجتماعية كانت كبيرة جداً .

ويدل ظهور أشخاص في أوساط ارستقراطية بعلبك لا يربطون مصيرهم بجهاز السلطة المحلية ، على بداية تشكل فئة اجتماعية بدأت تفقد اهتمامها تدريجياً في ادارة المدينة وسيادتها .

ولكننا نصادف أيضاً فئة أخرى تهتم بجهاز الإدارة المحلي بل وتعمل على التغلغل فيه . ونشير في هذا السياق إلى مارك انطوني ليتسينياومبينا باتيت اوربان (منتصف القرن الثاني م .) . لقد كان هذا كاهن جوبيتر البعلبكي ثم انتقل في عهد ادريان إلى فئة الفرسان وكان ديكوريون (قائد عشرة) ثم تدرج وحصل على مراتب اخرى اعلى بكثير وحصل على وسام الاستحقاق لقادة العشرة .

بالاضافة الى ذلك تشير النقوش الى قادة العشرة وقرارات النخبة . ويلفت انتباهنا في هذا السياق نصان . الأول من بعلبك وهو مؤرخ في الفترة ما بين أعوام ٢٣٨ - ٢٤٤ . ويقول أن قائد العشرة ل . يوليوس سيفير يقدم الى جوبيتر البعلبكي «شمعداناً» . بمناسبة حصوله على مرتبة قائد عشرة (statuam luciferam decurionatus sui) وعلى ما يبدو أن الكلام يجري هنا عن انفاق summa honoraria أو جزء ما منها . والنص الثاني وصلنا من نيحا وهو يسمي ناركيس بن كاريوس عضواً في مجلس مستعمرة بعلبك . وهذا الأخير من عائلة ارستقراطية - كما يرى وبحق ج . ب . ري - كوكي - وحصل على مرتبة قائد عشرة والامتيازات المترتبة عنها . ونحن نعتقد أننا أمام عملية على درجة كبيرة من الاهمية - امتزاج الارستقراطية الهلنستية المحلية مع ارستقراطية المستعمرات في فئة اجتماعية واحدة . ولكن المعلومات المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بدراسة هذه الظاهرة دراسة اعمق .

لا تزال معلوماتنا عن الأحرار العاديين من سكان بعلبك محدودة جداً . إذ أن غالبية النقوش لا تشير فقط الى نشاط الأشخاص الذين تأتي على ذكرهم ولا الى وضعهم المادي أو المراكز التي شغلوها أو يشغلونها . ومع كل هذا فهناك بعض الاستثناءات التي تعطينا امكانية رسم صورة ما عن احدى الشخصيات التي يبدو للوهلة الاولى أنها لا تتميز عن غيرها من الشخصيات العادية في المدينة . فالمسمى تيطوس فيبولي كورنوت بي مستأجر لمساحة ما من

رقم النقش حسب JMI ، مصدره وتاريخه	الاسم	اسم المهدى اليه ووضعه الاجتماعي	من اهدى وما وضعه الاجتماعي	سبب اقامة النقش
٢٧٩٨ ، بعلبك ، نهاية القرن الاول الميلادي		... الذي قلده الامبراطور في حرب كوموجين اكليلا من ذهب والبس بامر منه زي العرض الابيض ، وقلد وسام الفيلق الغاليّ الثالث ووسام الاستحقاق بناء على قرار قادة العشرة .	مارك انطوني حينون . عبد خابلون المحرر	لقاء خدماته .
٢٧٨١ ، بعلبك ، النصف الثاني من القرن الاول الميلادي .	لوتسي انتوني نازون بن مارك الفابي .	الى قائد العشرة من الفيلق الثالث ، وقائد العشرة من الفيلق الثالث عشر غيمين الذي كرّم في العرض بالباسه الزي الأبيض بقرار من الامبراطور ، .... مدينة كولافيان	أفريلي	

رقم النقش حسب JMI ، مصدره وتاريخه	الاسم	اسم المهدى اليه ووضعه الاجتماعي	من اهدى وما وضعه الاجتماعي	سبب اقامة النقش
٢٧٩٤ ، بعلبك ، القرن الثاني الميلادي .	بوبلي ستاتيلي يوست سنتيان بن غاي .	الى رئيس الحرفيين ، خطيب الفيلق الثاني ترويان القوي قائد الرتل .	مارك يومي ماتسيربن بوبلي . سفير .	لقاءخدماته
٢٧٩٢ ، بعلبك ، دون تاريخ .	تيبيرنيفي كلافدي سوسيان سيفيريان بن كوينت	الى كاهن جوبيتر البعلبكي الافضل والاعظم .	كوينت نيفي بن إباغاتا	

الأرض (الـوثيقة وصلتنا من بعلبك ومؤرخـه عام ١١٧ / ١١٨ م) رأى أنـه من الضروري أن يسجل تسلسله العائلي حتى الجد الـرابع : تيـطوس ، ابن الحفيد مـارك ويبدو أن هـدفه من ذلك كان اثبات أصله الروماني - ثم نصادف في النقوش حرفيـين ، على الأرجـح ممن يملكون ورشاً . حيث تقول احدى الوثـائق من بعلبك أن من أقـام النصب هو غـاي تيطوس كـارمي الـذي يمتهن صنع أنـابيب المياه من الـرصاص - أمـام هذا النصب للشمس والقمـر ويشغل مكاناً آخر ليقيم نصبا ثالثا للنصر موشى بالذهب . كما تذكر الوثائق النحات يوليان بن يوليـان الذي أهدى أحد أعمالـه للإلـه ايرسيم . وأخيـراً تشير الـوثائق الى مكـان تملكه مجمـوعة من الاطباء .

ونحن نعتقد أن المحاربين القدمـاء (الجنود والـرتب الصغيرة) هـم وخلفـاؤهم الذين شكلوا جماهير الاحرار في مستعمرة بعلبـك وكذلـك صغار الفـلاحين والفـلاحون متـوسطي الملكية ومستأجري الأرض وأيضاً الحرفيون مالكو الورش ونعتقد أيضاً أن السكان الأصليـين لعبوا دوراً ما ولكننا مجبرون على ترك هذه المسألة مفتوحة .

المواطنون الرومان في المدن السورية نفسها

سوف نترك جانباً مسـألة الـرومان الأصليـين - لشح الـوثائق السـورية التي تتحـدث عنهم - الذين لا يدخلون في قوام الجماعات المدينية المحلية والـذين شكلوا تجمعاتهم الخـاصة ونلتفت لدراسة أوضـاع فئة أخـرى - اؤلئك الـذين حصلوا على حقـوق المواطنيـة الرومـانية وبدأوا يتوافدون الى سورية منذ القرن الاول الميلادي .

تفيدنا الوثيقة الشهيرة MI,II,718 من روسوس (نهاية الثلاثينات ما قبـل الميلاد) أنـه بموجب القانون الذي أصدره موتاتسي وإميل حصل أحد محاربي اكتافيان القدامى على حقوق المواطنية الرومانية وهو قبطان سفينة - سلوقس بن قيودوت . فأعطيت هذه الحقوق لسلوقس نفسه ولأهله وأولاده وزوجته (إذا لم تكن مطلقة) . بالاضافة الى ذلك منح هؤلاء حق الاعفاء

من دفع الضرائب ، وهذا يتوافق والحال القانونية الطبيعية للمواطنين الرومان كما تم اعفاؤهم من كافة الالتزامات المحلية للمدينة ومن الالتزامات العسكرية أيضاً . كما أعفي سلوقس وأفراد عائلته من كافة الضرائب المترتبة على عمليات ادخال واخراج البضائع من والى أية مدينة من مدن آسية وأوروبا . وأخيراً منح حق المشاركة في الاجتماع الشعبي . وتجدر الاشارة الى أن الاشخاص الذين حصلوا على المواطنية الرومانية يستطيعون اقامة الدعاوى القانونية إما في وطنهم حيث يقيمون مسترشدين بالقوانين النافذة في نفس المدينة أو في أية مدينة أخرى تتمتع بالاستقلال الذاتي . وفي نفس الوقت أية دعوى ترفع ضدهم كان يجب أن توجه عبر السفارة إلى سينات روما أو عبر رئيس مجلس المدينة أو نائبه . وتترتب على مخالفة هذه القاعدة غرامة تبلغ مليون سيسترتسي (عملة فضية) . وهكذا أصبح أولئك الذين يحصلون على حق المواطنية الرومانية ، عملياً خارج سلطة أجهزة السلطة المحلية مع احتفاظهم بمواطنيتهم الاصلية .

ومن المعروف أن أغسطس حاول الحد من الامتيازات والحصانات التي حصل عليها المحاربون القدماء . فقد وصل الينا نقش مؤرخ في القرن ٦/٧ ق . م ويحتوي على شرح مفاده أن اؤلئك الذين حصلوا على حق المواطنية الرومانية لا يعفون من الالتزامات والاتاوات المحلية ويكون مثلهم كمثل بقية السكان ويستثنى من هذا الوضع اؤلئك الذين ، حسب القانون ، أو بقرار من السينات أو بقرار من يوليوس قيصر أو اغسطس نفسه حصلوا على حق المواطنية وحق الاعفاء . وحتى في هذه الحالة لم يشمل الاعفاء سوى تلك الالتزامات والاتاوات التي نص عليها قرار الاعفاء . لقد وجه هذا القرار الى كيرنية ولكنه يعكس ، دون شك ، الاتجاه العام لسياسة اغسطس والتي كان يجب أن تترك آثارها على الاشخاص الذين حصلوا على حق المواطنية الرومانية في سورية أيضاً .

ولكن الحال ما لبثت أن تغيرت في ظل الدومينات الذي أعفى المحاربين القدماء ووالديهم وأبناءهم وزوجاتهم من كافة أشكال الضرائب والاتاوات . وتشير الدبلومات العسكرية ، بما فيها تلك التي تذكر أشخاصاً سوريين الى منح حق المواطنية الرومانية وراثيا فقط .

يتضح مما سبق أن العسكريين من أصل سوري كانوا يؤدون خدمتهم في كافة أصقاع الامبراطورية الرومانية : في بريطانيا ، ميزيا ونوميديا ، كما تشير الوثائق الى مجموعة كبيرة من السوريين الذي كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية في القطعات الرومانية المعسكرة في ليبية (سوف ندرس هذه النصوص لاحقاً) : لو نجين ، ديونيسودوربن انطوخ ، فاليري

بن - - - - دور ، وهنـاك شخص آخر لم يحفظ اسمـه ، الافاميّ قـائد العشرة مـاغيون بن ارتيميـدور ، الافاميّ الآخـر ـ قائـد العشرة لونجـين ، الانطاكي ـ بن غـيرموغـين الذي لم يصلنا اسمه . كما وحفظت لنا الدبلومـات العسكريـة أسماء السـوريين : مـاتاي بن بـولاي والتـدمري م . اتسيـلي اليكسانـدر الذي قـاد في عام ١٣٤ الكتيبـة الكـلانـديـة الاولى التي عسكرت في داكيا ، كما وتذكـر لنا هـذه الدبلومـات مارك بن دامـة من جرش (وقـد أرخ هذا الدبلوم عام ٧١م . ومصدره افاميا) . ويشير الدبلوم العسكري الذي وجد في عام ١٩٥٤ في فوليوبيلوس الى الكتيبة الاولى لقاذفي السهام والمؤلفة من المواطنين الرومان . وفي عام ١٩٦٧ اصدرخ . غ . بغلاوم دبلوماً عسكرياً جديداً وجد في سـورية ويعـود تاريخـه لعام ١٠٥م . تقول هذه الـوثيقة أن مـارك ستيدي كـوربولـون بن مارك من غيبـون قد حصـل على حقـوق المـواطنية الـرومانيـة و conu bimمع خـروجه المشرف عـلى التقـاعـد . ومن بـين القـطع العسكرية العاملة في هذه المرحلة في مصر تذكر الوثائق كتيبتي المشاة الثانية والثالثة .

لقد وصلت الينا النقوش التالية التي تتحدث عن المواطنين الرومان (المحاربين القدماء أو أؤلئك الذين حصلوا على حق المواطنية الرومـانية بـطريقة مـا أو أخرى) الـذين استوطنـوا مختلف المناطق السورية :

IGRR,III ١٣٨٠ .	مأدبا .	غ . دوميتسي اليكساندر .	قائد عشرة في الفيلق الكيرناسي الثالث .
IGRR,III١٣٢٧ .	بصرى .	فلافي ايني .	قائد عشرة .
IGRR,III١٣٢٥ .	بصرى القرن الثاني م .	سابين اڤريلي .	مرتبته غير معروفة .
IGRR,III١٣٢١ .	بصرى .	يوليوس مارتسيان .	مرتبته غير معروفة .
IGRR,III ١٣٣٣ .	بصرى .	كلافدي اندروماخ .	رئيس --
Rey _ coyuais ، ١٨ .	بصرى .	ايلي فيتالي فالينتين .	قائد عشرة في الفيلق الكيرناسي الثالث .
IGRR,III ، ١٣١٣ .	آفا ، عام ٢٩٤/٢٩٥ ق . م .	ماغن ومالح .	من المحاربين القدماء يكرمان سوية مع السكان المحليين .
IGRR,III ، ١٣١٠ .	غيثمة ، القرن الثالث ؟	فلافي مكسيم .	محارب قديم ، زوجته أفيريليا انطونيا أقامت على نفقة الأزواج والاولاد نصباً مقدساً ، تبرعت بأربعين ألفاً .

IGRR,III ، ١٣٠٤ .	آيون .	باسوس بن فيكتور .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٣٠١ .	ساخونة الخضر .	تافرين بن عبوتان .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٢٨٦ .	اذرع عام ٢٦١ ـ ٢٦٢م .	ماغن باسوس .	مرتبة غير معروفة .
IGRR,III ، ١١٦٧ .	المزيريب .	ساتورنين بن يغنومة .	محارب الفيلق الكيرناسي الثالث عضو مجلس المدينة .
IGRR,III ، ١١٠٤ .	صور .	مالح غاي يوليوس .	من المحاربين القدماء .
SEG,XVIII ، ٦٠٠ .	صيدا .	امفيون .	شاهدة قبر . على الارجح أقامها له عبيدة .
SEG,XVIII ، ١٩١ .	جبيل القرن الثاني م .	افريلي فيل	معلم فلسفة مأجور . يكرّم كمواطن ويقام له نصب من البرونز .
SEG,XIV ، ٦١٣ .	حوالي عام ٦٠م .	تبيري كلافدي باتروبي . أصله من انطاكية .	حائز على عدة بطولات في الالعاب الرياضية ، مواطن انطاكية والاسكندرية

SEG,XVIII ، ١٩٢ .	انطاكية .	مارك اتيلي مكسيم .	معلم فلسفة مأجور ، يكرم كمواطن من مواطني المدينة .
IGRR,III ، ١٠٨٠ .	دير القلع .	لوكي غاي سولـن .	رئيس مجموعة الثلاثين .
IGRR,III ، ١٠١٧ .	ارواد .	م . سيتيم ماغن بن مارك .	قائد عشرة في الفيلق السكيفي الرابع ، مواطن ارواد ، يكرمه «المجلس والشعب» .
IGRR,III ، ١٠٧٣ .	بعلبك عام ٢٨ م .	غاي يوليوس بن مينادر .	
IGRR,III ، ١٠٢٤ .	حمص عام ١٢٨ م .	لوتسي انطوني .	
IGRR,III ، ١٠٩١ .	دمشق .	فلافي اوليبان .	من المحاربين القدماء .
SEG,I ، ٥٢٩ .	افاميا .	بوبلي ايلي كريسب .	ممثل ، مواطن مدينة افاميا ، يكرم بقرار من «المجلس والشعب» .
JMI,IV ، ١٣١٥ .	افاميا .	ليتسيني سابينيان .	«من المحاربين» ، اصبح ولده سيناتوراً .
IGRR,III ، ١٠٠٥ .	سلوقية .	كاسيوس بريسك .	قائد عشرة في الفيلق الرابع .

المصدر	المكان	الاسم	الملاحظة
IGRR,III ، ١٠٠٩ .	كفرنابو ، عام ١٢٤ م .	نمـيري كـلافـدي انطوني ـ دوميتسيان غاي .	حرفيون .
IGRR,III ، ١٢١٣ .	كفرلاها ، عام ٢٣٦ م .	اولبي سكافيريان .	احد قادة المدينة .
IGRR,III ، ١٢٦٦ .	نيلا .	افريلي آني بن ديوميد .	من المحاربين القدماء .
JGRR,III ، ١١١٠ .	افيقا .	فاليري مارك .	من المحاربين القدماء من فرسان الفيلق الرابع .
IGRR,III ، ١١١٤ .	فينة القرن الثاني م .	افريلي كفيرنالي .	قائد عشرة في الفيلق الغالي الثالث .
IGRR,III ١١٣٥ .	الكسيفة .	افريلي مايور .	من المحاربين القدماء في الفيلق الكيرناسي الثالث .
IGRR,III ١١٤٨ .	اللحاة .	يوليوس مكسيم .	محارب في الفيلق الغالي الثالث .
IGRR,III ، ١١٦٨ .	تل الشهاب .	غ فاليري مكسيم .	محارب .
IGRR,III ، ١١٧٠ .	جدودة .	يوليوس فالينت . .	من المحاربين القدماء .

IGR,III ، ١١٧٣ .	نجران .	يوليوس غيرمان .	من المحاربين القدماء في الفيلق الكيرناسي الثالث .
IGRR,III ، ١١٧٩ .	ايريتة ، عام ١٦٩ م .	ت . افريلي كفيريثالي .	بنى تواية على نفقته الخاصة .
IGRR,III ١١٨٧ .	ام الزيتون .	اولبي كاسيان .	محارب قديم . يساهم في بناء المكان المقدس .
IGRR,III ١١١٨ .	عمرة .	سيلفان .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٢٨١ .	السودا .	ايلي يوليان .	
IGRR,III ١٢٨٢ .	السودا .	م . كوكتسي غيرمان .	محارب في الفيلق الكرناسي الثالث ، اهدى ثلاث قناطر .
IGRR,III ، ١٢٣١ .	قناطة .	تيبيري كلافدي ناتاريل .	قائد عشرة .
108,CIL,III .	خبران .	غ . يوليوس مكسيم .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٣٠٩ .	عرمان .	سيفير بن سليمة .	من المحاربين القدماء .

IGRR,III ، ١٢٤٢ .	رامة خازم .	يوليان .	قائد عشرة في الفيلق السكيفي الرابع .
IGRR,III ، ١٢٤٦ .	راضيم .	فلافي اليكساند .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٢٤٩ .	دوما .	فيليب .	من المحاربين القدماء واصبح رئيس مجلس المدينة .
JMI,II ، ٤٥٥ .	بيرية نهاية القرن الثاني م .	ت . فلافي يوليان .	من المحاربين القدماء في الفيلق الاغسطسي الثامن .
IGRR,III ، ١٠٠٨ .	حاطورا عام ١٩٥ م .	اميلي ريغين بن المحارب اولبي ريغيلا واميلي بطليموس .	
IGRR,III ، ١٠٦٠ .	عبيدات عام ١٤٥ م .	غ . فلافي غلافير .	اقام مذبحاً للاله زفس على نفقته الخاصة .
IGRR,III ، ١٢٧١ .	صحني .	سيغير مكسيم .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٣١٦ .	صالحة .	الاسم غير معروف .	يذكر النقش المحاربين القدماء ـ المطارنة .
IGRR,III ، ١٢١٨ .	ميردوخة .	يوليوس مكسيم .	من المحاربين القدماء .
IGRR,III ، ١٢١٦ .	مجدلة .	افيريلي سابين .	من المحاربين القدماء .

بناء على ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن استيطان المحاربين القدماء الرومان في سورية قد حدث في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث الميلادي ضمناً . وكان بينهم جنود كانوا قد أدوا خدمتهم كمقاتلين في قطعات الجيش الروماني المتواجدة في سورية . حيث أقام هؤلاء هنا فترة زمنية طويلة وانقطعت علاقاتهم مع أوطانهم الأصلية وبنوا علاقات أخرى جديدة في أماكن تواجدهم فاستقروا هنا وانخرطوا في الجماعات المدينية . أما الفئة الثانية من المحاربين القدماء فقد تكونت من المحاربين المحليين الذين أدوا خدمتهم العسكرية في أماكن بعيدة عن مسقط رأسهم . ولكنهم عادوا بعد أن سرحوا الى موطنهم الأصلي وانضموا إلى الوضع التقليدي لعائلتهم المتواجدة في مجتمع المحاربين القدماء،والحاصلون على حق المواطنية الرومانية أكثريته الساحقة . ونحن لانشك في أنه جرى الحصول على المواطنية الرومانية بطرق أخرى (مثلاً ، شغل مناصب عالية في المدن) ولكن لا تتوفر لدينا وثائق من سورية بهذا الشأن . وكان المواطنون الرومان الجدد يتخذون لأنفسهم أسماء الأباطرة المتواجدين أثناءها في السلطة ، أي أن هذا المواطن الجديد أصبح تابعاً للبيت الامبراطوري وأمن لنفسه دعم ومساعدة السلطات في مختلف مجالات النشاط الاقتصادي والاجتماعي . ومن الطبيعي أن هذا المواطن الجديد عندما ينفذ واجباته كتابع فعليه أن يقدم كل الدعم للسلطات الرومانية أي أن هذه السياسة قد خلقت مرتكزاً اجتماعياً للامبراطورية في المستعمرة .

بالاضافة الى ذلك كان هؤلاء المواطنون الجدد يحصلون بانتقالهم من أوساط المحكومين الى أوساط الحاكمين على مخرج - في حال توفر الامكانيات المادية اللازمة - إلى جهاز ادارة المستعمرة وتنفتح أمامهم وأمام خلفائهم الطريق واسعة للوصول الى فئة الفرسان وحتى الى فئة السيناتورية وبالتالي الى المستويات الرفيعة في الامبراطورية .

بين يدينا معطيات هامة تحكي عن سلوك بعض المواطنين الرومان من أصل سوري سلّم الرقي الاجتماعي وتؤكد هذه الأمثلة على أن الامكانيات التي تحدثنا عنها كانت تتحول الى واقع فعلي .

من أوائل السوريين اللامعين - من وجهة نظر المواطن الروماني في القرن ١ - ٣ م . - والمعروفين لنا المدعو ل . اميلي يونك . يقول النقش أنه كان من المواطنين الخيّرين للمدينة الفينيقية تريبوليس (طرابلس) . وتعتقد أكثرية الباحثين

أن يونك هذا ولد ونشأ في هذه المدينة . وفي عام ١٢٥عيّن ليغاتاً (ليغات ، لدى الرومان ـ سفير ، يؤدي مهمة سياسية ـ المترجم)لمقاطعة آخاي . وفي عام ١٢٧ م . أصبح سوية مع سيكست يوليوس سيفير coksvl suftus . ومن المحتمل أنه كان نائب قنصل في آسيا أيضاً . لقد لعب خلفاء هذا الرجل من بعده دوراً هاماً في حياة روما . فالمدعو اميلي يونك شغل منصب concul suffectusفي عام ١٨٢ سوية مع ايتيلي سيفير .

وليس أقل متعة تتبع مصير آل افديف من قرّة . وأول رجل معروف لنا من هذه العائلة هو ـ معلم فن الخطابة غ . افيدي غيليودور . لقد كان هذا stulis ab epiفي جهاز ادريان من عام ١٢٠ م وحتى عام ١٢٢ م . وأصبح في عهد انتوثين بيا من ١٣٨ وحتى ١٥٠ بريغيكتاً (منصب اداري قضائي وعسكري في العصر الروماني ـ المترجم) . أما ولده غ افيدي كاسيوس فقد كان في الفترة الواقعة بين ١٦١ ـ ١٦٨ م . coonsul suffectus ـ سوية مع تسيلس بلانتسيان . وعندما أصبح قائد الفيلق الغاليّ الثالث شارك في الحرب ضد البارفيين في تحطيم فرلموغز . ثم أصبح ليغاتاً على سورية من عام ١٦٨ م (؟) حتى ١٧٥ م . في عام ١٧٥ حاول انتزاع العرش الامبراطوري ولكنه فشل وقتل .

ولدينا مثال آخر في التدمري ل . يولي يوليان الذي أصبح أجداده ، على ما يبدو ، مواطنين رومان منذ النصف الاول من القرن الاول الميلادي . في عهد كومود شغل يوليان منصب بريغيكت . وفي نهاية حياته شغل دوميتسي اولبيان هذا المنصب ـ وديميتري اولبيان هذا اشهر محام روماني على الإطلاق ، ولد في صور .

وأخيراً نشير إلى حياة رجل آخر من هؤلاء الرجال اللامعين ـ إنه الانطاكي تيبيري كلافدي بومبيان . لقد حصل أجداده من جهة أبيه على المواطنية الرومانية في النصف الأول من القرن الأول الميلادي بينما حصل عليها أجداده من جهة أمه منذ القرن الأول قبل الميلاد . لقد كان والده ينتمي الى فئة الفرسان أما هو فقد أصبح سناتوراً . وفي عام ١٦٧ م . أصبح ليغات بانونيا السفلى وفي عام ١٦٩ م تزوج من ابنة مارك افريلي ـ لوتسيلا اغسطة ، أرملة لوتسيا فيرا . في عام ١٣٧ م كان يقوم مع كلافدي سيفيربمهام قنصل . وفي عهد جابير تيناكس ، الذي اقترح عليه مشاركته السلطة الامبراطورية ، وصل الى قاعة السينات عضواً كامل الحقوق .

نعتقد أنه من المهم أن نشير الى أن تروبان كان قد طلب أن يوظف السيناتور ـ من المقاطعة ثلث ثروته في ملكية الارض في ايطاليا نفسها ولكن مارك افريلي خفض هذه الحصة الى الربع . وبهذا يصبح هؤلاء جزءاً لايتجزأ من الارستقراطية الايطالية نفسها .

وإذا أردنا أن نبحث عن تفسير لظهور السوريين في سينات روما فإننا نقع عليه في اطار السياسة العامة للأباطرة تجاه المقاطعات ، وخاصة الشرقية ـ في سعي السلطات الرومانية لكسب الارستقراطية المحلية الى جانبها . ولقد بدأ التطبيق العملي لهذه السياسة منذ عهد اغسطس .

لقد أصبح واضحاً الآن أن الوضع الاجتماعي للأشخاص الذين حملوا أسماء رومانية لم يكن واحداً . فمنهم الحرفي ومنهم الأغنياء وأصحاب الثروة الذين استطاعوا تقديم هدايا ثمينة وتقدمات كبيرة (وصلت حتى عشرة آلاف دينار) . ومنهم رؤساء مجالس المدن ، ومن حمل لقب «محسن» المدينة . بكلمات اخرى ما نراه هو تغلغل المواطنين الرومان إلى صفوف الارستقراطية المحلية . وفي بعض الحالات يجري التأكيد على أن المحارب القديم هو في نفس الوقت مواطن من مواطني المدينة . وهذا التأكيد لم يأت مصادفة : فهو يؤكد أن المحارب القديم الذي حصل على حق المواطنية الرومانية واستوطن المدن السورية لم يفقد مواطنيته الاصلية .

ولكن الأمر الذي لا زال في دائرة الغموض هو هل كان سحب المواطنين الرومان ، أي الذي حصلوا على المواطنية الرومانية ، من تحت سلطة الاجهزة المحلية ـ هل كان امتيازاً خاصاً يهدى بموجب قرار خاص تصدره السلطات الرومانية ، كما كان الأمر مع سلوقس بن فيودوت أم كان نتيجة طبيعية للحصول على المواطنية . ولكن الالتزامات التالية تلفت النظر : ليس هناك أي بند خاص بهذا الشأن في «الدبلومات العسكرية» الشهيرة ، وفي التفسير الذي أعطاه اغسطس حول عدم اعفاء المحاربين القدماء من ضريبة الملكية لاوجود للمادة الصريحة بهذا الشأن أيضاً . ولكن وجود فقرة خاصة في حادثة سلوقس إنما يدعم الاحتمال الاول . ولكننا نعتقد أنه في الحالات العادية لم تظهر هناك مسألة محاكمة المواطن «بموجب شكوى» ولذلك لم يكن هناك أي خلاف بينه وبين الادارة الرومانية أو المحلية . ومن هنا نستنتج أن محاكمة المواطن الروماني هي مهمة

السلطات الرومانية وحدها فقط وهذا لم يكن بحاجة لأي تأكيد . وهذا هو واقع الحال فعلاً فلو أن السلطات الرومانية وضعت سيادة مواطنيها تحت تصرف السلطات المحلية للمقاطعات لفقدت المواطنية أهليتها الحكومية الفريدة .

وهذا يخلق في نفس الوقت فئة من الناس في المدينة لها تأثيرها المتنامي في المجتمع ومستقلة ، إلى حد بعيد ، عن السلطات المحلية ، ولها علاقاتها وصلاتها المباشرة مع السلطة الامبراطورية والباب مفتوح أمامها للوصول الى صفوف الفئات العليا في الامبراطورية ذلك أنها سندها المباشر في المدن . أما نتائج هذه العمليات فقد لخصها مرسوم كركلا .

من المعروف مرسوم كركلا أعطى حق المواطنية الرومانية لكل سكان الامبراطورية . أما الأهداف التي سعى الامبراطور لتحقيقها من وراء اصدار هذا المرسوم فليست واضحة تماماً . يقول الاتجاه المعادي للامبراطور أن هدفه الاساسي (وهذا ممكن) كان توسيع دائرة دافعي الضرائب وبالتالي زيادة دخل الخزينة الامبراطورية .

ولكن أيّة كانت أهداف كركلا فإن أهمية مرسومه تجاوزت كثيراً حدود السياسة المالية الصرفة . فتأسيساً على الوثائق التي وصلتنا من مختلف المناطق والمدن السورية لابد وأن نوافق الباحثين الذين رأوا أهمية مرسوم كركلا في أنه توّج عملية تحويل كل الأراضي التابعة للامبراطورية الى orbis romanks ، كما وجعل كل قاطنيها مواطنين رومان ، بعد أن كانوا تابعين للسلطة الامبراطورية وبذلك تكون القاعدة الاجتماعية للسلطة الامبراطورية الرومانية قد توسعت إلى أقصى حد ممكن .

هل ألغى هذا المرسوم المواطنية الأصلية - المحلية ؟ نحن لانعرف . فالوثائق لم تعطنا أية اشارات بهذا الخصوص . ولكن استمرار وجود البناء البوليسي حتى عام ٢١٢ م يجعلنا نتوقع أن المواطنية المحلية لم تلغ .

بإلغائه للتناقض القائم بين الرومان وسكان المقاطعات جعل مرسوم كركلا كل سكان الامبراطورية كتلة واحدة تابعة للامبراطور الأمر الذي دفع التناقضات الاجتماعية إلى الواجهة - التناقضات بين honestiores وبين humilio . لقد أعد هذا المرسوم التربة الملائمة لظهور نظام الدومينات .

وهكذا نستطيع أن نقول الآن أن نظام التبعية الشخصية - عبيداً وأحراراً هو الذي طبع بميسمه البنية الاجتماعية للمجتمع السوري في المرحلة الواقعة ما بين القرنين الأول

والثالث للميلاد (بما في ذلك «العبيد المؤقتين» في دورا ـ يوروبوس) . أما السكان الأحرار فقد انقسموا من حيث الشخصية المدنية إلى : تابعين للامبراطور ، المواطنين الرومان والناس التابعين لسلطة البوليسات . وهؤلاء الاخيرون انقسموا بدورهم الى أحرار ونصف أحرار .

أما التركيب الطبقي للمجتمع السوري في هذه المرحلة فقد كان على الشكل التالي : المستغلون (بفتح الغين) وهم المنتجون المباشرون المحرومون من ملكية وسائل الانتاج (العبيد والأحرار شكلياً والعمال المأجورون) ، صغار الملاك وأصحاب الملكيات المتوسطة الذين يشاركون مشاركة مباشرة في عملية الانتاج والذين يستغلون عمل الغير لتوفير الامكانيات اللازمة ، ثم كبار الملاك الذين لا يشاركون مباشرة في عملية الانتاج ويعيشون على حساب استغلال عمل الآخرين .

الفصل الخامس

المدينة السورية : الجماعة المدنية والبناء الإداري

سكان المدينة السورية

تتصف المعلومات التي وصلتنا عن عدد السكان الأحرار في المدن السورية بالتقطع والتبعثر . والواقع أن ما أورده يوستيان من معلومات عن الهزة الأرضية التي اجتاحت سورية في النصف الأول من القرن الأول م . يعطينا صورة عامة عن عدد سكان البلاد ككل . فقد أودت هذه الكارثة بحياة ١٧٠ ألف إنسان كما قضي على مدن بأكملها وعانت البلاد كلها من خراب كبير . ولكننا لا نعتقد أن هذا الرقم يطابق واقع الحال بالنسبة لعدد سكان البلاد في الفترة المذكورة فإذا قارنا هذا الرقم بالأرقام المعروفة لنا من مصادر أخرى لا تضح لنا أنه إذا ما كان رقم يوستيان صحيحاً فإن أي كلام عن خراب البلاد من الناحية السكانية يصبح مبالغاً فيه . والصورة الواقعية فعلاً هي التي يعطينا إياها الإحصاء الذي أمر بإجرائه كفيريني (أعوام ٦ - ٧ م .) لسكان أفاميا وحدها حيث بلغ عدد سكانها الأحرار آنئذ ١١٧ ألف نسمة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الرقم لا يشمل العبيد ولا غير المواطنين (أي الأحرار الذين لا يتمتعون بحقوق المواطنية) فإن عدد سكان أفاميا كان - كما يعتقد ف . كيومون - ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف نسمة . ولكن كيومون لم يشر إلى المقاييس التي اعتمدها في تقدير هذا الرقم . وإذا ما قارنا هذا التقدير بمعطيات مصادر انطاكية يصبح لزاماً علينا أن نشك في تقدير كيومون هذا .فحسب 1 MAKK.,2,45 شارك في الإنتفاضة ضد ديميتري الأول ١٢٠ ألف نسمة .

إلى أي حد يتطابق هذا الرقم مع الواقع ؟ نحن لا نعرف . ولكننا نعتقد أنه لا يتناقض كثيراً مع واقع الحال الذي كان سائدا فعلا في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي) . ويورد يوحنا الذهبي الفم رقم ٢٠٠ ألف نسمة في نهاية القرن الأول الميلادي . أما الفرق، فيمكن أن نحسبه الزيادة الطبيعية لعدد السكان . ونعتقد أن ما يقترحه ج . حداد من أن يوحنا الذهبي الفم كان يقصد كل سكان المدينة الأحرار له أيضاً نصيبه من الصحة . ولقد حاول هذا الأخير التأكيد على أهمية وجدارة ووقار أغناطوس الأسقف السابق لهذه المدينة الضخمة بعدد سكانها . وفي مثل هذه الحال يجب أن يكون الأمر سيّان بالنسبة للكاتب أدخل

أولئك الـذين لا يتمتعـون بحقـوق المـواطنيـة في عـداد السكـان أم لا . ونحن نعتقـد أن مصطلحات هذا المقطع تتنـاقض مع مثـل هذا المفهـوم . يقول يـوحنا الـذهبي الفم : -de mon eis eikosin ek.,teinomenon myriadas وكـما تكرم غ . ل . كـورباتـوف وقال لنا بأن كلمة demos هي اصطلاح يعني لدى كل رجال الدين بما فيهم يـوحنا الـذهبي الفم الرعية كلها ومن هنا نستطيع القول أن المقصود هنا كل سكان انطاكية دون أي فرق وعلى الأرجح أن يوحنـا الذهبي الفم استقى معلومـاته من المصـادر المحلية الـرسمية . ولـذلـك تأسيساً على معطياته نعتقد أن عدد سكـان انطاكيـة وكذلـك أفاميـا لم يتجاوز في القـرن الأول الميـلادي المئتي ألف نسمة . وعـلى الأرجح أن هـذا العدد الـوسطي لسكـان المدن السـورية الكبرى .

الجماعة المدنية

تؤكد المعطيـات المتوفـرة لدينـا أن المدن السـورية بقيت حتى في القـرن الأول الميلادي عبارة عن جماعات مغلقة من العسير جداً الدخول إليها . وتروي إحدى الوثـائق التي وصلتنا من سلوقية بيريا (حزيران عام ١٨٦) عن حصول المدعو أرسطو لوخ على حقـوق المواطنيـة في المدينة (كان هذا ممن يحملون لقب «من الأصدقاء المفضلين» للملك سلوقس الـرابع) . ومن الملفت للنـظر هنا أن مجلس الشعب هـو الذي اتخـذ هذا القـرار بنـاءً عـلى طلب من الملك إلى مجلس المدينة عبر ممثله في هذا المجلس . فقبل اتخاذ مثل هذا القـرار كان عـلى الملك أن يطلب من ممثله تقديم اقتراح إلى مجلس المدينة . وكان منح حق المواطنية هذا عبارة عن مكـافأة كـرم بها أرسطو لوخ لقاء خدماته - الحقيقية أو الكاذبة - للملك والمـدينة وكـذلك لقـاء الصفات الحسنة التي يتمتع بها . وبما أن أمر الملك (أو طلب الملك الذي يعتبر أمراً) يتعلق هنـا بشخص من الحاشية يتمتع بلقب مهم جداً لذلك نقرأ في مقدمة مرسوم منح حقوق المواطنيـة ما يـلي : لقد قدم مجلس المـدينة الاقـتراح إلى مجلس الشعب ومجلس الشعب له اتخـاذ القرار النهـائي . ويبدو أن مثل هذا النظام بقي سائداً حتى في ظل الحكم الروماني إذ أنه ليست لـدينا أيـة وثائق تثبت العكس . ويبدو أنه وضع خصيصاً ليطال الأشخاص الذين يتمتعون بـوضع اجتـماعي راق وبالتالي بثروة مادية محترمة .

ويشير كيومون إلى أنه لكي يحصل المرء عـلى حق المواطنيـة في تارس ، التي كـانت حتى عام ٧٣ م تحت ليغات سورية - كـان عليه أن يـدفع ٥٠٠ درهم لخـزنة المـدينة وتقـول بعض الوثائق بهذا الشأن أنه حتى المولود في تارس لا يستطيع الحصول على حقوق المواطنية مالم يـدفع

هذا المبلغ حتى ولو كان أجداده من أصل تارس . وتنطبق هذه القيود على الفقراء وكذلك على أولئك الذين لم تندرج أسماؤهم في قوائم الإحصاء الدوري لعدد مواطني البوليس . ويبدو واضحاً كل الوضوح الطابع الطبقي لهذه البنود التي يبقى بموجبها قسم كبير من السكان «خارج الدولة» .

ومما يدل على مدى أهمية الانتساب إلى الجماعة المدنية أن واضعي اللوائح كانوا يرون أنه من الضروري الإشارة الى أصل ومواطنية الشخص المعني . فالنقش التدمري المؤرخ عام ١٣٢ والمذكور سابقاً يأتي على ذكر المدعو عبيدو بن عنامو بن سعد الله . عندما أصبح هذا الشخص فارساً في هيرت سماه النقش «نبطياً» أي أنه لم يتخل عن مواطنيته السابقة ولم يحصل على المواطنية التدمرية مع وجوده في منطقة تابعة لتدمر . ونجد في نقش آخر مثالاً مشابهاً لهذا . إذ يكرم النقش المدعو مارك يولي مكسيم أريستيد – وهو مواطن من بيروت ووالد لوكولا زوجة بيرتيناكس فهذا أيضاً لم يكتسب المواطنية التدمرية . وعندما كان التدمري يقيم نصباً في مكان ما بعيد عن تدمر كان يشير إلى أصله وموطنه .

في بداية القرن الثالث حاولت السلطات الرومانية الحد من الجماعة المدنية وذلك بمنع تغلغل أي شخص كان فيها دون موافقة أعضائها . ويعتبر النقش الذي وصلنا من فينة ذو دلالة خاصة في هذا المجال . فهو عبارة عن نسخة عن رسالة موجهة من ليغات سورية يوليوس ساتورنين إلى «ميتروكومية الفينيين» والتي كانت المركز الاداري للتراخونيتيين . ويندرج هنا أمر صريح صادر عن رئيس الإدارة الرومانية : «إذا ما سكنكم أحد ما عنوة ، محارباً كان أم عادياً ، فسوف يعاقب بعد أن تخبروني» ونرى هنا أنه يمنع منعاً باتاً حتى الاستيطان العادي في الأراضي التابعة للجماعة دون إذن منها – حتى ولو كان المستوطن شخصاً يتمتع بحد ما من الامتيازات . كما ويشار في هذه الرسالة إلى أن سكان ميتروكومية غير ملزمين بأداء مساهمات جماعية لصالح الوافدين إليها ويمنع إلزامهم بذلك فهم غير ملزمين باستضافتهم في بيوتهم طالما أنه يوجد في القرية نزل . ويبدو أن هذا القيد يدخل في إطار تنظيم تواجد عابري السبيل في أراضي الجماعة . ولا نجد عناء في أن نرى في هذه السياسة ما يناقض سعي السلطات الرومانية للاعتماد على فئة المحاربين القدماء وخلق فئة مماثلة بين السكان . ولكن هذا التناقض ليس إلا تناقضاً ظاهرياً فقط . فإذا ما وافقت المتروكومية على استطيان شخص ما فإن السلطات عندها لا تمانع ونحن لا نشك في أنه كانت تتوفر لدى السلطات الرومانية والأغنياء والمحاربين القدماء مختلف الوسائل التي تجعلهم يحصلون على الموافقة المطلوبة .

فنحن نعرف حالات كان فيها الشخص الواحد مواطناً لعدد من البوليسات . فقد أشرنا سابقاً إلى أشخاص من جبيل وإنطاكية ممن حصلوا على حق المواطنية في ديلفيا . ولكن هذين الشخصين كانا فيلسوفين وقد يكون حصولهما على مواطنية ديلفا بمثابة مكافأة لهما . ويشير أحد النقوش الرومانية المؤرخ عام ٦٠ م . إلى تيبيري كلافدي باتروبي - بطل عدد من المباريات الرياضية حيث منحه نيرون حق المواطنية الرومانية ، أصله من انطاكية وكان يحمل الجنسية الاسكندرانية .كما وصلتنا بعض الوثائق الأخرى (من اللاذقية مثلاً) تروي نفس الحوادث . ولكن يبدو أنه لا يجوز أن نستخلص من هذه الحوادث أية نتائج حول انتشار هذه الظاهرة في الفترة ما بين القرن الأول والقرن الثالث فكم بالأحرى عن أنها كانت تطبع بطابعها المرحلة التي نحن بصدد دراستها . إذ أنه يبدو أن هذه الحوادث ليست سوى مكافآت قدمتها المدن لأشخاص متميّزين في مجال الرياضة أو العلم أو الفن أو غير ذلك .

ونحن نعتقد بأهمية الناحية التالية وهي أنه حسب التصّورات التي كانت سائدة في العصر الذي نحن بصدد دراسته - أن تصبح مواطناً لمدينة ما لا يعني فقط أن تعيش في هذه المدينة بل أن تستغل بنشاط هذه الحقوق . فقد كتب فيلون الإسكندراني : «وكيف لا ، فلكي لا يكون من السذاجة بل من الغرابة أن نسمي أولئك الذين لا يعيشون فقط في المدينة بل ويشاركون في المجلس والقضاء ومجلس الشعب ويمارسون التجارة والفن - مخلوعين وأولئك الذين لا ذكر لهم إطلاقاً في اللوائح أو محكومين بجرم شائن - مواطنين» . ونرى هنا عرضاً لواجبات وصلاحيات المواطن ولكن بأسلوب سلبي ويبّين هذا العرض أن النشاط السياسي في إطار المدينة لم يكن مجرد مثال أعلى بل حقيقة لها جذورها الممتدة في التاريخ البعيد . لقد اقتضى وجود حقوق المواطنية إمكانية المشاركة في ادارة المدينة وفي تحقيق سلطة قانونية عامة على أراضيها . ومن الطبيعي أن يكون وجود كل هذه الحقوق سبباً للحد من دائرة الناس الذين يحق لهم التمتع بها .

التنظيم الداخلي للجماعة المدنية

لقد اصطلح على تسمية الوحدة الادارية للبوليس الكلاسيكي القديم «بالقبيلة» - وهي أهم وحدة بنيوية لهذا البوليس على الاطلاق . ولا شك أنها تكّونت ونمت من الوحدات العائلية التي تربطها ببعضها البعض صلة القربى ولكنها تكاملت مع الزمن وتوسعت حتى شكلت البوليس . وفي المرحلة التي نحن بصددها كانت «القبائل» في الأراضي السورية عبارة

عن تشكيلات اصطناعية قامت على أساس عامل الحدود (الواقع أنه ليس لدينا ما يدل دلالة مباشرة على ذلك) . إلاّ أن الوضع في تدمر كان أكثر تعقيداً ، كما سنرى حيث «القبائل» التي تجمعها صلة القربى تعايشت لفترة طويلة من الزمن مع «القبائل» الادارية - فيلات (أي وحدات ادارية تجمعها وحدة الأرض File - المترجم) .

ونادراً ما تشير الوثائق والمصادر من البوليسات اليونانية في سورية اشارة مباشرة الى الفيلات . ولكن مثل هذه الإشارات موجودة على أية حال . ففي المرسوم الذي أصدرته سلطات سلوقية بيريية بإعطاء أرسطولوخ حقوق المواطنية طلب إلى أمين السجل المحلي تسجيل أرسطولوخ في سجلات الديم - Dem(وحدة إدارية تشكل جزءاً لايتجزأ من الفيلا) الأولومبيي لفيلة اللاذقية وبناء على ذلك نستطيع القول أن المدينة احتوت قسمين إداريين : الديم والفيلا والانتساب الى الجماعة المدنية كان يعني الدخول في سجلات هذا وذاك . وتسمح لنا المقارنة بين هذا الوضع وشبيهه الذي كان سائداً في اليونان بالقول أن الديم هو جزء لا يتجزأ من الفيلا . وحسب رواية ليباني ، فإن مثل هذا التنظيم كان موجوداً في إنطاكية أيضاً : فقد كانت الجماعة المدينية تنقسم هنا إلى ثمانية عشرة فيلا . ولكن يبقى السؤال التالي غير واضح . كيف تم التوفيق بين هذا التقسيم الاداري لانطاكية وبين التقسيم الذي نشأ هنا تاريخياً والذي انقسم البوليس بموجبه إلى أربعة أجزاء . يقول سترابون ان كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة كان محاطاً بسور يفصله عن الجزء الآخر . ولقد بنى أحد هذه الأسوار سلوقس الأول نفسه ويبدو أن الآخر ظهر بشكل عفوي نتيجة لتدفق موجة جديدة من المستوطنين والثالث بناه سلوقس الثاني كالينيك أما الرابع فقد بناه أنطوخ الرابع إبيفان . وبما أن عدد الفيلات لايتطابق مع عدد المناطق الأربع فليس من المحتمل أن تكون الفيلات قد توزعت بينها بالتساوي مع العلم أن هذين التقسيمين تقاطعا مع بعضهما بطريقة ما ومعنى ذلك أن كل مواطن من مواطني انطاكية كان مسجلاً في احدى الفيلات بغض النظر عن المنطقة التي عاش فيها . كما وتشير الوثيقة السورية المعروفة عن بيع عبدة إلى الفيلا الثانية عشر في مدينة الرها . ويبدو أن الفيلات هنا لم تحمل أسماء ، وعددها لم يكن أقل من إثنتي عشر كما هو مذكور .

سوف ننتقل الآن إلى تحليل النقوش التدمرية التي تحوي الكثير من المواد عن البنية «القبلية للبوليس السوري . ونرى أنه من المفيد أن نحدد مجموعتين من «القبائل» المذكورة هنا : القبائل التي تحمل أسماء تدمرية محلية والقبائل التي لا تحمل أية أسماء .

يقول ج فيفرية في معرض حديثه عن الأولى أنها مستقلة عن بعضها البعض ونشاطها

موازٍ لنشاط مجلس تدمر . وقد رأى فيفريه في سمعتها ومكانتها «موروثات حياة التنقل» - الرحل . ويرى روستوفتسف أن الكثير من هذه الفيلات كانت له مراكزه - وهي عبارة عن قرية وأن بعضها تحوّل فيما بعد إلى وحدات إدارية - حدودية في البوليس الذي اندمجت فيه . أما ر . ديو مينيل ديو بيسون فيرى في هذا التقسيم للمجتمع التدمري موروثات عصر البداوة وإن مجموعة القبائل التي كانت تشكل - حسب رأيه - الأقسام البنيوية لسكان المدينة شكلت الآن العشيرة . وسوف نرى أن هذه المقولات والاستنتاجات تحتاج إلى تحديد وتدقيق .

ليست المصطلحات التي تأتي على ذكر التشكيلات القبلية لذوي القربى معقدة أبداً . ففي النصوص اليونانية نصادف المصطلحات العادية Fyleوuenosوفي النصوص التدمرية إما كلمة phd/z(فخد أو فخذ - المترجم -) أو الإشارة «أبناء NN» . ولاشك أن كلمة phd/zمأخوذة من اللغة العربية مباشرة وهي تعني : «جزءاً ، أصغر شق من القبيلة» . أما النصوص الآرامية بما في ذلك السورية فلا تحتوي على هذه الكلمة . وفي النصوص التدمرية تستخدم هذه الكلمة للتعبير عن معنى آخر يختلف كل الاختلاف عن المعنى الذي تعطيه هذه الكلمة في اللغة العربية الكلاسيكية . ونحن نعتقد أن التدمريين لم يعوا حتى الآن الفرق بين القبيلة والأقسام التي تتفرع عنها . وكذلك استخدام كلمتي fyleوuenosفي القسم اليوناني من النصوص لتأدية نفس المعنى يدل هو الآخر على صحة وجهة نظرنا هذه . ولكن هذا يخلق لنا مشكلة ليست أقل أهمية : ما هي تلك الجماعة التي كان بعض أعضائها fylaiأو ، وهنا نفس الشيء ، uene؟ هل تتطابق هذه الجماعة مع الجماعة المدنية للتدمريين ؟ من الواضح أن الجواب على هذين السؤالين وغيرهما من الأسئلة التي تخص هذه المسألة - تعطينا إياه دراسة الوثائق والمصادر المتوفرة لدينا وخاصة تلك التي تتحدث عن هذه القبائل .

١ - بني قمر (bny kmr') . تذكر إحدى الوثائق التدمرية القديمة والمؤرخة عام ٦ م . (شهر كانون عام ٣٠٧ من عهد السلوقيين) انتساب الشخص المكّرم لهذه القبيلة - المدعو عقيلو بن أدان الذي أقام له كهنة معبد الإله خارت نصباً لقاء تقدمته للمعبد . وفي وثيقة أخرى من نفس الحقبة نقرأ أن صاحب هذا الضريح (qbr') زبيد يبول بن --- بن أتاشور يعود أصله إلى «بني قمر» (bny kmr) . ويحتوي النقش الذي أصدره ج . كانتينو ومصدره نيكروبول الغربي (عام ٦٧ م .) بناء شواهد القبور يديبيل بن تايماخ «يعود بأصله إلى فرع «بني قمر» dy mn phz bny kmr' ، واليونانية fyles khomarenon . ويذكر أحد نقوش دورايوروبوس (عام ٣٢ م .) مالكو بن رامو ، «الذي من بني قمر» (dy mn bny kmr') والذي ساهم في بناء معبد الإلهين التدمريين بيل وياريحبول . ولا يقتصر دور «بني

قمر» على أنهم مجرد جماعة ينتسب إليها هذا الفرد أو ذاك بل نصادفهم أيضاً جماعة نشطة تفعل في الحياة . فالنقش التدمري (عام ٨٣ م .) الذي يرافق نصب عتام ، إبنة أحد الأشخاص والذي لم يصلنا اسمه ، وهي زوجة بولوخ . لقد أقام لها هذا النصب عقليبول (الواضح أنه ابنها) و «بني قمر» (bny kmr') . ويبدو أن عائلة بولوخ وعتام نفسها قد لعبتا دوراً هاماً في حياة «بني قمر» وإلا لما شارك هؤلاء في هذا الحدث العائلي البحت . وأخيراً في عام ٢١ م . قام «بني قمر» (bny kmr') سوية مع «بني متبول» (bny mtbwl) ببناء نصب على شرف هشاش بن نيش الذي أحل السلام وعقد اتحاد هاتين القبيلتين . ونشير هنا إلى ان بعض الباحثين يقارنون هذا النقش مع نقش آخر يحتوي على نص قصير موضوع باللغة اليونانية : ـامه لمالح بن نيش بن كوم الملقب بالهشاش ، من قبيلة القمو - شعب تدمر تعبيراً عن ـكر» ، ولاشك أن الشخص المقصود هنا ليس نفسه المقصود في النص السابق . وتجدر شارة إلى أن النص اليوناني يسمي «بني قمر» fyle .

- «بني غديبول» (bny gdybwl . في النقش الذي أتينا على ذكره سابقاً ومنشؤوه ـايوروبوس والذي يروي عن معبدي بيل ويارنجبول يذكر بين من ساهموا في بنائهما ـدبول بن بايخو «الذي من بني غديبول» . ويستحق الاهتمام في هذا المجال النقش التدمري ـتوب باللغتين التدمرية واليونانية (تشرين الثاني عام ١٠٨ م .) . النص اليوناني لهذا ـش قصير جداً : «أقامه آل غديبول على شرف أكيي بن نواري بن أكيي» . أمّا النص ـمري فهو أكثر تفصيلاً : «أقام هذه النصب لاكيخ بن نوعاري بن أكيخ من بني غديبول ذلك أنه بنى لهم بوابة وكذلك بنى لهم في فولوجيسي مذبحاً كاملاً للحمد والتسبيح ، هو ومكانه ، لقد كان مفيداً لهم في كل شيء . لذلك أقاموا هذا النصب على شرفه . في شهر كانون عام ٤٢٠» . وهكذا نرى أن «بني غديبول» كـ«بني قمر» عبارة عن جماعة كان بمقدور أعضائها اتخاذ قرارات شبيهة من حيث تركيبها بقرارات السلطات التدمرية كما سنرى لاحقاً . وبما أنه ليست هناك أية إشارة إلى أنه كان هناك مجلس «لبني غديبول» لذلك نستطيع القول أن قرار إقامة النصب لاكيخ اتخذه الاجتماع العام للقبيلة . ولكن ما هو الدور الذي لعبه أكيخ بن نوعاري في حياة «بني غديبول» . فمن الواضح أنه لم يكن عضواً في مجلس تدمر ؛ لأنه لايجوز إغفال مثل هذا الأمر في مقدمة النقش . بالتالي فكل ما قام به الرجل من أعمال كان يحمل طابعاً فردياً ويبدو أن أكيخ كان صاحب ثروة محترمة وقد حاول الحصول على وضع ما بين آل غديبول هؤلاء ويبدو أنه نجح في الوصول إلى هدفه . ويجدر القول أن طابع أعمال الخير التي قام بها أكيخ له أهمية جوهرية . حيث نرى أن احدى المنشآت التي أقامها كانت في مكان مقدس بالنسبة لكل «بني غديبول» ويقع هذا المكان ضمن حدود تدمر . أما

الثانية فكانت في معبد «بني غديبول» في أراضي فولوجيسي . إذاً لقد كان هناك مكان واحد مشترك يؤدي آل غديبول فيه فروض العبادة - أي وحدة العبادة . ثانياً - يبدو أنه كان لآل غديبول مصالح مشتركة في فولوجيسي وقد تكون هذه المصالح مرتبطة بتجارة القوافل وكذلك بمركز العبادة الخاص بهم والمتواجد في هذه المدينة وهذا يفترض وجود مجموعة متراصة من آل غديبول تعيش بصورة دائمة في هذه المدينة .

٣ - «بني زبيدبول» (bny zbdbwl) . تذكر هذه المجموعة القبلية في عدد من النقوش ذات محتويات مختلفة . أحدها عبارة عن توقيع على نصب لمقيم بن عقيل بن باسايل بن تايمان - أقامه له مجلس الشعب في تدمر gbl tdmry' - يقول أن هذا الشخص المكّرم هو من «بني زبيدبول» . تفيدنا الوثائق بثلاث حالات يتصرف فيها «بني زبيدبول» كمجموعة متراصة تتخذ قرارات بتكريم أشخاص ويعود تاريخ هذه الوثائق إلى الربع الأخير من القرن الثاني الميلادي .

٤ - «بني نبُت» bny 'nv·bt) . يقول النقش التدمري المؤرخ في آذار عام ١٥٧ أن خيران بن يارخاي بن تايمة وحبيب بن يارخاي بن خيران وهما من «بني نبت» أقاما نصباً لمارك أولبي يارخاي بن خيران بن أبجر . ويشير النقش إلى أن هذين الأخيرين هما «صديقاه» ، وهذا ما يسمح لنا بالاعتقاد أنهما من زبائنه الموالين له . ولكن النقش لا يشير ما إذا كان مارك أولبي يارخاي ينتسب إلى «بني نبت» أولا .

٥ - «بني معزن» (bny m'zyn) . يفيدنا نقش تدمري مؤرخ في آب عام ٨١ م . أن أحد الأشخاص المذكورين فيه من «بني معزن» في عام ١٩٣٦ نشرج . كانتينو نقشاً يندرج فيه اسم أحد الأشخاص من «بني معزن» . ولكن النقش الذي يثير الاهتمام حقاً هو النقش التدمري المؤرخ عام ٦٤ م . والموضوع باللغتين التدمرية واليونانية وهو يرافق نصباً أقيم لسلاملات بن ياريخبول . يقول النص اليوناني الذي سقطت سطوره الأولى « -- إلى سلاملات بن ياريخبول بن نوربيل الملقب ---- التدمري ومن هذه الفيلا ، الطاهر ، مقدم الخدمات لهم في أعمال كثيرة وفي التشييد وفي التقدمات والنفقات وهي غير قليلة» . ويقول النص التدمري : «هذا النصب لسلاملات بن ياريخبول بن نوربيل والملقب --- يديعبيل التدمري ، من بني معزن ، أقامته له القبيلة ('lt) --- ذلك أنه أقام وبنى وأهدى --- وكان نافعاً لهم في كل شيء --- هذا النصب وهذا العمود . في شهر شباط عام ٣٧٥» . ويعتبر تحديد معنى كلمة 'lt إحدى أهم الصعوبات التي نتجت عن تأويل هذا النقش . فقد أشار ج . ب . شابو في معرض تعليقه على هذا النقش إلى أن معنى هذه الكلمة غير محدد ، فإذا كانت اسماً لكان يجب أن تعني - حسب صيغة الفعل السابق لها - مجموعة أو أنها صيغة

جمع . ويتابع شابو أن م . ليدزبارسكي اقترح - انطلاقاً من معنى هـذه الكلمة عنـد العرب الجنوبيين - أنها تعني «هذه» . أمّا م . سوبيرنخيم فيترجمها - «عائلة» معتقداً أن t هي بداية للكلمة التالية . وكان ش كليرمون - غانو قد عارض في حينه هـذا التفسير . ونحن لا نشك في أن تفسير هذه الكلمـة مرتبط بمحتـوى القسم اليونـاني من النص . فالصيغـة fyles tes aytes تفـترض أن يكون قـد ورد اسم هذه القبيلة في الجـزء التالف من النقش إمـا كجـماعـة أقـامت هذا النصب أو كجـماعة تنتسب إليهـا المجموعـة التي أقامت النصب المـذكـور . وفي الحالتين يجب أن تطابق الكلمة التـدمريـة It' المعنيين المـذكورين . وإذا مـا قورنت بـالكلمة العربية آل - «عائلة» فإنها يجب أن تعني مجموعة من الناس تربطها صلة القـربى ، وقد تكـون شقـاً من قبيلة «بني معزن» عـلى أية حـال ، نعتقد أن مصـطلح It يشكل إلى جـانب المصطلح الآخر phd/z أحد معنيين للقبيلة في تدمر . ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لترك السؤال التـالي مفتوحاً : لماذا تستعمل اللغة التدمرية هذه الصيغة الغريبة It المنتهية بحرف التأنيث t بدلاً من l كما هو مفروض ؟

٦ - «بني متبول» bny mtbwl يأتي ذكر أحد أفـراد هذه العـائلة في نقش تدمـري مؤرخ عام ١٩ م . - يـديعبيل ، بن عـزيزو بن يـديعبيل ، الـذي من «بني متبول» . لقـد ساهم هـذا الشخص في بناء معبد بيل فأقامت له مجموعة من التجار التدمريين واليونانيين نصباً تذكارياً . وتستحق الاهـتـمام المصـطلحـات الـواردة في الـقـسم اليـونـاني مـن النص : Fyles Mattaboleion ويحتوي نقش تدمري آخر (عام ٤١ م .) النص التالي : «في شهـر سيوان عام ٣٥٢ . هذا الضريح لكايتوت بن تايمارتسو بن كايتوت بن تايماخ الـذي من «بني متبول» (phd bny mt bwl) الذي بناه هو لنفسه ولأبنائه إلى الأبد» . أما النقش التـدمري المؤرخ عـام ٩ م . فهو عبـارة عن شاهـدة لقبر سليمان بن تـايمارتسـو بن شوقـاي الذي من «فـرع بني مـتبـول» phd bny mtbwl وهـنـاك نـقش آخـر وهـو غـير عـادي في صيـاغـتـه GIS,II,3975 (تدمر ، لا يوجد تـاريخ) : «جلب (qrb) رابيـل بن أمريشي الـذي من أبناء متبول ، هذا الهيكل للإله آرس» ويشير أحد النقوش التي نشرهـا ج . كانتينـو إلى أن باني قـبر تايمارتسو بن بوروف بن مالك بن عسيلة هو من أحد «فروع بني متبول» وهنا نقول ان أبجـدية هذه الوثيقة تسمح لنا أن نقرر بأن كتابة phd و phz لم تأت نتيجـة لاختلاف اللهجـات ولكنها تعطي معنيين متكافئين للحرف العربي (ذ) هذا ويفيدنا عدد آخر من النقوش التدمرية بأخبار متفرقة ومبعثرة عن أشخاص من «بني متبول» .

٧ - «بني يديعبيل» (bny ydy'bl) . حتى الآن لا نعرف سوى نقش واحد يحـوي صيغة : «من بني يديعبيل» . وهو نقش تدمري مؤرخ عام ١٣١ م . عرضه غير واضح .

٨ - «بني ختري» (bny htry) . المعروف لـدينا نقش واحـد مؤرخ عام ١٢٨ م . - تمثـال (npsˆ) ، أقامه مقيم بن زبيدة بن يارخان «الذي من بني ختري» (dy mn bny htry) .
٩ - «بني ميث» (bny myl') . في النقش التدمري المؤرخ في نيسان عام ٥٦ م . نقرأ النص التالي : «هذا الضريـح هوبيت الأبـدية ايتعقـاب بن غداي بن ايتعقـاب الذي من فـرع بني ميث ، بناه في حياته وعلى شرفه وشرف أبنائه ولاجل غداي ، والده هو . في شهر نيسـان عام ٣٦٧» . وإلى المرحلة الزمنية نفسها يعود النقش الذي هـو عبارة عن صيغـة على شـاهدة قـبر عقيل بن أوشاي بن كحيل الذي يوصف على الشكل التالي : «تدمري من فروع بني ميث» .
١٠ - «فيلا آل ماغرين» . حتى الآن نعرف إشارة واحدة لهذه الفيلا - في القسم اليـوناني من النقش التـدمري المؤرخ في نيسـان ٥٩ م . والذي وجـد القسم التدمـري منه تـالفاً تمـامـاً . أقيمت هذه الشاهدة من قبل شخص لم يصلنا اسمه ، بن نوربيل «من فيـلا آل ماغـيرين» . أقيمت الشاهدة «على شرفه ، وعقيل أخيه ، وأبنائه إلى الأبد» .
١١ - «بني زمر» (bny zmr') . الوثيقة الوحيدة هي الإهداء الذي قدمه مالـك بن بلعقاب «من فرع بني زمر» . الوثيقة مؤرخة عام ٣٠ / ٣١ م .
١٢ - «بني عغرود» (bny 'grwd) . يرد ذكر هذه المجموعة في عدد من الوثـائق ، إحداهـا نقش غـير مؤرخ وتـالف لم يبق منـه إلا مقـاطـع . ولكن البـاقي من النص ، كـما يشـيرج . كانتينو ، يوضح أن هذا النقش عبارة عن نص على شاهدة قبر بناه مقيم بن زبيدبـول بن عريم «الذي من بني عغرود» له ولأبنائه وكذلك لأبيه زبيدبول . والـوثيقة الأخـرى وهي نقش على نصب تكريمي (آب عام ٨١ م .) أقيم لمالك بن ليشامش بن هانيبال - من قبل آل عغرود .
١٣ - «بني قنبت» (bny knbt) . المرة الوحيـدة التي يذكـر فيها هؤلاء هي عـلى شاهـدة قبر خيران بن بالشور بن غدارتسـو (تدمـر ، تشرين الثاني عـام ٣٣ م .) ، الذي من فـرع «بني قنبت» .
١٤ - «بني مجدت» (bny mgdt) . ويأتي على ذكرهـم النقش التدمري المؤرخ في أيلول عام ٨٥ م . والذي يحوي النص التـالي : «في شهر أيلول عـام ٣٩٦ . هذا الهيكـل للعبادة ، بنى هـذا الهيكل وأهـداه إلى الإله شمش ، إلـه بيت أبيهم - ليشـامش وزبيـدة ولـدا مـالـك بن يديعبيل بن نيشا الذين من «بني مجـدت» لصحتهما وصحـة إخوتهـما . وإلى جانب العـائلات المذكورة تـذكر لنـا الوثـائق التدمـرية : «بني بـور» (bny bowr') ، «بني تيمارسـو» (bny tymrsw) ، «بني جـوجـو» (bny gwgw) ، «بني بـولـخ» (bny bwlh) ، «بني بُلْع» (bny bwl') ، «بني خشـاش» (bny hsˆsˆ) ، «بني سـاكنـة» (bny skn) ، «بني حنور» (bny hnwr) ، «بني عـلاي» (bny 'ly) ، «بني قسمـة» (bny ksmyt) ، «بني تيمـة»

(bny tymy) – تـذكر بعض الـوثائق التـدمريـة الإلـه – حـامي هـذه المجمـوعـة : gd tymy ، «بني نـوربل» (bny nwrbl) ، «بني عليـاي» (bny 'lyy) ، «بني عباد» (bny cbd) ، «بني ربـل» (bny rb'l) ، «بني سعـدو» (bny s^cdw) ، «بني حكيم» (bny hkym) .

وتفيدنا وثائق تدمر أن هذه الجماعات كانت تتمتع بقـدر لا بأس بـه من الاستقلاليـة . حيث يقول النص الذي يهمنا : «هذا نصب هشاش بن نيس بن بولخ بن هشاش أقامه له بني قمـر (bny kmr) وبني متبول (bny mtbwl) ذلـك أنه قـادهم وأحـل السـلام فيـما بينهم وساعدهم على حل كل مشاكلهم الكبيرة والصغيرة ، وتكريماً له أقيم هذا النصب . في شهـر كانون عام ٣٣٣» . يرى قارىء هذا النص هـاتين المجمـوعتين في وضعـين اثنين : آ) بينهـما صدام ولكن السلام حل بينهما بفضـل الجهود التي بـذلها الشخص مـوضوع التكـريم ؛ ب) تشترك المجموعتان في تكريم رجـل السلام هـذا . وهذا يعني أن كـل فئة من هـاتين الفئتـين كانت لها سياستها المستقلة ، تتعاديان أو تتحـدان للقيام بـأعمال مشـتركة . وبمـا أننا نعلم أن هشاش بن نيس لم تكن له أية صفة حكومية فإننا نستنتـج أن حكومـة تدمـر لم تكن تتدخـل في شؤون القبائل بل تركت لها حل خلافاتها الداخلية .

فالنص يقول صراحة أن هشاش كان يقف «على رأس» هاتين المجموعتين . ويبدو من غير المعقول أنه كان قائداً لهـذه وتلك في وقت تملك العداء فيـما بينهما . لقـد كان هشـاش مجرد رجل سلام استلم السلطة في هاتين المجمـوعتين لـوقت ما فقط . وبمـا أنه لم يكن ينتسب لأي من الفئتين المتخاصمتين ، وقد يكون شخصاً غريباً عنهما ودعي من قبلهما لإحـلال السلام أو أنه كان زعيماً لإحدى التجمعات القبلية التي ضمت بني قمـر وبني متبـول . وفي نفس الـوقت تؤكد المصادر أنه كان باستطاعة حكومة تدمـر التدخـل في شؤون بعض الجماعـات التي كانت تحمل إسم «فيلا» وتعطيها بعض الأوامر المحددة . وهذا ما يؤكده النقش Inv.,x,44 (تدمـر كانون الثاني عام ١٩٩) . ونشير هنا إلى أن هـ . إنكهولت نشر النص اليونـاني لهذا النقش . يقـول النقش أنه «بقـرار من المجلس والشعب» توجب عـلى أربع فيـلات أن تقيم نصباً عـلى شرف عقيل بن مكّاي بن عقيل بن سيفير . وتتوافق هنا تمام الموافقـة ، تقريبـاً صيغ مقـدمتي النصين التدمري واليوناني . ولكن الملفت للنظر أن النص التدمري يـذكر عـدد النصب التي أقيمت لعقيل وعدد الفيلات التي أقامتها – أربعة نصب أقامتها أربع فيلات .

ويبـدو أن هـذه الاشـارة – كـما تؤكـد بعض النقـوش الأخـرى – تحتـاج إلى شيء من التدقيق . فلنعرض الآن لأحد هـذه النقوش وهـو مؤرخ في تشرين الثاني عـام ١٧١ . وجد

هذا النقش على نصب تـذكاري أقيم لشخص غـير معروف وذلـك بناءً عـلى قرار من المجلس والشعب . وقد أقامته أربع فيلات كل في معبدها الخاص . يقول النص التـدمري : «أربـع فيلات من البوليس كل في معبدها» . ونورد أيضاً النص التدمري لهذا النقش والذي يقول : rb'/ph3y ph3 ph3 ph3 bt 'lhyh/ونشاهد نفس الحـالة أيضـاً في النقش المؤرخ في ٢٥ شباط عام ١٩٨ حيث أقيم هذا النقش على شرف عضو مجلس المدينة إيلي بن تيطوس عقيل : «أقامته أربع فيلات في معابدها وعلى نفقتها ومنها فيلا آل خونيت» . وفي النص التـدمري آل خونيت هـم بني قمر . كل فيلا من هذه الفيلات تنفذ قراراً اتخذه «المجلس والشعب» . وهي تنفذه بشكل مستقل تماماً . أي أنها كانت تملك موارد مالية معينة بـالتالي ، كـانت لها خـزنتها الخـاصة بهـا وكذلـك معـابـدهـا المستقلة . ونحن نعتقـد أن الصيغـة ai de tes poleos tesapes fylai لها أهمية جوهرية فهي تثبت أن الفيلات التي يجري الكلام عنها كانت عبـارة عن خلية بنيوية في النظام السيـاسي للمدينـة . وما يثـير الإنتباه أنـه لاأسماء لهـذه الفيلات – بـاستثناء إحـداها . ففي النقش المقـام تكـريمـاً لإيـلي بـورا جـرى ذكـر فيـلا آل خـونيت . ولانستطيع فهم عدم ذكر الفيلات الأربع في النقش إلاّ باتجاه واحد ، وهو أنها كانت معروفـة بما فيه الكفاية بالنسبة لأي قـارىء ويؤكد ذلـك ذكر عـددها – ويـبـدو أنه نهائي فلو كـان عدد الفيـلات أكثر لتـوجب ذكر أسـمائها وإلا لمـا أصبح واضحـاً من هي الفيلات التي تنفـذ قـرار «المجلس والشعب» . ونحن نعرف أن المصادر التـدمريـة تشير إلى ٣٤ خليـة قبلية . ويؤكـد هذا الاختلاف بين عدد الفيلات وعدد الخلايا القبلية أنها لم تكن مندمجة مع بعضها . والواقع أنه يمكن الاعتقاد أن كل أعضاء هذه الـ ٣٤ «فرعـاً» كانـوا موزعـين على فيـلات أربع . وإذا صح هذا التـوقع فيمكن أن نستنتـج أن بناء هـذه الأخيرة لم يقم عـلى رابطة القـربى وإنما عـلى أساس آخر قد يكون وحـدة الأرض . يمكن الاعتقاد أن هـذه «الفروع» الـ ٣٤ كـانت عبارة عن أجزاء تكونت منها هذه الفيلات الأربع . ولكن استعمال المصطلح اليوناني fyle للدلالـة على هذه وتلك دون أي فرق يضع اشارة استفهام على استنتاجنـا هذا . كـل «فرع» من هـذه الفـروع يحمل اسـماً ما «بني -- كـذا» . وهذا يـرجع ، عـلى ما نعتقـد إلى أن كل أفـراد هذا «الفرع» يعود أصلهم إلى جد واحد . وخلال فترة زمنية معينة تشير المصادر إلى الانتساب لهذا «الفرع» أو ذاك . ولكن التقيد بهذه القاعدة لم يكن منتظماً . نستنتج من هذا أن ذكـر انتساب الفرد إلى هذه الخلية أو تلك لم يكن إلزامياً لدى التدمريين . لقد كان «الفرع» عبارة عن جماعة مغلقة تتخذ قراراتها دون الـرجوع إلى سلطات تـدمر . وكـانت لها معـابدهـا الخاصـة . أما الفيلات فكانت تتصرف بناء على أوامـر وقرارات «المجلس والشعب» وهي بـالتالي دخلت في التركيب العضوي للمؤسسات الحكومية في تدمر .

وهكذا نرى أن المصادر التدمرية تؤكد لنا وجود مجموعتين من الفيلات : البوليسية والفيلات التي تجمعها رابطة القربى – وهي الفيلات العربية على الأرجح . ويبدو أن الباحثين الذين يرون في هذه التشكلات الأخيرة «موروثات عصر البداوة» محقين في اعتقادهم هذا . ولكننا نعتقد أنه من الأصح القول – موروثات عصر ما قبل ظهور الدولة لدى هذه القبائل التي استوطنت تدمر .

على أية حال نستطيع القول أن البنية الإدارية على أساس الفيلات لم تحظ بانتشار واسع في المدن السورية الهلنستية والرومانية . فلا ذكر لها في مصادر المدن الفينيقية حيث كانت البنية الإدارية هنا مختلفة تماماً .

مشاعات الغرباء في المدن السورية .

لقد شغلت وضعاً خاصاً في المدن السورية تلك الفئات السكانية التي لم تكن جزءاً عضوياً مكوّناً للجماعة المدنية بل غالباً ما عاشت خارجها في مشاعات مستقلة . ويعطينا الرومان مثالاً نموذجياً لهذه المشاعات . فمن المعروف أن hegotiatores الرومان الذين : تواجدوا في سورية منذ القرن الأول الميلادي كانوا موضوعاً تناولته الآثار الادبية (TAC.,ANN.,2,28) واذا ما قارنا وضع هؤلاء بالوضع السائد في آسيا الصغرى لأمكننا الاعتقاد أنهم أسسوا مشاعاتهم المستقلة هنا ، في المدن السورية ، وكان باستطاعة هذه المشاعات أن تتخذ القرارات الضرورية سوية مع سلطات المدينة (ونشير في هذا السياق إلى أننا لا نستطيع الموافقة مع وجهة النظر القائلة بأن مشاعات التجار الرومان في افاميا قد سقطت وانحلت بسرعة وأنها بذلك لم تعمر طويلاً . فالمصادر التي وصلتنا من افاميا تفيد عكس ذلك) . كما وشكل مواطنو المدن الاخرى الذين هاجروا من أوطانهم مشاعات مماثلة أيضاً . وهذا ما يفيدنا به النقش OGIS,593 من تل سندخانة حيث وجدت هنا مشاعة للصيداويين في ماريس ومن المعروف أيضاً أنه كانت للصيداويين مشاعات في بيروت وأرواد – في الماراثون . وتشير الوثائق الى إنتشار المشاعات اليهودية أيضاً في المدن السورية ، وخاصة في مدينة انطاكية . ويقول يوسف فلافي أن اليهود كانوا يتمتعون هنا بكافة الحقوق التي يتمتع بها مواطنو انطاكية أنفسهم ويروي لنا النقش الآرامي (ED,VL,p.390) والذي وصلنا من

دورايوروبوس والمؤرخ عام ٢٤٥ أنه يقف على رأس المشاعة اليهودية الموجودة في هذه المدينة رئيس - كبير المشاعة . وكان يوجد فيها أيضاً مسؤول الخزنة والمسؤول الاداري ، ومهمة هذا الأخير توزيع الأعمال التي يتوجب على أفراد المشاعة تنفيذها .

★ ★ ★

وتسمح لنا المصادر التي بين أيدينا أن نرسم صورة واضحة ومحددة للبنية الادارية للمدن السورية ابان الاستعمار الروماني . والكمية الأكبر من هذه المصادر وصلتنا ، خاصة من تدمر ولذلك نرى من المفيد ان نتوقف عندها .

البنية الإدارية لتدمر .

تؤكد المصادر التاريخية التدمرية أن جهازين جماعيين من أجهزة السلطة قد لعبا دوراً هاماً في الحياة السياسية لهذه المدينة : المجلس والاجتماع الشعبي . ويلفت النظر في مصطلحاتها الادارية كلمة gbl ـ وهي واحدة من الكلمات الـ امية القليلة التي وصلت الينا والتي تتعلق بهذه الدائرة من المفاهيم . ويشير المختصون في تاريخ تدمر الى أن هذا المصطلح يعني الاجتماع الشعبي الذي يضم مختلف التشكيلات القبلية . ولكن يبدو أن هذه المقولة تحتاج الى تدقيق ملحوظ . فالنصان اللذان استعملت فيهما كلمة gbl لا يعطيان امكانية لفهمها على أنها تعني ـ اجتماع القبائل .

أحد هذين النصين وصلنا في النقش CIS,II,3923 . ونقرأ في نصه اليوناني ما يلي : «أقامها بوليس تدمر /palmyrenone polis/ على شرف مقيم بن عقيل . . . الذي هو أيضاً أوقايس» . أما النص التدمري فيقول : «هذا النصب لمقيم بن عقيل بن باتسيل بن تايماي الملقب بخوكيش وهو من بني زبيدبول ، أقامه لـه gbl tdmry» . وفي النقش الآخر يتطابق مفهوم gbl tdmrY مع مفهوم palmyrenon odemos (Inv.,X,12) . ونحن لانشك في ان مصطلح gbl a dmry كان يعني في الحالتين ، في القرن الاول ، مجموع الجماعة المدنية في تدمر . وهذا التفسير لا يتعارض مع مفهوم كلمة gbl في اللغة العربية الكلاسيكية (gibillun) ـ «حشد» ، «اجتماع» . وفي هذا السياق يستحق كل الاهتمام تغلغل المفردات العربية الى الوثائق التدمرية الأمر الذي يعني بداية تعريب سكان المدينة وهذا يتضح أكثر من كثرة الأسماء العربية التي نصادفها في النقوش التدمرية . وفي نفس الوقت يعتبر

وجود مثل هذا المصطلح دليلاً على أن هناك اتجاهاً معادياً لليونانيين وإلاّ لما استخدم المصطلح العربي بديلاً عنه . ولكن مثل هذا الاتجاه كان لا يزال ضعيفاً . فالأكثرية الساحقة من المصطلحات الإدارية بقيت باللغة اليونانية .

ومن بين المصطلحات اليونانية يلقى اثنان منها أهمية خاصة : dmws ـ demos وBoyle ، أي «مجلس» و«شعب» . وقياساً على ما قيل سابقاً عن المصطلح العربي ـ التدمري gbl الذي يقابل اليوناني demos ـ يمكن القول أن كلمة demos سقطت من قاموس الاستخدام هنا ليحل محلها المصطلح القديم والذي أتينا على ذكره . لقد كان من الممكن أن نعتقد أن هذا التغير في المصطلحات قد جاء نتيجة لتغير ما في وظائف هذه الأجهزة . ولكن الوثائق التي بين أيدينا لا تشير إلى ذلك قط . اما استبدال مصطلح demos بمصطلح gbl فقد جاء نتيجة لانتشار هذا الأخير في الوسط الاداري . وتسوق لنا بعض النقوش التدمرية معطيات عن أعضاء المجلس . فالنقش (IKV,X,57) يرافق نصب التكريم الذي أقامه المجلس لأحد أعضائه . ومثل هذه الاشارة نجدها في النص التدمري لنقش آخر (IKV,X,69) المؤرخ في آب عام ١١٢ . ومن الطريف أننا نجد مثل هذا اللقب (عضو المجلس) في أحد النقوش التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الميلادي . IKV,III,12 . وقد أقيم هذا النقش على شرف افريلي فورودا . ويجري هنا وصف الطاقم المذكور في هذا النقش على الشكل التالي : BoYleyten polmyrenon ، وفي النص التدمري bylettdmry . ومما له دلالة خاصة أنه حتى بعد أن قامت في تدمر ديكتاتورية فردية بقي المجلس يمارس مهماته وبقي أعضاؤه ، كالعادة من أوساط الارستقراطية التدمرية التي استخدمت المجلس للدفاع عن مصالحها . وهذا ما يفسر ذلك الدعم المالي الذي قدمه ارستقراطيو تدمر الى المجلس في منتصف القرن الثالث . فقد أفادنا النقش (CIS,II,3934) المؤرخ عام ٢٥٤ أن شخصاً يدعى يوليوس افريلي عوجة والملقب بسلوقس قد تبرع للمجلس بمبلغ ١٠ آلاف درهم .

ولكن يجب أن نعترف أننا لانعرف إلا القليل عن وظائف ومهمات مجلس تدمر . فهو يذكر في عدد هائل من النقوش التي هي عبارة عن نصب تكريم أقيمت بناء على قراراته تكريماً لأشخاص . ويقول ج . فيفرية أن نصب التكريم التي أقيمت قبل عام ١١٨ كانت بناء على قرارات المجلس وحده وبعد عام ١٢١ أصبحت هذه النصب تقام تنفيذاً لقرارات «المجلس والشعب» . ولقد ربط الباحث هذه الظاهرة بالاستعمار اليوناني متوقعاً في نفس الوقت أنها جاءت لتعكس تغيراً حدث في دستور تدمر . ولكننا نعتقد أن أساس مثل هذا البناء غاية في

الضعف . ذلك أن أحد هـذه النقوش وهـو مؤرخ عام ٧٤ قـد أقيم بناء عـلى قرار صـادر عن «المجلس والشعب» سوية . وحتى المصادر التي أوردناها نحن نؤكد أن الشعب التدمري كان يتصرف كتنظيم مستقل قبل عام ١١٨ بزمن طويل .

وفي نفس الوقت يجب أن نشير الى أن أهم وثيقـة تدمـرية وصلتنـا حتى الآن ـ التعرفـة الجمـركية ، عـام ١٣٧ ـ قد اقـرت من قبل المجلس فقط . ومن المفيـد هنا أن نـورد مقدمـة الوثيقة المـذكورة (CIS,D,3913) : «عـام ٤٤٨ ، شهر كسـانديـك ١٨ . قرار المجلس . (douma Boyles)» ويعيد النص التدمري حرفيا المصطلحات اليونانية : «قـرار المجلس (dgm dy bwl) ، في شهر نيسان ، اليوم الثامن عشر ، عام ٤٤٨» الخ . . . . لقـد كانت «التعرفة الجمركية» أهم وثيقة تدمرية عـلى الاطلاق وكـانت لها أهميـة خاصـة بالنسبـة لتدمـر أيضاً . حيث نظمت كل الحياة التجارية في المدينة وقد كان لموضوعاتها تأثير مبـاشر على حيـاة كل مواطن من مواطني المدينة وسكانها . وكـون المجلس هو الـذي أقر قـانونيـة هذه الـوثيقة وشرعيتهـا يعني أنه حتى النصف الثـاني من القرن الثـاني كان لا يـزال هذا الجهـاز يتمتع بقـوة فعليـة . حيث كانت لـه كل المؤهـلات التي تخولـه اتخاذ قـرارات تتعلق بـأهم نـواحي حيـاة المدينة .

لقد جاءت في مقدمة هذه الوثيقة صيغة لها أهمية خاصة : «عندما التأم المجلس بشكل قانوني» ، وفي النص التدمري Kd hw bwl knys mn nmws في الحالتين يجـري الكلام عن شيء واحد : اجتماع المجلس الذي أقر التعـرفة تم مـع مراعـاة كافـة الأصول والقـواعد والتقاليد المرعية . وهذا التأكيد لا يعني سوى أنه لم يكن باستـطاعة المجلس أن يلتئم إلاّ بعـد أن يكتمل نصابه القانوني . وهذا ما تفيد به أيضاً مصادر القوانين الرومانية .

من جهة أخرى لم تصلنا أية قرارات اتخذهـا الاجتماع الشعبي في تـدمر ـ مـاعدا اقـامة نصب التكريم ـ سواء سوية مع المجلس أو تلك التي تتخذ من قبـل الاجتماع نفسـه . ولكن واقـع قرارات نصب التكـريم يـدل عـلى أن الاجتـماع الشعبي كـان لـه وجـود في القـرارات الحكومية .

وتفيـد النقوش التـدمريـة الواقعـة في الفترة من القـرن الثاني وحتى الثـالث ضمنـا أن نظام . الوظائف الحكومية هنا كان له وجوده الواضـح . فلائحـة التعرفـة المذكـورة تشير إلى وجود فئتين من الوظائف الحكـومية في هـذه المدينـة . تضم الفئة الأولى اؤلئـك الذين يـرتبط عملهم ارتبـاطاً مبـاشراً بعمـل المجلس والاجتماع الشعبي . وإليهم ينتمي ، قبـل كل شيء ممثل المجلس ـ ويدعى برويدور وقد ورد اسمه في قرار التعيين . ويقـول النص التدمـري :

«في عهد بوني بن بوني بن خيران بريدو» . وفي وثيقة أخرى مؤرخة عام ٢٠٠ يؤكد البرويدر — مالح بن باري بن مالح بن سيماني «يقيم المجلس والشعب» نصباً على شرفه . الوظيفة الهامة الاخرى التي تنتمي إلى هذه الفئة هي وظيفة كاتب المجلس والشعب . وتذكر لائحة التعرفة اسم أحد هؤلاء وهو الاسكندر بن الاسكندر بن فيلوباتر . وتعني صيغة «كاتب المجلس والشعب» أنه كان يقوم بوظائف السكرتارية للمجلس وللاجتماع الشعبي . وكان من شأن مثل هذا الجمع للسلطات أن يكرس تنسيق سياسة هذين الجهازين بما يخدم مصالح المجلس . وعليه فقد كان صاحب هذه الوظيفة يتمتع بصلاحيات واسعة جداً . ولذلك ليس صدفة أن يصلنا هذا العدد الكبير من النقوش التي تكرم مثل هؤلاء الكتاب الذين تعدى مجال نشاطهم اعمال السكرتارية . أحد هذه النقوش يشير من بعيد الى أن زبيدبول بن شمشيجيرام كان يقوم بوظيفة الكاتب . وهذا النقش يرافق النصب الذي أقامه المجلس تكريما لهذا الشخص . ويقول النص اليوناني لهذا النقش : «ولم يكلف بها الكاتب السابق» ، ويقول مثيله التدمري : «لقد قام بوظائفه ككاتب بشكل جيد» . ويقول نقش آخر أن الكاتب قد آخذ على عاتقه نصيبا من النفقات التي صرفت على البناء وذلك أثناء قيامه بوظيفته هذه . ولكن ليس واضحاً حتى الآن ما إذا كانت هذه المهمات تدخل في صميم واجباته أم أنه كان مجبراً على القيام بها بغض النظر عن أنها لاتدخل في دائرة واجباته هذه وذلك سعياً منه لتقوية مواقعه الشعبية .

أمّا الفئة الثانية من هؤلاء الموظفين فهي الفئة التي لاترتبط أعمالها بنشاط المجلس والاجتماع الشعبي مباشرة . وتجدر الإشارة هنا قبل كل شيء الى ما يسمى بالارخونت . حيث تشير لائحة تعرفة الضرائب الى هؤلاء بالأسماء (مالك بن عليان بن مقيم وزبيدة بن نيش) ويأتي ذكر هؤلاء في صياغة المقدمة سوية مع البرويدرات والكتاب . وتجدر الاشارة هنا إلى أن النقوش التدمرية كانت تؤرخ على الطريقة السلوقية والتعرفة لاتشكل استثناء في هذا المجال .

يفهم من لائحة التعرفة أن مجموعة الارخونت هذه تتألف من شخصين لهما نفس الصلاحيات . وحسب قرارات المجلس فإن مجال نشاطهما واحد أيضاً . انطلاقا من أن امكانياتهما متماثلة بشكل عام . ولقد ضمت صلاحيات الارخونت وظائف ادارية ورقابية وتشريعية ولكن هذه الأخيرة بتكليف من المجلس . ولا توجد لدينا أية معطيات من تدمر وللحكم على أسباب تحديد عدد مجموعة الارخونت وأساليب دستوريتها .

الى جانب هذه الوظائف الحكومية أخذ دستور تدمر بعين الاعتبار وظائف أخرى

تذكرها النقوش التدمرية . منها مثلا مدير الشؤون الزراعية (سيبتيم فورودا) . وهناك أيضاً منصب الاستراتيجي . وتظهر النقوش أن هذه الوظيفة تطورّت في تدمر من وظيفة مرتبطة بتنظيم مقاومة البدو الرحل وتأمين سلامة القوافل التجارية . وتدلنا النقوش على أن هذا الأمر عرف في نهاية القرن الثاني . وعلى أية حال فإن ظهور وظيفة الاستراتيجي لا يرتبط أبداً بإلغاء وظيفة الارخونت . فبين يدينا نقش مكتوب باللغتين التدمرية واليونانية (CIS,II,3934)ويروي لنا هذا النقش عن نشاط يوليوس افريلي عوجة ـ الدوفير السابق الذي قام «بكل رحابة صدر» بواجبات الاستراتيجي . ولكن النص التدمري لا يشير سوى الى وظيفته الأخيرة فقط .

ونحن لا نعرف سبب عدم اشارة النص التدمري الى وظيفة الدومفير ولكن النص اليوناني يظهر أن وظائف الدومفير والاستراتيجي ليست واحدة . فالدومفير ، على ما نعتقد هو وريث الارخونت . وظهوره مرتبط بالتغيرات التي طرأت على الشخصية السياسية لمدينة تدمر ، وقبل كل شيء حصولها على الحقوق الايطالية في أواسط أو النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .

يذكر أحد النقوش المقامة على شرف «زفس الأعظم» ومهدى الى «ذلك الذي سيبقى اسمه خالداً» ـ مجموعة الارغيروتيين والتي ضمت أربعة أشخاص : زبيدة بن تيمور اميد ، مقيم بن يريخبول ، يرخاي بن نوربيل وعنان بن مالك . ويشير النقش الى أعمال بناء ما على شرف الآلهة المذكورة وقد قامت بها المدينة على نفقتها الخاصة . وهؤلاء الأشخاص هم الذين أشرفوا على عملية الانفاق من خزينة المدينة وتنظيم أعمال البناء هذه . وتشير بعض النقوش الأخرى إلى أن مجال عمل الارغيروتيين لم يتعد الاشراف على عمليات الانفاق من خزينة المدينة .

تذكر لائحة التعرفة الضريبية وظائف جماعية أخرى ـ ديكابروتيين (srt)والسينديكيين (sdqY) . وقد حدد المجلس طابع نشاطهما على الشكل التالي . يقوم الديكابروتيون سوية مع الارخونت بتحديد حجم الضرائب وتوقيع الاتفاق مع متعهد جمعها ، صياغة وكتابة نص القانون وكذلك مراقبة تنفيذه . وهذه الأخيرة فقط انيطت بالسينديكيين . وبما أن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بسلطة تنفيذية أو تشريعية فقد اقتضت الأعراف السائدة في تدمر أن تبقى هذه الجماعة مجرد جهاز مراقبة . وفي نفس الوقت لم يكن هناك فرق بين صلاحيات الارخونت والديكابروتيين . وتجدر الاشارة أنه حتى الآن لا تتوفر لدينا معطيات عن أسباب هذه الظاهرة .

عند دراسة البنية الادارية لمجتمع تدمر برزت أمامنا مسألة معرفة علاقة الدوائر الحاكمة في المدينة بتنظيم البوليس . فعلى امتداد المرحلة التي نحن بصدد دراستها نرى أن ارستقراطية المدينة تسعى جاهدة للحصول على المناصب والوظائف العليا فيها ولم تدخر مالا لتحقيق هذا السعي . ومن الواضح أن السبب في ذلك هو الدور الكبير الذي كانت تلعبه أجهزة البوليس حتى في القرن الثاني الميلادي . وفي منتصف القرن الثالث ـ بغض النظر عن أن دولة أذينة ـ زنوبية كانت قائمة ـ استمرت الارستقراطية التدمرية تشارك في المجلس وتقوم بالوظائف الحكومية . وهذا ليس غريباً : فنصب التكريم التي أقيمت تنفيذاً لقرار «المجلس والشعب» أو المجلس فقط تدل على أن هذين الجهازين كانا لا يزالان قويين بما فيه الكفاية وبالتالي كان ـ يمكن استخدامهما في بعض الحالات لخدمة مصالح الدوائر الحاكمة . ويثبت مثال سيبتيم فورودا أنه كانت لممثلي الفئات الحاكمة القريبين من العائلة الحاكمة مصلحة في تدعيم أجهزة سلطة البوليس . ونعتقد أن السبب في ذلك يكمن في ان نظام البوليس هو النظام الأنجع والأكثر فاعلية لتحقيق سيطرة تلك الفئات .

البنية الادارية لانطاكية

وفي انطاكية أيضاً كان المجلس والاجتماع الشعبي ـ جهازي السلطة الجماعية . وهذا ما تحدثنا عنه المصادر التي وصلتنا من هذه المدينة . فيذكر تاتسيت الاجتماع الشعبي هنا : «عندما دخل الى مسرح الانطاكيين ، حيث يجتمعون عادة» وهذا ما رواه مرات عديدة يوسف فلافي . ويؤكد هذان المصدران أن الاجتماع الشعبي كان لايزال قائماً حتى القرن الثاني الميلادي . ولكن هذه الروايات لم تشر الى المسائل التي كان يناقشها ويقرها الاجتماع .

أما فيما يتعلق بالمجلس فيعود تاريخ تقاليده الانطاكية ، كما جاء في خطب ليبانوس الى زمن الاجداد . حيث يشير ملالا إلى أن أول من بنى مجلساً في انطاكية هو انطوخ الرابع ابيغان . ولكن يبدو أن هذه الرواية تحتاج الى دراسة خاصة . يقول ملالا : «هذا الملك ، انطوخ نفسه ، الملقب ابيغان هو أول من أسس في انطاكية ما يسمى . بمجلس خارج المدينة حيث كان يجتمع هنا كل السيناتورية سوية مع أعضاء المجلس وكل سادة المدينة وقد بحثت هنا كل الأحداث الهامة الراهنة . وكان يتوجب على المجتمعين أن يصيغوا له القرارات الواجب اتخاذها» . كما نرى ، يدل هذا النص على وجود جهاز تشريعي تابع للملك نفسه ويتألف من مستشاريه وكبار موظفيه وكذلك من أعضاء المجلس وأغنياء انطاكية . وما يميّز أعمال هذا الجهاز أن كل قراراته كانت تحوّل إلى الملك ليبت فيها . وعليه لايمكننا القول أن

المجلس كان مجلس انطاكية . ومع ذلك فإن ذكر oi politeyomenoi دليل صريح على وجود مجلس في المدينة كان له دور ملحوظ في حياتها السياسية .

ويشير ملالا نفسه الى رواية أخرى عن تأسيس المجلس ولكن هذا التقليد يرتبط الآن ـ حسب روايته ـ بنشاط بومبي في انطاكية . ومن الواضح أن المقصود هنا هو بناء دار لمجلس المدينة . فإقامة بناء خاص له كان من شأنها أن تؤكد على الاهتمام الذي أولاه المحتلون الرومان لجهاز السلطة هذا وفي الوقت نفسه لفاعلية هذا الجهاز . ويؤكد أحد المصادر على وجوب ارسال نسخة من المرسوم إلى «مجلس وشعب» انطاكية .

لقد جاء في خطبة ليبانوس المذكورة أنه في المراحل المبكرة من تاريخ المدينة كان المجلس يضم ممثلي الطبقات الغنية من سكان المدينة . وكان المجلس حسب الخطبة المذكورة ـ يراقب الحياة الاخلاقية في المدينة . وهو يقود كل نواحي الحياة فيها بما في ذلك عمل الموظفين .

ولسوء الحظ أنه لا تتوفر لدينا أية مصادر ، تعود لعصر البرينتسبات وتسمح لنا بمعرفة طرق وتقاليد تشكيل نصاب المجلس . ولكن المواد الأكثر حداثة تسمح لنا بتحديد فئتين داخل مجالس القرن الرابع : اؤلئك الذين ينتسبون من حيث المنشأ الى الفئة المعنية واؤلئك الذين جرى ضمهم الى المجلس عن طريق التعيين بناء على قرار المجلس نفسه . وعلى صعيد آخر لاتتوفر لدينا أية معلومات عن المرحلة التي أصبحت فيها عضوية المجلس وراثية . ولكننا نستطيع أن نعتقد أن نشوء هذا التقليد بدأ يشق طريقه تدريجياً منذ عصر البرينتسبات نتيجة لاكمال نصاب المجلس من أوساط دوائر محدودة جداً من العائلات ذات النفوذ . ولكن الوراثة هنا ، بحد ذاتها ليست اجراء فنشوؤها ووجودها لم يتعارضا اطلاقا مع واقع اتخاذ قرار خاص حيال كل شاغر في مقاعد المجلس ونحن لا نعتقد أن نظام التعيين في مجالس القرن الرابع قد نشأ في القرن الرابع نفسه . وبما أن كل نشاط المجلس يعود في أصله الى عصر البرينتسبات وحتى الى مرحلة مبكرة أكثر ـ العصر الهلنستي فيجب أن يكون اجراء التعيين هو الآخر يعود بنشئه الى القرن الأول ـ الثالث وقد يكون الى عصر الاستعمار اليوناني لسورية . وهكذا نستطيع القول أن نظام التعيين في المجلس كان قد وجد في سورية ، وخاصة في انطاكية منذ القرن الأول ـ الثالث . ونعتقد أننا لانحتاج لشرح ديمقراطية هذا النظام . أما فيما يتعلق بالاجتماع الشعبي فيقول ليبانوس أن نشاطه كان يتوافق عملياً مع قرارات المجلس وليس صدفة أن يقول رجل كليبانوس أن الاجتماع الشعبي «عندنا» يذكرنا بالأطفال أمّا المجلس فيذكرنا بالآباء .

الواقع أن وصف ليبانوس يرسم لنا صورة مثالية وهذا سببه الطابع الدفاعي الذي تمتاز به خطبته وإضافة إلى ذلك يعود وصفه هذا الى نهاية القرن الرابع ولكنه على أية حال يعطي وصفاً واضحاً للعلاقة المتبادلة بين مجلس انطاكية واجتماعها الشعبي ووظائف كل منهما . ومما يثير الاهتمام أن ليبانوس كان يستطيع حينها أن يتكلم عن هذين الجهازين كفاعلين .

وفيما يتعلق بالوظائف الجماعية هنا فنحن لا نعرف إلاّ القليل القليل . يذكر بلوتارخ الارخونت - في انطاكية - وتذكر بعض الوثائق الأخرى مسؤولي الشؤون الزراعية . وعليه يمكننا أن نعتقد أن الوظائف الجماعية في انطاكية كانت شبيهة - من حيث الخطوط العامة - بمثيلتها في تدمر .

البنية الادارية لمدينة دورايوروبوس .

لا نزال حتى الآن نفتقد الى الوثائق التي يمكن أن تساعدنا في الفاء الضوء على نشاط الاجتماع الشعبي في دورايوروبوس ولكن ، على ما يبدو أن غ أ . كوشيلينكو محق في اعتقاده بوجود مثل هذا الاجتماع ابان العصر السلوقي . كما ولا يستبعد أن يكون النقش ED,II,PP.86 -
87المؤرخ عام ١٦٠ م . تأكيداً لهذا الاعتقاد . حيث يقول النقش أن «البوليس» يقيم هيكلاً «لزفس المعظم» . وفي معرض تعليقه على نص هذا النقش كان ك . غوبكنيز جذراً للغاية عندما قال أن مصطلح e polisلم يعن فقط Boyle eوإنما يعني أيضاًo demos . وعلى أية حال فإن بناء السوق التجارية ابان سيطرة البارفانيين والرومان في دورايوروبوس لا يعني بالتأكيد وقف عمل الاجتماع الشعبي الذي كان من الممكن أن يعقد في المسرح ، مثلاً - كما هي الحال في بقية المدن السورية . أما عمل المجلس فتوضحه الوثائق بشكل أكثر تحديداً . حيث يؤكد النقش ED,III,D,14,المقام على شرف يولي دمنه أن المجلس أقر اقامة هذا النصب . كما وتذكر نقوش أخرى أعضاء المجلس وهم يحملون أسماء سورية علماً أنهم يحملون أيضاً حق المواطنية الرومانية .

لقد اتصف نظام الوثائق الجماعية في دورايوروبوس بالطابع المتميز التالي . فالنقوش تشير دائماً الى الاستراتيجيين - كبار موظفي جهاز الدولة ، أحدهم ، وهو سلوقس بن ليسي ينتمي إلى أعرق عشيرة في المدينة . ويذكر أحد نقوش القرن الثالث dtoateu poleos ueneaokhes وبعض المصادر يكون الاستراتيجي نفسه الكاتب . ويعتقد كوشيلينكو أن

هذا الجمع بين الموظفين عائد لتعقد جهاز الدولة ابان السيطرة البارفانية وجدير بالذكر أنه كان يجري انتخاب الشخص الذي سيقوم بمهات هاتين الوظيفتين من قبل الاجتماع الشعبي .

موادعن البنية الادارية لباقي المدن السورية .

يلزمنا شح المعلومات المتوفرة لدينا عن البنية الادارية للمدن السورية الأخرى أن ندرس هذا الموضوع بشكل جماعي يشمل هذه المدن كلها مجتمعة . وفي نفس الوقت تسمح لنا هذه الطريقة أن نرسم صورة عن الشكل البنيوي السائد في النظام الاداري لهذه المدن . وهذا لا يعيقنا أبداً أن نشير الى الخصائص المحلية إن وجدت .

تعتبر الرسائل التي وجهت إلى المدن السورية بمختلف المواضع الشاهد المتكرر على وجود المجلس والاجتماع الشعبي (وأحياناً المجلس وحده) فمثلاً ، غاي يوليوس قيصر وجه رسالته الى «الارخونت الصيداويين والمجلس ، والشعب» (FL.LOS.,ANTT,14,190) . ويؤكد النقش IGRR,III,10,3على وجود هذين الجهازين في صيدا في القرن الثاني من القرن الثاني الميلادي . وتحوي رسالة مارك انطوني إلى صور صيغة مماثلة : «إلى الارخونت الصوريين والمجلس والشعب تحية» (Fl.los.Antt,14,314) . وتجدر الاشارة هنا الى النقش IGRR,I,421الذي يحوي مقتطفات من محاضر اجتماعات المجلس . اذ يترافق تأريخ هذا النقش بالصيغة التالية : «ابّان مناوبة فاليري قوليقراط بن بافساني ، البرويدر» . أي ان برويدرات المجلس كانوا يتناوبون على رئاسته . ومن الطريف هنا طريقة اتخاذ القرارات : تقرأ رسالة عشيرة البوتيوليين ويقوم بعد ذلك احد أعضاء المجلس بتقديم اقتراح («قال») ثم تجري صياغة القرار نفسه بالثناء على كلمة مقدم الاقتراح («حسناً قال فلان») . ومما له أهمية خاصة هنا أن قرار المجلس – جواب على الرسالة الموجهة الى «الارخونت» والمجلس والشعب سيّد الوطن» .

تتوفر لدينا مجموعة كبيرة من النقوش التي أقيمت تكريماً لأشخاص بارزين في مختلف مجالات الحياة وقد أقيمت هذه النقوش بناء على « قرار المجلس والشعب » في مختلف المدن السورية . ونورد هنا مثالاً ، تلك النقوش التي وصلتنا من مدينة أرواد(Igrr,III,1015,1017,Wadd ومن مدينة ، 1840-
119,Ctl,III,14165.CIVITAS et bule aradia) طرابلس Ogis,587ومن بيروت
(IRR,III,1450,WADD,1814 D) ومن مريمة exdecr/eto/dec/urionum/et/

po/pu/i voluntate) ,Jmi,V 2106,حمص عـام ١٩٥ ، ومن أفاميـا (عهد كـركلا ، JMI,1346)وهناك نقوش أخرى نقرأ فيهـا كلمة « شعب » . وقـد وصلنا أحـدهامن ارواد ويعود تاريخـه الى منتصف القرن الأول الميـلادي (lgrr,lll,1018) كما وصلنـا نقش آخر من عيتا(lgrr,lll,1142) وهناك حالات لا يتضمن النقش فيها سوى ذكر المجلس .

لقد كان من المغري جداً أن نستنتج من هذه الحـالات ازدياد دور المجلس أحيـاناً ودور الاجتماع الشعبي أحياناً أخرى ولكن المصادر المتوفرة لدينا تحرمنا من مثل هـذه المتعة . وعـلى أية حال فإننا نقترح ترك هذه المسألة مفتوحة لحين ظهور مواد جديدة .

ففي بعض الحالات تصادفنا تيرمينـولوجيـا (علم المصطلحـات) فريـدة . فالنقش 121/2 lgrr,lll,1185 من سلوقية بيرية يستخدم صيغة غير عادية -O´demos kai epro boule التي يقارنها الناشرون بالصيغتين الواردتين في رسائل ابولون تـريانسكي : -Seleu keon tots proboulois و Kaidsape on proboulois وكـان يجب أن نضـيف الى هذا مقاطع من مؤلفات فيولون الاسكندراني حيث أعضاء المجلس والبروبولي (أعلى بدرجة من أعضاء المجلس ولكنهم أعضاء في المجلس أيضاً –المترجم) يتمتعون بحقوق غير متساوية ويعتقد فيلون أن محاولة مساواتهم سوف تكون سبب القـلاقل والكـوارث . ولكن مثل هـذه المقارنة تلقي ضوءاً ضعيفاً على البروبولية كجهاز من أجهزة السلطة . ومـع ذلك فـالناشرون لهذا النقش يعتقدون أن الجهاز السلطوي المذكور كان يوجه عمل المجلس وكان كل عضو من أعضائه يحمل لقب Proboulos . ومع أن هـذا الاعتقاد معقـول إلاّ أنه يثـير الشك . فلو كان الأمر كذلك فعلاً لتوجب علينا أن نعترف أن مثـل هذا (المجلس الـرئاسي) داخـل مجلس المدينة يستطيع تقديم اقتراحاته مباشرة الى الإجتماع الشعبي متخطياً أعضاء المجلس . ونحن نعتقد أن هذا الإجراء غير وارد وهذا ما يؤكده عدم إشارة أية وثيقـة إلى ذلك . ولـذلك فنحن نرى أن هذه الترمينولوجيا الغير عادية لا تعني سوى أن المجلس الرئاسي في سلوقية ، بيريا كان يتمتـع بمثل هـذه الصلاحيـات . أي أنه كـان باستـطاعة هـذا المجلس أن يتخـذ القـرارات الضرورية بهذا الشأن أو ذاك قبل عـرضها عـلى الاجتماع الشعبي لبحثهـا . وفي نفس الوقت كان الاجتماع الشعبي هو الذي أقر منح اريستولوخ حق المواطنية .

أما فيما يتعلق بنظام الوظـائف الجماعيـة فتؤكد الـوثائق عـلى وجود نـظام الارخونت في مختلف المدن السورية . وتشير إحداها الى الأرخونت انحريب بن مـارك الذي استمـر في هذا المنصب عاماً واحداً وبالتالي فنظام الارخـونت هنا كـان سنويـاً . ويؤكد النقش Ogis,587 وقد وصلنا من طرابلس على وجود نظام الارخونت هنا أيضـاً . فقد أقيم هـذا النقش تكريمـاً

لأحد الأشخاص حيث أقامه الارخونتات « والمجلس والشعب » ويفيدنا يوسف فلافي أن هذه الوظيفة حافظت على وجودها في صور حتى القرن الأول الميلادي . ويشير هذا النقش أيضاً الى أن «ارخونت صور» كان يلعب دور المنفذ لتعليمات انطونيو حيث كلفه هذا الأخير بمعاقبة اليهود الذين انتفضوا ضد هيرودوس . ولكن هذا لايعني أنه لم تكن لدى ارخونت صور مجالات مستقلة لنشاطه ولكن الظرف الراهن فرض عليه أن يتصرف ضمن هذه الدائرة . لقد كان نظام الارخونت معروفاً في بعلبك أيضاً حيث كانت توجد هنا لجنة ارخونتات مؤلفة من ثلاثة أشخاص .

وترتدي أهمية خاصة تلك الوثائق التي وصلتنا من مدينتي بصرى وجرش . وخاصة النقش Igrr,III,1376 : « حظاً سعيداً . في عام ١٢٩ من عالم اغسطس في عهد ابولون بن اريستون البرويدر . . . . . . بن ديمتري ديكابروت - المدينة مدى الحياة وانطوخ بن . . . . . . اون وقيصر . . . . - الكاتب » . ولكن بما أن النقش مؤرخ في عام ١٢٩ أي بعد معركة اكتيوم لذلك يجب أن يكون تاريخه عائداً لعام ٩٨ م . وهذا ما جرت الإشارة إليه في التعليقات التي رافقت نشر النقش . ويؤكد النقش المذكور أن عدد الأرخونتات في جرش لم يكن أقل من ثلاثة ولكن واحداً منهم فقط كان ارخونتاً بكل معنى الكلمة . فالأول من هؤلاء الثلاثة كان برويدر والثاني ديكابروتاً مدى الحياة . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : هل ارخونتية هذه المجموعة مرتبطة بتنفيذ مهمات هذه المناصب ؟ بعضاً من الضوء على هذه المسألة يلقيه النقش G.74 (عام ٢٥٩) حيث تقول صيغة التاريخ Kai synar-khias aytoy Gamoy arkhontos kai Malkmaioy epi urammatias maronos abiboy ونرى هنا أن ملاّك جماعة الارخونت لايتطابق مع ماذكرنا أعلاه وهذا لايمكن أن يكون إلاّ نتيجة لاصلاح داخلي . فالنص الذي أوردناه هنا يضع الكاتب في المكان الأول وعلى ما يبدو أنه قد طرأ تغير ملحوظ على المكانة والدور اللذين شغلتهما هذه الوظيفة في منتصف القرن الثالث الميلادي : فقد اتسع مجال الصلاحيات المعطاة لصاحبها وأصبح يدخل في عداد جماعة الارخونت . وفي نفس الوقت لم يكن لا البرويدر ولا الديكابروت في عداد الارخونتات . ونحن نعتقد أن جماعة الارخونت في جرش كانت تضم في عدادها أشخاصاً لهم صلاحيات متباينة ولكن تغيراً ملحوظاً وتدريجياً طرأ على تركيب ملاك هذه الجماعة .

على صعيد آخر نصادف وضعاً مماثلا في بصرى نقله إلينا النقش Igrr,III,1325 ، المؤرخ في عام ١٨٨ م . تقول الصيغة التأريخية لهذا النقش : « في عهد سابينه بن امريل ،

البرويدر للمرة الثانية ، والارخونتات » . ويلفت النظر هنا أن الشخص المذكور بالاسم لايحمل لقب Arkhon الذي يعتبر أنه يحمله حكماً (وإلّا لكان ذكر الارخونتات المشاركين له في الحكم غير مفهوم) . وهنا يجب الاعتراف أن البرويدر يعتبر في نفس الوقت ارخونتاً من حيث المركز الذي يشغله . وعلى أية حال بين أيدينا نقش آخر من بصرى (Wadd,1910) مؤرخ عام ٣٢٠ م . ، تأسيس معبد Xeilonos Malkmionos arkmonton ek pronoias kai spoydes meuezioy b´kai هنا نرى أن جماعة الأرخونتات تذكر دون أن تكون لها أية وظائف أخرى .

لكن المسألة المعقدة حقاً هي عندما يجمع شخص ما صلاحيات الارخونت والديكابروتية مدى الحياة . وإذا اعترفنا أن الارخونتية كانت وظيفة جماعية محدودة لزمن معين (إذ أن كل المواد المتوفرة لاتعطي أساساً لتصور آخر) فإن إمكانية جمع هاتين الوظيفتين في شخص واحد أمر غير وارد أبداً . ويلفت النظر هنا الشرط التالي : Dekprotoy dia bioy نعتقد أن هذا الاشتراط يفترض خروجاً على القاعدة المعمول بها وإذا كان الأمر كذلك فالديكابروتية وظيفة محدودة بزمن معين . وعليه يبقى من غير الواضح كيفية جمع هاتين الوظيفتين مع العلم أن الشخص الذي أصبح ارخونتاً - حسب النقش المذكور - كان قد أصبح ديكابروتاً على هذا الأساس بالذات .

يفيدنا النقش Seg XIV,826 (قرب أبو كمال ، عام ٢٢٧ م .) في معرفة طابع الوظائف الإدارية التي يقوم بها الارخونت : ثلاثة أرخونتات ، أخلب ، تيرادات وبوروسين يقرون عقوبة ما (النص هنا تالف) لأشخاص حاولوا رمي القاذورات في مدخل المعبد . وهذا يدل على أنه كان باستطاعة الارخونت أن يتخذ قرارات إدارية بمبادرة شخصية ، مع أنه يعتمد هنا على إرادة الآلهة .

إلى جانب هذا كان مصطلح « الاستراتيجي » يحظى بانتشار واسع وكان يستخدم للدلالة على أهم وأعلى (أو إحدى أهم وأعلى) وظيفة في المدينة . ويبدو أن هذا المصطلح واسع الدلالة ذلك أنه يستخدم في مختلف الحالات حتى عندما لايتعلق الأمر بمنصب حكومي . ويروي يوسف فلافي في هذا المجال أنه أثناء الصدامات التي جرت بين اليهود وسكان غزة كان استراتيجي غزة ، ويدعي ابلودوت يقود فيلقاً من المحاربين قوامه ثمانية آلاف محارب بالاضافة إلى عشرة آلاف عبد وقام بمهاجمة معسكر اليهود . ولاشك أن الاستراتيجي هنا ليس أعلى منصب في المدينة فهو يقود قسماً من الجيش وقد يكون كله . وغالباً ما أطلق على الاستراتيجيين لقب موظفي الملك الذين يعهد إليهم بحكم مقاطعة ما من المملكة .

ولكن غالباً ما كان الاستراتيجيون مجرد أشخاص مسؤولين في المدينة وفي أحيان كثيرة كانوا يتابعون ارتقاءهم في سلم المسؤوليات هذا . فهناك أحد النقوش الذي أقيم تكريماً لشخص ما لم يصلنا اسمه كاملاً فيعدد النقش المسؤوليات التي اضطلع بها هذا الشخص المذكور : استراتيجياً ، ارخونتاً ، سفيراً لدى الامبراطور الإلهي ، كاتباً ، مسؤولاً للشؤون الزراعية ثم ديكابروتاً . من الواضح كل الوضوح أن هذا الشخص بدأ حياته ديكابروتاً وانهاها استراتيجياً . والأمر الجوهري الآخر أن وجود الاستراتيجية في المدينة لم ينف وجود الارخونتية مع أن هذه الأخيرة لم تعد تحتفظ بالمكانة الأولى في سلم المسؤوليات . وتجدر الاشارة هنا الى النقش Gmi,V,2114 من مريمة (حمص عام ٢٧٢/٣م) وهو عبارة عن شاهدة على قبر شخص يدعى مارك وقد كان هذا استراتيجياً وعضواً في المجلس في نفس الوقت . ويروي لنا النقش Igrr,III,1125 من الشعرة أن الاستراتيجية يمكن أن تكون جماعية أيضاً حيث يذكر هذا النقش ثلاثة أشخاص استراتيجيين قدموا هدية مشتركة . ويدل أحد النقوش أن الاستراتيجية كانت معروفة في صيدا الى جانب الارخونتية . ويظهر النقش السوري المعروف عن بيع عبدة (الرها)Depp,28 أن الاستراتيجية كانت المنصب الأكبر في هذه المدينة وكانت جماعة الاستراتيجيين تتألف هنا من شخصين وعلى ما يبدو أنه كان يمكن تجديد هذه الولاية لعدة مرّات وكانت كل فترة من هذه الفترات تسمى باسم الحاكم . يقول النقش Igrr,III,1137 أن الفترة التي حكم فيها اسكندر سيفير قد سميت باسمه أيضاً .

لاشك أن أسباب تقديم هذه الوظيفة الجماعية الى المراتب الأولى واضحة . فقد نشأت تلبية لضرورة تنظيم حروب دائمة وسريعة ضد البدو أو ضد أعداء آخرين ، وقد أشرنا الى ذلك عند حديثنا عن تدمر . وهذا الطابع العسكري هو الذي حدد مكانة هذه الوظيفة في حياة المدينة . ولكن نقول سلفاً أن حلول الارخونت محل الاستراتيجية لم يأت نتيجة لانقلاب ما . ونحن نعتقد أن تمركز السلطات في أيدي الاستراتيجيين يعتبر نتيجة طبيعية لتطور الجهاز الإداري .

وغالباً ما تشير المصادر إلى ما يسمى الابيميليتيين وهؤلاء يقومون ، عادة بدور المنفذ لقرارات سلطات المدينة وخاصة في مجال البناء وإقامة نصب التكريم وغير ذلك . ويبرز في هذا المجال النقش Igrr,III,1138 من عيطة . يقول النقش : «إيلي مكسيم ، حاكم المدينة ، أسس للوطن عبر هيرودورس بن هيرودورس ، المقرب إليه وعبر فيليب بن المالح ووعدّا بن عقربان ، الابيميليتيين» . يفيدنا هذا النقش أنه حتى هذا المكسيم الذي يشغل أعلى مراكز السلطة لايستطيع تنفيذ أعمال البناء في الوطن ولصالح الوطن إلا إذا اعتمد أولاً

على المقربين إليه وثانياً على الايبيميليتيين . وبما أن النص يستخدم علامة الاضافة DIAفهـذا يعني أن هؤلاء يعتبرون المنتجين الرئيسيين لأعمال البناء المذكورة .

ولكننا نعتقد أنه من المعقول أكثر أن يكون هيرودوس بن هيرودوس هـذا متعهداً عهـد إليه ايلي مكسيم بعمليات البناء المذكورة في الوقت الذي كانت فيه مشاركة الايبيميليتيين في هذه العملية تنفيذاً لمهمات وظيفية . ويذكر النقش اثنين من هؤلاء أي أننا أمام وظيفـة جماعيـة مع أن هذه الجماعة تتألف من شخصين فقط .

وقد وصلتنا إشارات مماثلة من المناطق الأخرى في سـورية . فيـذكر أحـد النقوش التي وصلتنا من قمري (حمص) عام ٢٢٦ م . اثنين من الايبيميليتيين البناة . وفي نقش آخـر من نفس المنطقة (عام ١٩٦ م . برج الكاي) يجزي ذكر ستة أشخاص أحدهم ايبيميليت أقاموا معبـداً « عبر الايبيميليت الـذي ذكرنـاه سابقـاً) . وفي هذه الحـالة الايبيميليت ليس سـوى الرجل المفوض من قبل السلطة للإشراف المباشر على عملية البناء هذه . نفس الوضع يشغله الايبيميليتيون من أفاميـا والمسيفرة وفيليبـوبول وحلبـون (النصف الثاني من القـرن الاول) ونشير أيضاً الى النقش الـذي وصلنا من كفـر نبيا Igrr,III,1009 عـام ١٢٤ م . يروي هـذا النقش عن تقـدمة « سيمي وسيمبيتيـل وليونت الى آلهـة الـوطن) معصرة لعصر الـزيت من عائدات أملاك معبد هذه الآلهة . وما يهمنا خاصة هنا هو تعداد الأشخاص الذين لهم علاقـة مباشرة في بناء وتجهيز هذه المعصرة : « عـبر الايبيميليتيين نمـري وبيريـون وداري وكلافـدي وانتـوني - المعلمـين في قـطع أحجـار المـرمـر وليـذكـر أيضـاً دوميتـان - النجـار - وغـاي وسلوقس - النجارين » ونستطيع أن نميز بين هؤلاء فئتين : الحرفيين الـذين كانـوا على رأس العمل مباشرة ثم ممثلي السلطات في المدينـة (الايبيميليتيين الـذين أشرفوا عـلى سير العمـل . ويبـدو أن قائمـة الايبيميليتيـين هنـا كـاملة وتتـألف من أربعـة أشخـاص . ويـظهـر النقش Igrr,III,1360 من جرش أن جماعة الايبيميليتيين هنا تضم خمسة أشخـاص . ويقول النص الذي يرافق النصب الذي أقيم لاسكندر سيفير من قبل « المدينة عـبر الايبيميليتيين مـاركوف افـريلييف انتوني بن مـارك - فارس ، كـلافدي بن كـوماخ ، فيبسـان بن أوس وليكين بن مارس ويوست بن انتوني » .

وكان يحدث أحياناً أن يجمع شخص واحد وظيفـة ايبيميليت ومهام وظـائف أخرى . فأحد النقوش التي وصلتنا من دفنة يحتوي على الصيغة التالية : « عنـدما كـان ليكيني مكسيم ايبيميليتاً وكاتباً » .

من جهة أخرى تسمح لنا النقوش التدمرية االمكتشفة في منطقة نبع إفقة بمعرفة المرادف السامي للكلمة اليونانية Epimeletes حيث يحتوي أحدها الصيغة التالية : « ابيميليت نبع إفقة الذي اختاره الإله يرخبول » . وما يلفت النظر هنا أن الآلهة هي التي اختارت هذا الشخص لشغل منصب الايبيميليت وهذا ينفي إمكانية أية مشاركة شعبية أو تدخل من السلطات المحلية في انتخابه أو تعيينه . وهذا يمكن فهمه على ضوء الوضع الخاص الذي يتمتع به نبع إفقة كمركز محلي له صفة القداسة .

لقد لعب الأساقفة دوراً ملحوظاً في بعض المدن السورية . فالنقش U'dd,1990 من صلخد (عام ٢٥٢) يتضمن ذكر أربعة أساقفة Halmos Naemoy Ssabaos Se'khmoy Bassos Oylpioy Bord OS Saireloy أقاموا بناء سددت نفقاته من خزينة المعبد . ويعطينا النقش Igrr,III,1075 بعضاً من تصور عن مهمات الأساقفة . منشأ النقش قلعة جودل حيث يذكر « مراقب لكل الأعمال القائمة هناك » وبناء عليه يصبح الاستنتاج القائل بأن المراقبة كانت تدخل ضمن مهمات الأساقفة صحيحاً وتوصلنا ببعض النقوش التي وصلتنا من عدرا إلى خلاصات مماثلة . فأحد هذه النقوش يرافق النصب الذي أقيم على شرف غاليين وعلى نفقة الامبراطور . ولكن المهم بالنسبة لنا هنا هي الخاتمة حيث تتضمن تعداد مواطني عدرا الذين لهم علاقة بهذه العملية : « تحت قيادة فير - المعماري ، وكان البرويدر ماغن بن باس ، أبان مطرانية ايليا بن باسوس وزينودور بن تاورين وسابين بن غيرمان كان منهم أيضاً » وفي نقش آخر بقيت فيه الصيغة التالية فقط « عندما كان اسقفاً » . وهكذا يتضمن النقش Igrr,III,1287 إشارة الى ، أولاً - معماري وهو يشارك مباشرة في عملية البناء ، برويدر وثلاثة أساقفة (الأرجح أن هذا هو الملاك النهائي للجماعة) مسؤولين عن إدارة العمل .

لدينا أيضاً وثائق تدل على أن مجال نشاط الأساقفة كان يطال مناح أخرى . فقد كانوا موظفين يهتمون بشؤون تجارة الخبز وغيره من المواد الغذائية الأخرى . وهنا يبدو أن مهامهم تنطبق مع مهام الابيميليت .

ونحن لانعتقد أن هذا التطابق جاء مصادفة . كما نعتقد أن الاقتراح القائل بأن هذه المهمات كانت في بعض المدن من اختصاص الأساقفة وفي الأخرى من اختصاص الابيميليتيين هو قول مرفوض . ومن جهة أخرى يجب الاعتراف أن المصادر المتوفرة لاتسمح لنا باستخلاص أية نتائج نهائية بخصوص هذه المسألة التي ستبقى مفتوحة للحوار .

لقد كانت الديكابروتية منتشرة في كثير من المدن السورية . فمن جرش وصلنا نقش يروي أن أحدهم كان ديكابروتاً لهذه المدينة مدى الحياة . ولكن المصادر تدل على أن الديكابروتية هي المركز الأقل أهمية في سلم الارتقاء الاجتماعي في المدن السورية إبان الاستعمار الروماني . فبها كان يبدأ عادة Cursus Honorum وليس صدفة أن سمحت القوانين الرومانية لمن هم دون سن الخامسة والعشرين بشغل هذا المنصب ، حيث اشتملت واجباتهم على البحث عن اتاوات وتحقيق عملية تأديتها وخاصة تلك التي تتعلق بالعمل العضلي ، وكذلك تعويض الخسائر التي قد تتعرض لها الخزنة الامبراطورية نتيجة لموت هذا الشخص أو ذاك ممن كانوا يؤدون اتاوات كبيرة ولذلك فقد كان يتم ترشيح هذا الشخص أو ذاك لشغل هذه الوظيفة على أساس الحالة المادية التي تتمتع بها عائلته .

وهكذا نرى أن الديكابروتية مدى الحياة ترتبط بسعي الجماعة المدنية لالقاء مسؤوليات تنفيذ هذه الاتاوات أو تلك على عاتق عائلات غنية ولفترة طويلة . وهكذا نعتقد أنه هنا بدأ تحوّل الوظيفة الحكومية في المدينة من « امتياز » إلى آتاوة .

الفصل السادس

الشخصية السياسية للمجتمعات السورية في القرن ١ ٣م .

يبرز أبيان من بين التشكيلات السياسية التي تخضع لروما بهذا الشكل أو ذاك الوحدات التالية : الممالك التي يجمعها اتحاد ، البوليسات التي تربطها بروما معاهدات ، الاتحادات المعفاة من تأدية الاتاوات ثم الوحدات التي تتمتع بحكم ذاتي . ونصادف نفس الاشارات لدى سيفير : « لقد كان لدى الأجداد إما ملكيات أو اتحادات أو وحدات حرة » . ونحن نرى أن سورية لاتشكل استثناء في هذا المجال . فهي لم تكن وحدة متجانسة ابان فترة خضوعها للاستعمار الروماني . فإلى جانب سورية كمقاطعة كان هناك عدد من الوحدات الدولانية التي وإن كانت تخضع لروما إلا أنها لم تكن من ملاك المقاطعة . بل كانت تحافظ على كثير من صفات الاستقلالية السياسية . وهذا ما تشير اليه مصادرنا مراراً . يقول قيصر : ان بومبي فرض الاتاوات على الملوك والحكام والمرابعين (حكام جزء من المقاطعة يشكل ربع مساحتها - المترجم) في سورية . وتوجد لدينا اشارات مماثلة في عدد آخر من المصادر .

وفي هذا الأطار نجد معطيات أكثر تفصيلاً عن هذا الموضوع لدى ابيان الأكبر . فهو يعدد المرابعين التاليين : تراخونيتيد ، بانييه ، أبيلو ، آركو ، امبيلوسو ، كابي مرابعي وديكابوليس (plin,NH,5,77)ومرابعيه (Nazerinrum)ثم مرابعتي (Granucomatae) . ويقول بليان أنه كانت توجد على الأراضي السورية ١٧ وحدة - دولة أخرى . ففي الرها كانت تحكم أسرة عربية منذ عام ١٣٣ ق . م وقد استمر حكمها حتى سقوطه على يد كركلا في بداية القرن الثالث م . ويحدد ديون كاسوس الشخصية السياسية لملك الرها على الشكل التالي : « لقد أصبح في عهد بومبي حليفاًلروما » . وخلال فترة زمنية طويلة كانت كومجين والنبطية تتمتعان باستقلال شكلي . وسوف نرى أن السلطات الرومانية قد سعت جاهدة لدمج مثل هذه الوحدات السياسية في المقاطعة .

من جهة أخرى نرى أنه حتى في الأراضي التي كانت تخضع مباشرة لسلطة روما كانت توجد أيضاً مجتمعات ذات شخصيات سياسية غير متجانسة : مستعمرات مدن حليفة لها

حق جمع الضرائب . وتتصف السياسة الرومانية في سورية باعطاء حقوق الحلفاء للمدن المحلية والمستعمرات و« الحقوق الايطالية » . حيث يعدد أولبيان المستعمرات السورية التالية التي حصلت على « الحقوق الايطالية » : صور ، بيروت ، بعلبك ، اللاذقية ، تبوليهايد ، حمص ، وتدمر . ولكن في الحقيقة كانت هذه القائمة أكبر من ذلك بكثير .

وتسمح لنا المصادر أن نتتبع الوضع الحالي في احدى المقاطعات السورية المركزية ـ تدمر التي لعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية في الفترة ما بين القرن ١ ـ ٣ م . ذلك أنها كانت تشغل مكانة هامة للغاية على حدود الممتلكات الرومانية والبارفانية .

وحتى الآن لم يتشكل لدى الباحثين رأي موحد بخصوص الشخصية السياسية التي كانت تتمتع بها تدمر . فقد أشار مومزين في حينه إلى أن تدمر وإن كانت تعتبر مستعمرة رومانية إلا أن تبعيتها للامبراطورية كانت ذات طابع فريد تذكرنا ، على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما . وتقترب وجهة نظر روستوفتسف من حيث الجوهر من هذه فقد كتب هذا الأخير يقول : « تجدر الاشارة الى أن تدمر لم تكن في يوم من الأيام مدينة تابعة للمقاطعة الرومانية لا بعد ادريان ولا بعد سيبتيم سيفير وعندما حصلت على وضع مستعمرة . . . كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلالية . ولكن الحكومة الرومانية أدخلت تدمر في مجال حمايتها تماماً كما أدخلت القرم ضمن حدود مدينة خرسونيس مع أن حامية المدينة والقلاع التي كانت تدافع عن حدودها ضد البارفانيين . . . . كانت تتألف من قوات اضافية جرى تجنيدها في المدينة وداخل حدود تدمر » . والواقع أن روستوفتسف انطلق في أعماله المبكرة من موصوعة مفادها أن تدمر كانت خاضعة كليا لروما . وهذه الأخيرة هي أيضاً وجهة نظر فيفريه الذي يرى أن روما كانت قد ضمت تدمر بعد عام ١٠٦ م (وهو تاريخ تشكل المقاطعة العربية وتاريخ احتلال دمشق ، حسب رأيه)وقد ربط الباحث هذا الضم بحملة ترايان ضد البارفانيين عام ١١٤ ـ ١١٥ م . وقد أكد سيريغ في معرض نقده لوجهة نظر فيفريه هذه على : أولا ـ عدم دقة البناء التاريخي من حيث تسلسله وذلك عندما أشار إلى أن دمشق صكت في عام ٦٢ ٦٥ وكذلك عام ٧٥ م . نقوداً عليها رسم نيرون وهذا يعني أن دمشق عندها كانت قد دخلت تحت سيطرة الامبراطورية ، ثانياً ـ عدم الدقة في تفسير المواد الايبوغرافية . ويؤكد سيريغ أن تدمر عام ٧٥ م . كانت قد أصبحت مستعمرة رومانية . ولكنه هو نفسه يؤكد أيضاً على عدم الوضوح في مسألة الشخصية السياسية لتدمر منضماً بذلك لوجهة نظر روستوفتسف .

في عام ١٩٣٧ بدأ شلومبرجه دراسة دقيقة لـلائحة التعرفة الجمركية التدمرية وقد

تصدى بدوره لحل هذه المسألة « العويصة » . ويعتقد الباحث أنه بغض النظر عن أن بعض مقاطع هذه الوثيقة تحوي اشارات تخص القواعد والأصول السائدة في سورية فإننا نستطيع الاعتقاد أنه حتى عام ١٣٧ م . لم تكن تدمر قد أصبحت مستعمرة رومانية بعد . ويعتقد أيضاً أن روما عندما أعطت تدمر بعض الاستقلال السياسي فإنها كانت تسعى من وراء ذلك إلى الحفاظ على خرافة استقلال هذه المدينة .

في عام ١٩٤١ عاد سيريغ لبحث هذه المسألة مجدداً . وبعد أن تقصى بدقة المصادر المتوفرة لديه توصل الى النتيجة التالية وهي أن تدمر قد دخلت قوام المقاطعة . فكتب الآن يقول : « لم تكن تدمر غريبة عن الامبراطورية أكثر من انطاكية وافاميا . والمقولات التي يرى فيها دولة تابعة تقوم على الأمثلة المتباعدة جداً من حيث جغرافيتها كالشخصية السياسية ليبيسبور كيميريسكي مثلا أو على النظرية العامة لحدود روما . ولاشك أن لهذه الحجج مكانتها ولكن من الأفضل لو دعمتها الوثائق المحلية » . ويرجح سيريغ أن تدمر أصبحت مستعمرة رومانية في عهد تيبير . وهذه أيضاً وجهة نظر ج . ستاركه وأ . ريتشموند .

ومن المعروف أن أقدم تاريخ وصلنا عن أول صدام بين تدمر وروما كان ابان حملة انطونيو على روما عام ٤١ ق . م . والرواية الوحيدة عن هذا الحدث وصلتنا في مؤلفات أبيان (APP.,B.civ,5,9 10)وسوف نورد فيما يلي هذا المقطع كاملاً نظراً لأهميته الخاصة : « عندما أبحرت كليوباترا الى وطنها أرسل انطونيو فرسانه لنهب تدمر التي تقع غير بعيد عن الفرات متهماً المدينة اتهاماً سخيفاً بمحاباتها للرومان والبارفانيين ولكن حقيقة هدف انطونيو كانت اثراء فرسانه» . ومن هنا يعتقد البعض أن تدمر وقعت تحت سيطرة روما عام ٤١ ق . م أوحتى ٦٣ ق . م . والواقع أن استخدام كلمة eforioiيدعم مثل هذا الطرح وكأنه يدل على الاستقلالية السياسية لتدمر .

ولكننا نرى أن هذه المسألة أكثر تعقيداً وتتطلب تحليلاً أكثر دقة . فأول ما يلفت الانتباه أن كلمة eforioiبحد ذاتها : أولا ـ هي غير صادرة عن ابيان نفسه وانما جاءت في نص انطونيو عند عرضه للذريعة التي اختارها انطونيو للهجوم على تدمر ، ثانيا ـ وهو الاكثر اهمية ، إذ أن موقع تدمر يسمح لها بممارسة وساطة تجارية مربحة للغاية . ومن الطريف أن بليني الأكبر أشار إلى أهمية الموقع الجغرافي لتدمر كنقطة متوسطة بين الممتلكات الرومانية والبارفانية وقد كتب بليني هذا عندما كانت تدمر قد أصبحت جزءاً لايتجزأ من الامبراطورية الرومانية . فموقع تدمر هذا أعطاها أهمية خاصة أثناء الصدامات المسلحة التي وقعت بين روما وبارفية . وفي نفس الوقت كان انطونيو بحاجة الى ذريعة كي يعد حملته ضد تدمر وهذا

ممكن فقط مع وجود مطالبات قانونية ، ما من قبل السلطات الرومانية تجاه تدمر . ولكن المصدر الذي بين يدينا يعالج حملة انطونيو على خلفية الوضع الذي نشأ في سورية في أعقاب وفاة قيصر . فهو يشير الى أنه بعد هزيمة كراسوس أمام البارفانيين دخل هؤلاء الأراضي السورية وأقاموا علاقات صداقة مع ملوكها . ولكن اقامة قيصر القصيرة في سورية قضت تماماً على هذه العلاقات وعلى مجمل تأثير بارفية هنا . وبعد مقتله عادت هذه العلاقات كما كانت . يقول ابيان أن بارفية قدمت مساعدات كبيرة لملوك المدن السورية . وفي مثل هذا الوضع كان الهدف من حملة انطونيو عرض عضلات روما واثبات سلطتها والقضاء على تأثير بارفية في سورية . وليس صدفة أن يشير ابيان إلى أن هذه الحملة كانت سبباً للحرب التي قامت بين بارفية وروما والتي وقف فيها ملوك سورية الى جانب الأولى . استطاع انطونيو أن يطرد الملوك المحليين الى بارفية (على الأرجح بعد تحطيم جيوش بارفية) وفرض على المدن السورية ، بما في ذلك تدمر أتاوات قاسية جداً . ومن الطريف أن سياسة انطونيو حيال تدمر والملوك الذين أعلنوا العصيان كانت متماثلة . ولاشك أبداً أن هذه السياسة المتماثلة كانت لها أسباب متماثلة أيضاً .

وعلى ضوء ماقيل نستطيع أن نخلص الى النتيجة التالية . عندما أقام غني بومبي السلطة الرومانية في سورية عام ٦٣ ق . م لم تستطع تدمر أن تهرب من نفس المصير الذي أحاق بقية المدن السورية . ولكن في نهاية الخمسينات وبداية الأربعينات ق . م استعادت تدمر وبقية المدن السورية استقلالها السياسي على أثر دخول الجيوش البارفانية الأراضي السورية . ويجب النظر الى حملة انطونيو على أنها محاولة لإعادة سيطرة روما على تدمر . وإذا صح هذا البناء يكون الاتهام الذي يوجهه ابيان بأن انطونيو تذرع به لمهاجمة تدمر ليس سوى محاولة لتحييد بارفية .

ولكن إذا كان واقع ضم تدمر إلى أراضي سورية ـ المقاطعة الرومانية منذ منتصف القرن الاول قبل الميلاد قد تم التأكد منه بهذا المستوى من الدقة أو ذاك فإن الوضع القانوني لتدمر في هذه المرحلة غير معروف . ولكننا نستطيع التأكيد مسبقاً أنه إذا كانت تدمر قد وقعت تحت سيطرة روما وحافظت في نفس الوقت على مؤسساتها البوليسية فيجب أن تكون شخصيتها السياسية مطابقة للشخصية السياسية لباقي المدن السورية

لقد أعطتنا النقوش الحدودية العائدة إلى فترة ما بين القرن الاول والثاني للميلاد مواد ثمينة جداً بهذا الشأن وهذا ما نجده أيضاً في لائحة التعرفة الجمركية . وينقل الينا النقش cIS,II,3959 معطيات هامة أيضاً .

وأكثر معلوماتنا قدماً عن موضوع رسم حدود تدمر الدولية ترتبط بنشاط كوينت ميثيل كرينيكا سيلان - ليغاث سورية من أيلول ١١/١٢ إلى أيلول ١٦/١٧ م . وهذه الحقيقة وحدها تؤكد أن روما كانت قد فرضت سيادتها تماماً على تدمر وأنها احتفظت لنفسها بكل القرارات الهامة في حياة المدينة . (بما في ذلك رسم حدود المدينة) فقد احتفظ الرومان بهذه الصلاحية الهامة جداً بكل دقة وفي المستقبل أيضاً : حيث كانت من مهام ممثلي السلطة الرومانية في سورية والذين كانوا يحكمون باسم الامبراطور .

لم يقتصر تدخل سلطات روما في الشؤون الداخلية لتدمر على ذلك فقط . إذ أنه لدينا معلومات تثير اهتماماً خاصاً عن نشاط غيرمانيك - حفيد الامبراطور تيبري في تدمر والذي أقام في الشرق عامين (من عام ١٧ حتى عام ١٩) . وأول مصدر يروي لنا عن نشاطه - هو التعرفة الجمركية التدمرية حين يجري الاعتماد على المرسوم الذي أصدره بشأن تحديد حجم وطابع الضرائب . بمعنى آخر كان على تدمر أن تتخذ من السياسة الضريبية الرومانية مقياساً لوضع سياستها هي في هذه المسألة . وإلى جانب هذا المصدر لدينا نقشان آخران يرد فيهما اسم غيرمانيك هذا . أحدهما نشره أ . سيريغ ويعود تاريخه ، على الأرجح الى العشرينات من القرن الأول ويحتوي النقش على النص التالي (باللغة اللاتينية) : « إلى دروز قيصر ، تيبير قيصر ابن اغسطس الالهي ، قيصر حفيد يوليوس الالهي ، غيرمانيك قيصر أقامه للاباطرة مينوتسي بن تيت ، روف ليغات الفوج العاشر Fretensis » . يتضح من هذا النقش أن الجيوش الرومانية كانت تتواجد في تدمر . أما النقش الآخر فقد أصابه تلف شديد وكان قد اكتشف عام ١٩٣٠ . وفي عام ١٩٣١ نشره كانتينو الذي أرخه في بداية القرن الأول م . ويتضح أن النقش أقيم تكريماً لاحد التدمريين الذي يسمى اسكندر . فقد أرسل هذا الشخص الى غيرمانيك كسفير ، على الأرجح لدى الملك ميسينة سمسير غيرام الثاني واورباز ، ومن ثم لدى الملك سباسينوف خاراكس . ولاشك أن هذه الوثيقة لاتوضح لنا الشخصية السياسية لتدمر ولكنها تحوي اشارات هامة . لقد لجأت سلطات روما ، قبل كل شيء إلى استخدام التجار التدمريين في علاقاتها الدبلوماسية معتمدة على علاقاتهم وتأثيرهم في الجهة الاخرى من الفرات . وفي نفس الوقت تدل مشاركة تدمري في البعثة الدبلوماسية لغيرمانيك على اهتمام هذا الأخير بتحقيق الاهداف التي حددها لنشاطه في جنوب مابين النهرين . وأخيراً يدل كل هذا على العلاقات الوطيدة التي نشأت بين روما وتدمر في النصف الأول من القرن الأول .

كما وتعتمد لائحة التعرفة الجمركية على مرسوم كوربولون إلى بربر وهو أيضاً يتعلق

بمسائل فرض الضرائب ويجب أن يسجل كسابقة بالنسبة للتدمريين . وبالاضافة الى ذلك تقوم بعض مواد لائحة التعرفة على أساس الممارسات العملية لكيليكوس عبد قيصر المحرر . وكما يقول شانترين فإن صيغة caesaris libertus ومايطابقها نصادفها في وثائق النصف الأول من القرن الأول . ومن هنا نقول أن تاريخ نشاط « كيليكيوس قيصر المحرر » يعود الى هذا التاريخ أيضاً . كما وتجدر الاشارة أيضاً إلى أن الرجوع إلى غيرمانيك ، كوربولون وكيليكيوس يسجله القانون الثاني الأقدم عهداً من لائحة التعرفة الضريبية والذي أدخل فيها كاملا فيما بعد . وكنا قد أشرنا سابقاً الى أن قوانين وتقاليد فرض الضرائب كانت تخضع لتغيرات مستمرة بما يتلاءم والقوانين والتقاليد المماثلة السائدة في سورية كلها .

ولكن تبعية سورية للامبراطورية الرومانية لم تقتصر على ذلك فقط . إذ تحتوي مقدمة القانون القديم مواد غنية بهذا الشأن حيث جاء فيها : « قانون الضرائب في تدمر ومصادر المياه والملح التي توجد في المدينة وضواحيها ، حسب الاتفاق الذي عقد بحضور مارين البريفيكت » . ونحن لانعرف تاريخ نشاط مارين هذا ولكننا نعتقد أنه يعود إلى الفترة التي تلت كوربولون . ولكن المهم اليوم شيء آخر . فالقانون ، كما هو واضح يتفق والاتفاق الذي تم بموجبه شراء حق جمع الضرائب والذي عقد بحضور الموظف الروماني الكبير حيث لابد من موافقته عليه . وسوف تتضح اكثر فكرة هذه الصيغة فيما لو عدنا إلى مدخل النقش الذي يحتوي قرار مجلس تدمر الذي اخذ بعين الاعتبار الاجراءات التالية : يحدد الارخونت والدكابروتيون سوية مع المتعهدين حجم الضرائب ثم يسجل هذا في الاتفاق الذي يجري بموجبه شراء حق جمع الضرائب ثم بعد ذلك يدخل نص القانون . وعلى الارجح أن اجراء مماثلاً كان قد اتخذ عند وضع القانون الاول والثاني ولكن سلطات تدمر لم تستطع ، مستقلة ، أن تحدد حجم الضرائب التي عليها جمعها . فهي كانت تأخذ علماً بها وتثبتها في قانونها الخاص علماً بأن الضرائب كانت تجبى لصالح خزينة تدمر (وإلا لماكانت هناك اية ضرورة لوجود قانون تدمري) . وهذا التنظيم لأهم مسائل حياة المدينة من قبل سلطات روما لايتناسب ابداً واعطاء تدمر وضعاً خاصاً في مرحلة مبكرة من تبعيتها للامبراطورية الرومانية . واخيراً حتى الخلافات بين متعهد جمع الضرائب ودافع الضريبة كان يجب أن تسوى من قبل الموظف الامبراطوري ـ ديكيوتود وإن كان على اساس قوانين تدمر . وكان على تدمر أن تضع جيوشها تحت تصرف روما . كل ما قيل لايتعارض ابداً ، كما يتبادر للذهن مع الوصف الذي سجله بليني الاكبر عن الوضع السياسي لتدمر . ونحن لانجد اية ضرورة لقبول الافتراض القائل بان بليني لم يكن على اطلاع على واقع الاشياء عندما سجل وصفه هذا . ولكن يبدو أن سيريغ يميل إلى الاخذ بالنظرية القائلة بان نص بليني يدل على أن الرومان قد تركوا لتدمر

« ظلاً من الحرية » وقد استغل التدمريون ذلك للمناورة مع البارفانيين . ولكن مثل هذه الامكانية لم تخلقها الشخصية السياسية التي كانت تتمتع بها تدمر والتي تفترض تبعيتها لروما مع الحفاظ على صفات محددة لسيادتها وانما فرضها ذلك الوضع الذي كان قائما على الحدود بين بارفية والامبراطورية الرومانية .

في عام ١٢٩ م . بدأت مرحلة جديدة في التاريخ السياسي لتدمر كاحدى الممتلكات الرومانية وذلك عندما زارها الامبراطور ادريان . ويروي لنا النقش Inv.,1,2 عن هذا الحدث . حيث يذكر لنا وصول ادريان الالهي ومعه الجيوش والغرباء وارتبطت بهذا الحدث اعادة بناء المدينة مرة اخرى وتسميتها ادريانبوليس (St.By3.,s.v.plmyra) . وكما قلنا سابقاً ، انه بغض النظر عن أن هذا الاجراء لم يكن اكثر من اجراء شكلي إلا أنه كان بالغ الاهمية ، عادة ، يعتقدون ان تدمر حصلت على وضع Civitas liberaet أي الاعفاء من تأدية الضرائب لصالح الخزنة الامبراطورية . وهذا محتمل جداً مع أنه لاتوجد لدينا أية معطيات بهذا الشأن فمثل هذا الاجراء كان يجب أن يسجل في الاتجاه العام لسياسة ادريان في الشرق . حاول ادريان في رحلته هذه استمالة ملوك الشرق إلى جانبه . ولم يكن لهذه السياسة أن تستثني تدمر التي حدد موقعها الجغرافي كل مصيرها السياسي . ومن الدلائل التي تشير إلى سعي ادريان كسب ود السكان المحليين العقاب الشديد الذي انزله بالولاة المحليين ، ومن الواضح أن هذه الاجراءات جاءت نتيجة لعلاقة هؤلاء بالسكان المحليين الذين يخضعون لسلطانهم . ونحن نعتقد ان اعادة بناء تدمر ثانية من قبل ادريان يجب النظر اليها من المنظار العام لتوجهه السياسي هذا ولا شك ايضاً أن هذا الاجراء مرتبط بالاصلاحات الادارية العامة لهذا الامبراطور في سورية .

اما لائحة التعرفة الجمركية التي وضعت في عام ١٣٧ م . اي بعد مرور عدة سنوات على زيارة ادريان للشرق فهي ايضاً تسمح لنا ، ولو جزئياً أن نحكم على طابع التغيرات التي طرأت على وضع تدمر . فواقع ادخال القانون المبكر ، الذي اعتمد في بعض بنوده على غيرمانيك وكوربولون ـ في لائحة التعرفة هذا الواقع يعني أنه لازال يتوجب على تدمر أن ترسم سياستها الضريبية على صورة ومثال السياسة الضريبية لروما . والاكثر من ذلك اننا نرى أن القانون الجديد اعتمد على التطبيقات العملية للعبد المحرر كيليكيوس في مجال الضرائب . وهذا يعني استمرار وجود الصلاحية القضائية للديكيوتود . ولكن الآن طرأ تغير جوهري على نظام وضع القانون . فإذا كان تحديد حجم الضرائب وكميتها وتوقيع الاتفاق مع المتعهد ـ يقع في ايدي موظفي الامبراطور فقد اصبحت هذه الاجراءات كلها من

اختصـاص سلطات المدينـة نفسها . ونحن لانشـك في اهميـة هـذه الحـالـة الاخـيرة . فمن المعـروف أن احـدى اهم الامتيـازات التي تمتعت بهـا المـدن الحليفـة لـرومـا هي حق فـرض الضرائب والرسوم على البضائع الداخلة إلى البلاد والخارجة منها . ومن هنا ينتج أنـه في زمن وضع التعرفة المبكرة ، أي القرن الاول م . كان على تدمر أن تعتبر نفسها حليفة لـروما ، مـع أن السياسة الضريبية كانت تتحدد عملياًمن قبل موظفي الامبراطورية وعلى سلطات تدمر أن توافق عليها . وبكلمات اخرى كانت سياسة روما ، حيال تدمر في القـرن الاول موجهـة نحو الحد من سيادة حليفتها . وإذا صح هذا القول فقـد جاءت سيـاسة ادريـان لتضع حـداً لهذا التوجه ولتعيد إلى سلطات تدمر حقوقهـا للقيام ببعض شكليـات الحكم التي تعطي عـلاقات التحالف محتوى واقعياً .

يفيدنا النقش Inv.x, أنه كان يوجد في تدمر في القرن الثاني الميلادي قيّم على المـدينة ، وهــذا مـاكــانـه الليغــات الامــبراطــوري فــولفي تيتــان . ويــروي لنــا نقش آخــر SEG,VII,138 (تدمر عام ١٩٨)عن تدخـل سلطات روما في الشؤون الـداخلية لتـدمر . يقول النقش أنه كان يوجد في تدمر « استراتيجي يقـود السلام » أو ، كـما في التعبير التـدمري « اسـتراتيجي يقيم السـلام » ، اي ، بكلمات اخـرى اسـتراتيجي لـه صـلاحيــات رئيس الشرطة . لقد عين ايلي بور في هذا المنصب من قبل معاوني القنصل مانيليي فوسك وفينيـدي روف وكذلك من قبل « الوطن » . ويمكن ان تكون الاضطرابات التي حدثت في المـدينة هي سبب هذا التدخل من قبل روما في الشؤون الداخلية لتدمر . وما يلفت النظر هو انـه كان من المستحيل تجاوز اجهزة السلطة المحلية في مثل هذه الحالات . وتجدر الاشارة ايضاً الى ان تدمر كانت قد صكت عملتها الخاصة ـ من البرونـز ، وكان القسم الاكـبر منها عبـارة عن وحدات صغيرة من مختلف الاصناف . وقد كتب عليها palmyra . ١

اما المرحلة الاخرى من تاريخ العلاقات بين تدمر وروما فقد ارتبـطت بحصول تـدمر على الحقوق التي تمتعت بها المستعمرات الايطالية . ولكن مع الاسف ليست لدينـا معطيـات مباشرة عن التاريخ الذي يعود اليه حصول تدمـر على هـذه الحقوق . عـادة يعتبرون ان هـذا الحدث وقع في عهـد الامبراطـور كركـلا . ويقول شلومـبرجه بهـذا الخصوص أنـه بعد عـام ٢١٢ تسجل النقوش التدمرية ما يفيد بأن كل التدمريين حصلوا على حق المواطنيـة الرومـانية وهم يدينون بذلك إلى مرسوم الامـبراطور كـركلا . ومن المـرجح أن الحصـول على الحقـوق الايطالية يرتبط بهذا الحدث . إلا انه كان باستطاعة تدمر الحصول على الحقوق الايطالية قبل جلوس كركلا على العرش . وهذا ما تفيد به الواقعة التالية . فابيان على غير عادته لايشـير الى

الامبراطور الذي اعطى هذه الحقوق لتدمر . وعليه يصبح من الصعب تماماً شرح مثل هذا الصمت فيما لو كان ايّ من سيفير أو كركلا هو من اهدى هذه الحقوق للمدينة .

ولاشك اطلاقاً في أن حصول تدمر على حقوق المستعمرة الايطالية كان حدثاً هاماً في تاريخها السياسي . ولكنه من جهة اخرى كان دليلا على محاباتها لروما . كما وكان من شأن هذا الحدث أن يقوي مواقع روما على الحدود الرومانية ـ البارفانية .

اما عن تاريخ علاقات روما مع المدن السورية الاخرى فمعلوماتنا اقل ولكنها مع هذا تسمح بتحديد الاتجاه العام لسياسة روما حيال هذه المسألة .

فمن المعروف أن بومبي كان قد منح انطاكية حق الحكم الذاتي (porRh.,26,IfhG,III) . ويقول يوحنا ملالا أن قيصر أعلن «حرية» انطاكية . ولكن ما فعله قيصر لم يكن في الحقيقة اكثر من تثبيت وتوسيع الامتيازات التي منحها بومبي للمدينة . وهذا ما يؤكده ملالا في النص الذي اقتبسه من مقدمة مرسوم قيصر . اما بليني الاكبر فبدون اية تعليقات اضافية يسمي انطاكية : Antiochia Libera ,Epidaphnes Cognominataويسوق لنا بابينيان نص القانون الانطاكي بخصوص ممتلكات المتوفي وعليه دين . وينتج عن ذلك أن انطاكية حافظت على قوانينها الخاصة التي تنظم علاقات الملكية حتى إبان السيطرة الرومانية عليها . ويروي تاتسيت Tac.,Hist.,2,82أنه كان يحق لانطاكية أن تصك عملتها النقدية . فالنقود المعدنية التي تحمل تاريخ العصر السلوقي (٩٢ ـ ٤٠ ق . م) تحمل الكتابة التالية : ANTI-MHTROPO THS MHTRO- _ OKHEON, ANTIOKHEON THSLEOS POLEOS THSIERASKAI ASULOU, MHTROPOLEOS AUTON-OMOU وهكذا يتضح أن انطاكية كانت قد حصلت من السلوقيين على كل الامتيازات والألقاب المذكورة هنا . ونجد نقوشاً مماثلة على النقود التي يعود تاريخ صكها الى ٦٣ ق . م وحتى ٢٥ م (إذا صح تحديد العصر) : ANTIOKHEON AUTONOMOU, MHTROPOLEOS KAI AUTONOMOU, MHTROPOLEOS THS ISRAE AEULOU. إذاً حافظ بومبي على كامل الشخصية التي كانت تتمتع بها المدينة قبل خضوعها لروما . وتفيدنا المصادر أن وضع انطاكية هذا قد تم الحفاظ عليه في عهد قيصر أيضاً . وفي عهد الجبل فقط ظهرت نقود تحمل الخرافة التالية : ANTIOKHEON MHTROKOLO NIA. وما يلفت النظر حقاً أن القائمة التي وضعها أولبيان بأسماء المدن التي حصلت على حقوق المستعمرة الايطالية لاتأتي على ذكر انطاكية . ونحن لانعتقد أن هذا الصمت أتى

مصادفة . لقد جاء في قاموس «القاضي» أن سيبتيم سيفير حرم انطاكية من شخصيتها الاعتبارية كبوليس عقاباً لها على مساندتها لبيستيسينيا نيجر في صراعه لاستلام العرش الامبراطوري كما وأخضع اللاذقية «كقرية» . ولكن وضع انطاكية هذا لم يستمر طويلاً . فقد منحها أنطونين «الالهي» شخصية المستعمرة Divus Antoninus· Antiochenses Colonos Fecit Salvis Tributis أي وعلى ما يبدو أن الذي منحها هو كركلا . وعلى أية حال فإن تحول انطاكية الى ميتروكولونيا يعتبر المرحلة التالية في صعودها . ولكن هل ترافق هذا بإعفائها من الضرائب والأتاوات ؟ ليست لدينا أية معطيات . ويذكر أبيان Dig.,50, 15,Ipr وطنه ـ صور بين المدن التي حصلت على حقوق المستعمرة الايطالية . وكان سيفير هو الذي أعطى صور هذه الحقوق وأكدها فيما بعد كركلا . ويؤكد إبيان دائماً على إخلاص صور لتحالفها مع روما وهذا يعني أن صور كانت تدخل في عداد مجموعة Civitates Foederatae قبل أن تحصل على حقوق مستعمرة ايطالية . ومن جهة أخرى تؤكد النقوش التي تحملها النقود التي وصلتنا من صور أن هذه المدينة بقيت ميتروبولية الى أن قام سيفير بإجراءاته . ويقول النقش IGRR,I,123 أن صور سميت كلافديبوليس ويجب أن نتوقع أنها حصلت على بعض الامتيازات من الامبراطور كلافديوس . وتقول المصادر أن العالم اللغوي المحلي بافل استطاع أن يستصدر من الامبراطور أدريان مرسوماً منحت صور بموجبه لقب ميتروبولية . وهذا الإرتقاء في وضع صور يتناسب والتوجه العام لسياسة أدريان في الشرق ولا يستبعد أن يكون تحول صور الى ميتروبولية مرتبطاً بإعلان فينيقية مقاطعة مركزها صور . وقد حافظ سيبتيم سيفير على هذا الوضع . وهذا ماتدل عليه الخرافة التي وجدت منقوشة على العملة المعدنية من طراز : -COL. SEP. TYRUS METROP, SEP. TYRO. MET ROP. COL. PENIC, COL TYRO. METRO. وتجدر الإشارة هنا إلى أن إصدار النقود في صور إبان خضوعها لروما قد استمر على النموذج الفينيقي ولم يتوقف . ونشير أيضاً الى أن صور حملت الألقاب التالية : (IGRR,I, 421ـعام ١٧٤) : tes ieras kai asyloy kai aytonomoy metropoleos foineikes kai allon poleon kai nayar· khidos. ويسمي النقش IGRR.I.419 صور Foederata وعلى الأرجح أنه اللقب الأقدم لمدينة صور .

وهكذا نستطيع الآن أن نرسم خط صعود صور على الشكل التالي : عندما سيطرت عليها روما أصبحت صور تتمتع بوضع الحليف لروما وقد تغير اسمها في عهد كلافديوس وفي عهد أدريان تحولت الى ميتروبولية وأخيراً أصبحت تتمتع بحقوق المستعمرة الايطالية في عهد سيبتيم سيفير . إضافة الى ذلك تجدر الإشارة الى ماسجله يوسف فلافي عن أن صيدا وصور

كانتا «منذ القدم» مدينتين حرتين . أي قبل خضوعهما للسيطرة الرومانية بزمن بعيد . ويبدو أنهما بقيتا كذلك إذ أن أنطونيو لم يتجرأ على إعطائهما الى كليوبترا .

أما صيدا فقد بقيت مستعمرة وميتروبولية من عهد «الجبل» الى عهد سيفير اسكندر دون أن تحصل على حق مستعمرة ايطالية . ومن المستعمرات التي حصلت على حقوق مستعمرة ايطالية كانت اللاذقية وقد منحها إياها «سيفير الإلهي» (DIG.,50,15,1,2,3) مكافأة لها على مقاومتها لبيستسنيا نيجر .

يقول أبيان أن أنطونيو كان قد منح اللاذقية لقب البوليس الحر مكافأة لها على مقاومتها لكاسيوس . وتؤكد النقود المعدنية المكتشفة في اللاذقية أن الرومان اقتفوا أثر السلوقيين في سياستهم هذه فقد حملت إلينا النقود المعدنية التي يعود تاريخها الى عصر أنطوخ الرابع ، اسكندر بالاس وأنطوخ الثامن الخرافات التالية : LAODIKEON TON ROS ثم THALASSHI, LAODIKEN THS IERAS KAIAUTO NOMOU. الى جانب هذا حملت اللاذقية نقب مدينة يوليوس . ثم أصبحت في عهد أغسطس ميتروبولية . وتدل النقوش التي صدرت في الفترة مابين عهد سيفير الى فاليريان أنها حملت لقب مستعمرة . أما حمص فبعد أن ضمت شكلياً الى الامبراطورية منحت حقوق مستعمرة ايطالية (DIG.,50, 15,1,4) .

وتقول معطيات علم المصكوكات «نوميزماتيكا ـ المترجم» أن دمشق كانت طيلة العصر الامبراطوري تحمل لقب ميتروبولية ثم مستعمرة . فالنقود المعدنية التي وصلتنا من هذه المدينة تحمل الخرافات التالية : DAMASKOU ثم MHTROPOLEOS DAMASKOU MHTROP. KOLONI. لقد سميت دمشق «ميتروبولية العرب» في النقش SEG, VII, 224 «القرن الأول م» .

كما كان هناك عدد آخر من المدن السورية التي لها حق إصدار النقود . منها ، مثلاً أفاميا . حيث تحمل النقود المعدنية التي يعود تاريخها الى العصر الروماني والتي وصلتنا من هذه المدينة ـ الخرافة التالية : APAMEON مع إضافة THSIERAS أو KAIASULOU AUTONOMOU كما وحملت نقود عرطوز خرافة مماثلة : ARETHOUSATO N THS IERAS KAI AUTONOMOU ولا تشير الى الاستقلال الذاتي للمدينة تلك النقود التي وصلتنا من البلانية ، إبيغانية ، جبلة ، لاريسا ، ميريانذر ، نيكوبوليس ، بالتوس ورافانية . أما النقود التي وصلتنا من ديميترياد ، اللاذقية اللبنانية وأبيلا «التي كانت تحمل لقب ـ مدينة كلافديوس» فلم تحمل إلينا أية معطيات . بالإضافة الى هذه المدن صكت

النقود أيضاً : إنطاكية ، كانتانا ، قنافة ، ديون ، غدارة ، جرش ، بيلا وفيلاديلفيا . كما وصكت عملتها الخاصة أيضاً كل من : أرواد ، بصرى ، القيصرية ، قرنة ، دور ، ديميتريادا ، أرتوسيا وطرابلس . وتدل النقود التي وصلتنا من هذه الأخيرة أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي في القرن ٣ - ١ ق . م . وحيث تسميها النقود «مالكة البحار» ويرجح أن تكون المدينة قد حافظت على استقلالها الذاتي .

ونحن نعتقد أن مجرد إصدار النقود يعني أن المدينة تتمتع بحق الاستقلال الذاتي أأشارت النقود المعدنية الى ذلك أم لم تشر . وعلى ضوء ماتقدم يمكننا أن نحدد فئتين من المدن التي تمتعت بالاستقلال الذاتي إبان الاستعمار الروماني : تلك المدن التي حصلت على استقلال ذاتي وأعفيت من دفع الضرائب الى السلطات الرومانية وتلك التي حصلت على استقلالها الذاتي ولكنها كانت ملزمة بتأدية الضرائب لصالح خزينة روما ، ولذلك يتكون لدينا تصور وكأن الحفاظ على الأجهزة الإدارية في المدينة دون أي تغيير هو مطلب مقدس بالنسبة للسلطات الرومانية والنتيجة الطبيعية لهذه السياسة أن مهمة جمع الضرائب أصبحت تلقى على عاتق أجهزة الإدارة المحلية بدلاً من استقدام جهاز ضريبي خاص يكلف غالياً . ولكن هذا التصور العادل ، كما نرى ليس سوى تصور جزئي لايعطينا صورة كاملة عن جذور هذه الظاهرة . فالمعروف أنه كانت تسود هنا طريقة بيع حق تحصيل الضرائب لمتعهدين ولذلك فنظام جمع الضرائب هذا يمكن أن يتحقق بمشاركة السلطات المحلية أو بدونها . وهذا لايتناقض أبداً مع ماأوردناه سابقاً من أن مجلس تدمر اتخذ قراراً يحدد فيه حجم الضرائب التي يتوجب على المتعهدين جمعها . ذلك أن هذه الضرائب كانت تجمع لصالح السلطات المحلية وليس لصالح روما . ولكن الدوافع السياسية كانت هي الأكثر أهمية : فعندما منح الرومان امتيازات واسعة لكبريات المدن السورية كانوا يهدفون من وراء ذلك الى توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطتهم وذلك باستقطاب سكان هذه المدن الى الدائرة الرومانية . وهذا ماكانت له أهمية استثنائية في ظل استمرار الصراع المسلح مع بارفية . إذ أنه ليس صدفة أن تمنح هذه الامتيازات للمدن السورية الكبرى في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول . وفي نفس الوقت كانت هذه السياسة استمراراً لسياسة الحكام الهلنستيين . فمن المعروف أنه كان باستطاعة السلطات الرومانية أن تغير من الشخصية السياسية لهذه المدينة أن تلك ، نحو الأسوأ كما نحو الأفضل فيما لو قررت إستثارة غضب سكانها . ومن الواضح أن الكلام هنا لايجري عن القرى . ومن جهتنا ، لانعتقد أن الحال السياسية للمدن السورية التي تمتعت باستقلال ذاتي تختلف عن حال التشكيلات السياسية المستقلة الأخرى والمنتشرة في مختلف أرجاء الامبراطورية . ذلك أن حق الاستقلال الذاتي

كان يعني الحفاظ على الإدارة والقوانين المحلية «وهذا ما يتوافق مع المصادر التي أوردناها سابقاً» أما الحد من سيادة المدينة فكان يؤدي الى امتناعها عن أي نشاط سياسي خارجي . إذ أنه حسب وجهات النظر التي كانت قائمة في النظرية الحقوقية الرومانية كان يجب أن يسود مايسمى ـ POSTLIMINIUM العلاقات القائمة بين المجتمعات «الحرة» و«الحليفة» وكذلك العلاقات القائمة بين الملوك والمجتمعات غير التابعة لها . وعندما أوقف العمل بهذه القاعدة رأى بروكول من الأنسب أن يؤكد على أنه بغض النظر عن أن POSTLIMINIUM غير معمول به فإن «الحلفاء» و«الأحرار» يعتبرون من الناحية الشكلية خارج حدود الامبراطورية . ومن الواضح أن السلطات الرومانية سعت جهدها للقضاء التام على استقلالية المدن وسيادتها أو الحد منها قدر الإمكان ولكنها مع ذلك لم تستطع القضاء عليها كلياً . وفي نفس الوقت كان منح صفة المستعمرة أو الحقوق الايطالية لبعض المدن يستتبع ، دون شك ـ مع بعض القيود طبعاً ـ منح حقوق المواطنية الرومانية أو اكتساب وضع الحليف . وكما أشار كَرينهان ، بحق أن منح صفة المستعمرة كان ، في جميع الأحوال بمثابة خطوة نحو اكتساب الحصانة من دفع الضرائب وتأدية الأتاوات . وبالإضافة الى ذلك كان اكتساب IUS ITALICUM يفترض تحويل ملكية الأرض الى dominium exiure quiritium الأمر الذي كانت له آثار قانونية هامة جداً بالنسبة لمواطني المدينة ، إعفاؤهم من دفع الضرائب وتأدية الأتاوات وتحريرهم من وصاية السلطة الرومانية . كل هذا يدل على أن الألقاب التي كانت تمنح للمدن لم تكن مجرد شكليات فارغة كما يصورها البعض . لكنها في نفس الوقت لم تحدث أية تغيرات جدية في إدارة المدينة أو في نظام البوليسات . فالكلام يجري هنا عن مستوى استقلالية المدن وتحررها من تدخل السلطات الرومانية . ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الجماهير الأساسية في سورية كانت تؤدي مختلف أنواع الضرائب والأتاوات لصالح السلطات الرومانية . ومن المعروف أن هذه الأتاوات انبثقت عن الغرامات والتعويضات الحربية ، أي أنها من حيث جوهرها ليست سوى شكل من أشكال الاستغلال الذي يمارسه المحتلون ضد السكان المحليين الأحرار . وفي هذه الحال لا فرق في أن تكون المستعمرة تابعة للسينات «حيث كان يطلق على الضريبة اسم STIPENDUM» أم للامبراطور «حيث كانت الضريبة تسمى TRIBUTA» . ونحن مع روستوفتسف في شكه في أن يكون الرومان قد ألغوا أية ضريبة من الضرائب التي فرضها السلوقيون فالمصادر التي بين يدينا تشير الى أتاوات الأرض والأتاوات التي كان يؤديها الأفراد ـ كل فرد . يقول أولبيان أن كل فرد من سكان سورية كان يؤدي هذه الضريبة : الرجال من سن الرابعة عشر والنساء من سن الثانية عشرة حتى سن الخامسة والستين . ويؤكد أبيان أيضاً أنها كانت تجبى بمعدل

١٪ من قيمة ما يملكه كل فرد . وبشكل عام كان متوسط معدل الضرائب التي كان السوريون يدفعونها عال جداً . ونشير في هذا السياق الى النقش JMI,V,1998 الذي وصلنا من حماة وهو يعطينا تصوراً واضحاً عن الأتاوات والضرائب التي خضعت لها المدن السورية . يحتوي هذا النقش على مقطع من أحد الأوامر التي وجهها دوميتسيان الى كلافديوس أفينودور النائب العام . حيث يمنع دوميتسيان منعاً باتاً مصادرة حيوانات النقل والأدلاء دون إذن خاص من الامبراطور . أما سبب هذا المنع فذو دلالة خاصة : فإذا ماتعرض الفلاحون للظلم والاضطهاد فسوف تبقى الأرض دون حراثة وهذا بدوره سوف يكون له أثر سلبي على دفع الضرائب . ويبدو أنه من الصعب معرفة مدى انسحاب هذه الأتاوات والضرائب على كل العصور الرومانية في سورية ولكننا لانستطيع نفي هذا الانسحاب . ونشير هنا الى ماأورده كاليسترات DIG., SO,4,14,2 من أن إعانات الطريق (Viarum Munitiones) وكذلك جمع الضرائب من الممتلكات «الأرض» التي تقع ضمن حدود المشاعة المعنية (P-raediorum Collationes) كانت بمثابة Locorum ، أي هذه الجماعة المدنية كانت مسؤولة مسؤولية جماعية عن تسديد هذه الضرائب .

وإذا ماعدنا الى رواية لوقا في العهد الجديد لرأينا أن أولئك الذين ألقوا على يسوع السؤال الاستفزازي التالي : هل يتوجب دفع الضريبة الى القيصر ؟ إنما كانوا يبحثون عن حجة مالتسليمه الى السلطات الرومانية . وهذا يعني أن الجرائم المتعلقة بمسألة دفع الضرائب كانت من اختصاص السلطات الرومانية فقط . ومع ذلك فقد كان يتوجب على سلطات البوليسات أن تجمع الضرائب في الوقت المناسب . فبهدف جمع الضرائب بشكل دوري ومنظم قامت السلطات الرومانية بوضع نصاب خاص بالملكية يضم لائحة إحصاء السكان التي حددت حجم الضريبة مع الأخذ بعين الاعتبار السن والمساحة التي يملكها الشخص . ويقول أولبيان (Dig., 50, 15,4) أنه كان يجب ذكر اسم قطعة الأرض واسم مالكها واسم المدينة التي تقع ضمن حدودها والى أية عشيرة تعود كما وكان يتوجب ذكر اسم جارين من جيرانها . بالإضافة الى ذلك كان يجب تحديد مقاييسها وعائداتها : مساحة الأرض المحروثة ، كمية المحصول المتوقع جمعها خلال العشر سنوات القادمة ، وعدد دوالي العنب في الكرم ، مساحة كرم الزيتون وعدد شجيراته وغير ذلك . وفي بداية عصرنا قام كويريني بتطبيق هذا المسح للملكية . ولنا في انجيل لوقا معطيات لا بأس بها بهذا الشأن ، هذا مع وجوب الإشارة الى خطأ لوقا في تحديد تاريخ هذا المسح حيث يعيده الى عهد كويريني وهيرودوس في نفس الوقت كما ويؤكد المؤلف على أن مسح الملكية هذا طبق في جميع أنحاء الامبراطورية . والمهم لدينا هنا أن مايشير إليه لوقا بوجوب خضوع كل شخص لهذا المسح

وفي «مدينته» بالذات يتطابق مع ما يسوقه إلينا أولبيان بهذا الخصوص . وعليه كان يتوجب على يوسف ، رب العائلة التي ولد فيها يسوع أن يتوجه من نزاريا الى فيفليا ، مسقط رأسه كي يخضع لعملية تقدير الضريبة المترتبة عليه .

ومن الطريف حقاً أن رجال القانون الرومان اعتبروا تأدية الضرائب والأتاوات الصفة المميزة للمواطن الذي يتمتع بكامل الحقوق المدنية .

ونحن نعتقد أن حاجة السلطات الرومانية الماسة لجمع الضرائب بصورة دورية ومنتظمة هي التي دفعتها الى التدخل في الشؤون الداخلية للمدن . ومايدفعنا لمثل هذا الاعتقاد ـ المعايير العامة التي كانت سائدة في كل ممتلكات الامبراطورية الرومانية «بما فيها سورية» والتي انعكست في مجمل القوانين الرومانية المتأخرة . ولكن علينا أن نأخذ بعين الإعتبار أن هذا التدخل أخذ ينمو ويتطور تدريجياً الى أن تحول لدينا الى نظام متكامل . وعلى أية حال لدينا إشارات واضحة عن المسؤولية المشتركة لأعضاء مجالس المدن عن جمع الضرائب . يقول غاي (Dig., 50, 1, 29) أن الشخص الذي لايتمتع بالحقوق المدنية في هذه المدينة Incola عليه الخضوع لأعضاء مجلس المدينة التي يقيم فيها كما لأعضاء مجلس المدينة التي ينتسب اليها أصلاً . وفي نفس الوقت يسجل غاي ملاحظة عامة تؤكد على تنفيذ أتاوات اجتماعية . ويقول بولس أن عدداً من الشؤون المتعلقة بالملكية تم استثناؤه من صلاحيات أعضاء مجلس المدينة وهي الصلاحيات المتعلقة بإعادة الحقوق وتأمين حق المالك والوريث . وفي نفس الوقت جرت دراسة مسألة واجبات أعضاء مجالس البوليسات وأعضاء المجلس بالتفصيل . وفي التطبيق الروماني قسمت هذه الواجبات ، شكلياً الى مجموعتين : Munera و Honores . ويقول كاليسترات أن الأولى عبارة عن مهمات إدارة المدينة في حال أن من ينفذها يشغل منصباً هاماً . أما Munus فلا يفترض شغل أي منصب مع أن Publicum Munus بخلاف Privatum كان يرتبط أيضاً بشغل منصب إداري ما . وفيما يتعلق بجوهر النشاط نفسه فقد كان يؤدي الى حل مختلف المسائل الداخلية للمدينة . كما وحددت السلطات الرومانية سناً محددة لشغل هذه الوظيفة أو تلك وكان يدعى للقيام بمهمة Munera Personalia ـ أولئك الذين بلغوا الخامسة والعشرين من العمر فما فوق .

ولكي تكون قرارات المجلس شرعية كان لابد من اكتمال نصاب معين حددته السلطات الرومانية نفسها . وهكذا نرى أن صلاحيات المجلس بدأت تتقلص تدريجياً . ويشير أولبيان الى إلغاء قرارات المجالس التي تعبر عن «الغرور» وتلك التي ترتبط بهذا الشكل أو ذاك بإنفاق الأموال العامة . كما أعتبرت ملغاة تلك القرارات المتعلقة بالأبنية العامة

والملكية وغير ذلك . ويتضح من المعطيات المتوفرة لدينا أن النائب العام هو الذي كـان يصدر تعليمات إيقاف هـذه القرارات ، لقـد فرضت ضرورة جمع الضرائب وتأديـة الأتاوات عـلى السلطات الرومانية أن تلجأ الى استدعاء الديكوريونات الى المدن التي كانوا مواطنين فيها ـ في حال انتقالهم ـ . ولكن مثل هذا الإجـراء كان لايـزال بعيداً كـل البعد عن محـاولة تثبيتهم في أمـاكن إقـامتهم . أضف الى ذلـك أن عـدداً لا بـأس بـه من النقـوش يتحـدث عن تـأديـة الارستقراطية المحليـة لمختلف أنواع الأتـاوات والالتزامـات لصالـح المدينـة ، ويقولـون أن إجراءات إلزامهم على ذلك لم تكن ضرورية .

ولكن تدخل السلطات الرومانية في الشؤون الداخلية للمدن التي لا تتمتـع «بالحـرية» خلق هنا وضعاً داخلياً متناقضاً ، فقد كانت هذه المدن تتمتع ، شكلياً ، بكل مظاهر السيادة الخارجية ولكنها بدأت تفقدها تدريجياً ، وأجهزة السلطة المحلية لم تكن قائمة بشكل متواز مع نظيرتها الامبراطورية وحسب ولكنها كـانت خاضعـة لها بصـورة ملحوظـة حتى أنها أصبحت جزءاً مكملاً لنظام الإدارة في الامبراطورية كلها .

لقد تجلت السلطة العليا لروما عـلى سوريـة بأوضـح صورهـا في جبايـة Portoria ـ الرسوم التجارية لصالح الخزينة الامبراطورية .

فقد جرى تحصيل مثل هذه الرسوم على حدود الامبراطورية مباشرة . إذ وصلنا وصف إحـدى النقاط الجمـركية الحـدودية في زيفغمـه . وكاتب هـذه الروايـة هـو فيلوسـتراتـوس والطريف فيها أن الكاتب يصف متعهد تحصيـل الرسـوم أثناء القيـام بعمله وعلى الـطبيعة : عندما وصلوا «أبطال الرواية ـ المؤلف» حدود بلاد ما بين النهرين قـادهم المتعهد الى الـلائحة ثم سألهم عن البضائع التي بحوزتهم ، فقال أبولوني ، «أحمل الحكمـة والعدالـة وفعل الخـير وقوة الإرادة والرجولة والإحجـام» ـ وهكذا حتى سـاق عدداً كبيـراً من هذه الأسـماء المؤنثة . فقال المتعهد ، وهمه الوحيد منفعته الشخصية ـ «سجل هذه الإماء كلهـا» . فأجـابه أبـولوني «لاشيء من هذا ، ذلك أن ما أحمل لسن إماء وإنما سيدات» . ولكن ما يهمنا من هذه الروايـة ـ النكتة ـ هو أنه كانت لدى المتعهد في النقـطة الجمركيـة لائحة ـ لاشـك أنها كانت نسخـة عن التعرفة الجمركية التي تحدد البضائع والرسوم الجمركية . فلم يكن مهماً بالنسبة للمتعهد ما إذا كن أولئك الإماء للبيع أم لا . فعلى الأرجح أن الرسوم الجمركية كانت تجبى بغض النـظر عن نوايا صـاحب البضاعـة . وهناك نقـطة أخرى تلفت الانتبـاه وهي أنه يتـوجب على من يعـبر الحدود أن يقدم استمارة خاصة «في حالتنا هذه ـ شفهية» .

ونتعرف على نقطة جمركية مماثلة في دورايوروبوس . على أية حال يذكر النقش Telos Protas, SEG,VII, 570 أي - المصطلح اللاتيني - Protorium . ومن المرجح أن رسوماً كانت تجبى في المدن الداخلية التي كانت ، الى هذا الحد أو ذاك مراكز تجارية . والواقع أن هذه المسألة لازالت غامضة وتحتاج الى دراسة .

فيما يتعلق بتدمر تسمح لنا المصادر المتوفرة لدينا أن نسجل مثل هذا الإستنتاج أيضاً . ففي النقش INV., X, 29 «تموز عام ١٦١» يكرم عضو المجلس ، الإنطاكي مارك إميلي ماركيان اسكلبياد الذي يسميه النص TETARONES «بالتدمرية DYRC» . وفي النقش الآخر INV., X, 113 «آب عام ١٧٤» يذكر لوتسي أنطوني كاليسترات ويشار اليه بنفس المصطلح TETARONES IMANCIPI IIIMER CATURAE, DYRC ومن المعروف أن مصطلح TETARONES يعني متعهد جباية الرسوم التي تشكل ربع قيمة البضاعة . وبما أن هذه الرسوم غير مذكورة في لائحة التعرفة التدمرية إذن نستطيع الاعتقاد أنها لم تكن تجبى لصالح المدينة وإنما لصالح خزينة الامبراطورية . وليس بعيداً عن الحقيقة أن يكون المقصود بهذا المصطلح متعهد جباية الرسوم الذي يحصل على ربع مايجبيه ؛ أما فيما يتعلق بمدينة سلوقية بيريا فيدل النقش PAP. BRIT., MUS., 229 على اتباع نفس الطريقة لجباية الرسوم . فالكلام هنا يجري عن الضريبة المترتبة على بيع عبد وكذلك الرسوم المترتبة على إخراجه من المدينة .

وعلى مايبدو أن المصدر الوحيد لجباية الرسوم والضرائب لصالح خزينة المدينة هي التجارة الداخلية . فقد وصلتنا قسائم دفع مثل هذه الرسوم من بيروت وصور تحمل «على التوالي» كتابة : tiryon coloniae Beryt ehsis وتعطينا لائحة التعرفة الضريبية التدمرية تصوراً ما عن نظام فرض هذه الضرائب وطريقة جمعها . نذكر أننا كنا قد درسنا هذه المسألة سابقاً أثناء الحديث عن الوظائف الاجتماعية في تدمر ولكننا نرى من المناسب العودة الى هذه المواد مرة أخرى كي نوضح لأنفسنا «عمل» الجهاز الحكومي بمجمله .

لقد أشرنا سابقاً الى أن الأرخونت والديكابروتيين في تدمر هم الذين حددوا حجم الضرائب وهم أيضاً ، بالتعاون مع السينديكيين الذين عهد إليهم بالإشراف على دقة جباية الضرائب . ولقد اتخذت هذه الإجراءات من قبل الموظفين المحليين تنفيذاً لقرار المجلس الذي لاحظ زيادة عدد الدعاوى القانونية بين دافعي الضرائب ومتعهديها نتيجة لعدم تحديد حجم هذه الضرائب في الاتفاق الموقع بين الدولة والمتعهد . وكان من شأن تحديد الضرائب أن يخفف من شهية المتعهدين . ولذلك أصبح الموظفون الحكوميون يوقعون اتفاقات مع

المتعهدين تنظم وتضبط عمل هؤلاء الأخيرين . وكان يشار في هذه الاتفاقات الى الحد الأقصى لحجم الضرائب الواجب جمعها . ومايستحق الانتباه أن لائحة التعرفة الجمركية التي وضعت أصلاً على أساس هذه الاتفاقات سوف تصبح في المستقبل النموذج المرشد في هذا الشأن . لقد أخضعت اللائحة كل أنواع البضائع للضرائب - ابتداءً من أنواع العبيد وحتى الزيوت والصوف والعطور واستخراج الملح والحرف ، أي كل ما يحقق دخلاً «باستثناء العمل الزراعي» . وحددت لائحة التعرفة التي صدرت في مرحلة متأخرة حجم الضرائب المترتبة على الاستيراد وتلك المترتبة على التصدير ، نقداً . وتم الاعتماد عند تحديدها على وحدتين قياسيتين - حمولة جمل واحد وحمولة حمار واحد . وفي حال نشوء خلاف بين المتعهد ودافع الضريبة يحال الأمر الى المحكمة . هذا وقد أعطي المتعهد حق أخذ رهن ممن لم يدفعوا المترتب عليهم من ضرائب ففي حال عدم قدرتهم على التسديد تباع الرهينة بعد أيام ثلاث . هذه الطريقة في جمع الضرائب «البيع للمتعهدين» كانت موجودة في تدمر منذ القرن الأول . فقد وصلتنا من هذه المدينة شاهدة قبر لأحد متعهدي الضرائب والذي يدعى سبيندي خريسانف وهي مؤرخة عام ٥٨ م . (CIS,II,4235)

انطلاقاً مما تقدم يثير النقش GRR,III, 1283 الدينا اهتماماً خاصاً . فقد وصلنا النقش المذكور من سوادا - مدينة صغيرة تقع غير بعيد عن بصرى . حيث يحتوي مقطعاً من التعرفة الجمركية المحلية : «يأخذ المتعهد أبولاً واحداً من الفضة عن كل مئة دينار يجبيها» . وهنا لم يأخذوا الحمولة كواحدة قياسية لتحديد الضريبة وإنما أخذوا وحدة نقدية تعبر عن قيمة البضاعة الخاضعة للرسوم الضريبية مما أعطى المشرعين المحليين مجالاً أكبر لصياغة أكثر عمومية . ويؤكد هذا النقش أن الضرائب كانت تجبى في كل مراكز التجمع السكاني الواقعة في المواقع التجارية وهذا ماأدى الى ارتفاع أسعار السلع .

بناء على ماتقدم نستطيع أن نؤكد أن نظام ازدواجية السيادة استمر قائماً في سورية في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث ضمناً وكانت أسس هذا النظام قد بدأت تتشكل منذ العصر الهلنستي . وفي نفس الوقت كان يحقق السلطة في الجماعة المدنية ، أولاً - الجماعة نفسها ثانياً ، الامبراطور عبر موظفيه . لكن سيادة الامبراطور كانت السائدة - الأعلى - ذلك أنه هو الذي كان يحدد وضع الجماعة المدنية وحدود استقلاليتها . وكان نمو سلطة الامبراطور ينمو نحو الحد من سيادة البوليسات في الامبراطورية ، ومع أنه كان يلاحظ ، في نفس الوقت اتجاه معاكس - إعطاء أهم المدن وضعاً متميزاً ، أي هذا المستوى أو ذاك من الاستقلالية وذلك حسب الأهمية الاستراتيجية والسياسية التي تتمتع بها المقاطعة . ولم يخمد أوار هذا

التنـاقض بين سيـادة الامبراطـور وسادة البـوليسات إلا في عصر الـدومينات . إلا أنـه لم يتم إخماده تماماً .

× × ×

الى جانب البوليسات كانت توجد في سورية أيضاً مجموعة كبيرة من القرى والتجمعات السكانية التي لم تكن تتمتع بهذه السيادة ومع ذلك فقد كان لها تـركيبها الـداخلي الـذي لم يكن ليختلف كثيراً عن تركيب البوليسات . ولقـد أشرنا سـابقاً الى أن هـذا النمط من التجمعات السكانية يمكن تقسيمه الى مجموعتـين : ١) تلك التي تقع ضمن حـدود البوليسـات وبالتـالي تكون تابعة لها ، ٢) وأخرى مستقلة عنها . ويدل واقع أن وضع الوليس كـان يمكن أن يعطى لمثل هذه التجمعات السكانية يؤكد على أن الفرق بين البوليسات وغير البوليسات كـان شكلياً فقط . فمن المعروف أن انطاكية حرمت من مكـانتها كبـوليس Carac (SHA, SEV, 9,4, 1,7) .

ونصـادف في أحيـان كثـيرة وجـود الاجتـماع الشعبي في هـذه التجمعـات السكـانيـة وأحياناً ـ المجلس ونظاماً معيناً للوظائف الاجتماعية ، مع أنه أقل تطوراً من ذلك الذي رأينـاه في البوليسات . ولذلك لم تكن عمليـة تحويـل مثل هـذه التجمعات السكـانية إلى بـوليسات تتـطلب أية إجـراءات إدارية معقـدة . فلدينا ، مثـلاً النقش : (Wadd.2505) من شقهـرا حيث ينقـل الينا قـرارات بلدة قرينـة التي جرى بمـوجبها تنـظيم وضبط بعض قضايـا استثمار الأرض . فصيغـة مقدمـة هذه الـوثيقة لاتـدع أي مجال للشـك في أن الاجتماع الشعبي لهـذه البلدة هـو الـذي أصـدر مثـل هـذا القـرار . ونعتقـد أنـه من المفيـد مقـارنـة هـذا النقش بالنقش : (Wadd.2136) الذي وصلنا من شقة حيث يحتوي نصه على الصيغة الهامة التالية .Kai okhloy uenomenoy tes komes en toi zeatroi ومـع أن النقش تـالف إلا أننا نستطيع أن نتوقـع أن المقصود هنـا هو الاجتـماع الشعبي أيضاً الـذي كان ينعقـد ، كما في انطاكية ، في المسرح .

من جهة أخرى أصبح بالإمكان الآن فهم النقوش التي وجدت على النصب التذكاريـة التي أقـامتها البلدة بشكـل جماعي . فقـد أشارج مـاكلين هـاربـر في حينـه إلى أن التعبـير to koinon tes komes الذي نصادفه في عدد من النقـوش يعني ، على الأغلب ، الاجتـماع العام لكل سكان البلدة ونحن نعتقد أن المؤلف محق في ذلك . إذ أن «عشيرة البلدة» هي بمثابة التنظيم الذي تجري باسمه كل أعمال بناء الأماكن المقدسـة أو المخصصة لـطقوس العبـادة .

وهـذا مـاتؤكـده أيضـاً النقـوش التي وصلتنـا من أم الـزيتـون وعـلى سبيـل المثـال النقش : IGRR,III,1186(عـام ٢٨٢) حيث يجري الكـلام عن بناء الهيكـل المقـدس . أمّـا النقش الثاني من هذه المجموعة IGRR,III,1187فيتميز باحتوائه على الصيغة التالية :
to koinon tes komes kai toy Zeoy . وهكـذا فـإن «عشـيرة البلدة» لم تكن جمـاعـة مدنية وإنما كان يجبْ أن تكون تنظيماً واحداً وموحداً في مجال العبادة والطقوس الدينية أيضاً .
وهناك عدد آخر من النقوش التي وصلتنا من مختلف مناطق سـورية وتنقـل الينا نفس الصـورة تقريباً ونشير في هذا السياق الى النقش : IGRR,III,1213الذي وصلنا من كفر لاها (عام ٢٦٣) حيث يحوي الصيغة : Oi kometai ektisan ex idian toi koinoi .

ولكن الوثيقة الوحيدة التي تخبرنا صراحة عن نشاط مجالس هذه التجمعـات السكانيـة هي القـانون السـوري في القـرن الخـامس (المقـطع ٩٥) حيث يجـري الكـلام عن الشيـوخ (sabe) الذين يديـرون شؤون البلدة(meparnesin qrita) بحضور هؤلاء كـان يجب أن تفض الوصايـا مع مـراعاة العـادات والتقاليـد السائـدة في البلدة . وتذكـر النقوش أعضـاء المجلس أيضاً . ويقول هاربر ، وهو محق في ذلك ، أن هذا يدل عـلى وجود المجلس في هـذه البلدان .

ومن أعلى الوظائف في هذه التجمعات السكانيـة ـ الاستراتيجي . حيث يـدل النقش Wadd,2399 الـذي وصلنا من كفـر لاهـا (عـام ٢٣٦) ان فـترة شغـل شخص مـا لمنصب الاستراتيجي كانت تحمل اسمه وكانت الأحداث التي تجـري في البلدة المعنية تؤرخ عـلى هذا الأساس . والصيغة التأريخية الوحيدة في هـذا النص جاءت كـما يلي : Strateueias Oyl Poiy Skayrianoy . ولقـد وضع النقش : Wadd.,2520 والـذي وصلنا من الشعـرة (بداية القرن الثالث) باسم ثلاثة من الاستراتيجيـين : بروكـل بن غيرمـان ، سي بن زبيد ، وعلي بن أباب . فعلى الأغلب أن وظيفة الاستراتيجي كانت جماعية في هذه المنطقـة . وتذكـر النقوش هنا الـوظائف التـالية وكلهـا ذات علاقـة ما بـأعمال البنـاء : هيروت ، بـرونوت ، سينديك ، و Pistoi وكذلك ديوكيت . وتجدر الإشارة هنا إلى الصيغة التي جاءت في النقش Wadd,2188 والـذي وصلنا من الجمينـة : toytoys pany spoydaioys komes apezato demos . وبمعنى آخر كان يجري انتخاب هؤلاء الـموظفين مبـاشرة في الاجتماع الشعبي العام .

مع الأسف ، لاتحمل الينا النقوش مـايكفي من المعطيـات لتحديـد الفرق بـين الحال القانونية للبوليسات وهذه التجمعات السكانية ـ البلدات ، مع أن مثل هذا الفرق قائم دون

شك وإلا لما كان هناك أي معنى لوضعها في مواجهة بعضهـا البعض . ولنا في تـاريخ انـطاكية مايؤكد وجود مثل هذا الفرق ، فمن المعروف أنه عندما فقدت انطاكية وضعها كبوليس جرى الحاقها باللاذقية ، فالفـرق إذن يكمن في الاعتراف أو عـدم الاعتراف بسيـادة هذه أو تلك . ومن الـواضح أن البلدان التي كـانت تقع ضمن حـدود البوليس كـانت تابعـة له ، خـاضعة لسلطته ، أما تلك التي كانت تقع ضمن حـدود الأراضي التابعـة للإمـبراطور فكـانت تخضع لهذا الأخير .

ومع كل هذا فقد كان هناك تسلسل في القاب هـذه البلدان : إلى جانب Kome كـان هنـاك أيضاً Metrokomiq . ويبـدو أن منح Kome لقب Metrokomia كـان يفـترض منحها امتيازات أخرى . غير أنه لاتتوفر لدينا أية معطيات بهذا الشأن .

× × ×

لقد حافظت كل التركيبات السياسية التي كانت قائمة في سورية ولم تكن تابعة لرومـا ـ من حيث الشكـل ـ على تقـاليـد الحكم التي ورثتهـا عن العصر الهلنستي ، إن كـان من حيث التنظيم أم من حيث طابع العلاقات التي كانت قائمة بينها وبين المدن وبقية التركيبات الأخرى التي كانت تضمها وكذلك في مجال الايديـولوجيـة . ولكن ارتباطهـا العملي بـروما كـان قويـاً لدرجة أنه يصعب أحياناً رسم أية حدود بينها وبين الأراضي التي تدخل نطاق الامبراطورية . فقد كانت السلطات الرومانية تمنحها أوعـلى العكس تسلبها هـذه الحقوق أو تلك كـما وكانت توسع أو تحد من مجال نشاط هذه الـتركيبات التي كـانت تسعى دائماً لتـوسيع مجـال سلطتها . ولقد أوضح و . بون في حينه أن تبعية ملوك هذه الوحدات السياسية لروما كانت تتجلى بكـل وضوح في أن امبراطور روما كان يعترف بهذا أو ذاك ملكاً ويقر سلطته (وسوف نرى لاحقـاً أنه كان باستطاعة الامبراطور الروماني أن يغير من مرتبة المُلك ولقبه) . وقد اعتقد بون أن السلطة الملكية في هذه الحال كانت مؤقتة ، مشروطة وتابعة . ولكن مستوى وطابع تبعية هؤلاء الملوك لروما ليسا على نفس المستوى من الاستقرار : فقد كانا يتغيران تبعاً لتطور الأوضاع السياسيـة ولقرب أو بعد هذه المناطق عن سلطات رومـا ، أي إلى أي حد استـطاعت روما أن تـطالها . فبعض هذه المجتمعات كان يتمتع بـاستقلال تـام وليس من قبيل الصـدفة أن تـوصف سلطة رومـا عـلى هـذه المـمالـك ، بعـد سقـوط الجمهـوريـة ، بـأنها «حمـايـة» (Caes; B.Alex;65) والواقع أنه كان يمكن لهذه «الحماية» أن تتطور إلى سيادة تامة ، لهذه الـدرجة أو تلك .

كوموجين

لاشك أن تاريخ كوموجين وعلاقاتها مع روما تتمتعان بأهمية لا شك فيها . ولكن ، مع الأسف أن كل ماوصلنا عنها لايتجاوز بعض الإشارات المبعثرة في مختلف النقوش حيث يؤتى على ذكر ملوك هذه المنطقة . وهناك بعض المعلومات الأخرى التي تفيدنا بها النقود .
ففي عام ٦٩ ق . م . وقع أول صدام بين كوموجين والرومان وذلك عندما القى لوكول الحصار على ساموساتة . وكل ماوصلنا بهذا الخصوص رواية مختصرة للغاية نقلها الينا بليني الأكبر وهي لاتصلح أساساً للحكم على مدى نجاح ذلك الحصار . ويروي أبيان (APP;Mithr;106)أن بومبي ظل يحارب أنطوخ الكوموجيني «إلى أن وقع أنطوخ معه اتفاق تحالف» . وفيما بعد نعرف أن بومبي ضم سلوقية وبعض المناطق الأخرى إلى الأراضي التي تقع تحت سلطة أنطوخ الأول ، ولا تذكر المصادر أي شيء عن مدن بلاد مابين النهرين .
وتشير النقوش إلى أن أنطوخ الأول حمل لقب Filoromaiosوهذا دليل على تبعيته لروما .
والواقع أن انطوخاً هذا كان يرى من الضروري التأكيد دائماً على أنه ورث السلطة عن أجداده ويعيد أصله إلى السلوقيين والأخميديين (مباشرة إلى داريوس) .ومن الواضح أن كل هذه المحاولات كانت تعكس سعيه للدفاع عن استقلاليته .
هذا السعي ، إضافة إلى الوضع السياسي العام الذي كان يولد الآمال في الاستقلال عن روما يوضحان لنا لماذا كان على الليغات مارك أنطوني وفينتيديا أن يلقيا الحصار على ساموساتة مرة أخرى في عام ٣٨ق . م .
ويروي مصدرنا أنه طلب من أنطوخ أن يدفع ألف تالانت وينفذ لأنطونيو ما تم الاتفاق عليه ، أي كل الالتزامات المترتبة على تحالفه مع روما . ولكن الرومان لم يستطيعوا احتلال المدينة ويقول ديون كاسيوس وبلوتارخ أن أنطونيو وقع اتفاقاً مع أنطوخ دفع هذا الأخير بموجبه ثلاثين تالانتا للأول ولم يكن أمام الرومان أي خيار سوى الاكتفاء بخضوع أنطوخ لهم ظاهرياً فقط .

ومع ذلك كان على ملوك كوموجين تنفيذ الالتزامات التي ترتبت عليهم نتيجة علاقات التحالف التي قامت بينهم وبين حكام روما . ويقول بلوتارخ في هذا السياق أن متريدات الثاني اشترك في المعركة التي وقعت قرب أكتيوم (عام ٣١ق . م .) إلى جانب أنطونيو .

وبعد موت أنطوخ الثالث عام ١٧م . اندلعت في كوموجين اضرابات شعبية : فقد طلبت الارستقراطية المحلية تحويل كوموجين إلى مقاطعة رومانية في حين طالبت الجماهير

الشعبية بالحفاظ على السلطة الملكية . وقد روى تاتسيت أن الأكثرية كانت تطالب بالتبعية لروما ولكن رواية يوسف فلافي تفند هذا الزعم . وعلى أية حال نحن لانعتقد أن توزع القوى على هذا الشكل جاء صدفة : فالارستقراطية التي دعت للانضمام إلى الامبراطورية الرومانية كانت ترمي إلى تقوية علاقاتها التجارية مع سورية الرومانية ، أضف إلى ذلك أن موقع هذه المملكة على الحدود بين دولتين قويتين لم يدع لها فرصة كي تشعر بأي استقرار سياسي الأمر الذي كانت تسعى اليه الأرستقراطية المحلية ولم تر أية إمكانية لتحقيقه إلا في ظل السلطة الرومانية . من جهة أخرى يبدو أن تناقضات ماكانت قائمة بين الأرستقراطية والعائلة المالكة قد لعبت دورها أيضاً وإلا لكان سعي الأولى نحو الخضوع للسلطة الرومانية غير مفهوم . أما وقوف الجماهير الشعبية ضد الانضمام إلى الامبراطورية الرومانية فهو عائد إلى تخوفها من تطبيق نظام الضرائب الروماني . وعلى أية حال لاتفيدنا المصادر بأية معلومات حول كيفية حل هذه المسألة . ولكن تسمية سترابون لكوموجين مقاطعة يعني أن سعي الأرستقراطية قد تحقق . وفي عام ٣٨م . أعيد من جديد إقامة السلطة الملكية في كوموجين وقد سمح لأنطوخ الرابع ، الذي استلم السلطة أن يجمع الضرائب لصالحه . وقد استمرت سلطة أنطوخ هذه حتى عام ٧٢م . مع بعض الانقطاع ، أي إلى أن حول فسبيسيانوس هذه المملكة نهائياً إلى مقاطعة رومانية . بحجة أن أنطوخ ينوي الانسلاخ عن روما وذلك بعقده تحالفاً مع بارافيا . والواقع أننا نصادف ذكراً لأنطوخ فيلوباب في مرحلة متأخرة ، وكان يحمل لقب ملك ، ولكننا لاندري ما إذا كان يتمتع بسلطة حقيقية أم لا .

إيتوريا

نتيجة لشح المصادر يبقى تاريخ هذه المملكة غير معروف ، تقريباً بالنسبة لنا . ومع ذلك فإننا نستطيع القول أن جوهر تاريخ هذه المملكة ، في الفترة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي يتلخص في نضالها المرير ضد التوسع الروماني ، وفي سبيل حماية استقلالها ولكن هذا النضال انتهى إلى الفشل .

في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد كانت إيتوريا قوة سياسية خطيرة . ويصفها سترابون وصفاً سيئاً للغاية نتيجة لغاراتها الوحشية على جيرانها ، وكذلك على القوافل التجارية . واسترابون نفسه يصف سكان السهل منهم بأنهم أناس يمارسون العمل الزراعي .

وعندما خضعت سورية للسيطرة الرومانية استطاعت هذه المملكة ، التي تشغل الأراضي الواقعة بين لبنان وماوراءه نحو الشرق ، أن تحافظ على استقلالها الاسمي ، حيث اشترى ملكها بطليموس بن ميني هذا الاستقلال من بومبي بمبلغ ألف تالانت . ولكن هذه السياسة لم تحم إيتوريا من هجمات الرومان الذين قضوا على كل قلاعها . ومع مرور الزمن أقامت إيتوريا علاقات تحالف مع الإدارة الرومانية في سورية : تروي لنا المصادر عن اشتراك إيتوريا في جيوش قيصر وأنطونيو .

في عام ٣٤ق . م . أقدم أنطونيو على إعدام ليساني بن بطليموس ومنذ ذلك الحين وقعت إيتوريا تحت السيطرة الرومانية المباشرة .

في بداية القرن الأول الميلادي اندلع من جديد صدام مسلح بين روما وإيتوريا . ولكن في عام ٤٩م . أصبحت إيتوريا جزءاً من المقاطعة الرومانية ـ سورية .

وهكذا نرى أنه بغض النظر عن عدم دخول الممالك المستقلة ، شكلياً ، في نطاق المقاطعة الرومانية ـ سورية فإن سياسة الإدارة الرومانية نحوها قامت على نفس مبادىء التعامل مع المدن السورية الأخرى ، حيث نما التحالف الشكلي وتحول إلى سيطرة حقيقية للحليف الأقوى . ونلاحظ في نفس الوقت أن روما كانت تنحو للقضاء على السلطة الملكية المحلية وفرض سيطرتها المباشرة على هذه المناطق .

الفصل السابع :

الصراع السياسي والاجتماعي في سورية إبان الأزمة في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث

لقد كان للتطور الاقتصادي في سورية ، في عصر البرينتسبات وما نتج عنه من تغيرات في البنية الاجتماعية لهذا البلد نتائج خطيرة للغاية تجلت في بروز تناقضات اجتماعية عميقة بين فئات اجتماعية معينة داخل المجتمع السوري نفسه . وتأسيساً على ماسبق نستطيع أن نسجل الحالة الصدامية بين الفئة الثرية من التجار والحرفيين من جهة ، وبين الفئات الفقيرة التي تعاني حالة من الإفلاس أوقعتها في براثن الفئة الأولى . وفي نفس الوقت زادت حدة التناقضات بين العبيد والأحرار ، وتعمقت أكثر وأكثر . ذلك أن الوضع المادي لتلك الفئة من العبيد الذين ، بهذا الشكل أوذاك يملكون ثروة ويتصرفون بها بحرية ويشاركون مشاركة نشيطة في الحياة الاقتصادية ـ لم يعد يتلاءم مع وضعهم القانوني . أما الوسط الذي ينتمي اليه الناس الأحرار قانونياً فقد بدأ يتعرض لعملية فرز اجتماعي عميقة خاصة بعد أن دخلت الأراضي والعقارات مجال البيع والشراء الأمر الذي لايمكن إلا أن يؤدي ـ موضوعياً ـ إلى افقار فئة وإثراء أخرى . وكان ظهور أشكال جديدة من أشكال التبعية ـ مع الاحتفاظ بالحرية الشخصية ـ أحد النتائج الطبيعية لهذه العملية . وعلى ضوء ذلك يمكن أن نفهم تلك التعليقات التي سجلتها الأدبيات القديمة عن السوريين في المراحل المتأخرة . وقد لخص هيروديان التصور الذي كان سائداً عنهم آنئذ على الشكل التالي : «الشعب السوري غير جدي بطبيعته ويميل دائما إلى تغيير النظام القائم» . فاللاجدية والسعي للتجديد هما التعبيران اللذان استخدمهما الأدب القديم للدلالة على حالة الغليان والامتعاض التي سادت المجتمع السوري في تلك الحقبة .

الصراع الفكري في المجتمع السوري (القرن ١ ـ ٣) .
انتشار التعاليم الدينية ـ الاخلاقية في سورية .

لقد كان طبيعياً أن تؤدي الصدامات الاجتماعية الحادة داخل المجتمع السوري وسعي مختلف فئاته وجماعاته الى احداث تحول راديكالي في النظام القائم والى خلق مناخ ملائم لانتشار التعاليم الدينية ـ الاخلاقية في هذه البلاد ـ هذه التعاليم التي دعت ، بهذا الشكل أو ذاك الى محاربة الظلم وتحطيم ذلك العالم الآثم وإقامة مملكة الخير والعدالة . ولقد كانت المسيحية واحدة من ابرز هذه التعاليم ، واكثرها تأثيراً .

لقد كان التطور الفكري والسياسي للمسيحية على مدى ١٥٠ عاماً موضوع دراسة علمية عميقة . واستطاع المؤرخون الماركسيون ، وخاصة انجلز توضيح الاتجاهات الرئيسية لتطورها والمحتوى الاجتماعي لايديولوجيتها في مختلف مراحل هذا التطوّر . ولذلك فنحن لانجد ضرورة لتحليل هذه العملية بشكل مفصل وسوف نقتصر هنا على مايخص سورية فقط .

من المعروف ان التقاليد الكنسية تؤكد على وجود العشائر المسيحية في سورية منذ القرن الاول . ويشيرها هارناك الى ان المصادر تؤكد على وجودها في صور وصيدا ودمشق وطرابلس وانطاكية . ونحن لانملك أي اساس لدحض هذه المعطيات مع أن الاساطير التي تروي لنا عن نشاط بولس الرسول ، والتي تناقلتها العشائر المسيحية هنا ، ليست الّا نتاجا للمثيولوجيا المسيحية في القرن الثاني . اما فيما يتعلق بالرواية الخاصة بالرسائل المتبادلة بين يسوع المسيح وملك الرها ، الابجر ، وبنشاط احد رسل المسيح هناك ، وأن الرها اعتنقت المسيحية منذ القرن الأول فهارناك يرفض هذه الرواية جملة وتفصيلاً . غير أننا نرى أن هذه الروايات تعكس واقعاً موضوعيا معيناً ـ وهو وجود عشيرة مسيحية في الرها في المراحل الاولى من تاريخ نشوء المسيحية . من جهة أخرى ليست لدينا أية معطيات عن التركيب الاثني للجماعات المسيحية الاولى . وغني عن القول أن المسيحية أول ماظهرت وترعرعت في الوسط اليهودي ، وبالتحديد بين العشائر اليهودية القاطنة خارج فلسطين . لقد كان لانتصار تعاليم بولس في سورية خاصة وتحت التأثير المباشر للغنوستية (احدى الفرق

المسيحية الاولى التي اعتبرت أن للانجيل معنى خفياً غير المعنى الظاهري ـ المترجم) والقطيعة الكاملة بين المسيحية واليهودية الاصلية بالغ الأثر على انتشار المسيحية في الاوساط الوثنية في سورية . وليس من قبيل الصدفة أن تكون انطاكية بالذات مهداً لولادة الجماعات المسيحية الاولى التي ترجع بأصولها الى اليهودية . ومن جهة أخرى تعطينا لائحة المشاركين في اجتماع المجمع المسكوني المنعقد في نيقية عام ٣٢٥م . بعضاً من تصوّر عن انتشار المسيحية في سورية حيث مثّل هذه الأخيرة في ذلك الاجتماع اساقفة كل من صور ، صيدا ، طرابلس ، بيروت ، انتاراد ، بانيادا ، انطاكية ، سلوقية ، اللاذقية ، رافانيا وتحولت كل من بصرى وجرش الى مراكز كبرى للمسيحية . يقول لوقيانوس (-lucian Dexmorte per,11 ,ـ (13لقد كانت العشائر المسيحية متلاحمة ومتماسكة لدرجة تسمح لها أن تساعد بعضها البعض في حال تعرضها للملاحقة والاضطهاد كما وكانت غنية لدرجة تسمح لها ان توصل المال الى زعيمها المسجون وأن تشتري الحراس . ومن الجلي هنا أن العشائر المسيحية في سورية كانت تضم بين صفوفها ليس الفقراء والعناصر الاجتماعية السلبية وانما كان يوجد في صفوفها اغنياء ايضاً . ولكن تجدر الاشارة هنا إلى أن الظواهر التي اتى لوقيانوس على ذكرها تعتبر ثمرة لمرحلة طويلة من التطوّر السابق .

لقد توجهت المسيحية عند نشأتها الى الفئات الاجتماعية الفقيرة وليس من قبيل الصدفة أن تلعب الإماء دوراً بارزاً في نشاط العشائر المسيحية في آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن الثاني (plin.Epist.,10,96 ـ (97 . ومن المحتمل أن يكون شيئاً ما مماثلاً قد حدث في سورية ايضاً . لقد جذبت التعاليم التبشيرية ، التي تمتاز بها المسيحية الفئات الاجتماعية الفقيرة في المجتمع السوري وخاصة التنبؤ بقرب انهيار الامبراطورية الرومانية ـ امبراطورية الظلم والقهر ، وقيام مملكة الله ـ مملكة الخير والعدالة الاجتماعية على انقاضها . واقترن الموقف السلبي لتعاليم المسيحية من الملكية الخاصة بفكرة مساواة الجميع امام الله ، هذه المساواة التي لم تكن اعلانا مجرداً وانما تحولت الى واقع في الحياة اليومية للعشائر المسيحية . فقد وضع الكمال الاخلاقي امام المؤمنين كطريق لتجاوز الظلم السائد في العالم .

غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً . فالتغيرات التي طرأت على التركيب الاجتماعي للعشائر المسيحية ـ دخول الاغنياء اليها ، وانتصار تعاليم الـ paulonism(*) (الباولونية) قد غيّرا جوهر هذه التعاليم . ومع ذلك احتفظت المسيحية بالدوافع الاولى لرسالتها وهي التوجه الى الفئات المقهورة مما ادى الى نهوض تناقضات جديدة

★ -Paulonism- نسبة الى بولس الرسول . وهي التعاليم التي صاغها هذا المبشر المسيحي الاول - المترجم .

داخـل صفوفهـا . ولكنها كـانت قد اجّلت ظهـور مملكة الله الى اجـل غـير مسمى . فهـذا الظهور لن يكون في هذا العالم بل في العالم الآخر . وهكذا غدت المسيحيـة تميل الى المصـالحة مـع الامبرطـورية ، لا بـل اخذت تبحث عن المـبررات الايديـولوجيـة للحفاظ عـلى النظام الاجتماعي ـ السيـاسي القـائم . فـطلبت الى العبيـد ان يتحملوا دون تـذمـر مـاقـدره الله لهم ، إذعـاناً وعن طيبـة خاطـر وليس خوفـاً ، وأن يخدمـوا اسيادهم بكـل اخلاص وشرف وضمير .

هذا التطوّر الذي طرأ عـلى تعاليم المسيحيـة ، انتصار تعـاليم الـ paulonism التي اصبحت الاسـاس الذي قـامت عليه المملكـة الكنسية فيـها بعد لم يكن سـوى نتيجة لصراع داخلي مرير بين مختلف العشائر المسيحيـة . ولكننا مـع الاسف لا نستطيـع تقصيه في الـوقت الحاضر نظراً لعدم توفر الوثائق والمصادر الضروريـة . ومع ذلـك يلفت النظر ذلـك الانتشار الـذي حظيت بـه حركـات الهراطقـة المسيحيـين في سـوريـة بمـا ذلـك الحـركـات المسيحيـة المتهودة . فقد أضحت افاميا مركزاً لحركة القسطائيين Elexaizm واندلعت معركـة مريـرة ضد النومانية Numenius والنـوفاتيـانوسيـة Novatianus وغيرهـا . ومن المعروف أن النومانية تمتاز بموقفها السلبي من الدوله وتدعو الى الشهادة والتبشير بقرب ظهور مملكـة الله في اورشليم كما وتدعو الى موقف صارم تجاه الحياة الزوجية وترفض الملكية . اما النوفاتيـانوسيـة فقد انتشرت في القرن الثـالث ابان فـترة اضطهـاد المسيحيين . فـاعلنت موقفـاً عدائيـا تجاه المصالحة مع الكنيسة الارثوذكسية مع « الساقطين » الذين اعلنوا تراجعهم عن المسيحيـة في المرحلة العصيبة وهذا يعني ـ الوقوف ضد محاولات هذه الكنيسة للمصالحة مع الدولة .

واشرنا سابقا الى أن الغنوستية لاقت ، هي الاخرى انتشاراً واسعاً في سـورية . ومن المعروف أن هذه التعاليم ترتبط بـاسم كل من سـاتورنـين وماركـون وبارديسـان . لقد كـان سـاتورنـين معاصـراً للامـبراطـور ادريـان . وتتلخص تعـاليمـه بـانـه تتفـرع عن « الإلـه اللامرئي » مجموعة من الاقانيم يقود سبعة منها اله اليهود . واقامت هذه الاخـيرة مملكتها من جوهر مـادي معاد للنـور اخذ من الشيـطان . وقد خلقت هـذه الآلهة الانسـان على صـورتها ومثالها المأخوذين من الشيطان . وكان هذا الانسان يـزحف على بـطنه كـالدودة . ولكن الله نفخ فيه شراره النور . وعندها خلق الشيطان مجموعة اخـرى من الناس لتقف في وجـه اؤلئك الـذين نفخ فيهم الله الـروح . كان نـاس الشيطان مخلوقـين من المادة فقط ولـذلك لاحقـوا الانسـان الروحي واضـطهدوه دون رحمـة . ولكي ينقذ الله العـلي ناسـه هؤلاء ارسل اليهم منقـذاً في جسد وهمي هـو المسيح الـذي دعا النـاس الى العبادة والتقشف والتحـرر من روابط

المادة وسيّدها ـ الشيطان . اما تعاليم ماركون فتمتاز بأنها كرست القطيعة التامة مع اليهودية ومع البناء الملكي للكنيسة . ويؤكد ماركون انه مقابل اله الخير توجد بداية اخرى ـ الشر (لقد خلق الإله يهوا العالم واعطاه القانون ولكن لم يعط الانسان القوة اللازمة لتحقيق هذا القانون كما وضع ايسا صارمة لحفظ النظام على الارض وعقابا قاسياً ينتهي بالموت) . ولكي يخلص البشرية المعذبة تجسد إله الخير في ابنه ونزل الى الارض كي يساعد الناس على التخلص من يهوا وسلطته الطاغية فقام هذا الاخير بتعليقه على الصليب . لقد استخدم الله موته الوهمي كي يحرر الاموات . إلاّ أن تحرير الاحياء سوف يتم بالعودة الثانية لله على الارض حيث سيتجلى مجده وسيثبت ليهوا أنه خالف القانون الذي وضعه بنفسه . ولكي يتخلص يهوا من العقاب يعطي المخلص كل من يؤمن به ثم يظهر المسيح للرسول بولس وبشارة هذا الاخير بكل ماتتصف به . وتؤكد المصادر على وجود العشائر الماركينية منذ القرن الرابع . اما فيما يتعلق بتعاليم بارديسان فلا نعرف عنها سوى القليل . حيث كان هذا معادياً لماركيون . يرى بارديسان أن الله ـ خالق العالم وله تأثير مباشر عليه بما يتوافق والقوانين التي وضعها هو نفسه ، فكل المواضيع ، بما في ذلك الانسان تتمتع بمستوى ما من الاستقلاليه مع أن الله يستطيع في أية لحظة أن يتدخل في سير الاحداث الجارية في العالم . فالانسان ـ حسب بارديسان ـ يتمتع بحرية الارادة ولذلك فان سلوكه الخاص هو الذي يحددما إذا كان خاطئاً ام صالحاً . ولكن ارادة الله هي التي تتحقق دائماً ـ وهي دائماً خير وماخالفها ـ شر . وعلى هذا الاساس تقوم التعاليم الاخلاقية لبارديسان : اعمل للآخرين ما ترتضيه لنفسك وما تريد أن يعاملونك به ولاتفعل مالاتريد أن يعمله لك الآخرون . لقد دعى جميع المسيحيين إلى عدم التقيد بالقوانين التي تخالف الاخلاق المسيحية . ولكن المرض والصحة والغنى والفقر ليست خيارات انسانية : فالانسان لايستطيع ، كائنا من كان أن يهرب من مصيره الذي اختطته له الإرادة الالهية . لقد رفض بارديسان موضوعة قيامة الجسد فالروح تذهب الى العالم الآخر حيث الجنة ـ مرتع الصالحين . والنظام السائد في الكون الآن سوف يستمر ستة آلاف سنة اخرى يصنع الله بعدها مملكة الخير والسلام . وسوف نترك جانبا كل هذا البناء الكهنوتي ولكننا نود أن نشير الى مايلي . إن هذا البناء المعقد للغنوستية لايعني ابداً انها توجهت فقط إلى الفئات « المثقفة » ، اي ، الغنية . فالحوار المرير للمدافعين عن المسيحية ضد الغنوستية يدل دلالة واضحة على مدى انتشار تعاليم هذه الاخيرة وتغلغلها في الوسط المسيحي . لقد دعت الغنوستية بكل فئاتها وفروعها الى مسالمة الواقع القائم فتغير العالم وانقاذه لن يجري هنا عبر إحداث تغير راديكالي مافي التنظيم الاجتماعي : فالكلام انما يجري عن الكمال الاخلاقي

للشخصية الخاضعة لنظام العالم الذي خلقه الله نفسه . وهذا مايتطابق تماماً وإراد،
الاجتماعية الغنية بغض النظر عن السعي الذاتي للمبشرين انفسهم . ذلك أن تلك
بالذات وحدها المستفيدة من الحفاظ على العلاقات الاجتماعية القائمة في تلك الحقبة
وهكذا نرى أن معركة فكرية حادة كانت قد اجتاحت العشائر المسيحية في القرنـ
والثاني للميلاد ، بما في ذلك تلك الموجودة في سورية .

وغني عن القول أنها أخفت وراءها مجابهة فئتين اجتماعتين متناحرتين : فئة
المضطهدين الذين يحلمون بتحولات راديكالية وفئة الأغنياء الذين ينتسبون إلى
الحاكمة والذين يطمحون لايجاد مبرر ايديولوجي للنظام القائم . وقد انتصر هؤلا
مستوى الامبراطورية وفي سورية) .

لقد عرفت سورية في هذه الفترة تعاليم دينية - أخلاقية أخرى - هي ا
(ميتريزم) . ويقول ف . كيومون أن هذه التعاليم كانت ضعيفة التأثير في سورية
كانت موجودة في ارواد وصيدا . ولكن الأبحاث أثبتت وجودها في دورايوروبوس
وغيرها .

ومن المعروف أن تعاليم الميترية عن الكون تقوم على أساس صراع قوتين -
والظلام والذي ينتهي بانتصار الأول . فالقدر هو الذي يتحكم بالكون ولامهرب
تطور الكون يخضع لقوانين ثابتة لاتتغير وعناصرها الداخلية مرتبطة مع بعضها
ويؤدي توضع الكواكب وعلاقاتها المتبادلة إلى سيل من الحوادث الأرضية . فالضر و
لاترحم وتقود البشرية إلى هدف غامض وقوى الشر تبغي فناء البشرية ولكن توجد أيضـ
الخير المملوءة عطفاً وحناناً على الانسان الفاني . لقد اعتمد الميتريون لخلاصهم على قـ
على تجاوز الشر والتغلب عليه . شفيع البشرية المعذبة لدى الإله اللامرئي واللامحـ
واللامدرك من قبل الانسان والذي يسود في الأثير هو ميترا - المولود من حجر والمسلح بـ
ويحمل بيده مشعلاً أضاء الظلام ، يمنح المؤمنين به حمايته ورعايته . فهو الذي خلق الـ
ويرعى نظامها أي - كما لاحظ كيومون - أن ميترا في تصور اتباعه هو اللوغوس . الـ
معاناة ولكي نستطيع تحملها يتوجب علينا أن نخضع للقوانين التي أعطاها الله إلى الـ
وأن نسعى للطهارة الكاملة وأن نتجاوز شهوات الجسد وأن نحارب قوى الشر دائماً وأ
لقد لاحظ ف . كيومون أن النظام الازدواجي الذي بناه الميتريون كان موجهاً ليساعـ
كمال وتطور الشخصية الانسانية . فقد رأى هؤلاء الخير في المآثر والبطولات وهنا با
يحس الإنسان مساندة ميترا - حامي الخير والحق . أما العنصر الجوهري في هذه التعالـ

الإيمان بالآخرة الموجودة داخل كل انسان في جوهر إلهي وكذلك بالحساب بعد الموت . ويلعب ميترا دور القاضي الذي يحدد المصير في العالم الآخر فهو الذي يرافق المؤمنين إلى الجنة وهو الأب السماوي الذي يستقبلهم في عرشه المضيء كأولاده العائدين من رحلة طويلة . وتجدر الاشارة إلى أن الميترية عرفت أيضاً الايمان بقيامة الجسد . ولكن في نهاية العالم سوف يتم الانتصار على قوى الشر وعندها يجري الفصل بين الأشرار والصالحين - الأول إلى النار الأبدية والصالحين إلى جنة الخلد .

لاشك أن ما عرضناه هنا يعكس أيضاً المحتوى السياسي للميترية . حيث يرى هؤلاء أن النجوم تعد الامبراطور للسلطة لحظة ولادته فهو الهيّ ذلك أنه يحمل في داخله بعض عناصر الشمس الالهية ، أما عناصره البشرية فهي عابرة مؤقتة . وبعد الموت يعود الامبراطور إلى السماء ليعيش في كنف الآلهة على قدم المساواة .

وهكذا نرى أن هذه التعاليم تؤدي بدورها إلى التبرير الايديولوجي للسلطة الامبراطورية وبالتالي لكل ظواهر الحياة الاجتماعية المتعلقة بها ، بهذا الشكل أوذاك . ويبدو أنه لاحاجة بنا للكلام عن الجوهر الطبقي للميترية .

المثل السياسية للمجتمع السوري

إلى جانب هذه التعاليم الدينية - الأخلاقية التي عكست رغبة المقهورين والمضطهدين في تحقيق تحولات اجتماعية من جهة ، ومن جهة أخرى - رغبة الفئات الحاكمة في ترسيخ دعائم النظام القائم في سورية في تلك الحقبة - كانت هناك أيضاً - مع شح المعلومات - نظريات بعيدة عن الصوفية والتصّوف ولكنها كانت تعكس هي الأخرى المثل السياسية لمختلف الفئات الاجتماعية . وفي هذا السياق تستحق رواية هيروديان عن موقف السوريين ، وخاصة الانطاكيين ، من بيستيسنيا نيجر اهتماماً خاصاً . يقول هيروديان ؛ «لقد كان عندهم (عند السوريين - شيفمان) ولع بنيجر هذا الذي كان يتحكم بكل شيء ولكنه كان يحتفل وأيّاهم دائماً . فالسوريون ، بطبيعتهم يحبون الأعياد والاحتفالات وخاصة أهل انطاكية - المدينة العظيمة والغنية حيث كان أهلها يقيمون الاحتفالات على مدار السنة تقريباً ، داخل المدينة وفي الضواحي . لقد كان نيجر ينظم لهم العروض دائماً وكان كل اهتمام يتركز حولها . لقد منحهم نيجر العفو عن ديونهم وأقام لهم الاحتفالات والأعياد فاستحق احترامهم» ويعيد هيروديان مرّة أخرى : «بيستيسينا نيجر لها مع الانطاكيين وانغمس تماماً في احياء الاحتفالات والأعياد والعروض» .

ولكن المعطيات التي وصلتنا من مركـز الامبراطـورية ومن بعض المقـاطعات الأخـرى تجيز لنا القول أن الفئات «المدقعة» وإلى حد ما الشرائح الوسـطى هي التي كانت تستفيـد من تلك الاحتفـالات والأعياد ومـا رافقها من عـطاءات . لذلـك غني عن القول أن نيجـر كـان يسعى لاكتسـاب هؤلاء بالـذات إلى صفه . ويبـدو أن تلك الفئـات أملت في تغييـر وضعهـا المـادي والاجتماعي بعـد وصول نيجـر إلى السلطة فهـذه الأعيـاد والاحتفـالات والعـروض المتواصلة تبشر بقرب حلول «العصر الذهبي» والرخاء العميم . لقد بدا أن نيجر وجيشـه هما القوة الحقيقية القادرة على تلبية مطالب تلك الفئات .

لقد كشفت سياسةِ نيجر الـديماغـوجية رغبـة واقعية ، بـدائية ولكنهـا محددة - لـدى الفئـات المدقعـة و«الوسـطى» في دعـم الامبراطـور «الجيّد» المستعـد ، كما بـدا لها ، لتحقيق رغباتها .

كانت ارستقراطية المدن السورية هي الفئة الأكثر نشاطاً في حيـاة المجتمع السـوري . وغالباً ما يعتقدون أن المثل السياسية لفئة مالكي العبيد الحاكمة في الامبراطوريـة انعكست في مؤلف فيلوستراتس «حياة ابولوني تيـاني» . وسوف نتـوقف بدورنـا على أهم مسـألتين في هـذا المؤلف : مصير نظام البـوليس (المدينـة - الدولـة - المترجم) والمسـألـة الثـانيـة - السلطة الامبراطرية .

من وجهة نظر فيلوستراتس ، البوليس - واقع موضوعي ولكن المشكلة تكمن في تحقيق السـلام الاجتماعي . وكتب يقـول : «وكذلـك عن كيفية ادارة البـوليس ، متفاديـاً المواقف الخـطرة ، طلب (ابولـوني - شيفمان) من الفئـات التي رأى أنها لاتتفق مـع بعضهـا بـالـرأي فقال : الادارة الصحيحة للبوليس تتطلب وجود آراء متناقضـة متصاربـة مع بعضهـا ولكنها موحدة . وبما أن المحيطين اعتقدوا أن هذا القول متناقض في جوهره وهـذا ما أدركـه ابولـوني نفسه فعمد إلى تفسير ما قاله - «الأبيض» «والأسود» لن يكونا لوناً واحداً أبداً ، والطعم الحلو يجب ألا يمزج بالمر ووحدة الآراء يجب أن تـولّد صـدامات في سبيـل انقاذ المـدن . فلنقنع بما أقـوله . أمـا الصراع الذي يؤدي إلى استخـدام السيوف أو الـتراشق بالحجـارة فليبتعـد عن البـوليس الذي يحتـاج إلى تربيـة أطفالـه ، إلى القانـون وإلى الناس الـذين يملكـون الكلمـة والفعل . فالمبـاراة في ادارة الأعمال الحكـومية ، في قـول الرأي الأفضـل ، في تنفيذ المهـمات الوظيفية بشكل أحسن ، أن تكون سفيراً لامعاً ، أن تقيم منشـأة أكثر فـائدة - هـذا الصراع اعتـبره أنـا جيـداً تمـامـاً كـالصراع لتحسـين عمـل الـدولـة» . (Philostr.,Vita Apoll.,4,8,1-2) . بعد ذلك يتحدث فيلوسترات عن الرخاء الـذي عم البوليس بعـد أن وهبه المواطنون كل امكانياتهم ومواهبهـم وأصبح كل يعمل عمله فقط .

سوف نترك الآن البحث في مسألة الجذور الفلسفية لنظرية فيلوسترات ولكننا نشير إلى أنها افترض أولاً - الحفاظ على نظام البوليس وترسيخ دعائمه ، ثانياً - تشجيع النشاط السياسي للمواطنين . ذلك أن المشاركة النشطة للجماهير في حياة البوليس وحدها القادرة على احلال الأمن والهدوء في ربوع البلاد . ونود أن نشير في هذا السياق إلى الفرق الجوهري بين

بين فرضيات فيلوسترات وفرضيات بلوتارخ . فإذا كان هذا قد اعتبر أن النشاط الاجتماعي ـ السياسي ليس أكثر من وهم حيث السلطة الحقيقية في أيدي الأغراب ـ الرومان ، فالأول اعتبر هذا النشاط شرطاً ضرورياً لسير عمل النظام البوليسي بشكل عادي . ومن الجلي أن سعي الارستقراطية المحلية لاستخدام البوليس لخدمة مصالحها قد لعب دوره البارز في تشكل وجهة النظر الأخيرة .

والمسألة الثانية التي استأثرت باهتمام فيلوسترات ـ هي دور وطابع السلطة الامبراطورية . ويقترح حلها عبر كلمات ابولوني التالية : « لا يشغلني أي تركيب للدولة ذلك انني أعيش تحت سلطة الآلهة . ولكنني لا أريد أن تهلك البشرية بسبب عدم وجود راع حكيم وعادل . وكما يقوم فاعل خير باعادة الديمقراطية . بحيث تبدو وكأنها نظام لسلطة أفضل زوج وهكذا تكون سلطة الفرد موجهة كلياً لخدمة مصالح الدولة ـ الديمقراطية » . وفي الموعظة التي وجهها فيلوسترات باسم ابولوني إلى فيسباسيان حاول الأول أن يرسم الخطوط العامة للحاكم المثالي : « الحكم ـ أعظم عمل إنساني على الإطلاق ، تعلمه مستحيل . وإذا أخذت بنصيحتي تكون قد تصرفت بحكمة ـ وسوف أشرح لك هذا . قدّر الغنى الذي لا يختفي في الدرة (وإلا ما الفرق بينه وبين الرمل ؟) ولا يجلبه الناس الذين تسحقهم الاتاوات ، فالذهب خداع وقاتم إذا ما جلبته الدموع . باستطاعتك أن تستخدم الذهب بصورة أفضل ، ساعد المحتاجين ولكن حافظ على ثروة الأغنياء وقدسيتها . احذر أن تبيح لنفسك كل ما تطلب وكن معتدلاً . لا تقطع أعلى السنابل وأكثرها تميزاً (ذلك أن ما قاله أرسطوليس صحيحاً) ولكن من الأفضل أن تجتز الحسد كما تقتلع الأعشاب الضارة من الحقل ودع المخطئين يخافونك لا لعقابك لهم وإنما لأنهم جلبوا العقاب لأنفسهم . أيها الملك دع القانون يوجه كل أعمالك لأنك إذا ما احترمت القانون فسوف تشرّع انت بكل إعتدال . احترم الآلهة أكثر من ذي قبل : فقد وهبتك الكثير ولا تزال تطلب المزيد . صرّف شؤون الدولة كملك وشؤونك الشخصية كفرد . ماذا أستطيع أن أفيدك بشأن السكر والمغامرات مع النساء والكره إذا كنت أنا لم أحبذها حتى في مرحلة الشباب ؟ أيها الملك ، لديك ولدان نبيلان كما يقال ، سد عليهما بشكل خاص لأنك وحدك المدان في أخطائهما . هددهما بأنك سوف تحرمهما من السلطة إذا خرجا عن الطريق المستقيم ويجب أن يعرفا أن السلطة ليست تركة يرثاها وإنما

مكافأة على عمل الخير . أيها الملك ، اعتقد أنه يتوجب التخلي عن تلك الملذات التي اخترعت في روما (وهي كثيرة) : فمن الصعب أن يصبح الشعب عاقلاً بهذه السرعة ولكن يجب تلقين الإعتدال بالتدريج ، الأولى علناً والثانية - خفية . كان باستطاعتنا أن نكسر شأمة العبيد المحررين واولئك الذين لايزالون عبيداً ، أولئك الذين منحتك اياهم السلطة ولكن بقدر ما يكون هؤلاء مسالمين بقدر ما يعلو شأن السيد التابعين له . أما عن الموظفين الذين سترسلهم إلى الناس فلن أقول شيئاً (لأنك تمنح السلطة لمن يستحقها) ولكن عن أولئك الذين سيجري انتخابهم فأنا أقترح أن ترسل إلى الناس منهم من يستطيع أن يتفاهم مع الشعب . . . . أولئك الذين يعرفون اللغة اليونانية . . . . . » وأخيراً نشير إلى مشهد آخر بطله فيلوسترات أيضاً : « عندما جاء إلى بابل ظن حراس الأبواب أنه آت لمشاهدة المدينة فأعطوه صورة مذهّبة للملك وكان عليه أن يركع على ركبتيه أمام الصورة كي يسمح له بدخول المدينة . ولم تكن هذه العادة تطبق على سفراء روما بل على البربر ومن يريد التعرف على البلاد وإذا ما رفض أحدهم السجود أمام الصورة كان يتعرض للإهانة والهزء . ولما رأى (ابولوني - المترجم) الصورة سأل : من هذا ؟ وعندما سمع أنها صورة الملك قال لمن تسجدون ؟ سيعلو شأنه إذا ما استحق رضاي وكان طيّباً ورائعاً » .

وهكذا ، فوجهة نظر فيلوسترات تؤكد على ضرورة وجود السلطة الامبراطورية كي تستطيع البشرية الإستمرار في الوجود . أي أن الامبراطور هو ضمانة النظام القائم . فهو الذي يحافظ على ثروة الغني وهو من يساعد الفقير على الخروج من حالة العوز . وهذه الأخيرة ذات أهمية جوهرية : فالكلام يجري هنا عن إزاحة ما من شأنه أن يصبح أساساً لصدام اجتماعي . وفيلوسترات يقف موقفاً عدائياً حاداً من الطغيان « الشرقي » وطقسه الخارجي (الركوع) ويصر على ضرورة خضوع الامبراطور للقانون وأن يكون معتدلاً بحيث لا يسمح لنفسه أن يصبح فرداً متسلطاً . كما ويجب أن يجري انتقاء عملاء السلطة الامبراطورية بشكل يؤمن استمرار العلاقة مع السكان . فغياب التفاهم يؤدي إلى إضعاف السلطة العليا وبالتالي - غياب القانون وسيطرة الفوضى .

على ضوء ما تقدم أصبح بإمكاننا أن نوافق ي . م . شتايرمن على الاستنتاج الذي توصلت إليه بشأن المثل الاجتماعية لفيلوسترات . تقول شتايرمن : إن المثل الاجتماعي لفيلوسترات هو الامبراطورية القائمة على المدن التي تتمتع بحكم ذاتي ، وهكذا كانت فعلاً في عهد آل أنطونيو » . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فيلوسترات كان ينتمي إلى مجموعة يوليوس دومينا الأدبية يصبح من الصعب علينا أن نتصوّر أن برنامج حكومة آ سيفير قد

اعتمد كلياً على « سيرة حياة ابولوني تاييني » خاصة وأن هؤلاء كانوا يطمحون لاستقطاب كل من كان يؤيد نظام آل أنطونيو ـ السينات وارستقراطية المدن .

اهتماماً خاصاً تثير لدينا رواية هيروديان . فقد عاش هذا المفكر السوري إبان الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد . ولاشك أن هذا الكاتب استطاع أن يعكس في كتاباته المزاج العام السائد في محيطه ، المعادي والمؤيد على السواء . كان هيروديان ينتمي إلى تلك الفئة الاجتماعية التي ترفد الجهاز الامبراطوري بالموظفين ـ أي ارستقراطية المدينة السورية . ولاشك أن وجهات نظر هذه الأخيرة ومواقفها من تطور الأحداث السياسية في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث قد لعبت دوراً حاسماً في التكوين الإيديولوجي لهذا الكاتب .

لقد تجلت مثل هيروديان بكل وضوح في تقييمه لنشاطات الأباطرة الرومان في المرحلة المذكورة . حيث فاز كل من مارك افيريلي ، بيرتيناكس والاسكندر سيفير بأعلى العلامات لديه .

يصف هيروديان مارك افيريلي كما يلي : إنّه فيلسوف على العرش يسعى في حياته لعمل الخير ، غني ونبيل ، يقدر الحكمة والتواضع ، (وهذه هي المقاييس نفسها التي على أساسها اختار هيروديان أزواجاً لبناته) ، صافي النية ويتمنى الخير للجميع ، معتدل ومباشر (Herodian,1,2,2-4) وعندما أحس افيريلي بقرب أجله ، وكان ولي عهده شاباً في مقتبل العمر الأمر الذي أقلق الامبراطور كثيراً . فولده سوف يتمتع بسلطة مطلقة والخوف كل الخوف من أن يسيء استخدامها ويتحول إلى السكر والملذات . فيلجأ افيريلي إلى أصدقائه للتشاور . وينقل إلينا هيروديان كلام افيريلي حيث يصيغ المبادىء الأساسية لسلوك الحاكم الأعلى . « لا استغرب قلقكم من الحال التي أنا فيها : فمن الطبيعة تولد الطبيعة البشرية وما يرافق هذه الأخيرة من آلام ومصائب وأحزان وما شابه أما الأحزان البادية للعيان فلا تستدعي إلا الشفقة . ولكن شعوركم نحوي ، على ما اعتقد ، مختلف : فأنا أقيّم موقفكم مني على أساس موقفي أنا منكم . أهم ما عندي الآن أن أعرف ما إذا كان كل ما أعطيتكم قد ضاع سدى أم انكم عند حسن الظن . وإذا أردتم أن تردوا لي الجميل فلا أطلب منكم سوى أن تثبتوا انكم لم تنسوا ما حصلتم عليه . إنكم ترون أن ولدي ، الذي نشأ بين أيديكم لايزال في سني شبابه الأولى ويحتاج إلى من يوجهه أيام العواصف كي لايضل الطريق القويم . كونوا مكاني ـ آباءً له ، اعتنوا به وقدموا له أحسن النصح . فالثروة مهما طالت لا تكفي سيل الإسراف ولا يستطيع الجنود حماية الحاكم إذا كان الشعب ضده . تعرفون انه لم يطل سوى

أمد أولئك الحكام الذين استحقوا حب شعوبهم ، فالخوف يولد الحق ولا يولد المحبة والطاعة . فليس العبيد الخانعين بالضرورة هم الذين خارج دائرة الشك بل خارجها من يؤدي الطاعة قانعا فقط . فهؤلاء لا يثيرون الشغب والقلاقل إلاّ اذا دفعتهم اليها القوة والتجبر . من الصعب على من بيده سلطة ان يكون معتدلاً امام رغباته . فاذا ما سارت نصائحكم له على هذه الاسس فانكم واياه ، الذي يسمع الآن ، تعدّون لانفسكم "افضل امبراطور وسوف تذكروني بالحسنى وهكذا فقط تستطيعون تخليد ذكراي» .

لقد لخص بير تيناكس الأسس التي ، حسب رأي هيروديان ، سيسير عليها حكمه في خطبته أمام السينات (Herodian,2,3,5 - 10) : « لقد منحتموني شرفاً عظيماً وأظهرتم تعاطفاً كبيراً معي وانتخبتموني دون أن تظهروا أي تملق بل قدمتم برهاناً ساطعاً وضمانة أكيدة على تعاطفكم معي ، وهذا يعطيني القوة والإقدام على اتخاذ القرارات ويمنحني الشعور بالأمان والطمأنينة على أنني سوف أستطيع توجيه دفة الحكم دون صعوبة . لقد هزت هذه الثقة مشاعري وخلقت فيّ خوفاً وقلقاً . فمن الصعب أن نجد ما يعادل في قيمته ما أنجزه الأقدمون من أعمال خيرة : عندما يحصلون على القليل ويصنعون الكثير فهذا لا يعتبر عملاً سهلاً وإنما تعبير عن العرفان فمن يفعل الخير أولاً يستحق كل الشكر . وهكذا ، لا أرى انه يترتب علي أن أغوص في عالم المقارنة كي أثبت لكم انني أهل للثقة التي أوليتموني اياها . فالأولوية ليست بالكرسي بل بالعمل . بقدر ما يثير الماضي فينا شعوراً بالاشمئزاز ، لأنه كان قبيحاً بقدر ما يكبر لدينا الأمل في المستقبل . العمل السيء لا ينسى وما يبعث السعادة ينتهي بسرعة ويصبح منسياً . فالحرية لا تسعد بقدر ما تقهر العبودية ولا يشكر القدر من يتمتع بملكه بحرية ودون خوف ذلك أنه يعتقد أنه إنما يمارس حقه الطبيعي ولكن من سلب ملكه لا ينسى أبداً ذلك الذي كان سبب تعاسته . وإذا ما حدثت في الحياة تغيرات ملائمة فلا يعتبر أحد أنه ناله نصيب كبير منها لأن الفرد قلما يهتم بأمور المجتمع طالما يتصرف منفرداً وإذا ما سارت الأمور عكس رغبته يعتقد أنه فقد امتيازاً كبيراً . أما أولئك الذين اعتادوا على حياة البذخ والترف فيعتبرون أن التحول إلى سياسة الإعتدال في إدارة الحكم أمر بعيد عن الحكمة والكياسة . فهم لا يفهمون انه لا يجوز إغداق النعم كيفما اتفق دون سرقة خيرات الآخرين وقهرهم بينما يتطلب المبدأ العطاء على قدر الخدمات ـ دون أن يلزم أحد باقتراف عمل شنيع كي يجمع ثروة طائلة ، بل يجب أن يتعلم الجميع الحفاظ بحكمة على الثروة التي جمعها بشرف . يجب عليكم ، أنتم الذين تفهمون كل هذا أن تمدّوا لي يد المساعدة ذلك أن إدارة الدولة هي عمل جماعي فالخضوع يجب أن يكون لسلطة الأحسن وليس للاستبداد ، يجب أن تكون لديكم آمال خيرة كي تعدوا الآخرين بالخير »ثم تابع هيروديان يقول : إن بير تيناكس حاول أن يقيم النظام في كل مكان وأن يكون معتدلاً فسعى إلى مساواة نفسه بالمحيطين به .

في خطاب بيرتيناكس تلفت الانتباه النقاط التالية . فهو يقارن الزمن الذي بدأ لتوه ويصفه « بالحسن » بالزمن الذي فات « عهد كومود » ويضع الحرية مقابل العبودية ثم يعد بضمانات تحفظ الملكية وبتغيرات نحو « الأحسن » في مجال الحياة الاجتماعية ، يعلن الاعتدال أساساً لسياسته ، وأخيراً ، يدعو مستمعيه (السينات) لمشاركته شؤون الحكم معلناً بذلك نظاماً جديداً وشكلاً أرستقراطياً فريداً . ولكن إذا ما قارنا نظرية هذا الأخير وبرنامجه الحكومي مع ما ورد على لسان فيلوسترات لاتضح لنا تماماً تطابق وجهتي النظر هاتين بخطوطهما العامة . ونرى من المفيد أن نذكر هنا مرة أخرى ما جاء على لسان فيلوسترات عن « ديمقراطية » السلطة المثالية التي ينهجها الحاكم ، أي الموجهة لصالح الجميع : الحفاظ على ملكية الأغنياء وتقديم المساعدات المادية للمعوزين ، خضوع الامبراطور للقانون وعن الاعتدال كثمرة طبيعية لهذا الخضوع ، وأخيراً الحرب ضد « الملذات » . وتأتي الخطوات العملية التي خطاها بيرتيناكس متطابقة تماماً مع وجهات نظر فيلوسترات ـ ابولوني ـ تلك الخطوات التي حظيت بتأييد هيروديان : الاصلاح الزراعي الذي أعطى الامكانية لكل من يرغب في استثمار الاراضي البور ، بما فيها الاراضي التابعة للامبراطور ، حيث تصبح تلك الاراضي ملكاً لمن يستثمرها ويعفى من الضرائب لمدة عشر سنوات (Herodion.,2,4,6) ، اعلان املاك الامبراطور ملكية عامة تابعة للدولة ، تحويل واردات الاتاوات لتمويل عملية اصلاح الطرق ، اي لتلبية حاجات الدولة وتثبيت القرار السابق القاضي بالاعفاء من الاتاوات .

وفي الختام نعرض تقويم هيروديان لحكم الاسكندر سيفير الذي يؤيده هيروديان كل التأييد (Herodiah.,6,9,8) : «عندما استولى الاسكندر على السلطة توشى بالحلة الامبراطورية ولكن النساء هن اللواتي ادرن شؤون الحكم وحاولن اعطاء كل اجراء مظهراً عقلانياً لائقاً . فقمن قبل كل شيء باختيار ستة عشر زوجاً لهن من السينات وقد راعين في ذلك أن يكون الزوج المختار في سن مثالية واسلوب حياة معتدل كي يستطيع ان يكون مستشاراً لائقاً للامبراطور ولم يكن بالامكان عمل اي شيء في الامبراطورية دون موافقتهن . وهذا النظام لم يكن سوى تحويل السلطة من سلطة مستبدة الى حكم الافضل . ولقد حاز على رضى الشعب والجيش والسينات . قبل كل شيء تمت اعادة نصب الآلهة التي نقلها ذاك (الامبراطور هيليوجبل ـ شيفمان) كما أعيدت لها معابدها . وعهدوا الى اكثر الناس ثقافة وسعة افق بادارة شؤون الدولة وتنظيم القضايا القانونية ، اما شؤون الجيش فقد عهد بها الى قادة مجربين تميزوا في خدمتهم العسكرية» . يتضح اذاً ان الكلام يجري هنا عن اعادة الشرف المهدور للارستقراطية اي اقتسام السلطة الامبراطورية سوية مع السينات أي آن ما يجري هنا

هـو تنفيذ المقـولة الـرئيسة في الـبرنامـج السياسي الـذي تكلم عنـه بـيرتينـاكس ، كـما اورده هيروديان .

وهكذا نرى ان اهتمام هيروديان ينصب اساساً على تنظيم السلطة الامبراطـورية وادارة الامبراطورية ككل ولذلك فكتابه لا يحوي اية معلومات عن نظام البوليسات .

عموماً ، ينتمي هيروديان ـ كما فيلوسترات ـ الى تلك الفئـة التي كانت تـرفد السلطة الامبراطورية بالموظفين . ومن الـواضح أن اصراره عـلى فكرة اقتسـام السلطة بين السينـات والامـبراطور هي تعبـير عن علاقـاته الـوطيدة مـع وسط السينات . ومن المعـروف ان ديون كاسيوس وميتسينت قد عبرا في خطبتيهما الموجهتين الى اغسطس عن مثل اعضاء السينات ، أو عـلى الاقل قسم منهم ، حيث دعـا اغسطس الى قيـام امبراطـورية مـركزيـة قـويـة يتمتـع الامبراطور فيها بسلطة مطلقة معتمداً في ذلك على مساعدة ودعم افضل الاعضاء (لقد طالب كاسيوس وميتسينت باحترام السينات واطلاعه على مجريات الامور في الامبراطـورية) . من جهة اخرى . ترى ي . م . شتايرمن ان الصراع الاجتماعي الذي كان دائراً في مدن الشرق لعب دوراً هاماً في تحديد وجهة نظر ديون كاسيـوس وخاصـة زمن حركـات افيدي كـاسيوس ونيجر حيث ارتدى ذلك الصراع طابعاً اكثر حدة بسبب حقد هـذا الكاتب ـ السينـاتور عـلى الشعب وسعيه لاقامة سلطة امبراطورية قوية قادرة على لجم تحركات «السوقة» . وسوف نرى لاحقاً أن مزاجاً مماثلاً اخذ بالظهور على مسرح الاحداث ابان الصراع السياسي في سورية وفي صفوف ارستقراطية المدينة نفسها . ولسوء الحظ لا تتوفر لدينا اية معلومات عن موقف اعضاء السينات السوريين ولكننا لا نشك في انه كان لهم موقف مغاير لموقف ديون كاسيوس . وتجـدر الاشارة هنا الى أن عدد أعضاء السينات السوريين قد بلغ في القرنين الثاني والثالث رقـماً عاليـاً نسبياً . حيث بلغ في عهد سيبتيم سيفير وكركلا ٢ ، ٢٪ . وهذا مـا يسمح لهم بـالتأثـير جديـاً على مجرى الاحداث في سورية .

وعلى اية حال ، رويداً رويداً بدأت مصالح الفئتين الاجتماعيتين المتصارعتين (اعضاء السينات وارستقراطية المدن) تقـترب من مواقـع بعضها البعض امـا موقف هـيروديان المؤيـد للسينات فيدل على أنه كان يعبر ليس فقط عن مزاج ارستقراطية المدن وموظفي الامبراطـورية وإنما عن مزاج قسم من اعضاء السينات ايضاً .

وهكذا يصبح بإمكاننا الآن أن نحدد اتجاهات البرامج السياسية التي كـانت مطروحـة على الساحة السياسية للامبراطورية الرومانية آنئذ .

اولا برنامج الطبقة «الدنيا» : القضاء على التفرقة الاجتماعية واقامة مملكة الخير . والمساواة والرفاه العام . وكان من المنتظر أن يتحقق هذا الهدف نتيجة لظاهرة ما في الآلهة المنقذة واقامة مملكة الله على الارض ، اي انقلاب ما في الفضاء الخارجي ، اومجيء امبراطور يدافع عن مصالح الشعب .

ثانياً ـ برنامج ارستقراطية المدن والارستقراطية الامبراطورية : الحفاظ على النظام القائم وترسيخ دعائمه اما عن طريق الدعوة الى الكمال الاخلاقي للشخصية الانسانية وتلاؤمها مع الظروف التي خلقتها القوة العليا واما عن طريق تأسيس سلطة حكومية قوية قادرة على ردع العامة واقرار الامن والاستقرار . اما شكل السلطة الامثل فكان يجب ان يكون اما سلطة امبراطورية تخضع للقانون مع وجود بوليسات قوية تتمتع باستقلال ذاتي (ايديولوجيا قسم من ارستقراطية المدن) واما سلطة الامبراطور والسينات (ايديولوجيا قسم من ارستقراطية المدن والسينات) وامّا سلطة امبراطورية مطلقة (أيضاً ايديولوجيا قسم من ارستقراطية المدن والسينات) .

الصراع السياسي ـ الاجتماعي في سورية في النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد

من المؤسف ان المواد المتوفرة لدينا لا تسمح لنا ان نكوّن صورة متكاملة عن تطوّر الحركة الاجتماعية في سورية في هذه الفترة وكيفية تداخل الصراع الايديولوجي معها . والسبب في هذا الوضع المحزن أن المصادر التي وصلتنا تعطي جل اهتمامها للصراع السياسي ، للصراع على السلطة بين مختلف الجماعات السلطوية . فالشخصيات الرئيسية في الصراع السياسي الاجتماعي آنذاك كانت تملك امكانيات واقعية لطموحها في استلام السلطة . ومن المسلم به ان تلك الشخصيات كانت تعبر عن مزاج فئات اجتماعية معينة وقد سعت لخلق المناخ السياسي والاجتماعي المناسب لها . والشيء المميز الذي يتبادر الى الذهن هنا أن الجماهير لم تلعب دوراً نشطاً في ذلك الصراع و
ضد ذلك او كانت تحلم باسقاط الآخر وتدعم هذا الاتجاه وتقف ضد ذلك . مع كل هذا كان المتناحرون يبحثون دائماً عن مواقع لهم لدى جماهير الشعب ولم يكن باستطاعتهم أن لا يسمعوا مطالبهم ويتخذوا القرارات اللازمة لتلبية حاجاتها تلافياً لحدوث صدامات

اجتماعية . والواقع انه لم تصلنا اية معطيات عن وجود نظام الانفاق الاجتماعي في سورية ولكن شيئاً من هذا الانفاق كان موجوداً ولا شك .

الصراع السياسي في المجتمع السوري في النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد .

في الثلاثينات من القرن الثاني بدأت تظهر اولى التحركات التي تنم عن تصاعد تيار الانتفاضات الشعبية في سورية وقد تجلى مثل هذا المزاج بشكل واضح خلال الرحلة التي قام بها الامبراطور ادريان إلى الشرق الاوسط . فمن المعروف أن هذه الرحلة ساعدت بشكل ملحوظ على ترسيخ القاعدة الاجتماعية للسلطة الامبراطورية في سورية : لقد وزع ادريان الامتيازات بسخاء «وبنى» المدن وغير ذلك . وساعدت اعمال ادريان هذه على تقوية مواقع ارستقراطية المدن ونظام البوليسات عموماً . وعلى هذه الخلفية المتفائلة تبدو رواية Ael.spart.,Hard,14,1 عن «الكره» الذي يكنه ادريان للانطاكيين غريبة بعض الشيء : فبسبب انطاكية اراد ادريان أن يفصل فينيقيا عن سورية كي لا تبقى الاولى ميتروبولية لهذا العدد الكبير من المدن .

وحتى الآن لا يسمح لنا وضع المصادر أن نحدد بدقة الظروف والاسباب التي جعلت ادريان يكن كل هذا «الحقد» لانطاكية . ولكن السبب الواضح واحد : وهو ان التحركات المعادية لادريان كانت بقيادة هذه الفئة او تلك من الفئات التي ، لاسباب مختلفة لم تكن راضية عن سياسة الامبراطور . ويرى ايلي سبارتيان أن الهدف من كل الاجراءات التي اتخذها ادريان هو الحد من تأثير انطاكية . وهذا ما ادى اليه عملياً ليس تقسيم المقاطعة وحسب وانما تلك الامتيازات التي اعطيت لمختلف المدن ايضاً . وهكذا وجهت ضربة اليمة لمصالح الارستقراطية الانطاكية . وإذا كان ما عرضناه واقعاً فنحن امام وضع متناقض : سياسة ادريان الموجهة لمصلحة المدن السورية استحقت احتجاج انطاكية وادت إلى وضع صدامي بين الامبراطور والارستقراطية المحلية .

ومع أن هذه الحادثة تبدو وحيدة على خلفية الخير العام الذي حققته زيارة ادريان الاّ اننا نأخذها بعين الإعتبار لانها كانت سابقة للاحداث العاصفة التي اندلعت في وقت لاحق .
- حيث انفجرت معركة جديدة بين السلطة الامبراطورية والسوريين بعد اربعين عاماً من

ذلك التاريخ وبالتحديد عندما اصبح افيدي كاسيوس احد المطالبين بالسلطة الامبراطورية .

يخبرنا مؤرخ حياة افيدي كاسيوس عن «الحب» الذي يكنه اهل الشرق لهذا الاخير وخاصة اهل انطاكية الذين منحوه كل الدعم في سعيه لاستلام السلطة في الامبراطورية . وهذا ما يؤكده ديون كاسيوس عن لسان مارك افريلي عندما توجه هذه الاخير بخطبته الى الجيش : «ليس اهل كيليكيا اقوى منّا ولا السوريون واليهود والمصريون»واخيراً ، يشير يوليوس كابيتولين الى أن الانطاكيين «قالوا الكثير ضد مارك ولصالح كاسيوس» . ويقول ايضاً ان مارك افريلي وصف الانطاكيين في خطبه بأنهم «عصاة» (seditiosos) . لقد حافظ الانطاكيون على عهدهم لافيدي كاسيوس حتى عندما مال ميزان القوى ضده . حيث جاء في vulc.Gallic.,Av.cass.7,8ان افيدي كاسيوس قتل «بموافقة الجميع ما عدا الانطاكيين» .

لماذا اتخذ الشرق الروماني وخاصة انطاكية مثل هذا الموقف ؟ المصادر لاتفيدنا بهذا الخصوص بشيء ذي بال . فمؤرخ سيرة حياة افيدي كاسيوس يحدثنا عن الاجراءات الصارمة التي اتخذها افيدي لفرض النظام في الجيش وخاصة تلك القطع المتوضعة في سورية وعن العقوبات القاسية التي فرضها بحق الجنود الذين نهبوا سكان المقاطعة . ويلفت الانتباه ايضاً تقييم فولكاتسي غالكين لافيدي كاسيوس والذي جاء في بداية روايته «وهكذا ، فهذا الكاسيوس ، كما قلنا ، واحد من سبعة أشخاص حملوا هذا الاسم ونظموا المؤامرة ضد غاي يوليوس – كان يحمل حقداً خفياً ضد البرينتسبات ولم يكن يطيق سماع لقب امبراطور ، وكان يردد دائماً أنه لاشيء أفظع من اسم «امبراطور» ذلك أنه لايمكن خلعه من الدولة إلاّ من قبل امبراطور آخر» . واذا تركنا مسألة منشأ أفيدي كاسيوس جانباً يبقى أن نقول أن ماورد في هذا المقطع يطابق ، الى حد ما ، واقع الأشياء – ذلك التصّور الذي سعى أفيدي نفسه وحلفاؤه لخلقه لدى الناس عنه .

، ولقد لفتت ي . م شتايرمن الانتباه إلى ما يسمى برسالة أفيدي كاسيوس (vulc.Gallic.,Av.Cass,14)التي ، كما تقول صيغت على أسس تلائم كاسيوس تمام الملاءمة ، ونحن نضيف ، وتعكس الايدولوجية التي أعلنها هو بشكل رسمي . لقد جاء في الرسالة : «تعيسة هي الدولة التي تتحمل هؤلاء المتعطشين إلى الثروة والأثرياء . وتعيس أيضاً مارك ، الإنسان المثالي ، طبعاً ، والمعروف بسعة صدره وطيبة قلبه ، يتحمل هو كي يعيش الآخرون حياة يرفضها لنفسه . أين لوتسي كاسيوس الذي عبثاً نحمل اسمه ؟ أين

مارك كاتون - الرقيب ؟ أين ذهبت صرامة أخلاق أجدادنا؟ لقد هلكت منذ زمن بعيد . ولاأحد يسعى إليها الآن . مارك أنطوني يتفلسف ويبحث مسائل العناصر ، والروح والشرف والعدالة ولايفكر فيما آل إليه حال الدولة . هل ترى كم يلزمنا من سيوف وأحكام بالإعدام (elogiis)كي تعود الدولة إلى وضعها القديم . ولكن مصيبتي مع حكام المقاطعات هؤلاء : هل أستطيع أن أعتبر حكاماً أولئك الذين يعتقدون أن السينات وأنتونين إنما عهدوا إليهم بالمقاطعات كي يبذخوا ويجمعوا الثروة ؟ فليغنوا وليجمعوا الثروة : فلسوف تصبح الخزينة أكثرغنى . فليحم الله اليمينيين - خلفاء كاسيوس الذين سيعيدون سلطة البرينتسبس (السيناتور الأول - المترجم) إلى الدولة» . ترى شتايرمن في هذا المقطع بداية ظهور المعارضة لسياسة مارك أفريلي ومطالبة صريحة بالحد من ثروة كبار الأغنياء . وترى أيضاً أنها تعبر عن مزاج ملاّك العبيد والعقارات الكبيرة ذوي الميول الجمهورية . ونحن نود أن نضيف إلى هذا التقييم ما يلي . عندما يجري الكلام عن «إعادة» سلطة البرينتسبس إلى الدولة وعندما يعبر عن الحزن لضياع disciplinaفالكلام إنما يجري عن بعث النظام الجمهوري وتحطيم السلطة الإمبراطورية عموماً . ولكن عندما يعلن واضع الرسالة عن احتجاجه ضد نهب المقاطعات وخزينة الإمبراطورية من موظفي الإمبراطور فإنه لايعلن موقفاً معادياً للثراء بشكل عام وإنما يحتج على سوء استخدام السلطة . وأخيراً يبدو واضحاً أن إدانة صاحب الرسالة لكبار الأغنياء وكبار الملاّكين من الوسط الأرستقراطي إنما تتصف بكل مظاهر الديماغوجيا الإجتماعية .

تدل هذه المعطيات على أن أفيدي كاسيوس حاول الإعتماد على الأوساط المعادية للإمبراطورية والتي كانت تسعى لحماية مصالحها من عسف الجيش الإمبراطوري والموظفين .

ما هي هذه الأوساط ؟ هذا ما نعرفه من الروايات التي وصلتنا عن مصير إنطاكية بعد مقتل افيدي كاسيوس . فقد أصدر مارك أفيريلي مرسوماً خاصاً منعت بموجبه كل العروض والاجتماعات الجماهيرية في هذه المدينة . كما وحرمت إنطاكية من بقية امتيازاتها كبوليس . ولكن مارك أفيريلي «عفا» عن انطاكية وكل مدن الشرق التي وقفت مع أفيدي كاسيوس وأعاد لها شخصيتها الاعتبارية السابقة . ولانعتقد أن هناك أية صعوبة في تحديد اتجاهات إجراءات التنكيل التي اتخذها مارك أفريلي : فقد حاول هذا تحييد كل إمكانية لأي تحرك شعبي في المدينة المعاقبة والقضاء على أجهزة السلطة في البوليس وكانت النتيجة أن أصبحت انطاكية تماماً تحت سيطرة موظفي الإمبراطور . وهكذا ترتسم أمامنا صورة تفيد بأن الاجراءات التي اتخذها المنتصر لم تكن موجهة ضد الأرستقراطية الساعية إلى تحقيق الحد الأقصى من

الاستقلالية وحسب وإنما كانت موجهة أيضاً ضد جماهير الناس الأحرار الذين توجه إليهم أفيدي كاسيوس بديماغوجيته الإجتماعية .

لقد لعبت محاولة ليغات سورية نيجر الاستيلاء على السلطة الإمبراطورية (١٩٣ - ١٩٤) دوراً بارزاً في الحياة السياسية - الاجتماعية لهذه المقاطعة . إذ أنه من المعروف أن بيستيسني نيجر أعلن إمبراطوراً في ظل الظروف التالية بعد مقتل كومودا ، في نفس اليوم الذي قتل فيه الوريث الأول للعرش بيرتيناكس (٣ آذار ١٩٣) اشترى العرش السيناتورم . ديدي يوليان . ولكن بعد أيام قليلة اعتلى العرش الإمبراطوري ليغات بانونيل الأعلى ل . سيبتيم سيفير وفي نفس الوقت تقريباً (نيسان عام ١٩٣) أعلن بريتاني ألبين عن مطالبته بالعرش . في نهاية نيسان اعترفت كل المقاطعات الشرقية التابعة للإمبراطورية الرومانية بسلطة نيجر . وهذا الوضع الأخير إضافة إلى الشعبية الواسعة التي كان يتمتع بها جعلت منه الشخص الأكثر حظاً في اعتلاء العرش الإمبراطوري في ظل ظرف تناحر فيه عدد من المطالبين بالعرش في القسم الغربي من الإمبراطورية . ولكن سيبتيم سيفير خرج من المعركة منتصراً . ولم يعترف نيجر بانتصار سيفير . وفي عام ١٩٣ لحقت بنيجر الهزيمة الأولى قرب كيزفة وفي عام ١٩٤ - قرب نيقية ثم إيسا حيث هرب إلى بارفية فقبض عليه في الطريق وأعدم .

لقد وقف سكان سورية مع نيجر . وهذا ما تفيدنا به المصادر . ولقد تعرضنا سابقاً إلى السياسة الديماغوجية التي سلكها في إقامة الحفلات وتنظيم العروض التي اهتم بها ، بشكل أساسي بروليتاريا المدينة وصغار الحرفيين والتجار . ومما له دلالة خاصة أيضاً أن جيشه كان يضم عدداً كبيراً من الجنود - الانطاكيين غير المدربين بما في ذلك الحرفيين . ويقول هيروديان : «إن أكثر أهل انطاكية وخاصة الشباب ، لضعف وعيهم وميلهم نحو نيجر انضموا إلى جيشه بقناعة مؤقتة وليس نتيجة لتفكير واع» . ويبدو أن هيروديان غاضب على الانطاكيين ولكن غضبه هذا يعكس أيضاً حماسهم . وهذا ما يكتب عنه مؤرخ سيرة سيبتيم سيفير : لذلك كان سيفير غاضباً على الانطاكيين فقد هزؤوا به عندما أصبح حاكماً على الشرق ومنحوا ثقتهم وتأييدهم لنيجر المهزوم . ولا شك أن سلوك هذا المنتصر ورد فعله ينفيان تقييم هيروديان : ذلك أننا لسنا أمام تصرفات صبيانية غير عاقلة وغير مدروسة وإنما نحن أمام سياسة مبدئية محددة . كل هذا يجعلنا نتفق مع النتيجة التي خلصت إليها شتاير من أن الفئات «المتوسطة» هي التي سارت وراء أفيدي كاسيوس ونيجر (ونود أن نضيف الأرستقراطية المحلية والفئات الإجتماعية الدنيا) . وتفيدنا المصادر بالموقف العدائي الذي وقفه نيجر من السينات وأعضائه . ويبدو أن ي . أ . تشورنوسوف محق في قوله : إن فئات شعبية واسعة دعمت حركة نيجر ولذلك فقط لم يخسر المعركة بعد الهزيمة الأولى .

من المعروف أن ديون كاسيوس يعتبر أن نيجر ظاهرة رمادية لاتستحق الإدانة ولا المديح . ولكن لهيروديان موقف آخر حيث يقول : «فيما عدا ذلك يقولون إنه لم يكن شخصاً سيئاً لاكحام ولا كإنسان» . يظهر أن ما قام به ودعا إليه نيجر كان يتفق مع مثل هيروديان . ونجد عند إيلي سبارتيان تقييماً مماثلاً : «لقد كان أفضل محارب وخطيباً مفوهاً وقائداً عسكرياً فذاً وليغاتاً صارماً وقنصلاً لامعاً وإنساناً رائعاً مميزاً في حياته الخاصة والعامة ولكنه كان إمبراطوراً تعيس الحظ .

ومع ذلك ، كما يقول تشورنوسوف ، مع الانتصارات الأولى التي حققها سيفير بدأت تطفو على السطح أمزجة معارضة لنيجر . ويعطي هيروديان التقييم التالي للأحداث : «أهل اللاذقية في سورية (أعلنوا العصيان - شيفمان) بسبب الكره الذي يكنونه للانطاكيين وفي فينيقية أهل صور بسبب عدائهم لأهل بيروت» . فبعد أن سمع هؤلاء بالهزيمة التي حلت بنيجر في آسية الصغرى حاولوا تحطيم نصب التكريم التي أقيمت له ، أي رفضوا الاعتراف بسلطته . ولكن جنود نيجر الموريتانيين سحقوا هذه الانتفاضة بقسوة . إلاّ أن النصر النهائي الذي حققه سيفير قلب مجرى الأمور : فكما أشرنا سابقاً ، حرمت انطاكية من وضعها كبوليس وأصبحت تابعة للاذقية . ولكن أعيدت لها امتيازاتها فيما بعد . ويبدو أن التفسير الذي يعطيه هيروديان للأحداث هو الأكثر قرباً من الواقع : إلى جانب المصالح السورية وحتى الإمبراطورية العامة كانت هناك أيضاً مصالح خاصة تشكل واقعاً هاماً في الحياة الاجتماعية بما في ذلك المزاحمة القديمة بين المدن وصراعها في سبيل الزعامة الاقتصادية والسياسية .

لقد كان لزواج سيبتيم سيفير من يوليا دمنة وكانت هذه من عائلة حمصية كهنوتية - دوراً هاماً في الحياة السياسية لسورية . فقد فتح هذا الزواج الطريق أمام بعض أفراد هذه العائلة إلى السلطة الإمبراطورية ولكنه (هذا الزواج - المترجم) في نفس الوقت كان قد ضمن تأييد الأوساط الكهنوتية السورية لسيفير . ولا يخفى ما لهذه الأوساط من تأثير فعال وواسع . غير أن هذا الوضع المستجد وضع كهنة إله الجبل في المقام الأول في حمص ، ذلك أنه بعد أن أصبحت يوليا دمنة تحمل لقب pia,Felix,Augusta,Mater augustorum وأيضاً Mater custrorum,senatus patriae, غدت تتمتع بمكانة اجتماعية عالية لاكقرينة إمبراطور فقط وإنما كانت لها سلطة سياسية حقيقية (خاصة بعد موت سيفير) وبذلك كانت يوليا دمنة سلفاً مباشراً لزنوبيا . لقد دلت تقلبات الصراع على السلطة بين العائلة الحمصية المذكورة وماكرين ، التي انتهت بمقتل هذا الأخير - على مدى شعبية العائلة - التي تربطها

قرابة حقيقية أو موهومة بسيفير وكركلا - في الجيش . ويروي لنا ديون كاسيوس عن صدامات مسلحة بين الفريقين في انطاكية . فعلى ما يبدو أن الصراع بينهما كان أيضاً يعكس الصراع بين فئتين اجتماعيتين ولكننا نفتقر إلى المعطيات التي تسمح لنا برسم صورة للتركيب الإجتماعي لهما .

عندما وصل هيلوجبل إلى العرش كان من الطبيعي أنه سوف يطبق عملياً أفكار العائلة التي أوصلته إلى هنا فحاول أن يفرض عبادة إلى الجبل على الامبراطورية كلها ويعطيها الأولوية وكان هذا يعني بدوره أن السلطة الحقيقية في الإمبراطورية قد أصبحت في أيدي كهنة حمص - مركز هذه الديانة . وكانت حمص مرشحة مستقبلاً لأن تأخذ مكان روما كمركز للإمبراطورية برمتها . ولكن مقتل هيلوجبل قضى على كل هذه الآمال .

وبعد مقتل هيلوجبل استوى على العرش قريبه الإسكندر سيفير الذي قلب سياسة عائلته رأساً على عقب في محاولة منه للحفاظ على وضعه ووضعها . ونذكر هنا بالتقييم الإيجابي الذي أعطاه كل من هيروديان وإيلي لامبريدي لعهد الإسكندر هذا . وليس صدفة أن يجري اختيار الاسكندر سيفير بالذات لرسم شخصية الامبراطور المثالي .

وفي هذا السياق نذكر أن شتايرمن قامت بتحليل الاتجاهات الرئيسية لسياسة الإسكندر بشكل مفصل . وتتلخص هذه الاتجاهات بالتالي : تحويل مساحات واسعة من الأراضي الامبراطورية إلى ملكية خاصة أو تأجيرها بشروط سهلة ، توزيع الأراضي والعبيد والأدوات على الأرستقراطيين الجمهوريين الذين أصبحوا يعانون من الفقر ، توطين الجنود في الأراضي الحدودية وتحويلهم إلى فئة عسكرية تتمتع بامتيازات معينة ، رفع الحصانة الضريبية عن فئة المحاربين القدماء ، إعادة الديكوريونات إلى المدن التي ينتسبون إليها وفرض تأدية الأتاوات عليهم ، إعفاء الكولونات (شكل من أشكال العلاقات الإنتاجية بين صغار الفلاحين - الكولونات - وكبار مالكي العقارات . وقد أصبحت الكولونات الأساس الذي قامت عليه العلاقات الإقطاعية في أواخر أيام الامبراطورية الرومانية - المترجم) التابعين للامبراطور وكذلك أعضاء الجماعات التجارية والحرفية من تأدية الضرائب والأتاوات لصالح خزينة المدن . تقول شتايرمن «إن حكومة الاسكندر سيفر وجهت ضربة أليمة إلى شكل الملكية القديمة (أي إلى العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية السائدة آنذاك - شيفمان) وذلك بتحقيقها مصالح كبار الملاك على حساب مصالح الجنود وأوساط المدن» ونحن نعتقد أن محاولة إحياء الأرستقراطية الجمهورية ومنحها العبيد والأرض وكذلك فرض الأتاوات عليها هما عمليتان مرتبطتان مع بعضهما البعض . لقد حاولت حكومة سيفير قدر إمكانها حماية

البوليسات من الإنهيار وتقوية علاقاتها ونظامها وتوسيع قاعدتها الإجتماعية وتحييد كل ما من شأنه أن يؤدي إلى انهيارها . وتلفت النظر في هذا السياق تلك الامتيازات التي منحت للمواطنين - أعضاء الجماعات الحرفية والتجارية . وعلى الأرجح ، أن كل هذا النظام مرتبط بالبرنامج الذي وضعته يوليا دمنة والذي عبر عنه فيلوسترات في المقطع الذي أوردناه سابقاً .

لقد أشرنا سابقاً إلى الامتيازات التي منحت للمدن السورية في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث . ففي عهد كركلا أصبحت انطاكية مستعمرة معفاة من الأتاوات وفي عهد هيلوجبل أصبحت هي نفسها ميتروكولونيا . صور حصلت على وضع مستعمرة من سيبتيم سيفير لقاء وقوفها ضد نيجر . نفس اللقب حصلت عليه اللاذقية . صيدا وبترا تحولتا أيضاً الى مستعمرتين (حصلت بترا على لقب ميتروكولونيا) أما بصرى فقد أصبحت مستعمرة في عهد الاسكندر سيفير . وقد اتبع فيليب العربي نفس هذه السياسة . حيث أسس في منطقة شهبا مدينة أسماها فيليوبول ومنحها لقب مستعمرة ، أما بصرى فقد تحولت إلى مستعمرة - ميتروبولية .

وهكذا ، فلو تركنا جانباً منافسة المدن لبعضها البعض لأمكننا أن نلاحظ في التطور السياسي لسورية في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الاتجاه الرئيسي الحاسم التالي : سعي ارستقراطية المدن ومن معها من الفئات الوسطى والدنيا من المجتمع الى الحفاظ على نظام البوليسات وترسيخ دعائمه ضمن إطار الامبراطورية الرومانية وتحت سلطة امبراطور «جيد» . الارستقراطية أملت من وراء ذلك الحفاظ على مواقعها السائدة في المجتمع السوري ، والفئات الاخرى - التخلص من الفقر والحاجة والاضطهاد في ظل تلك الظروف الملائمة التي ستخلقها سلطات المدينة والامبراطور « العطوف » .

المغتصبون السوريون أعوام
٢٣٠ - ٢٤٠ م

لقد اتسم عهد الاسكندر سيفير وفيليب العربي Filip arab بالنسبة للامبراطور بظهور مطالبين جدد بالعرش فيها . ونشير مسبقاً إلى أن المصادر المتوفرة بهذا الشأن لا تسمح لنا أن نذهب بعيداً في استنتاجاتنا . ولكن بعض الحالات التي نقلتها إلينا روايات شهود عيان وكذلك النقود المعدنية تستحق اهتماماً خاصاً .

في عام ٢٣٢ أي على أعتاب حملة الاسكندر سيفير ضد الفرس اندلع في سورية عصيان معاد لهذا الامبراطور . ويصف هيروديان أنه عصيان جنود حيث حاول هؤلاء القيام بانقلاب عسكري وتسليم السلطة لشخص تابع لهم . ويقول زوسيما « لقد بدأ العسكريون ، شيئاً فشيئاً يتهربون من القيام بواجباتهم تجاه الاسكندر . . . . . . نظموا عصياناً ». ولكن هذا المؤرخ يورد إضافات جوهرية بهذا الشأن . فهو يقول بأن الجنود أعطوا السلطة لشخص ما يدعى انتونين ولكنه لم يكن جديراً بها فهرب واختفى . أما الحركة فقد تم سحقها . وقادوا الى الاسكندر سيفير شخصاً يدعى أوراني قائلين إنه – في الأصل كان عبداً .

ولكن المعروف عن هذه الحركة أنها نصبت على رأس الامبراطورية شخصاً يدعى اوراني انتونين « ارستقراطي حمصي » أعلن نفسه مزاحماً للامبراطور . المصادر لاتشير إلى مكان هذه الحوادث ولكنها تسجل أنها وقعت في سورية . وقد ظهر أن المطالب بالعرش يدعى انتونين أمّا أوراني فلم يكن سوى الضحية التي وقع الخيار عليها بدلاً منه .

ويبدو فعلاً أن حركة عام ٢٣٢ كانت حركة عسكرية بحتة لاتستند الى أية قاعدة اجتماعية الأمر الذي حتم فشلها .

أما الساعي الآخر الى العرش الامبراطوري فكان يدعى ل . يوليوس افريلي سولبيتسي اوراني انتونين . وقد ذكرته لنا النقود المعدنية – اثنتان منها برفقة الرواية المعروفة : Saeculares Augg.,cos.1 ويؤكد تشابه هذه النقود مع النقود التي صكها فيليب العربي بمناسبة الذكرى الألف لتأسيس روما . ولكن زمن هذه الانتفاضة ليس أبعد من عام ٢٤٨ ويبدو أن أوراني انتونين استطاع أن يقاوم حتى عام ٢٥٣ – ٢٥٤ . وهذا ماتدل عليه إحدى القطع النقدية التي وصلتنا من حمص . اتخذ هذا العاصي المغتصب لنفسه الألقاب الرومانية الامبراطورية المعروفة . إضافة الى ذلك ، يدل اسمه على أنه حاول أن يوحي بأنه امتداد لحركة عام ٢٣٢ . فنقوده التي صكها تحمل رسم يوليوس اوراني انتونين بالحملة الامبراطورية وعلى رأسه اكليل من غار . وهكذا يتضح أن هذه الحركة لم تتعد في تطوّرها أطر التقاليد الرومانية . وأخيراً نسجل عدم استطاعتنا أن نحدد القوى التي استند إليها هذا الساعي لاستلام السلطة ، ماهي علاقته بحمص ؟ وهل هو نفسه الكاهن سامسيغرام الذي تنسب إليه التقاليد مقاومة شابور الأول (بالمقارنة مع اذينة–على الأرجح)؟ وهذا أيضاً غير معروف لنا بسبب عدم توفر المصادر .

ظهور مملكة تدمر وهلاكها

في منتصف القرن الثالث بدأت تدمر تلعب دوراً متنامياً في الحياة السياسية السورية والشرق أوسطيةعامة . ولكن أسباب صعود هذه المدينة لازالت غامضة . فالذي لاشك فيه أن غناها وعلاقاتها التجارية الواسعة لعبا دوراً هاماً في اندفاعها الى الصف الأول . ولكننا لانستطيع الاعتماد كلياً على هذا التفسير ذلك أنه يعتمد على واقع متغير ولا يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المرحلة التي نحن بصدد دراستها . ونحن نعتقد ، ومهما بدا هذا الاعتقاد متناقضاً ، أن النشاط السياسي لتدمر في منتصف القرن الثالث قد تنامى وخرج الى دائرة الفعل نتيجة لضعف السلطة المركزية في الامبراطورية الرومانية زد على ذلك أن تدمر كانت صعبة المنال بالنسبة للامبراطورية حتى في الظروف العادية - أما في مرحلة الأزمة والاجتياحات الفارسية وهزيمة السلاح الروماني فقد غدت تدمر ، عملياً ، مستقلة . وأول خروج مستقل لتدمر على المسرح السياسي - الحربي ضد شابور الأول الذي حطم سورية وأسر الامبراطور فاليريان . وقد شن التدمريون هذه الحرب على مسؤوليتهم الخاصة . وسوف نرى لاحقاً أن عجز الأباطرة الرومان عن القضاء على استقلالية تدمر دفعهم الى عمل كل ما من شأنه أن يبقيها ، ولو شكلياً ، في إطار الامبراطورية الرومانية ويكسب ود حكامها .

ولكن المهم بالنسبة لنا - العمليات الداخلية التي أدت إلى ظهور السلطة العائلية في تدمر فالروايات لاتعطينا مواداً لدراستها ولكن من المحتمل أن تعطينا النقوش إمكانية ما لبدء فهم خاصيّة تلك المصادر التي تحوي معطيات عن الحياة السياسية للمجتمع التدمري وعن صعود عائلة اذينة - زنوبية وكذلك عن علاقاث هذه العائلة بالوسط المحيط بها .

ولكن لاتتوفر لدينا أية معطيات محددة وموثوقة بخصوص الصراع الطبقي والسياسي داخل المجتمع التدمري . ومع ذلك فإن بعض المعطيات غير المباشرة تفيد أن تدمر قد عرفت مراحل احتدمت فيها الصراعات وارتدت طابعاً حاداً أجبرت الدوائر الحاكمة أن تبحث عن حل لها في الاصلاحات أو في محاولات سحقها . فمن المعروف أن لائحة التعرفة الجمركية ، التي أتينا على ذكرها غير مرة هنا قد قدمت إلى المجلس لإقرارها لأن صدامات حادة اندلعت دائماً بين دافعي الضرائب ومتعهدي تحصيلها . (Cts,II,3913) وبالتالي نستطيع أن نستشف صراعاً حاداً بين مختلف فئات الارستقراطية المالية بسبب توزيع الواردات (الثلاثينات من القرن الثاني للميلاد) . وفي هذا السياق نلفت الانتباه إلى النقش

Seg,VII,139 (تـدمر عـام ١٩٨) الذي يحـدثنا عن تعيـين استراتيجي منـح صلاحيـات بوليسية (الشَرِطَة) (أو كما يقول النص التدمري « الذي أقام السلام ») ويفيد النقش أيضـاً بانفجار صدامات داخل الجماعة المدينية . ومن الواضح أن نظام اذينة - زنوبية الديكتاتوري قد قام في ظل صراع مرير بين مختلف فئات سكان المدينة .

وسـوف ننتقل الآن لـدراسة النصـوص المتعلقة بعـائلة اذينة - زنـوبيـة . أقـدم هـذه النصوص حتى الآن هو النص الذي نقله إلينا النقش Cis,II,4202 وهـو باللغتـين التدمـرية واليونانية ويعود تاريخه لعام ٢٢٠ . وجد هـذا النقش على قـبر شيده سيبتيم اذينـة على نفقتـه الخاصة . وكان سيبتيم هذا سيناتوراً ، وهو ابن خيران بن وهـب الـلات بن ناتسـور . ويفيد هذا النص ان هذه العائلة حصلت على حقوق المواطنية الرومانية في نهاية القرن الثاني وبدايـة القرن الثالث . nomen يعطي وصفاً كافياً تماماً لمـواقعها السيـاسية . فقـد استحق سيبتيم اذينة عضوية السينات كما ذكرنا .

النقش الثاني (Cts,II,3944) وهو أيضاً باللغتين التدمرية واليـونانيـة وقد وصلنـا من تدمر أيضاً ولكن تاريخه يعود لتشرين الأول عام ٢٥١ . لقد أقام هذا النقش افـريلي فيلين بن مـاري فيلين بن غيليودور بن راعيـا وهو جنـدي في إحدى القطع العسكـريـة المتـواجـدة في بصرى - وأقـامه عـلى شرف سيبتيم خيران بن اذينـة السيناتـور ورئيس تـدمر exarchu-n, almyren–on,rs^tdmwr وهكذا نرى أن هذه العائلة قد حافظت على عضـويتها في السينات حتى منتصف القرن الثالث ، ثانياً - لقد أصبـح الشخص الذي أقيم النصب عـلى شرفه حاكماً على تدمر وثالثاً - حقق البـاترونـات . ومن المشكوك فيـه أن يكون افـريلي فيلين التابع الوحيد لهذا الشخص .

أما ألقاب سيبتيم خيران فتستحق اهتماماً خاصاً وهي الألقاب التي تحدد وضعه كحاكم لتـدمر . فـاللقب التدمـري Rs^tdmur « رئيس تدمـر » يعني زعيم ، قائـد المدينـة ولكنه لا يسمح لنا أن نحكم على الشكل القانوني الذي اتخذته سلطته ، ولكن الذي نستطيع تقريره هـو أن ممثـلي هـذه العـائلة لم يـطرحـوا حتى الآن ، أو لم يعلنـوا عن سعيهم لاستـلام السلطة الامبراطورية . وإذا ما عدنا الى اللقب اليوناني الذي حمله خيران -exarchus لـوجدنـا أنه حرفياً يعني («زعيم» ، «قائد») أي أنه يتطابق ، عموماً ، مع اللقب التدمـري ^RS ولكن توجد هنا خاصية مميزة . فمن المعروف أن كلمة Exarchus كانت تعني في المراحـل الأخيرة من حياة الامبراطورية - قائد فوج فرسان وفي عهد يوستيان كانت هذه الكلمـة تعني قبل كـل شيء قائد حملة ، قائد بعثة عسكرية . وعليه فلقب Exarchus « اكزارخ تدمر » يعني قائـد

الجيش ، قائد الحامية المحلية . وإذا صح ما أوردنا سابقاً نستطيع القول إنه في منتصف القرن الثالث ظهرت في تدمر وظيفة عسكرية فوق العادة وقد استخدم آل اذينة هذه الوظيفة وأقاموا سلطتهم في تدمر .

أما الوسيلة الأخرى التي ساعدت هذه العائلة على استلام السلطة فهي انتشار نظام التبعية . ولقد أشرنا سابقاً إلى أحد هؤلاء الموالي وهو افيريلي فيلين - تابع سيبتيم خيران . وفي النقش (Cis,II,3945) الذي وصلنا من تدمر ويعود تاريخه لعام ٢٥٨ يسمى أعضاء جمعية حرفيي أعمال الذهب والفضة سيبتيم خيران « سيدهم »Ton despoten;mrn أي أنهم اعتبروا أنفسهم تابعين له . ولقد كانت زنوبيا نفسها وزوجها يعتبران نفسيهما « سادة » لوجهاء المدينة . وغني عن القول أن ما نراه هنا مماثل « لعبيد الملك » في الشرق القديم الذين غالباً ما كانوا ينتسبون إلى الفئات العليا من جهاز الدولة . ولكن الحالة التي نحن أمامها في تدمر تعني أناساً أحراراً قانونياً ولذلك فهذه العلاقة - بين زنوبيا - اذينة ، من جهة ووجهاء تدمر ، من جهة أخرى - نتجت عن نظام التبعية والباترونات .

ولمزيد من الإحاطة بوضع هذه العائلة تثير لدينا اهتماماً خاصاً اللوحة الواردة أدناه - خاصة فيما يتعلق بالألقاب التي أطلقت على عائلة زنوبيا- اذينة .

نرى في هذه اللوحة أن وضع العائلة تغير تغيراً جذرياً مع نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن الثالث . فقد حصل ممثلوها الذين يحكمون في تدمر على لقب « مجدد الشرق كله » Restitutor totius orienyts وهذا يعني اعتراف السلطة المركزية في روما بسلطة حكام تدمر على كل الشرق الروماني . وبعد أن تقلد حاكم تدمر لقب « ملك الملوك » أعلن عن مطالبته بوضع مواز لوضع ملوك إيران . ومن الطريف أن هذه المطالبات انعكست في الأدبيات الرومانية .

أما المصادر اليونانية فلا تأتي على ذكر حكام تدمر إلاّ في أحلك مراحل حياة الامبراطورية . ففي عام ٢٦٠ حطمت الجيوش الإيرانية بقيادة شابور الأول الجيوش الرومانية بقيادة الامبراطور فاليريان في المعركة التي وقعت قرب حمص . ووقع الامبراطور أسيراً لدى الملك الإيراني .

رقم النقش (حسب Cls,llx)مصدره وتاريخه الاسم	اللقب الروماني	اللقب التدمري	ملاحظات
4202 تدمر حوالي عام ٢٢٥ .	سبتيم اذينة بن خيران بن وهب اللات بن ناتسور	السيناتور القدسي (ton lamprotaton; sgltyg)	
3944تدمر ، تشرين أول عام ٢٥١ .	سبتيم خيران بن أذينة	السيناتور القدسي . (ton lamprotaton; sgltyg)	قائد تدمر . exarchun palmyrenon; Rs tdmur
3945 ، تدمر ، نيسان عام ٢٥٨سبتيم لاذينة	القنصل القدسي (ton lamprotaton ypa tiKon;hptg,nhyr)		
3971 ، تدمر أعوام ٢٦٨ - ٢٧٠	سبتيم اذينة سبتيم وهب اللات افينودور . سبتيميا زنوبيا (باتزاباي)بنت انطوخ	مجدد الشرق كله	ملك الملوك (nilK ملك الملوك (mlK الاقدس . الملكة القدسية والدة الملك (ملك الملوك) . ابن السابق

رقم النقش (حسب Cls,IIx)مصدره وتاريخه الاسم	اللقب الروماني	اللقب التدمري	ملاحظات
3946 ، تدمر، آب عام ٢٧١	سيبتيم اذينة	مجدد الشرق كله	
3947 ، تدمر ، آب عام ٢٧١	سيبتيميا زنوبيا (باتزاباي)		الملكة القدسية الطاهرة

المقاطعات الشرقية ، المنهكة أصلاً ، وخاصة سورية ، عرضة لموجة أخرى من النهب والتخريب . وفي هذه المرحلة الحرجة أقام أذينة سيطرته على الشرق . لقد شن أذينة الحرب على شابور دون أية مساعدة من أحد ولم يكتف بأن حرر سورية كلها من الاستعمار الفارسي بل ونقل مسرح العمليات العسكرية إلى منطقة بلاد مابين النهرين : بل احتل قرّة ونسيبين وضرب الحصار حول كتيسيفون .Tiep poll.,Gall.)(duo,10,3 . «في الشرق ، هزم الفرس أمام أذينة » ـ هذا مايخلص إليه يفتروبي (9,10)في تقييمه لنتائج الحملة ـ لقد تحررت سورية واعيدت بلاد مابين النهرين . لقد وصل أذينة حتى كتيسيفون»(Oros.,Hist. adv. pag.,7,22,12) .

ومما يثير الانتباه أن كل المصادر تشير إلى إخلاص ووفاء أذينة للامبراطور غاليين مع أن عدم كفاءة هذا الأخير في إدارة شؤون الحكم كانت بادية للعيان . حتى أن بعض المصادر يقول بأن أذينة كان يتصرف بأوامر مباشرة من غاليين . ولكن على الأرجح أن كل سلوك أذينة لم يكن يهدف إلاّ إلى اضفاء الصبغة القانونية على سلطته التي كان قد اغتصبها ، عملياً .

وكان هذا مهم بشكل خاص لأن أذينة بعد انتصاره على شابور أعلن بحكم التقاليد العسكرية الرومانية القديمة امبراطوراً . وكذلك ابنه . وهذا يعني ، بالنتيجة أن أذينة أصبح على قدم المساواة مع الامبراطور الروماني ـ امبراطوراً على كل المقاطعات الامبراطورية الشرقية يتمتع باستقلال حقيقي . وتشير المصادر إلى أن أذينة أعلن في نفس الوقت اغسطساً .

وعلى أية حال حصل أذينة على لقب «امبراطور» ، «اغسطس»و«مجدد الشرق كله»نتيجة لإنتصاره على شابور ، وفي نفس الوقت تؤكد المصادر أن أذينة كان يحظى بدعم السوريين خارج تدمر أيضاً .

ومع ذلك هناك أساس للاعتقاد بأن أذينة واجه منافسة من قبل بعض الجماعات السورية . فقد وصلنا نص من بصرى يقول : « ---لقد هدم التدمريون ـ الأعداء معبد جوبتر ـ هامون --- الذي أعاد بناءه مع نصب فضي ---» . ولكن حتى لو أخذنا بعين الاعتبار الموقف الايديولوجي المعادي لتدمر والذي أعلنته الامبراطورية بعد هلاك تدمر فإنه من الصعب أن نشك في أن مايرويه هذا النص حدث فعلاً . فعلى الأرجح أن معبد بصرى كان قد دمر بعد أن جرى احتلال المدينة بالقوة . أمّا موقف بصرى فينبع من خوفها

على موقعها على الطرق التجارية المؤدية إلى الجنوب العربي . ومع كل هذا فقد امتدت سلطة أذينة حتى البحر الأحمر .

وهكذا نستطيع القول الآن أن السلطة الملكية في تدمر انبثقت من وظيفة عسكرية فوق العادة ومن نظام التبعية الذي فرضته عائلة زنوبية ـ أذينة على فئات واسعة من سكان تدمر . لقد بلغت مملكة زنوبية ـ أذينة أوج مجدها في الحرب التي شنتها ضد ملك الفرس ـ شابور . حيث قلد ، على أثرها ، حاكم تدمر القاباً ملكية وامبراطورية وبسط سلطته على كل الشرق الروماني .

بعد أن أسس أذينة مملكته الجديدة اتخذ كل الإجراءات اللازمة لتحويل السلطة إلى سلطة وراثية محصورة في عائلته . ويقول لنا المصدر (Trep.pall.,)(Tyr.trig.,15,2 إن أذينة بدأ حملة ضد الفرس «وكانت المرة الأولى التي حاز فيها على لقب ملك سوية مع زوجته زنوبيا وابنه الأكبر الذي كان يدعى هيرودوس (Herodes) وولديه الاصغرين هيرونيان وتيمولاي» ولقد رأينا أن أذينة أعلن امبراطوراً وكذلك ابنه هيرودوس . أي أن هذا الأخير أصبح وليّ العهد .

ولكن في عام ٢٦٧ قتل أذينة وابنه هيرودوس ، وتقول بعض المصادر الغير أكيدة إنه في نفس الوقت قتل سيبتيم فورودا الذي كان يشغل مناصب هامة في عهد أذينة . لقد كان لمركزة السلطة في يدي أذينة أهمية خاصة بالنسبة للحكومة الرومانية فيما لو لم تتابع زوجته زنوبيا ، التي اضحت الحاكم الفعلي في تدمر بعد زوجها ـ سياسته نفسها . ويبدو أن المصادر التي تقول بأن أذينة وهيرودوس قد ذهبا ضحية صراع عائلي ـ صادقة في قولها . فزنوبيا كان لها مصلحة في مقتل أذينة لأن ذلك يفتح الطريق أمامها إلى أن تصبح الحاكمة المطلقة في المملكة وكان هيرودوس ابن زوجها أذينة يشكل هو الآخر عقبة أمام طموحها لأن والده أعده كي يكون ملكاً من بعده . ولذلك فمن المرجح أن يكون مقتل أذينة وهيرودوس قد جاء نتيجة لمؤامرة أعدتها زنوبيا بكل دقة . ومع ذلك فقد أقيمت النصب التذكارية التي تخلد أذينة بعد مقتله وهذا بدوره يخلق لدى الشعب تصوراً أكيداً أن زنوبيا بعيدة عن المؤامرة التي راح زوجها ضحيتها وبالتالي فهي الوريثة الشرعية له .

وتنقل لنا المصادر أن زنوبيا بعد أن استولت على السلطة أخذت تحكم باسم ولديها اللذين لم يبلغا سن الرشد بعد . ولكن الوثائق لا تنقل لنا سوى اسم ولد واحد دوّن إلى جانب اسمها وهو وهب اللات ـ افينودور . وعلى الأرجح أن يكون إغفال اسم الابن الآخر (على الأرجح ـ الأصغر) قد جاء نتيجة خطأ ما اقترفه كاتب سيرة هذه العائلة .

لذلك نحن نعتقد أن المصادر الأكثر ثقة لتقييم نظام الحكم في تدمر بعد مقتل أذينة هي النقود المعدنية والمصادر الايبوغرافية (العبارات المقتبسة ، تكتب في صدر الكتاب ـ المترجم) . وفي هذا السياق أظهر ل . فون زاليت أن القطع النقدية التي وصلت إلينا من عهد وهب اللات ـ افينودور تمنحه الألقاب التالية : «يوليوس افيريلي سيبتيم وهب اللات ـ افينودور رئيس القناصل ، امبراطور الرومان ، استراتيجي الرومان» . وينقل النقش CIS,II,3971 اللقب التالي «سيبتيم وهب اللات ـ افينودور ، الملك القدسي ـ ملك الملوك ومجدد الشرق كله» . وهكذا يكون وهب اللات قد ورث عن أبيه كافة الألقاب .

أما زنوبيا فتشير نفس المصادر إلى أنها حملت لقب اغسطة . ويسميها النقش الذي ذكرناه لتونا «الملكة القدسية الطاهرة» أو«الملكة الأقدس» وفي نفس الوقت يشار بالتأكيد إلى أنها والدة وهب اللات . ويفهم من المصادر الرومانية أن زنوبيا كانت تطالب بأن تكون سلطتها مماثلة في وضعها لسلطة يوليوس دمنه بعد موت سيبتيم سيفير وعلى الأرجح أنها كانت كذلك من وجهة نظر الأعراف القانونية الرومانية .

وفي نفس الوقت حافظ وهب اللات وزنوبيا على الألقاب الملكية «الشرقية» كما فعل أذينة . وتشير المصادر إلى أن زنوبيا كانت تطالب أيضاً بالسلطة الامبراطورية (im-periali sagulo perfuse per umeros) والسلطة الملكية (diademate etiam accepto) وتشير أيضاً الى المزج بين صفات الحكم الروماني والفارسي في القصر التدمري .

ونصير الآن إلى السنوات الأخيرة من حياة مملكة تدمر حيث الجانب الوثائقي معروف لنا بصورة جيدة . ففي عام ٢٧٠ سقطت مصر تحت سيطرة زنوبيا ووهب اللات كما بسطا سيطرة تدمر على آسية الصغرى . ولكن ما أن حل عام ٢٧١ حتى استعاد الامبراطور افريليان سيطرته على مصر وفي عام ٢٧٢ هزم الجيوش التدمرية قرب تاين وأجبرها على الجلاء عن آسيا الصغرى ثم دخل انطاكية بعد معركة صغيرة وضرب الحصار على تدمر بعد أن هزم جيوش زنوبيا قرب حمص . فحاولت زنوبيا أن تهرب الى بلاد فارس مع ولدها وهب اللات فوقعت في الأسر وأرسلت الى روما . ولكن تدمر لم تهدأ فاندلعت فيها انتفاضتان عارمتان كلفتا فاليريان جهداً كبيراً حتى تمكن من سحقهما . وأخيراً جرى حرق مدينة تدمر بعد نهبها وتدميرها تدميراً كاملاً ولم تقم لها بعد ذلك قائمة . أما مدينة تدمر التي بقيت حتى أيامنا هذه ـ فهي مدينة صغيرة نسبيا (تنمو بسرعة) حـ ى . بناؤها عـلى

أطراف المدينة القديمة . أما زنوبيا فقد شاركت في مهرجان ألنصر ـ كأسيرة حرب ـ الذي اقامه فاليريان في روما عام ٢٧٤ وعاشت بقية أيامها في الفيلا التي وضعها فاليريان تحت تصرفها .

وهكذا ، آن الأوان كي نلتفت لدراسة المواد التي تعطينا إمكانية الحكم ، ولو بشكل تقريبي ، على الحياة الاجتماعية إبان هذه المرحلة العاصفة .

فمن المعروف أنه توفرت لزنوبيا إمكانية لاستغلال الانقسام الناشىء بين مسيحيي انطاكية لمصلحتها وذلك باعتمادها على بولس السميساطي وتابعيه (وهو زعيم الفرقة المسيحية التي لا تعترف بالأقانيم الثلاثة للمسيح ـ Antitrinitas ـ المترجم) . لقد حاز بولس هذا على وظيفة نائب عام من زنوبيا . وتجدر الإشارة هنا الى أن فالريان نزع منه لقب اسقف وأقر اسقفية شخص آخر مؤيد للبطاركة الايطاليين بمن فيهم بطرك روما ـ أي زعيم الفرقة التي يمكن الاعتماد عليها في الصراع ضد تدمر . ومن الملفت للنظر هنا تدخل الامبراطورية في شؤون الكنيسة وتحول الكنيسة الى قوة سياسية مرموقة . أمّا الجانب الآخر من المسألة فله أهميته الخاصة أيضاً : مصالح أيّة فئة كان يمثل بولس السميساطي ، بمعنى آخر ما هي الفئات والدوائر التي اعتمدت عليها زنوبيا عبره ؟ يقول يفسيفي عنه : «نشأ فقيراً معدماً ولم يرث أي شيء عن أهله ولم يكن يتقن أية حرفة فأصبح الآن ثريّاً بفضل نهبه لاموال الكنيسة واستغلال املاكها وابتزاز اخوته واعداً الخاسرين بالمساعدة مضللا اياهم دون أية نتيجة مستغلاً تأهب الحكام أن يدفعوا لقاء تخلصهم من الوزر» . ويتضح أنه لاداعي للتأكيد على عداء هذا المصدر لبولس السيمساطي . ولكن الواضح أن هذا الشخص كان يحظى بتأييد فئات معينة ـ فقراء المسيحيين وهي الفئة التي نشأ منها هو نفسه ووقف الآن يدافع عنها .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى رواية زوسيما عن الحالة الناشئة بعد الهزيمة التي لحقت بجيوش تدمر قرب حمص . حيث ظهر أن زبدة أحد قادة جيوش زنوبيا قاد في شوارع انطاكية شخصاً شبيهاً بفاليريان مرتدياً زي امبراطور روما مظهراً بالتالي أن الامبراطور قد هزم ووقع في الأسر . وقد لجأ زبدة الى هذه الحيلة في محاولة منه لمنع أهل انطاكية من الانتفاض . وقد ساعدته هذه الحيلة على الحفاظ على الهدوء في المدينة التي غادرها ليلاً بكل هدوء . ويبدو أنه توفرت لدى زبدة معلومات عن احتمال انتفاض أهل انطاكية في حال هزيمة الجيوش التدمرية . وهذا يحملنا على الاعتقاد بوجود مجموعات معادية لزنوبيا في انطاكية . وفي نفس الوقت ، عندما دخل فاليريان انطاكية وجد أن كثيرين قد غادروها خوفاً من الانتقام منهم على تأييدهم لزنوبيا . وعندما دعاهم فاليريان إلى العودة تعهد لهم بعدم معاقبتهم .

والنقطة البيضاء في رواية زوسيما أنه لا يشير الى المنشأ الاجتماعي للفئات المعادية والمالئة لملكة تدمر في انطاكية . ولكن من المعروف أن انطاكيين كانت لهم مصالح اقتصادية ومشاريع تجارية في تدمر . ومن جهة أخرى يجب ألا نشك في وجود فئة كانت تسعى لأن تصبح انطاكية نفسها في الواجهة السياسية والاقتصادية ومن هنا جاء عداؤها لتدمر . ولا شك ايضاً في أن الدور المقرر في سياسة هذه الجماعات كان يعود لأشخاص يحددون الاتجاهات السياسية لانطاكية ويعتمدون على الفئات الاجتماعية «الدنيا» .

أمّا أهل حمص فقد استقبلوا فاليريان بحماس ظاهر وانتشرت هنا رواية تقول بأن إله الجبل قد ظهر لفاليريان أثناء المعركة وأظهر ميلاً خاصاً نحوه . ولا يمكن أن نفهم هذا الحماس من أهل حمص إلا لكون فاليريان دخلها منتصراً . وقد يكون الأمل في إحياء عهد السيفيريين هو السبب . وأخيراً ، بعد هزيمة زنوبيا حاول التدمريون بعث دولتهم فعهدوا بمقاليد الحكم إلى أحد أنسباء الملكة الأسيرة .

عموماً ، أدى صعود تدمر وهلاكها إلى خلق انعطاف حاد في التطّور السياسي لسورية وأحدث انقلاباً عاماً في الأهداف التي صاغتها لنضالها وصراعها مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية التي كانت تحدد اتجاهات حركة المجتمع السوري في النصف الثاني من القرن الثالث . لقد أصبحت هذه القوى تسعى الآن لتأسيس مملكة على الطراز الساساني ـ حكم ملكي مطلق ، متراجعة بذلك عن المثل والمبادىء التي جاءت في مؤلفات فيلوسترات وهيروديان . ولكنها مع ذلك لجأت إلى استخدام المدن ، ذات الإدارة الذاتية لمصلحة أهدافها .

للأسف ، لا تفيدنا المصادر بشيء لفهم أسباب ومغزى ذلك الانقلاب في المزاج الاجتماعي على الساحة السورية في منتصف القرن الثالث . وعلى أية حال لا نحرم من الاعتقاد في أن أسباباً سياسية خارجية قد لعبت دوراً معيناً في ذلك . فقد حول الضعف العام في جسم السلطة الامبراطورية المركزية ـ حوّل سورية إلى فريسة سهلة المنال للطامعين الفرس . وتطلب الدفاع عنها ـ كما أثبت مثال اذينة ـ تأسيس سلطة سورية عامة وقوية . وعلى أية حال فالأسباب الحاسمة كانت داخلية دون شك . ففي ظروف الانقلابات العسكرية المتكررة والصراع على السلطة بين الجيش والسينات . وعصيان الجند تصبح السلطة المركزية المطلقة الممثل الوحيد للنظام في هذه الفوضى . وعليها بالتالي أن تحقق المصالح الحيوية للارستقراطية التجارية ـ الحرفية ومالكي الأراضي . وفي هذا السياق تستحق اهتماماً خاصاً الرواية التي تحكي قصة خيانة مارياد لانطاكية وتسليمها إلى شابور

الأول بعد أن أرشده إلى الطريق الذي يوصل الى داخل المدينة . فعندما اقترب شابور من انطاكية غادرتها الارستقراطية المحلية هاربة في اتجاهات مختلفة وفي نفس الوقت انتظرته الجماهير الأساسية آملة منه تغيرات نحو الأحسن . ولا يخفى على أحد هنا أن أساس هذه الأحداث هو الصراع الاجتماعي داخل المدينة . فليس من قبيل الصدفة أن تصل ملاحقات المسيحيين ، الذين وقفوا ضد سياسة ديتسيي وفاليريان الممالئة للارستقراطية إلى سوروية نفسها . ففي عهد ديتسيي هلك في السجن أسقف انطاكية بابيل . وقد اشتهر هذا الأخير بأنه أدخل الامبراطور - حسب بعض المصادر - فيليب العربي الى عشيرة المسيحيين . ويجب أن لا نعتقد بأن هذا الأسقف كان الضحية الوحيدة لحملة القمع المذكورة . وليس من قبيل الصدفة أن يبحث كل من زنوبيا وفاليريان عن حلفاء لهما داخل عشيرة المسيحيين التي كانت قد تحولت عندها الى قوة سياسية مستقلة . وعلى الأرجح أنه لم يتثن لأحد أن يجذب هذه العشيرة إلى صفه سوى الأباطرة الذين استخدموها كقاعدة أمينة وقوية لحفظ النظام والتخفيف ، إلى هذا الحد أو ذاك من حدة الصراع الاجتماعي وقد كان نشاط بولس السميساطي انعكاسا غير مباشر لها .

ليس غريباً إذن أن يتوج التطوّر السياسي في سوريا في القرن الثالث بتأسيس دولة اذينة - زنوبيا التي اصبحت النموذج الواقعي الأول للامبراطورية الرومانية في الشرق . لقد كانت تدمر - كتركيب حكومي - السلف الحقيقي لنظام الدومينات الذي ساد في الامبراطورية بعد مجيء ديوكليتيان الى السلطة . وكتب يفتروبي يقول أن ديوكليتيان كان «أول من أدخل الى نظام الادارة الروماني شكلاً من الحكم مغايراً للحرية الرومانية» . وبذلك يكون ديوكليتيان أول من سار على خطى زنوبيا التي أقامت في قصرها طقوساً فارسية ملكية . وما يلفت نظر يفتروبي بشكل خاص هو نظام الركوع أمام الامبراطور . وهنا أيضاً لم يفعل ديوكليتيان سوى أن سار في أثر زنوبيا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثبات ذلك النظام ، الذي أسسته زنوبيا في الشرق وأخذ شكله النهائي على يد ديوكليتيان وخلفائه يدل على وجود قاعدة اجتماعية استطاع الاعتماد عليها .

وغني عن القول أن النتيجة الطبيعية لتطور الأحداث في هذا الاتجاه كان خضوع المدن خضوعاً تاماً للسلطة الامبراطورية - ثم القضاء تدريجياً على سيادة البوليسات وتحويل جهاز الإدارة فيها إلى جزء عضوي في جهاز الامبراطور البيروقراطي . ولكن دراسة هذه المسألة تقع خارج حدود كتابنا هذا .

مواد عن تاريخ مجتمع تدمر
الإصدار الحادي عشر

Inventaire Des InscriptionsDE Palmyre (Damas,1965)

كنـا قد انتهينـا من وضع كتـابنا هـذا عن التاريـخ الاجتماعي والاقتصـادي للمجتمع السوري في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث للميـلاد ضمناً عنـدما أطلعـاني ، مشكورين كل من خ . برايسلر (ألمـانيا الـديمقراطيـة) و أ . غ . لونـدين على الاصـدار الحادي عشر من « موجودات النقوش التدمرية » الذي أصدره ج . تيشيدور . ولقد جـاءت المواد المنشـورة في هذا الإصدار لتؤكد ، وأحياناً لتكمل الاستنتاجات التي كنا قد توصلنا إليها .

الفئة التابعة من سكان تدمر

النقش Inv.,X1,13(ايلول عام ٢١٩) هو عبـارة عن إهداء «إلى ذلـك الذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد» . صاحب الاهداء شخص يدعى خيران ، « عبد » . . . بن ايـاد بن مساي وبعد ذلك نقرأ في النص الصيغة التالية : « لصحته وصحة أبناء سيـده» ('Lhywhy Whybn'mrwhy)ومصـطلح tlyيعني « عبـد » وهـو يتـطابق تمـامـاً مـع مصـطلح 'lm المستخدم في لائحة التعرفة الجمركية التدمرية ، ويقابله باليونانية Pais .

وغني عن القول أن هذا العبد يتمتع بوضع مادي مستقل ولا بأس به . فهـو يقيم نصباً على نفقته الخاصة .

ويحتـوي الاصدار أيضـاً على نقشـين عبارة عن إهـداء « إلى ذلك الـذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد » وصاحبا الإهـداءين عبدان محـرران . أحدهمـا أقامـه ابنير غـال عبد محـرر (brhry)لسيده ليشامش بن خيران بن غالي والاخرى تاديـل ، عبد محـرر (brt hry)لسيده باساسا بن ماين بن اركاتوس . ويؤكد النقشان على أن هذين العبدين حافظا على علاقاتهما مع سيّدهما السابق بعد أن تحررا من العبودية .

ويحتوي الاصدار أيضاً على ستة نقوش تأتي على ذكـر « أبناء بيت » . ونقـرأ في أحدهـا Inv.,X1,25غير مؤرخة « كـل أبناء بيتـه »(bn byth Klhwn)سويـة مع صـاحـب البيت

خيران بن باريكا بن خيران يشاركون في هذا الإهداء . ويحمل لنا النقش الآخر (Inv.,X1,17عام ٢١٦ ـ ٢١٧)الصيغة Lhy bhy byth klhwn'-« لصحة كل أبناء بيته » . ويعلن لنا النقش Inv,X1,20(حزيران ٢٦٣) أن يرخبول بن يرخبول بن ارغي يقدم هدية على شرف « ذلك الذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد » ، « لصحة والده وصحة كل أبناء بيته »('lhy,bwhy wbny bythklhwh)وهناك صيغة أخرى أكثر تفصيلاً يحملها إلينا النقش Inv.,X1,6(آذار عام ١٨٢) : « لصحته وصحة أبنائه وصحة إخوته وصحة أبناء بيته »('Wlhyy bny byt)وهكذا نرى أن صيغة « أبناء بيته »تستخدم هنا إمّا للدلالة على الأشخاص الذين تربطهم برب العائلة صلة القربى ويخضعون للسلطة العائلية الأبوية وإمّا للدلالة على أشخاص لاتربطه بهم صلة القربى ولكنهم مع ذلك يعيشون في بيته .

السكان الاحرار في تدمر

يحتوي اصدارج . تيشيدور على معلومات هامة جداً حول أوضاع السكان الأحرار في تدمر . فعند تقويمنا للعلاقات العائلية في هذا الوسط ينبغي أن نشير إلى النقش Inv.,X1,81(آب عام ٧٩)المرافق للنصب التي أقامها مقيم بن مقيم على شرف عدد من الأشخاص بمن فيهم مقيم والده. ويبدو أن مقيم هذا قد ولد بعد وفاة والده وما أقامة نصب له سوى اعتراف الابن بفضل والده .

ويستحق اهتماماً خاصاً المذبح ، « الى ذلك الذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد » ، الذي أقامته علا بنت زبيدة بن عطية بن روف (Inv.,X1,23تاريخه التقريبي ـ آب عام ١٨٩) « لصحتها وصحة اياداي بن تايمارتس بن اياداي ، زوجها (b'lh)ولصحة . . . » . ويبدو أن المرأة التدمرية كانت تتمتع باستقلال اقتصادي ما حتى عندما تكون على عصمة رجل . وأخيراً يسوق لنا عدد من النقوش « فروعاً » لجماعات قبلية تربطها صلة قربى الدم .

« بني قمر » ، « بني معزيان » ، « بني خينب » ، « بني غرود » . وتتردد أسماء هذه الجماعات في عدد من النقوش (إنظر : التنظيم الداخلي للجماعة المدينية ـ المترجم) .

حول مسألة القبائل التدمرية الأربع .

في عام ١٩٧١ نشرت مجلة syriaمقالـة د . د. شلومبرجـة تحت عنوان « الفيلات التدمرية الأربع » حيث يعرض كاتب المقالة وجهة نظره لحل مسألة الفيلات التدمرية الأربع التي تأتي المصادر على ذكرها دون أن تسميهـا . ويخلص شلومبرجـة إلى المقولات الـرئيسية التـالية . فالقبائل الأربع ، التي ضاعت أسماؤها هي نفس القبائل الأربع التي اجتمعت واسست [illegible] ية تدمر . ولكن شلومبرجه يلاحظ فوراً : لقد ولدت تـدمر ـ تـاريخياً أم خـرافيا من اتحـاد أربع قبائل . وعندما قامت المدينة بقيت هذه القبائل موجودة . إحداها كانت تدعى « بني معزيان » . ويعتمد شلومبرجـه في هذا الحكم عـلى أن النقش CIS,11,3966يضم الصيغة التـالية tdmry dy mn bny m'zynوفي النص اليـونـاني palmyrenon fyles tes aytes (على مايبدو أن اسم هذه القبيلة كان موجوداً في النص اليوناني لهذا النقش والـذي لم يصلنا) وفي النقش Inv.,X,40جـاء في النص التـدمـري ـ dy mnbny m'zyn وفي اليـونـاني palmyrenonولكن في الحـالة الثـانية يـروي لنـا النص أن الشخص الـذي نحن بصـدده ينتسب إلى « فرع » من أبناء معزيان وهو في نفس الوقت مواطن تدمري . وفي الحالة الأولى غالبا ما نصادف نصـاً يونـانياً لا يتـطابق تماماً مع النص التـدمري . وهكـذا نرى أن استنتـاجات شلومبرجه لاتتفق مع النصوص .

أحـد النقوش يعـدد أسماء أربـع معابـد أقيمت فيها أربـع نصب عـلى شرف سعـاد : زفس ـ بعل شامين ، الحرش المقـدس ، اريس وعطار غـاتيس SEG,XV,849 [illegible] عـام ١٣٢ . وشلومـبرجه لايشـك في أن هذه المعـابد الأربـع هي معابـد القبائـل الأربـع نفسهـا ويستـدرك قائـلاً إنه من الممكن أن تسقط سهـواً مسألـة ذكر أسـماء القبائـل الأربع في النقش المعني . ولكننا نعتقد أن الأمر ليس بكل هذه السهولة . فالنصب أقامتها قافلة ولهذا بـالذات لم تذكر أسماء القبائل الأربع . ولا يجوز لنا أن نغفـل هنا أن عبـادة زفس ـ بعل شـامين وعـطار غـاتيس كانت تشمـل سوريـة كلها بينـما الإله اغليبـول والإله مـلاكبيـلا ، اللذين يجمعهـما شلومبرجه في معبد الحرش المقدس كانا إلهين تدمريين أما الإله اريس الذي يدغمه شلومبرجه بالإله ارتسو فهو إله عربي . وحتى الآن لم تتوفر لـدينا أيـة معلومات حـول خصوصيـة العبادة القبلية لهذه الآلهة . وهكذا يظهر أن المواد التي ساقها شلومبرجه لاتؤكد استنتاجاته .

يعتقد شلومبرجه أنه كانت توجد في تدمـر أربع قبـائل انقسمت إلى أقسـام أصغر يـدل عليها مصطلح (phd)منها حسب رأيه قمـران ، متابـولي ، بني معزيـان وميفيني كل مـا وقع

تمت بمعنى المصطلح اليوناني fyleلقد اعتبر شلومبرجه أن مصطلح fyleاستخدم فقط للدلالة على القبائل المدنية . والواقع هو نفسه يستدرك أن هذا البناء معرض للسقوط حال ظهور أية مصادر تدل على أن كلمة fyleاستخدمت للدلالة على جماعات أخرى . ولكن لنترك الآن مسألة ظهور معطيات جديدة ونلتفت إلى مابين أيدينا . فالمواد المعروفة لنا تدل على أن الكلمة الآرامية phd/phz قد نقلت الى اليونانية ، دون تفريق بين الكلمتين FYLEو uenos .

أما ج . ث . ميليك فيعالج هذه المسألة من وجهة نظر أخرى . فقد ضمت هذه القبائل الأربع ـ حسب رأيه ـ بني قمر مع معبدهم الحرش المقدس ، بني معزيان مع عبادة بعل شمين ، بني متابولي مع عبادة ارتس وعزيز وبني عطر مع عبادة عطار غاتيس . ويعيد ميليك ظهور هذه المنظومة إلى الثلاثينات من القرن الثاني كنتيجة لمنح ادريان تدمر حق الادارة الذاتية . ولكننا نؤكد على عدم وجود أية معطيات تؤكد مثل هذه التوقعات .

يعير ميليك انتباهاً خاصاً لفيلا آل كلافديوس المذكورة في النص (IS,11,4122) حيث يعتقد أن هناك اشتقاقاً لكلمة hwml وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الكلمة استخدمت في كافة الأحوال لتعطي معنى واحداً ـ اسم آخر جد يصل إليه تسلسل العائلة . أما فيلا آل كلافيديوس فهي إحدى المنظمات الاجتماعية التدمرية وواحدة من فيلات المدينة التي حملت اسم الامبراطور كلافديوس في عهده .

حول تاريخ نقش اذينة

يلفت الانتباه في كتاب ج . ث . ميليك ، الذي أشرنا إليه سابقاً ، النقش الذي أصدره ج . كانتينو عام ١٩٣١ («syria»,vol.12,1931,P.138,M17) « على شرف اذينة بن خيران بن وهب اللات ، قائد تدمر » (lyqr,dynt brhyrn whlt rs˜ dy tdmwr) . هذا النص لايزال أقدم مصدر ينقل إلينا بداية صعود عائلة اذينة . ومما يلفت النظر هنا أن اذينة الذي كان قد أصبح قائد تدمر لم يحز بعد على لقب سيناتور .

مواد حول تاريخ ارواد
في المجلد السابع

«Inscriptions Grecqueset

Latines de la Syrie» (paris,1970).

بعدما أصبح كتابنا هذا جاهزاً للطبع تمكنا من الإطلاع على المجلد السابع للنقوش الاغريقية واللاتينية التي مصدرها سورية ، وكان قد أعده للنشرج . ـ ب . ري ـ كوكي ويحتوي المجلد المذكور على ستين نقشاً من ارواد وضواحيها ، بما في ذلك اعادة اصدار النقش العظيم عن امتيازات معبد بيتوكيكي .

بين هذه الوثائق يلفت النظر النقش ، التالف ، رقم 4002الذي يحتوي إهداء ملكية تحققت بإرادة الآلهة . ولكن مع الأسف ، لم يبق من الجزء الذي ينص على موضوع الإهداء سوى كلمة en aytei kai tenولكن يتبع الفراغ التدقيق الهام التالي : « مع البذور والنباتات » وهذا يعني ، دون شك ، أن موضوع الاهداء يتضمن قطعة أرض مزروعة ونبت زرعها . والذي أهدى هذه الملكية هو « الشارع زفس ـ كرونوس » . وهكذا يتضح أن « الشارع » في ارواد المرحلة الهلنستية الرومانية ـ عبارة عن نواة إدارية كان باستطاعتها اتخاذ خطوات مستقلة . ويشيرري ـ كوكي إلى وجود نوى مماثلة في مدن أخرى ـ سكيفبوليس ، دمشق ، واللاذقية وكذلك صيدا . على أرجح تقدير أن « الشارع » كانت جزءاً من متصرفية الفيلا . كما ويبدو أنه كان قد تم شراء الأرض موضوع الإهداء من الأراضي العامة . « الشارع » ، كما رأينا تحمل اسم الإله ولذلك ، فعلى الأرجح ، أنها مرتبطة بمعبد زفس ـ كرونوس بعلاقة ما . وهكذا يظهر أمامنا مصدر من مصادر ملكية المعابد للأرض ـ هدايا الجماعات والاشخاص .

وإذا ماعدنا إلى التنظيم الاداري ـ السياسي في ارواد لوجدنا أنه لا يختلف من حيث الجوهر عن مثيله في بقية المدن السورية في العصر الهلنستي ـ الروماني . نصب التكريم تقيمها « المدينة » (انظر : رقم 4006) ، « مدينة ومجلس ارواد » (4006رقم civitas et bvle Aradia) ، « المجلس والشعب ومجلس الشيوخ » (رقم 4016 dis) ، « الشعب » (رقم 4008) . تدل مقارنة هذه النصوص أن كلمة civitasاستخدمت في

ارواد كرديف لليونانية odemos ولـو أخذنـا بعين الاعتبـار التقارب في المعنى بـين اللاتينيـة civitas واليـونـانيـة epolis لحق لنـا الاعتقـاد أن مصـطلحي o demos و e polis قــد استخـدمـا لتـأديـة معنى واحـد ـ الجـماعـة المـدينيـة المستقلة التي تتمتـع بحكم ذاتي ، أي « المـدينـة » . عـلى صعيـد آخـر تـدل الـوثـائق الـواردة أن ارواد عـرفت اجهــزة السلطة التـالية ـ المجلس ، مجلس الشيـوخ ومن المحتمل ، الاجتـماع الشعبي . وتستحق اهتـمامـاً خاصاً مسألة العلاقة بين المجلس ومجلس الشيوخ . ويحتوي النقش 4012 على مـايلي وذلـك عنـد تعداده لمنـاصب الشرف التي حاز عليهـا المحتفى به ـ اريستـون بن اسكلبياد : lerea Kaisaros seboylon,ton nayar khesanton وإذا صح ما هـو متعارف عليـه حتى الآن من أنـه لاتوجـد علاقـة اشتقاقيـة بين Ton nayar khesan و Ton proboylon يكون هذا النص قد سجل لنا وجودِ ما يشبه مكتب رئاسة المجلس وعنـدها فقط يمكن الـدمج بين مكتب المجلس ومجلس الشيوخ . أما نظام الوظائف الإجتـماعية هنـا فلا يختلف عن مثيله في باقي المدن السورية . فالمصادر تسجل لنا وجود الأرخونت والكاتب ومدير شؤون الزراعة وآخر عن الرياضة . ومدة كل وظيفة هنا عام واحد ولكن كـان يمكن أن يجدد لنفس الشخص أكثر من مرّة .

وعن العـلاقة بـين أرواد وسلطات المقاطعـة يحدثنـا النص رقم 4016 bis حيث يقيم المجلس ومجلس الشيوخ نصباً تنفيذاً لقرار القنصـل دوميني ليونت بـروكليان . ويمكننـا رسم سير العملية كـما يلي : يتخـذ دوميني هذا القـرار كونـه موظف امبراطوري وشخصيـة ذات تأثير ، بغض النظر عن المنصب الذي يشغله ، يصل أمر هذا القرار إلى مسامع سلطات أرواد التي تقوم بدورها باتخاذ القرار اللازم وعندها فقط يبدأ تنفيـذ القرار . وعـلى الأرجح أن نفس الطريقة كانت تتبع حيال القرارات الأخرى .

وتدل الوثائق المتوفـرة لنا أن أرواد مثلهـا مثل بقيـة المدن السـوريـة كـانت تضم فئة من المواطنين الذين كانوا في نفس الوقت يحملون الجنسية الرومانية .

لقـد كانت سلطات أرواد تكـرّم الموظفـين الرومـان دائماً وهـذا ما تـدل عليه النقـوش 4010,4011,4009 وتـدل هـذه النقـوش أيضـا عـلى أن أرواد قـد عـرفت نـظام التبعيــة والبارونات .

وتعطينا النقوش التي تضمنها هذه المجموعة ، وعلى وجه الخصوص تلك التي اكتشفت في ضواحي أرواد تعطينـا امكانيـة للاطـلاع على الـوضع الـذي كان قـائماً في الـريف التابـع

للمدينة . منها مثلاً النقش 4055 (من ساحين) ـ عبارة عن عامود قرب التجمع السكاني المسمى قرية ـ الصاري . كما ويستحق اهتماماً خاصاً النقش 4052 (قلعة يحمور عام ١٤٧ ـ ١٤٨) حيث يجري الكلام عن بناء منشأة ما على نفقة العشيرة . والمهم هنا هو ذكر ملكية العشيرة بحد ذاته مع أننا لا نعرف مصدر هذه الملكية . ويشرف على تنفيذ هذا المشروع تورباخ ـ وظيفة في العشيرة عن طريق الانتخاب ولمدة ستة أشهر فقط .

فهرس

رقم الصفحة

يعالج هذا الكتاب مسائل البنية الاجتماعية والتنظيم السياسي للمجتمع السوري في الفترة من القرن الاول وحتى الثالث للميلاد . كما ويدرس العلاقات بين المدينة ـ الدولة والسلطة الامبراطورية من وجهة نظر جديدة، ومن مواقع جديدة يجري تحليل أوضاع مختلف فئات المجتمع والمواقف السياسية التي اعتمدتها ابان الازمة التي عصفت بالامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي .

منشورات مؤسسة « الوحدة »
للصحافة والطباعة والنشر بدمشق

السعر ٣٨ ل س